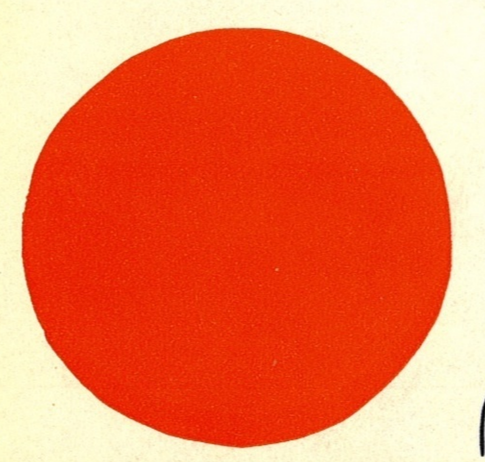
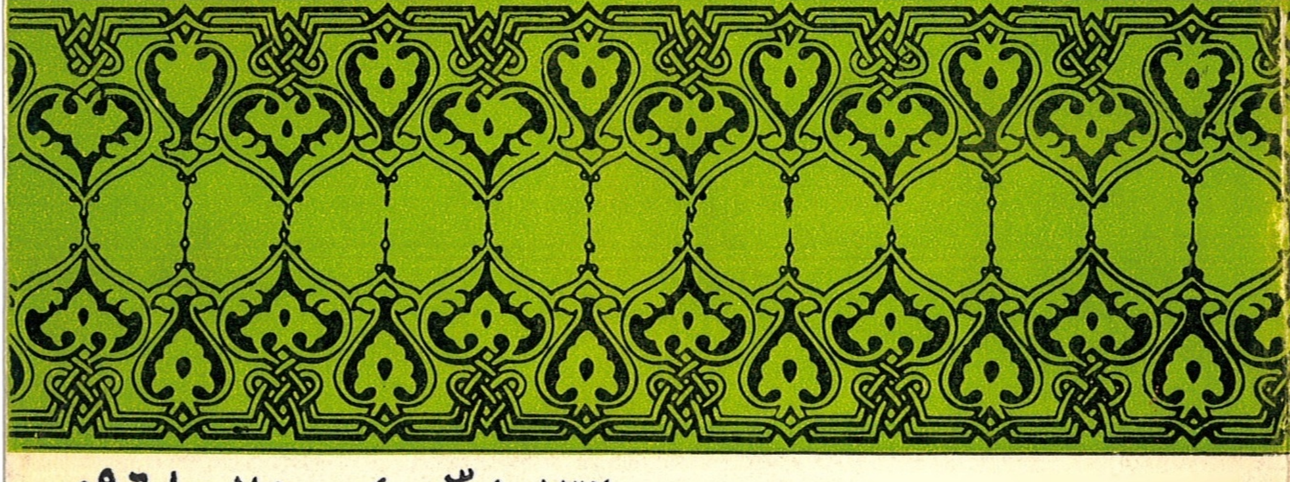
الدكتورة أمينة بيطار



الحياة السياسية
وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام

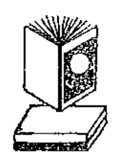


١٣٢ - ٣٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٨ م

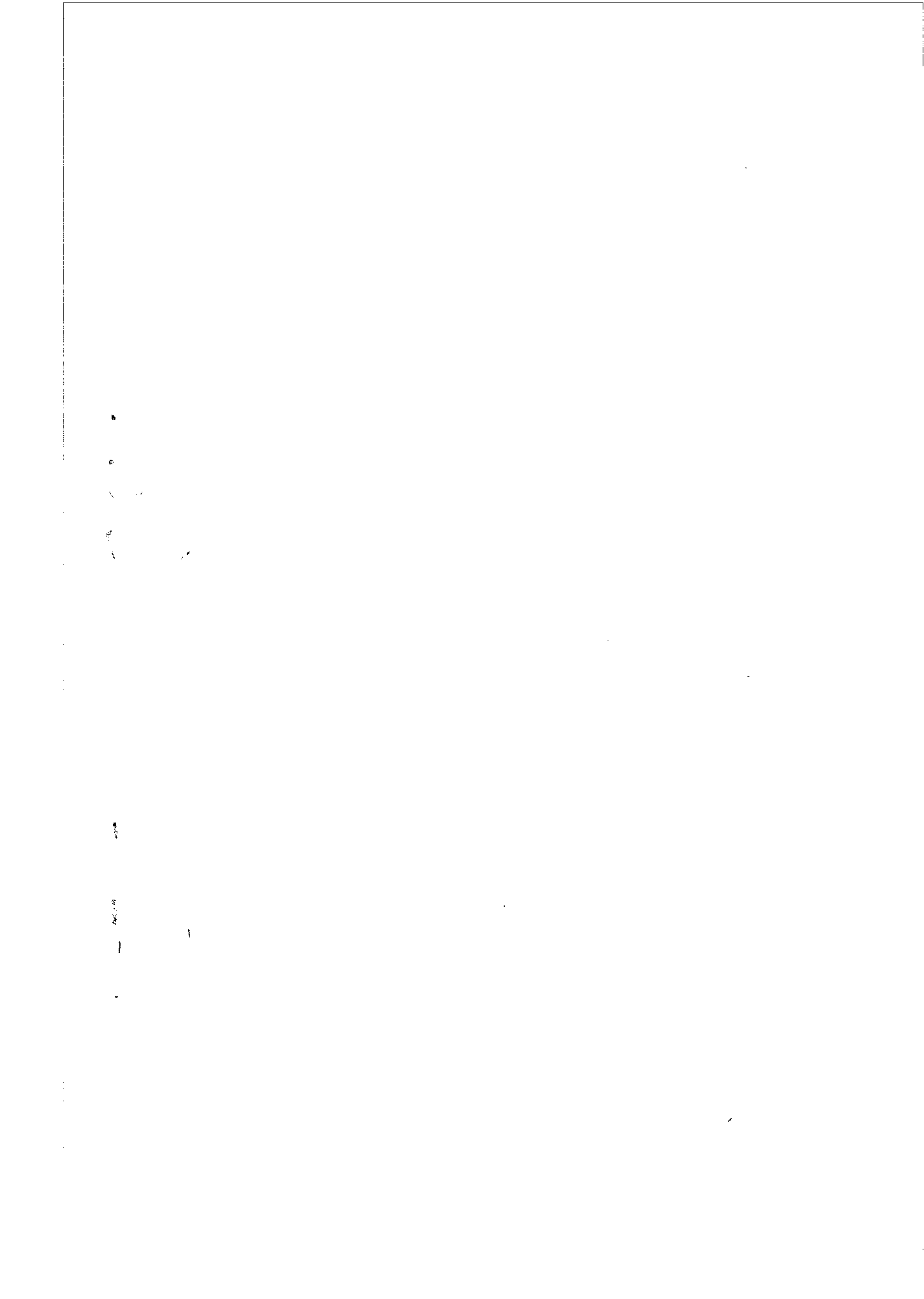
الدكتورة أمينة بيطار

الحياة السياسية
وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام

١٣٢ - ٣٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٨ م



منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٠



المقدمة

تناولت في هذا الكتاب البحث في تاريخ بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ — ٣٥٨ هـ/٧٥٠ — ٩٦٨ م . وقد كان بحثي في مجمله بحثاً سياسياً . ولم أتحدث في المجال الحضاري إلا في الباب الخامس : وقد اقتصر بحثي في هذا الباب على أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام في تلك الفترة . ولأهمية البحث في هذا المجال ، فانني آمل أن ألحق بكتابي هذا كتاباً آخر يبحث في دقائق الحضارة في بلاد الشام .

إن البحث في تاريخ الشام في هذه الفترة بحث صعب ومشتت ، لأن بلاد الشام وقتذاك كانت من المناطق المهملة تاريخياً . وما يذكره المؤرخون عنها إنما ورد على شكل اشارات عابرة لاتكفي نهم الباحث في تقصي الحقائق ، مما يضطره إلى الاستزادة من القراءة ، بل ونبش المكتبة الاسلامية ليصل إلى حقيقة قد تكون في نظر القارىء ليست بذات قيمة كبيرة .

لقد بحثت في أبواب هذا الكتاب فترة حكم ولاة العباسيين ، وفترة حكم كل من الطولونيين والاخشيديين في الشام . ومن المعروف أن هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام ، اتسمت بالفوضى والاضطراب

كما اتسمت بسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عامة قياساً على ماكانت عليه بلاد الشام قبل أن تخضع للعباسيين حين كانت مركزاً للخلافة الأموية ، ومركزاً لاهتمامها ، ومحورَ نشاط هذه الأسرة اقتصادياً وثقافياً ، ومحط أنظار العلماء والأدباء وأصحاب الرأي ، تصرف أموال بيت المال على عمران بلاد الشام وعلى أهاليها ارضاء لهم وتقرباً منهم . وشعر الأهالي بقيمة ماضاع منهم ، فوقفوا من الخلافة الجديدة موقفاً معادياً . كما نظر العباسيون إلى أهالي الشام على أنهم أنصار للأمويين ، فراقبوهم وقيدوهم . وأسفرت نظرة العداء المتبادلة بين الطرفين إلى نشوب الثورات في طول وعرض بلاد الشام ، ونهض أهاليها للعمل على إعادة مجد الأمويين ، وابتكار قصة السفياني المنتظر الذي كان أمل أهل الشام . وأكبر دليل على نظرة الكره المتبادلة بين الطرفين قول ابن جعونة للمنصور ، إن الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون في وقت واحد(١).

ومما يجدر ذكره هنا هو أن ولاة العباسيين لم يحاولوا العمل على توحيد صفوف أهالي الشام ، بل إنهم كثيراً ماتسببوا في بث بذور التفرقة بين القبائل العربية يمنية ومضرية . وكان تأييدهم للقبائل اليمنية في أول الأمر من أكبر الدواعي التي جعلت هذا الفرع القبلي يعلو على غيره . فنشبت ثورات كثيرة متتالية . وكثيراً ماكان يؤجج نارها انحياز ولاة الشام إلى الفرع اليمني دون القيسي حتى

---

(١) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠٦ — ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ — عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، طبعة دمشق ١٣٣١ ، المجلد ٣ ، ص ٣٩٢

نهاية القرن الثاني ، مما أدى إلى حقد القيسية على العباسيين . ثم مالبث العباسيون أن تركوا تدريجياً اليمنية ومالوا إلى القيسية وناصروهم . وإلى جانب كل ذلك ، فقد كان هنالك اهمال تدريجي للعرب بفرعيهما في أرجاء الخلافة . وكان ذلك سبباً في ايقاد نار ثورة نصر بن شبث العقيلي على العباسيين . والمهم في الأمر أنه قامت في بلاد الشام في تلك الآونة نزعات مختلفة ، ونشبت ثورات متعددة الأهداف ، يرعاها ويؤجج نارها أصحاب المصالح المختلفة . وبدت بلاد الشام مركزاً للفوضى والاضطراب السياسي ، ومكاناً صالحاً للجوء الفئات الملاحقة من العباسيين . فلجأت إليها طائفة الاسماعيلية فاتخذوا من بلاد الشام ، ومن مدينة سلمية بالذات في دور التستر دار هجرة لهم ، وعملوا منها على نشر المذهب الاسماعيلي في أرجاء المناطق الاسلامية كافة . كما استغل القرامطة الوضع وفروا من وجه العباسيين إلى الشام ، بعد أن شدد هؤلاء الخناق عليهم في العراق ، فتمكنوا اولاً من البادية ، ودعوا أهلها إلى مذهبهم ، فأجابهم الكثيرون . وتلقب أنصارهم من بني كلب بالفاطميين . ويرجح أن أئمة الاسماعيلية أعطوا أنصارهم إشارة بنشر هذا اللقب بين أتباعهم لاتخاذه بعد نجاح دعوتهم . ثم انطلق القرامطة من البادية إلى المدن الشامية وعملوا على السيطرة عليها، ونشر مبادئهم بين أهاليها . وكثيراً ماقاموا بالسلب والنهب في سبيل تحقيق أهدافهم . واستغلت القبائل هذا الوضع فأخذت تقوم بالسلب والنهب أيضاً إلى جانب مهاجمتها للحاج ، وقطع الطريق عليه ، والاستيلاء على الأموال وغيرها ، فازدادت بذلك عوامل التخريب والفوضى في بلاد الشام .

وفوق كل هذا فان البيزنطيين وجدوا في ابتعاد مركز الخلافة عن بلاد الشام وثورات أهاليها ضد العباسيين ، فرصتهم لتحقيق أحلامهم في بلاد الشام . فأخذوا يقومون بغارات متتابعة بقدر ما تسمح لهم حالة البلاد الداخلية ، إلا أنهم كانوا في العصر العباسي الأول يتلقون دروساً قاسية ، تجعلهم يحسبون حساباً دقيقاً لتحركاتهم . وكثيراً مافرض عليهم خلفاء العباسيين الأوائل الجزية ، واضطروهم إلى دفعها . إلا أنهم مالبثوا في العصر العباسي الثاني ، أن أخذوا يعتدون على الأطراف دون أن يجدوا الرادع الكافي ، ثم نشطوا وأخذوافيمابعديتغلغلون في بلاد الشام حتى أصبح لهم كلمة مسموعة في شمالي الشام وسواحله ، وفي مدن متعددة أخرى . ولولا وقفة سيف الدولة في هذه الفترة في وجههم ، لتمكنوا من دخول بلاد الشام في غفلة من العباسيين .

ومما يثير الدهشة تلك الثورات المتلاحقة والمتوازية التي نشبت في تلك الفترة في بلاد الشام ، وأن تصبح هذه المنطقة ملجأ للحركات التي لم تنشأ فيها أصلاً كحركة الاسماعيلية والقرامطة . ولا أشك في أن وراء ذلك أسباباً عميقة متعددة تختفي وراء الأسباب الظاهرة . ولا يخفى على المستعرض لتاريخ بلاد الشام السياسي في تلك الفترة من أن يدرك أن على رأس الأسباب ماكان يعتلج في هذه البلاد من صراعات اجتماعية واقتصادية . وإني وإن تحدثت في خلال ماكتبته عن هذه الثورات عن أسباب نشوئها ، وتعرضت للأسباب الاجتماعية والاقتصادية متفرقة ، فانني أرى أنه من الواجب جمع هذه الأسباب لتكون توطئة لما سنتحدث عنه ، ومن أهم هذه الأسباب :

١ — انقسام المجتمع إلى طبقتين متمايزتين طبقة العامة

وطبقة الخاصة ، والفوارق بينهما كبيرة.وكانت الطبقة الأولى غنية كل الغنى ،مترفة كل الترف ،وتتمثل في الطبقة الحاكمة ،والأفراد المتصلين بها ، والطبقة التي اشتغلت بالزراعة الواسعة والتجارة الكبيرة الرابحة . والطبقة الثانية فقيرة لاتكاد تصل إلى لقمة العيش .وقد صور لنا الشعراء هذه الفوارق الاجتماعية بأشعارهم فقال ابن المعتز مقارناً بين حياة هاتين الفئتين فقال :

أفما ترى بلداً أقمت بـــه أعلى مساكن أهلـــه خص

وولاتـــه نبط زنـــادقـــة ملأى البطـــون وأهله خمص

وقد انضم إلى طبقة الخاصة الارستوقراطية الناشئة من القادة العسكريين . وكما كان كبار التجار يضمنون الولايات يجنونها لحسابهم ، مقابل مبالغ محددة يدفعونها للخلافة ، كذلك فعل القادة العسكريون . وحين يتسلم هؤلاء أعمالهم ، كانوا يعملون على استعادة أموالهم وأضعافها من المناطق التي تبعت لهم يجبونها من أهالي المنطقة المغلوبين على أمرهم .

وفوق ذلك فان الجنود من الأتراك كانوا لايفتأون يطالبون بمخصصاتهم ، وبمنح إضافية عند تولي الخلفاء للعرش ، وفي مناسبات أخرى كثيرة مهما كانت ظروف الدولة . ولحل هذه المشكلة نهائياً لجأت الدولة إلى اقطاع هؤلاء الأراضي بدلاً من الأرزاق النقدية ، وأعطوا الحرية في أخذ الضرائب من المنطقة التي تخضع لهم دون أن يلزموا بالمقابل على دفع ضريبة مالبيت المال ، أو القيام بواجباتهم الاصلاحية نحو الأراضي التي يجبونها . وكانت مساوىء هـــذا النظام

كثيرة . فقد أزال كل رقابة من الدولة على الجباية وعلى مقدار الضريبة. وكذلك فان الأراضي الزراعية المقطعة كانت تسير إلى الخراب . وكلما خربت أرض استبدلوها عن طريق الدولة بأخرى ، فيحدث لها ماحدث بالأولى(١).

ومما يزيد أعداد كبار الملاك في هذه الفترة ، ماكانت تفعله الحكومة من بيع الضياع السلطانية في أوقات الأزمات والشدة ،فيعمد كبار التجار إلى شراء الضياع السلطانية كسداد لديونهم على الدولة ، أو يقتطعونها اقطاعاً مع أصحاب النفوذ في الدولة ، كلما لاحظوا ضعف الحكومة ، وعدم استطاعتها إدارة أملاكها . وقد انتشرت اقطاعات جنود الخلافة — من الأتراك والبويهيين — في أرجاء أراضي الخلافة الاسلامية . وكانت هذه الأمور مجتمعة تزيد في الفروق بين الطبقات الاجتماعية . وقامت بالتالي الدعوات بين العناصر الفقيرة والمتضررة تدعو الى الاشتراكية في الأموال .

٢ — كان عبء الخراج يقع في الغالب على صغار الملاك . أما كبارهم فكانوا يتلاعبون على القوانين ، ويفلتون من دفع الضرائب بطريقة أو بأخرى . وإن لم يتخلصوا منها ، فانهم يعملون على تخفيفها . ولما كان صغار أرباب الضياع يريدون الافلات أيضاً من عبء الخراج ، فانهم قاموا بالجاء(٢) أراضيهم إلى الكبار ، تسجل بأسمائهم ، وتبقى

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ و ٤٣٥ .

(٢) الالجاء : هو تسجيل صاحب الملكية الصغيرة مايملكه باسم أحد كبار الشخصيات على اتفاق بينهما ، بأخذ جزء من المحصول ، وذلك نظير حمايته من عبث جباة الخراج .

بأيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها، ومع مرور الأيام تصبح هذه الأراضي ملكاً للكبار . وتتناقص طبقة صغار الملاك ، ويصبحون في عداد التابعين للأقوياء .

٣ — فساد الحياة الاجتماعية لعوامل متعددة: انتشار المصادرات، وانتشار البرطيل . وكان أول من أظهره في الشام محمد بن صالح بن عبد الله الذي تولى قنسرين وحلب والعواصم في عهد الواثق . وأصبح تولي المناصب الهامة في الدولة عن طريق الرشوة .

فقد صادر الخليفة المعتمد أموال التجار ، وخاصة أولئك الذين كانت لهم معاملات مع الدولة وأصابوا عن طريقها مالاً وفيراً .

كما صادر الحمدانيون أكثر أرض العراق ، واشتروا منها القليل. بسهم من أعشار ثمنها ، حتى صارت الموصل وأكثر أعمالها ملكاً لناصر الدولة . وكان يضايق أصحاب الأرض حتى يلجئهم إلى البيع بأرخص الأثمان(١). كذلك كان سيف الدولة يصادر التجار(٢) . وقد أراد أن يستولي على غوطة دمشق عن طريق المصادرة ، فأخرجوه منها .

وقام الاخشيد بمصادرة أموال الناس(٣) . وكانت طريقة الاخشيد، إذا توفي أحد من قواده أو كتابه ، تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم. وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير . وكان لايأنف من مصادرة مايعجبه من الملابس كالفراء وغيره إذا وجده عند أحد من أصحابه .

---

(١) آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، جزء ١ ، ص ٢١٢ .

(٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٩٦ .

(٣) عن مصادراته انظر آدم ميتز ، جزء ٢ ، ص ١٧٩ .

وكما كان الأمراء يحصلون على الأموال من غير حق ، فقد كانوا ينفقونها في غير طريقها المشروع ،فيغدقون الأموال على بعض الخاصة في الوقت الذي يحرمون منها بقية الناس . وكان سيف الدولة يهب الضياع لمادحيه . من ذلك أنه وهب المتنبي ضـيعة من ضياع معرة النعمان القبلية ، فوق الأموال الطائلة .

ونتيجة لخوف الناس على أموالهم من المصادرة ، أخذوا في اخفاء ثرواتهم ودفنها تحت أرض منازلهم أو في جدرانها أو في رمال الصحراء والأمثلة على ذلك كثيرة . فقد ذكر مسكويه أن بجكم أمير الأمراء . كان يدفن أمواله في الصحراء في مكان يتخذه لنفسه ، ويجعل له علامات يهتدي بها . ومن أجل تنفيذ العمل كان يأخذ رجالاً ليعاونوه فيضعهم في صناديق يغلقها عليهم، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء . وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ثانية ويعود بهم ،فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا(١) .

وفوق هذا وذاك ، فان الخليفة المعتمد أنشأ ديواناً للمواريث ، وكذلك أحل بعض الأمراء أخذ المواريث . وعين سيف الدولة أبا الحسين علي بن عبد الملك الرقي قاضيه لمصادرة التركات . فقال القاضي في هذا الأمر ، التركة لسيف الدولة ، وليس لأبي الحسين إلا أخذ الجعالة .

٤ — وقد زاد الأمر تعقيداً على اثر اشتغال أولي الأمر بالتجارة واحتكار بعض المواد من قبلهم لبيعها بالاسعار التي تناسبهم على حساب

(١) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٥٢ نقلا عن مسكويه .

الشعب . ومن الأمثلة على الاشتغال بالتجارة ، أن الاخشيد الذي حكم بلاد الشام إلى جانب مصر كان يتاجر بالعنبر . وكان يدعي أنه يحب العنبر . وبالتالي فان كل من أراد التقرب منه أو أراد أن لاتصادر أمواله يعمل على اهداء العنبر للاخشيد . وكان الأخير إذا جاء الوقت الذي يهدى إليه فيه العنبر ، أخرج من خزائنه ماعنده من هذه المادة لبيعها . فيشتريها هؤلاء التجار ثم يهدونها إليه ، فيحصل له الثمن الوافر ثم يعود العنبر إليه (١) . وكذلك كان سيف الدولة يحتكر بعض المواد التجارية لبيعها.

٥ — وأهم من كل هذا وذاك تأخر بلاد الشام الاقتصادي . فلم يبال ولاة العباسيين بالعمل على تقدم بلاد الشام. كما عانى بعض أهالي الشام من كثرة الخراج . وأبلغ دليـــل يوضح تأخر بلاد الشام اقتصادياً في عهد ولاة العباسيين عما كانت عليه في عهد أسلافهم الأمويين ، شهادة الخليفة الرشيد الذي استاء من ذلك الوضع ، وعزل واليه الحسين ابن عمار ، وعاقبه جزاء ماكان يفعله ، لأن دمشق حين وليها كانت جنة خضراء ، فأصبحت أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر . كما كان العامل الاقتصادي أحد أسباب ثورة المبرقع اليماني في فلسطين في خلافة المعتصم . ومما لاشك فيه أن خلفاء العباسيين حاولوا اتخاذ بعض الاجراءات لانقاذ البلاد من التردي ولكنها لم تنجح .وزاد الطين بلة ماكان يحدث في بلاد الشام من حروب ومعارك مختلفه الأهداف . وحين قدر لبلاد الشام أن تستقل وتنشأ فيها دويلات مستقلة كالطولونية والحمدانية والاخشيدية ، فان كلاً من الطولونيين والاخشيديين لم يهتموا بأمور الشام الاقتصادية بقدر ماكان يهمهم السمعة التي يكسبونها

(١) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ٣٥ — ٣٦

من حمايــة الثغور . وكــذلك لأن مركز هــاتين الدولتين لم يكن في بلاد الشام بل في مصر . أما الحمدانيون فانهم لم يكونوا يبالون بالشجر ، وكثيراً ماتسببوا في قطعه. ففي سنه ٣٣٣ ﻫ / ٩٤٤ م ، أغلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة . فاقتلعوا كل الأشجار الجميلة المحيطة بحلب .وكانت هذه الأشجار كما يقول الشاعر الصنوبري المعاصر لذلك العهد أكبر ماازدان به الاقليم(١). كما اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين، وجعلوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم .

٦ – سوء اختيار الولاة ،وسوء طرق الحصول على الولاية . فكثيراً ماكانت الولاية تعطى بطريقة التضمين . وفي أحيان كثيرة كانت الولاية للأقوى . وليست لمن يحمل وثيقة توليته من قبل الخلافة، إذ كثيراً ماكانت ولاية منطقة ماتعطى لأكثر من وال . كما لم يكن ممكنا للوالي أن يتسلم ولايته إلا إذا استعمل السيف لازاحة أعدائه ومنافسيه . وكان تولي الولايات مجال مساومة ويحصل عليها من يتمكن من دفع مبلغ من المال يزيد على مادفعه منافسه . ويضاف إلى ذلك سرعة تبديل الولاة ، وعدم صلاحيتهم للحكم . ولا شك في أن هذه الحالة في الولايات كانت تعكس سوء الأوضاع في عاصمة الخلافة .

٧ – كان لكل جند من أجناد الشام وال يدير شؤونها . وقد يجمع أكثر من جند لوال واحد . .

---

(١) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٢

ومما لاشك فيه أن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى سوء الأوضاع العامة في بلاد الشام ، وخاصة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتسببت في قيام ثورات مختلفة . وزادت هذه الثورات في سوء الأوضاع ، فانعدم الأمن . وتطلعت الفئات المتضررة إلى الفرق الناشئة والتي نادت بالمساواة والاشتراكية كفئة القرامطة . واتخذت هذه الفئات الملاحقة من الخلافة العباسية من الطبقات الفقيرة والمستضعفة أنصاراً لها ، ونقلت مركز ثقلها إليها . فأصبحت بلاد الشام في هذه الفترة مقراً للاسماعيلية والقرامطة .

* * *

كانت هذه أوضاع بلاد الشام في فترة البحث ، وهي أوضاع قاسية ومتردية . وقد قمت في بحثي هذا بدراسة تاريخية للحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، منذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمي ، وقسمته إلى خمسة أبواب :

استعرضت في الباب الأول منها انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، والحروب التي قامت بين الطرفين من أجل تحقيق ذلك . ثم وضحت في ايجاز أسباب انتصار العباسيين في الشام وتحقيقهم لأهدافهم ، ثم انتقلت إلى توضيح موقف أهالي الشام من العباسيين ومن الثورات التي نشبت في وجههم . وكنت في أثناء ذلك أركز على معالجة أسباب انتشار الفوضى في الشام في هذه الفترة .

وفي الباب الثاني تحدثت عن حالة بلاد الشام في أيام ولاة الطولونيين ، وعالجتها معالجة دقيقة وافية . بدأت ذلك بذكر لمحة عن أحوال بلاد

الشام قبل أن تصبح ولاية طولونية ، وكيف أن هذه الأوضاع مهدت السبيل للطولونيين للسيطرة عليها . وقد أصبحت بلاد الشام في عهدهم مسرحاً للمنازعات بينهم وبين الموفق وأنصاره من أمثال ابن كنداج وابن أبي الساج.وأوضحت أن لكل من هؤلاء هدفه وغايته، وبحثت ذلك بحثاً مستفيضاً . كما ركزت في هذا الباب على اتخاذ الاسماعيلية لمدينة سلميه داراً للهجرة ، ومركزاً لنشر الدعوة في الشام ، وفي بلدان الخلافة الاسلامية الأخرى ، حيث إن المهدي خرج زمن الطولونيين من بلاد الشام الى المغرب . كما أنني عالجت موقف الاسماعيلية من القرامطة في الشام ، وما أسفرت عنه حروب القرامطة فيها . وكانت هذه الحروب في الشام أحد الأسباب التي أدت إلى سقوط الامارةالطولونية.

أما الباب الثالث فقد خصصته لبحث أوضاع بلاد الشام في عهد ولاية الاخشيديين والحمدانيين ، حيث استعرضت أحوال بلاد الشام في الفترة بين حكم الطولونيين والاخشيديين . ثم انتقلت لشرح سيطرة الاخشيديين على بلاد الشام ، وما لاقوه من متاعب كان أهمها محاولة ابن رائق انتزاع هذه المنطقة منهم وجعلها تحت سيطرته المباشرة . وتحدثت عما لاقاه هؤلاء من متاعب نتيجة مطامع الحمدانيين في المنطقة، وعن الحروب التي جرت بين الطرفين ، وأنها أسفرت عن رضوخ الاخشيد للحمدانيين وترك شمالي الشام لهم .

وفي الباب الرابع تناولت بالبحث الموقف في الثغور منذ قيام الخلافة العباسية حتى دخول الفاطميين إلى الشام . وجعلت التمهيد لهذا الباب ماتمخضت عنه حروب الأمويين مع البيزنطيين ، ثم ركزت على الخصائص العامة للحروب

بين العباسيين والبيزنطيين ، ولم أتوقف كثيراً عند التفاصيل الجزئية لكل غزوة أو معركة حربية .

أما الباب الخامس فهو بحث جديد وشيق ، تحدثت فيه عن أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام في هذه الفترة . فاستعرضت النظم الإدارية والمالية في الشام ، وفي سبيل ذلك استقرأت قوائم الخراج التي قدمتها لنا المصادر العربية . ثم انتقلت إلى الأحوال الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ومعاملات تجارية ومالية ، وبعدها استعرضت الحياة الاجتماعية والحالة العمرانية ، وأخيراً بحثت في العلوم الدينية والمذاهب الاسلامية في الشام في هذه الفترة الغامضة من تاريخه .

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث واخراجه على هذا النحو ، والله ولي التوفيق .

بحث في المصادر

لقد اعتمدت، في بحثي هذا على عدد وافر من مصادر التاريخ الاسلامي المخطوطة منها والمطبوعة ، كما اعتمدت على عدد كبير من المراجع الحديثة العربية والأوربية ،وسأقتصر على ذكر أهم المصادر والمراجع التي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوع البحث ، وفيما يختص بالمصادر الخطية يأتي على رأسها :

— مخطوطة (التاريخ الكبير أو تاريخ دمشق (لمؤلفه ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ . وقد افادني فيما أورده من معلومات عن الشخصيات التاريخية والأدبية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ دمشق أو زارتها . إذ استقيت منه الكثير من المعلومات عن أحمد بن طولون ومحمد بن طغج وسيف الدولة الحمداني ، وعن مجالسهم ومن ضمهم من الأدباء والشعراء .

— مخطوطة (بغية الطلب في تاريخ حلب) لمؤلفه ابن العديم كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله المتوفى سنة ٦٦٠ هـ.وقد أفادني كسابقه فيما ذكره عن بعض الشخصيات التاريخية التي دخلت مدينة حلب ، كما أفادني فيما ذكره عن الشعراء والأدباء والفقهاء .

— وتأتي بنفس الأهمية مخطوطة (الدول المنقطعة أو أخبار الزمان

في تاريخ بني العباس) لمؤلفها جمال الدين أبوالحسن علي بن ظافر الأزدي المتوفي سنه ٦٢٣ هـ . فقد أفادني فيما ذكره من معلومات أصيلة عن القرامطة والاخشيديين والحمدانيين .

– أما ابن شداد صاحب مخطوطة (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) المتوفى سنه ٦٨٤هـ ، فقد أفادني فيما ذكره عن الثغور ، إذ كان مصدراً أصيلاً جمع كافة المعلومات عن الثغور وولاتها وعن الحروب مع البيزنطيين ، كما ذكر الصوائف والشواتي وتنظيمها وأسماء قوادها . إلا أن مخطوطة جامعة الدول العربية المصورة عن مخطوطة المتحف البريطاني والتي اعتمدت عليها في بحثي ، يشوبها التشويه والنقص في بعض الأوراق مما يقلل من قيمتها العلمية .

* * *

أما المصادر المطبوعة فيأتي في مقدمتها بالنسبة لموضوع البحث :

– كتاب فتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ والذي تعرض في حديثه عن الفتوحات إلى إشارات عظيمة القيمة من الناحية الحضارية كالنظم الاجتماعية والدواوين ومسائل الخراج والسكة وغيرها من المسائل الاقتصادية .

– اما كتاب الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ فهو من أهم المصادر في التاريخ العام لدراسة هذه الفترة . فقد تعرض هذا الكتاب لمعظم حوادث الفترة ، وذكر كافة الروايات التي قيلت حول ذلك .

– ويتناول كتاب تاريخ الموصل للأزدي المتوفى حوالي سنة ٣٣٤هـ تاريخ بلاد الشام في الفترة التي سبقت وفاته بشيء من التفصيل ، ويركز على الدعوة العباسية وسقوط الخلافة الأموية . وهو من أفضل المصادر التي توضح موقف القبائل العربية من الدعوة العباسية وأثناء معركة الزاب .

– أما كتاب الولاة والقضاة للكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ فهو من الكتب الأصيلة في دراسة تاريخ الطولونيين ، ويعتبر الكندي حجة ثقة فيما كتبه في هذا المجال .

– كما يعتبر كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، المسمى صلة كتاب اوتيخا لمؤلفه يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ من الكتب الأصيلة في معرفة أحوال أهالي الذمة وفي معرفة دقائق الحروب بين المسلمين والبيزنطيين وتفاصيلها ، وكذلك المفاوضات التي جرت بين الطرفين .

كما كان لكتب الرحالة والجغرافيين أهمية كبيرة في الوقوف على كثير من التفاصيل التي أغفل المؤرخون في كثير من الأحيان الحديث عنها ، كوصف المدن والحياة الاجتماعية من طعام وشراب وعادات وتقاليد . وكان من أهم كتب الرحالة بالنسبة لموضوع البحث :

– كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم المتوفى سنة ٣٨٧ هـ إذ ذكر الكثير عن بلاد الشام في الفترة موضوع البحث . فقد تحدث عن الأبنية والأسواق والعادات والمعتقدات الدينية .

– أما كتاب (الكامل في التاريخ)لابن الاثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ فهو أحد المصادر الرئيسية في التاريخ الاسلامي . وقد تناول المؤرخ فترة البحث وذكر أحداثها . وقد استطعت أن أحصل منه على معلومات وافرة عن ثورات القبائل العربية ، وثورات المدن الشامية ، وتأسيس الامارة الطولونية ، وكذلك استفدت مما ذكره عن القرامطة في الشام .

– ومن الكتب الهامة كتاب (زبدة الحلب في تاريخ حلب)لمؤلفه ابن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ ﻫ . ويعتبر هذا الكتاب تاريخاً أصيلاً لكل من يبحث في تاريخ حلب حتى وفاة ابن العديم ، وبخاصة تاريخ الامارة الحمدانية ، كما أن ابن العديم سجل مع قلة قليلة من المؤرخين بنود المعاهدة التي عقدت في صفر سنة ٣٥٩ ﻫ بين الحمدانيين والبيزنطيين ، تلك المعاهدة التي تعتبر حجر الزاوية في تاريخ العلاقات بين الحمدانيين والبيزنطيين .

– كما يأتي كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ ﻫ في مصاف الكتب الهامة المفيدة في دراسة تاريخ الطولونيين ، والاخشيديين . وتبدو قيمة هذا الكتاب حين نعلم انه يعتمد على كتاب أبي يوسف ابراهيم المعروف بابن الداية والمتوفى سنه ٣٣٩ ﻫ .

– وكان البلوي في كتابه (سيرة أحمد بن طولون) من أهم المصادر التي أرخت للطولونيين ، وهو كابن سعيد ينقل ما أورده ابن الداية في كتابيه (المكافأة ، وسيرة أحمد بن طولون) .

هذا ويجب أن أشير إلى ما أفدته من بعض المراجع الحديثة مثل مؤلفات الدكتور محمد جمال الدين سرور ويأتي على رأسها كتاب

الحضارة الاسلامية في الشرق. فقد أمدني بمعلومات وافرة عن النواحي الادارية والاقتصادية .

– كما استفدت مما كتبه آدم ميتز في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية فيما ذكرته في الباب الخامس عن أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام في فترة البحث .

– وأما عن المراجع الأجنبية فيجب أن أشير إلى ماكتبه المؤرخ الفرنسي كانار (CANARD) بعنوان :

Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie

* * *

الباب الأول

بلاد الشام

منذ قيام الخلافة العباسية، حتى منتصف القرن الثالث الهجري

الباب الاول

بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية حتى منتصف القرن الثالث الهجري

١ – قيام الخلافة العباسية ومعركة الزاب :

٢ – فتح بلاد الشام .

٣ – سياسة العباسيين تجاه الأمويين وأهالي الشام .

٤ – موقف القبائل العربية والمدن الشامية من العباسيين .

– النزاعات القبلية في الشام وسياسة العباسيين تجاهها .

– ثورة نصر بن شبث العقيلي .

– ثورات أجناد الشام ، وموقف العباسيين منها :

ا – ثورة حوران والبثنية : حبيب بن مرة المري .

ب – ثورة قنسرين وحلب : أبو الورد الكلابي والسفياني .

حـ – ثورة الجزيرة : اسحق بن مسلم .

د – ثورات دمشق .

هـ – ثورات لبنان وحمص : النصارى وأهل الذمة .

و – ثورة فلسطين والأردن : المبرقع اليماني .

٥ – موقف أهالي الشام من الخلاف بين أفراد الأسرة العباسية .

– موقف أهالي الشام من ثورة عبد الله بن علي .

– موقف أهالي الشام من الخلاف بين الأمين والمأمون .

٦ – الخليفة المتوكل على الله في بلاد الشام .

١ ـ قيام الخلافة العباسية ومعركة الزاب :

كانت أحوال البلاد الاسلامية بشكل عام وأحوال بلاد الشام بشكل خاص مضطربة أشد الاضطراب في أواخر العهد الأموي . فقد شعرت معظم البلاد الاسلامية بأن الخلفاء الأمويين لم يعودوا قادرين على ضبط الأمور فيها ، وتسييرها لصالح أهالي البلاد . وأن نشاط الخلفاء الأمويين، انصرف فقط إلى تثبيت حكمهم في بلاد الشام ، والقضاء على منافسة المتنافسين .

وقد استغل العباسيون وأنصارهم من عرب وموال هذه الأحوال أحسن استغلال، وقاموا بنشر دعوتهم . ساعدهم على ذلك الظروف في خراسان ، وظروف الأمويين في الشام في تلك الفترة . وانفجرت الثورة في خراسان في شهر شوال سنه ١٢٩ هـ / حزيران / يونيو ٧٤٧ م . وبدأت جيوش العباسيين بضم البلاد إليها ، فكانت البداية ضم خراسان ثم محاولة الوصول إلى الكوفة . وقاد جيوش العباسيين المتوجهة إلى العراق قحطبة بن شبيب . وبعد معارك متعددة جرت بين الطرفين، فر ابن هبيرة ــ والي الأمويين ــ إلى واسط وتحصن بها . بينما دخل العباسيون الكوفة في ١١ محرم سنه ١٣٢ هـ / ٣١ آب/اغسطس ٧٤٩ م . وحفظت الغنائم وكل ماوجد في معسكر ابن هبيرة في الكوفة بعد أن أحصيت(١) . ثم توجهت جيوش العباسيين إلى مدينة واسط فحاصرتها ، ولكنها لم تفتح أبوابها إلا في شوال سنة ١٣٢ هـ / أيار / مايو ٧٥٠م بعد حصار دام ستة أشهر (٢) ، وأعلن أثناء ذلك قيام الخلافة العباسية في الكوفة في ٤ ربيع الثاني سنه١٣٢هـ/٢١ تشرين الثاني / نوفمبر ٧٤٩م(٣).

آلمت هذه التطورات السريعة الخليفة الأموي مروان بن محمد ،

فقرر أن يخوض بنفسه قتالاً مريراً ضد العباسيين ، وأن يصمد فيه حتى النهاية . فجهز جيشاً كبيراً تحت قيادته سار به من حران متجهاً نحو الشرق ، حتى نزل على نهر الزاب الأعلى ، والتقى بجيوش العباسيين المناوئة(٤).

بدأ مروان بن محمد بتنظيم جيشه ، والقيام بكافة الاستعدادات للقتال والمجابهة ، فقسمه إلى كراديس ، كما أنه قسم فرسان الجيش إلى أقسام كل قسم يتألف من ألف أو ألفين ، وحفر خندقاً ليحتمي به وجنوده(٥).

وكانت جيوش العباسيين تعسكر في موضع قريب يقال له تل كشاف ، وكانت امداداته تصل بانتظام . ثم إن الخليفة أبا العباس رأى أن يقوي مركز جيشه بأن يجعل قيادته لأحد أفراد الأسرة العباسية — باعتبار أن الجيوش الأموية يقودها مروان بن محمد بنفسه — فتطوع عبد الله بن علي عم الخليفة للقيام بهذا الأمر وتحمل هذه المسؤولية الجسيمة . فنظم جيشه وأخذ مواقع في مواجهة خصمه .

كان جيش العباسيين يتألف حسب ماتذكره المصادر العربية من عشرين ألف مقاتل ، بينما كان تعداد الجيش الأموي مائة وعشرين ألفاً(٦) . وبدأ عبد الله بن علي المواجهة بالهجوم على جيوش الأمويين. ولما كان يعلم أن تعدادهم أكثر ، فقد كان عليه أن يعوض العدد بقوة جنوده وحماستهم . فأخذ ينادي جنوده من الخراسانيين ويذكرهم بما فعله مروان بابراهيم الإمام طالباً منهم الثأر له وشعاره في ذلك يالثارات ابراهيم الامام(٧). وبالمثل فان مروان بن محمد ، رأى أن يحط من شأن

القوى التي يواجهها . فنادى جنوده موضحاً لهم بأنهم يقاتلون حشواً من من أهل شهرزور ، وأنه ليس في جيش العباسيين من أهل العلم في خراسان إلا القليل(٨).

اشتد القتال وكان مريراً ، إلا أنه مالبث أن انتهى بهزيمة ساحقة للأمويين بعد قتال دام تسعة أيام . وكتب الله النصر للعباسيين في يوم السبت ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ / ٢٦ كانون الثاني / يناير ٧٥٠م(٩). وكتب عبد الله بن علي إلى الخليفة أبي العباس يبشره بالفتح والنصر .

كانت هزيمة الأمويين في الزاب هزيمة ساحقة ، حتى أن خليفتهم مروان بن محمد ــ بعد أن رأى ادبار أمره ــ فكر في أن يحمل أمواله ويرتحل إلى البيزنطيين مع مواليه وعياله، ليجمع شمله هناك ثم يعود لقتال العباسيين. فنصحه أحد أصحابه ألا يفعل موضحا له سوء الفكرة، لأن التجاءه إلى البيزنطيين يعني أن يحكم أهل الشرك في بناته وحرمه وفي هذا مافيه من مخاطر عليهم في المستقبل عند البيزنطيين الذين لاوفاء لهم، ونصحه بأن يقطع الفرات ، ويسير حتى يصل إلى مصر فيجمع الجيوش ويقابل بها أعداءه .

ومما لاشك فيه أن هزيمة الأمويين بقيادة خليفتهم مروان بن محمد في هذه المعركة الحاسمة التي غيرت تاريخ المسلمين ، كان لها أسباب عميقة أدت إليها ، إلى جانب أخطاء حربية من الأمويين .

ومن الأخطاء الأخيرة أن الخليفة مروان بن محمد كان يلمس عدم الحماسة للقتال من جنوده ، وأراد أن يدفعهم إليه ويحمسهم ، فظن أن الذهب يكفي لتحقيق ذلك ، فوضع أكياساً منه أمامهم ، وأعلمهم

أن كل هذا لهم مقابل استماتتهم في قتال عدوهم ، وتحقيق النصر . ولكن جنوده ومحاربيه تركوا القتال ومالوا إلى الأموال .

واتخذ مروان خطوة أخرى مرتبطة بسابقتها . وكان يظن بأنها ستساعده على دفع الجنود إلى القتال . فأمر ابنه أن يتخذ مكانه خلف الجيش ، فمن وجد معه شيئاً من الذهب قتله . ولما توجه للتنفيذ وكان يحمل الراية ، ظن الجنود أن جيشهم في حالة تراجع فتنادوا بالهزيمة، وعبر الناس دجلة بشكل فوضوي ، فكان من غرق أكثر ممن قتل(١١).

إلى جانب ذلك فان بعض قادة مروان لم يكونوا ليثقوا به وبتصرفاته. ولم يعودوا يحترمونه الاحترام الكافي الذي يدعو إلى الطاعة وتنفيذ الأوامر ، وهي أشياء ضرورية لحسن النظام، وخاصة في المعارك العسكرية. فقد أصدر مروان أوامره إلى رئيس شرطته بالنزول إلى الأرض والاشتراك في القتال مع جنوده ، إلا أن الأخير كان يخشى أن يعرض نفسه للتهلكة . ولما هدده مروان كان جوابه بأنه يتمنى أن ينفذ مروان تهديداته(١٢).

هذه هي بعض الأسباب المباشرة التي أدت إلى الهزيمة ، ولكن خلف هذه الأسباب تكمن أسباب أقوى لم يكن مروان بن محمد صانعها بنفسه، بل كانت جذورها تضرب إلى عهد أسلافه من الخلفاء الأمويين ، ولم يستطع مروان السيطرة عليها . وسنبحث الفتح العباسي لبلاد الشام ، ثم نذكر هذه الأسباب ، ونركز بشكل خاص على العصبية القبلية لأنها لعبت دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام فترة حكم العباسيين .

فتح بلاد الشام :

كانت معركة الزاب معركة حاسمة ، تشتت بها جيش الأمويين، وفر مروان باتجاه بلاد الشام ، وكان يرغب في تجهيز جيش جديد يستطيع بواسطته الوقوف أمام أعدائه في جولة أخرى إذا سنحت له الظروف . بينما كانت معركة الزاب بالنسبة للعباسيين دعامة قوية في تثبيت خلافتهم . فأمر أبو العباس أن يعطي كل من شهد المعركة خمسمائة درهم ، وأن ترفع أرزاقهم إلى ثمانين . وأصدر أوامره بمتابعة مروان بن محمد ، وفتح بلاد الشام مركز الخلافة .

وسار مروان بن محمد إلى الموصل حيث كانت بيوت أمواله وخزائنه ، ولكنه لم يستطع دخولها لأن أهاليها بقيادة واليهم لم يفتحوا له بابها ، بل انهم قطعوا الجسر ومنعوه من العبور ، فقد سئموا كثرة الاضطرابات في البلاد ، وضعف خلفاء الأمويين على السيطرة عليها، كما ساءهم انقسام الأمويين على أنفسهم ، واقتتالهم من أجل الوصول إلى العرش . وما ينتج عن ذلك من ازهاق أرواح ضحايا بريئة .

عند ذلك اضطر مروان أن يعبر دجلة إلى حران ، فأقام بها مايزيد عن عشرين يوماً . إلا أنه اضطر إلى تركها تحت وطأة الجيوش العباسية الزاحفة وانهزم بأهله وخيله إلى حمص(١٣) . وعلى الرغم من أنه كان يأمل في مساعدة أهل الشام ودعمهم له،والتغاضي عن الأخطاء التي ارتكبها في حقهم ، إلا أنه وجد نفسه غريباً بينهم ، بعيداً عن قلوبهم.

فلم يمر بمنطقة من مناطق الشام إلا وتعرضت مؤخرته للنهب والقتل. فقد ناهضه العرب بفرعيهم اليمني والقيسي . فأما العرب اليمنية فلأنه كان قد أساء إليهم وأبعدهم ، وقتل أشهر رجالهم . فانضم هؤلاء إلى الدعوة العباسية ، وانتقموا منه حين سنحت لهم الفرصة بتراجعه أمام العباسيين ، وأخذوا يعتدون على مؤخرته كلما مر من مناطقهم . فقد أوقعت طيء وتنوخ في قنسرين بساقته ، واقتطعوا مؤخرة عسكره ، ونهبوه انتقاماً لقتله جماعة منهم(١٤) . وكذلك وثب عليه يمنيو حمص. وفي الأردن وثب به المذحجيون جميعاً . وفي فلسطين وثب عليه الحكم ابن ضبعان بن روح بن زنباع(١٥). وأما العرب من القيسية فانهم لم يساعدوه في محنته على الرغم من أنه قربهم إليه واعتمد عليهم . فقد أنهكهم بكثرة الحروب التي خاضوها معه طوال فترة حكمه التي امتدت من سنه ١٢٧ حتى ١٣١ هـ / ٧٤٤ — ٧٤٩ م . وهي حروب ضد الثوار من الخوارج ، وضد القبائل اليمنية والمدن الشامية ، وزعماء الأمويين الذين ناهضوه . ولم يجد هؤلاء العرب فرصة للهدوء والراحة، إلى جانب أن أعداداً كبيرة منهم ذهبت ضحية هذه الحروب ، ومما يدعم ذلك ويؤكده أن مروان بن محمد أراد حين خرج من فلسطين وبرفقته ثعلبة بن سلامة العامري أن يستعين بقوم الأخير ، فسأله عنهم، فأجابه بما لايدع مجالاً للشك أن أكثر هؤلاء قتلوا في فرض طاعة مروان على مناهضيه .

ومما هو جدير بالذكر أن المصادر العربية ذكرت أنه لم يتبع مروان

ابن محمد من العرب اليمنية أحد لأنه كان قد أساء إليهم ، ولم يتبعه من العرب القيسية حين خرج من الجزيرة إلا ابن حيدرة السليمي وهو أخوه في الرضاعة ، والكوثر بن الأسود الفنوي صاحب شرطته(١٦). ثم تذكر المصادر أن جيش مروان بن محمد كان يتألف في مجموعه من مائة وعشرين ألفاً من عشائر معروفة وفرسان العرب قاطبة (١٧) . وعلى ضوء هذين القولين فانه يمكننا أن نقول أنه لم يكن مع مروان من رؤساء العرب القيسية المعروفين إلا اثنان . وأن جيشه كان يحتوي على عشائر عربية متنوعة . وقد ندم مروان بن محمد لما فعله من الاعتماد على القيسية لعدم وفائهم في وقت الشدة حين لاينفع الندم(١٨). فقد وثبوا عليه في دمشق ، فاضطر إلى تركها بعد أن جعل الوليد بن معاوية على امارتها، وأوصاه بقتال جيوش العباسيين كي تسنح له الفرصة لتجميع قوات من أهل الشام ، ومضى متجهاً نحو فلسطين حيث نزل نهرأبي فطرس(١٩).

وبدأ العباسيون يفتحون مدن الشام واحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر ، ولم تنفرد بمدافعتهم إلا مدينة دمشق . وقد فتحت لهم الموصل أبوابها بمجرد وصول طلائعهم إليها ، واستقبلهم أهاليها بالرايات السوداء . ودخلها عبد الله بن علي فاستولى على خزائن مروان بما فيها من الأموال والأمتعة .

وبعد أن نظم عبد الله بن علي أموره في الموصل توجه نحو حران. فاضطر مروان بن محمد إلى الفرار منها ، ودخلها عبد الله ، فأصدر

الأمان لكل من بحران والجزيرة . وهدم الدار التي حبس فيها أخوه ابراهيم ، كما هدم قصر مروان بن محمد بها . وبذلك فان عبد الله قد استولى على أغلب أموال الدولةالأموية.
ثم سار إلى منبج فبايعه أهلها ، ورفعوا الأعلام السوداء ، وأرسل أهالي قنسرين إليه في منبج يعلنون البيعة والطاعة . كما وصل إليها مدد من الخليفة أبي العباس بقيادة عمه عبد الصمد بن علي في أربعة آلاف رجل.
وسار برفقته إلى حلب ، وهناك بايعه أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ، وكان من أصحاب مروان ، ثم سار عبد الله إلى حمص وأقام بها حتى بايعه أهلها(٢٢) .

بعد أن أتم عبد الله بن علي فتح شمال بلاد الشام دون عقبة تذكر ، توجه نحو أواسطها . فسار نحو بعلبك حيث أقام يومين ، ثم سار فنزل مزة دمشق حيث جاءه مدد آخر من الخليفة أبي العباس بقيادة صالح بن علي ، فنزل مرج عذراء في ثمانية آلاف(٢٣) .

عمل عبد الله بن علي جاداً من أجل فتح عاصمة الأمويين،فوزع أصحابه على أبوابها وحاصرها . وفي أثناء الحصار حدث خلاف داخل مدينة دمشق . فقد ثارت العصبية القبلية بين العرب القيسية واليمنية في فضل كل منهما على الأخرى ، واقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً ، وذكر أنه قتل في دمشق في هذه الثورة نحو من خمسين ألفاً(٢٤) .

كان الحصار يشتد على دمشق والثورة بين القبائل تلتهب في داخلها،

حتى قرر أهالي دمشق طلب الأمان . فخرج أحد رجالاتها (يحيى بن بحر) من أجل ذلك ، وقابل عبد الله بن علي . وفي أثناء المقابلة وقبل كتابة شروط الأمان دخلت الجيوش العباسية المدينة ، فرفض عبد الله اعطاء الأمان . إلا انه تقديراً منه لموقف يحيى بن بحر ومودته لأهل البيت، وأسوة بما كان من الرسول الكريم حين فتح مكة، واحياء للسنة ، أعلن أن من دخل دار يحيى فهو آمن(٢٥) .

كان دخول العباسيين مدينة دمشق يوم الأربعاء ٥ رمضان سنة ١٣٢ ﻫ/١٨ نيسان/ابريل ٧٥٠ م. وقد أبيحت للجنود ثلاث ساعات ، وقيل إنها تعرضت للنهب ثلاثة أيام ووضع السيف في أهلها (٢٦) . ثم توجه عبد الله بن علي منها إلى فلسطين وبرفقته خمسون ألف مقاتل (٢٧).

أعلن أهالي الأردن الطاعة وبايعوا للعباسيين . فتوجه عبد الله ابن علي لقتال مروان على نهر أبي فطرس . وما أن علم مروان بمسيره إليه حتى فر هارباً ، وكفى عبد الله بذلك مشقة قتاله ، فأقام في فلسطين ووجه أخاه صالحاً في طلبه .

على هذا الشكل كان مروان يفر من وجه الجيوش العباسية الزاحفة في اثره ، وينتقل من بلد لآخر ، حتى وصل إلى مصر . فتبعه صالح إليها حتى ألجأه إلى قرية بوصير من كورة اشمون في الصعيد ، فقتل فيها في ٢٧ ذي الحجة سنه ١٣٢ ﻫ / ٧ آب أغطس ٧٥٠ م (٢٨) .

أرسل صالح بن علي إلى أبي العباس مبشراً إياه بالنصر وقتل مروان. وأرسل له أيضاً شارات الخلافة ، وهي قضيب رسول الله (ص) ومخصفته . وكان مروان قد دفنها في الرمل لئلا تصل إلى أيدي العباسيين فدلهم على موضعها أحد غلمانه بعد أن أخذ الأمان على حياته. وبعد أن أنهى صالح بن علي مهمته في القضاء على مروان بن محمد خلف أباعون في مصر ودفع له الغنائم ، كما سلم إليه السلاح والأموال والرقيق، وعاد إلى الشام(٢٩) .

وبمقتل مروان بن محمد طويت صفحة الخلافة الأموية ، ودخلت بلاد الشام كسائر بلدان الخلافة الاسلامية تحت حكم الخلافة العباسية . ومما لاشك فيه أن انتصار العباسيين على الأمويين كان بسبب حالة الضعف التي وصل الأمويون إليها ، ونفور المسلمين عن نصرتهم ، وبشكل خاص حين تقاعس أهالي الشام – أنصار الأمويين – عن شد أزر مروان ، وكان لهذا أسباب قوية فرضته وأدت إليه أهمها :

– استيقاظ روح العصبية القبلية بين عرب الشمال والجنوب ، وتفضيل الخلفاء الأمويين لقبيلة أو لأخرى حسب الظروف كان له أثره في نفور هذه القبائل من القتال ، وفتور حماستها للذود عن الخلافة الأموية ، فقد عمل معظم خلفاء الأمويين على تقريب أحد فرعي القبائل العربية إليهم – إلا من عمل منهم على حفظ التوازن القبلي وكانوا قلائل – . فقد رفع الخليفة معاوية بن أبي سفيان عرشه على أكتاف

القبائل اليمنية وبخاصة بني كلب الذين كانت لهم المكانة الأولى بين القبائل اليمنية في الشام (٣٠) . وكان هؤلاء يقطنون المناطق المحيطة بدمشق وفي حمص وتدمر . وعلى الرغم من أن هدف معاوية من هذا إقامة توازن قبلي فقد أدى تصرفه الى حظوة الكلبية ، فغلت مراجل الحسد في صدور القيسية بحيث رفضت الاعتراف بمعاوية الثاني بن يزيد خليفة، وظاهرت ابن الزبير . وحاول عبد الملك بن مروان ، والوليد بعده العمل على ايجاد توازن بين القيسية واليمنية،إلا أن الأحداث والأشخاص كانت تقلب هذا التوازن .

وتوجت هذه العصبية القبلية بمرج راهط ،والتي كانت وكأنها نزاع بين حزبين سياسيين . وأخذت كل قبيلة تغير على الأراضي والمناطق التابعة للقبيلة الأخرى ، ثم كان انتصار كلب على قيس في مرج راهط والبيعة للخليفة مروان بن الحكم .

وعلى الرغم من أنه كان للأحداث التي تمر بها الخلافة الأموية وزن كبير في تحديد سياسة كل خليفة من الخلفاء الأمويين مع قبائل العرب . إلا أن هذه السياسة تجلت للجميع بتفضيل الخلفاء لفرع دون آخر . ففي عهد الخليفة الوليد علا نجم القبائل القيسية على يد الحجاج، ومحمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي. أما سليمان بن عبد الملك فقد مال إلى اليمنية منهم. ثم جاء يزيد بن عبد الملك فقرب إليه القيسية، وعمل مثله ابنه الوليد ، وتقرب يزيد بن الوليد من القبائل اليمنية واستعان بقوة سلاحهم على اغتصاب العرش من الوليد الثاني (٣١) . وهكذا

يبدو - والأمور تسير على هذا الشكل - أن الخليفة مروان بن محمد لم يكن هو الذي أيقظ روح العصبية القبلية ، وإن كان قد تمم مابدأ به أسلافه بانحيازه لأحد الحزبين . فقد اعتمد في تثبيت خلافته على بث التفرقة والخصومات بين فرعي القبائل العربية المشهورة ، واعتمد على القبائل القيسية وقاتل اليمنية وجفاهم وقتل زعماءهم (٣٢) .

ونتيجة لهذه السياسة التي سار عليها الخلفاء الأمويون التهبت نار الإحن والأحقاد بين الفرعين ، اندلع لهيبها أول الأمر في بلاد الشام مركز الخلافة الأموية ، وأسفر ذلك عن حروب كثيرة بين هذه القبائل ، كادت تخرب بلاد الشام ثم مالبث أن تطاير شررها إلى غيرها من الولايات الاسلامية ، وغدت بقاع كثيرة من الدولة مسرحاً للاصطدام بين هذه القبائل . فقد نشبت ثورة يزيد بن المهلب في العراق ، واتخذت طابع العصبية القبلية وإن لم تكن العصبية هي السبب في خروج ابن المهلب عن الطاعة(٣٣). وانتقلت العصبية إلى خراسان ونشب فيها النزاع بين فرعي قبائل العرب ، بسبب تعارض مصالحهما (٣٤) . ومما لاشك فيه أنه كان يزيد في اضرام نار المنافسة بين هذه القبائل ، ماكان يحدث من تفاخر بين أبنائها حتى أمام الخلفاء أنفسهم ، إلى جانب هجاء الشعراء وتفاخرهم . وقد استغل دعاة العباسيين هذه الفوضى السياسية غاية الاستغلال ، وتمكنوا بذلك من نشر دعوتهم .

وبدت القبائل العربية وكأنها أنهكت لهذا التذبذب في موقف

خلفاء الأمويين منها،حتى أدى ذلك إلى الانكماش عن مساعدة مروان ابن محمد في محنته،وقد بدا ذلك واضحاً في معركة الزاب ، فكان مروان ابن محمد كلما نادى على قبيلة من القبائل لنصرته تبتعد عنه وتطلب منه أن ينادي على الأخرى قبلها(٣٥) . فلم يتحمس العرب القيسية للقتال مع مروان ، كذلك يئس اليمنية من الأمويين عامة ، وانقلبوا إلى حزب معاد ، وانضموا إلى الدعوة العباسية ، وكانوا من أكبر أنصارها .

وهكذا يبدو أنه على الرغم من أن الأحداث هي التي كانت تفرض على الأمويين الانحياز لأحد الفرعين القبليين ، فان هذا الانحياز أدى إلى استيقاظ روح العصبية القبلية . وأدى إلى نفور الفرعين عن مساندتهم ، وانحياز العرب اليمنية إلى العباسيين . وكان لهذا ماكان من دور بارز في انهزام مروان بن محمد في معركة الزاب ، ثم اضطراره إلى الانسحاب من بلاد الشام ، ومقتله وسقوط الخلافة الأموية . وكان من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح العباسيين وقيام دولتهم .

وإلى جانب هذا العامل المهم فان هناك عوامل أخرى لا تقل عنه أهمية أفاض في شرحها المؤرخون . ويمكن اجمالها في قول أحد شيوخ بني أمية حين سئل عن ذلك فقال : إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ماكان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا. وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا . وتأخر عطاء

جندنا فزالت طاعتهم لنا . واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا . وطلبنا أعداؤنا فعجزنا لقلة أنصارنا . وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا (٣٦) .

وبسقوط الأمويين زال مجد الشام ، ولم يدر أهل الشام إلا بعد فوات الأوان أن مركز العالم الاسلامي قد انتقل من الشام إلى العراق ، ومن دمشق إلى بغداد . وقد حاول أهل الشام مراراً استرجاع الملك الذي كان لهم فلم يفلحوا . وأخيراً حين ضاعت آمالهم تطلعوا إلى مجيء السفياني المنتظر .

* * *

– سياسة العباسيين تجاه الامويين وأهالي الشام :

لم يقف عرب الشام موقفاً صلباً للدفاع عن مروان بن محمد ، مما مكن العباسيين أن يقضوا على فلول الأمويين ومراكزهم الحصينة في العراق والشام . ولم يكن أهالي الشام – بما فيهم قبائلها – يكرهون خلافة الأمويين بشكل عام ، بل إنهم كانوا غير راضين عن سياسة مروان ابن محمد بين القبائل الشامية ، وانحيازه الصارخ للقيسية .

ولما قامت الخلافة العباسية نهض أشياع الأمويين لمعارضتها . وقد تجلت هذه المعارضة في بلاد الشام في العصر العباسي الأول بثورات القبائل الشامية بقيادة شيوخها أو أمراء أمويين، كما تمثلت في حركة السفياني المنتظر الذي كان أمل أهالي الشام في استعادة سلطانهم . وكان العباسيون يدركون مدى حب أهالي الشام للأمويين واخلاصهم لهم . ومن أجل ذلك فقد رسم محمد بن علي الطريق لانصاره ، وأوضح لرجال دعوته عدم الاعتماد على أهالي الشام معبراً عن ذلك بعبارة صريحةإذ قال: أما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً (٣٧) .

وتتضح نظرة العباسيين إلى أهل الشام منذ اليوم الأول لاعلان الخلافة العباسية كما اتضحت قبل الاعلان . فقد خصص الخليفة أبو العباس فقرة خاصة من خطابه ذكر بها أهل الشام وموقفهم من العباسيين، وانهم ينظرون إلى الأخيرين نظرة خاطئة حين يرون أن غيرهم أحق بالرياسة والخلافة منهم . بينما حقيقة الأمر أن العباسيين أحق بها حيث أن الله هدى الناس بهم بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم(٣٨). وبناء على هذه الصورة ، بنى العباسيون سياستهم.

عهد أبو العباس لعبد الله بن علي بولاية الشام ، كما عهد بادارة البلاد إلى رجال من آل بيته يستأصلون قواد الأمويين وجماعاتهم لا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة (٣٩) . ولم يتورع عبد الله بصراحته عن استخدام أعنف الوسائل للأخذ بالثأر . فقد انتقم لكل من قتل على يد الأمويين فأخذ الثأر من أحيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بنبش القبور ، وصلب الجثث واحراقها . بل قتل حتى الذين استأمنوا إليه ، ووقع القصاص على أهل الشام باعتبارهم أنصار بني أمية(٤٠) . حدث هذا على الرغم من أن أبا العباس حين حضر إلى الشام بعد مقتل مروان بن محمد ، خطب في أهلها مطمئناً لهم ، وأوضح لهم أنه عفا عنهم ، واغتفر لهم زلتهم (٤١) .

وعندما قدم عبد الله بن علي إلى فلسطين بعث إلى بني أمية وأظهر لهم أن أمير المؤمنين أوصاه بهم خيراً ، وأمره أن يلحقهم في ديوانه،

وأن يرد عليهم أموالهم ، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلاً . ودخل مع الأمويين رجلان من بني كلب منعا من الدخول أولاً ، ولما أصرا على ذلك سمح لهما . وأعد لهم عبد الله مجلساً فيه أضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والعمد . ولما أخذوا مجالسهم نهض عبد الله فذكر لهم مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته . ثم أخذ قلنسوة فضرب بها الأرض ، وقام جنوده فضربوا الأمويين بالعمد والسيوف حتى أتوا عليهم . ولم يستعف منهم إلا عبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك ، لأنه كان يطمع في ماعنده من أموال (٤٢) .

وقد أراد عبد الله أن يكون عمله هذا عبرة للجميع . يتضح ذلك من خطبة نسبت إليه بعد تنكيله ببني أمية، يوضح بها أن القتل هو العلاج الوحيد للمعصية (٤٣) . ولما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم ، وتشتت شملهم ، واختفى من تمكن منهم . ولم يصف العباسيون للأمويين حتى لاولئك الذين ساعدوهم على قيام دولتهم . فعلى الرغم من الدور البارز الذي قام به سليمان بن هشام في حروب العباسيين ضد مروان ابن محمد ، فقد كانت نهايتهالصلب على باب الإمارة بالكوفة (٤٤).

وهكذا قضى عبد الله بن علي على كل من يشك في أمره ، كما استولى على أموال الأمويين . فقد احتوى على عسكر مروان بما فيه من سلاح كثير وأموال . كما استولت جيوش العباسيين على الأموال التي وضعها مروان في معركة الزاب ليحمس بها جنوده على القتال(٤٥).

وكذلك فان عبد الله استولى على اموال عبد الواحد بن سليمان وقتله. ولما بلغ الخبر للخليفة أبي العباس – وكان يعرف عبد الواحد قبل ذلك، ويرى أنه أفضل قرشي في زمانه عبادة وفضلاً ، ويرى أنه قتل بسبب أمواله – غضب وكتب إلى عمه ألا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به . وكان ذلك بداية لنقمة أبي العباس على عمه(٥٦) . ومن جملة ماستولى عليه عبد الله بن علي مجوهرات عبدة بنت عبيد الله بن يزيد، مثل البدنة والدرة اليتيمة . وانتقلت ملكيةهذه المجوهرات فيما بعد إلى الخلفاء العباسيين . ويقال بأن المهدي حين زوج ابنه الرشيد بزبيدة أعطاها بدنه عبده . ولم يكن يرى في الاسلام مثلها ومثل الحب الذي كان فيها (٤٧) .

ومن أهم غنائم الحرب التي استولى عليها العباسيون ، ضياع ال مروان . فمن ذلك استيلاؤهم على بالس وقراها التي كانت لورثة مسلمة بن عبد الملك ، وأقطعت إلى سليمان بن علي . وكذلك استولوا على رصافة هشام ، إلى جانب ضياع أخرى واسعة ، وسميت هذه الضياع ضياع الخلافة (٤٨) . واستولى العباسيون فيما استولوا عليه على دار الصباغين في الرملة ، وسلمت إلى صالح بن علي وإلى ورثته من بعده(٤٩) . كما قام العباسيون بمحو بعض آثار الأمويين في بلاد الشام ، من ذلك ماحصل في المسجد الأقصى . فقد أصاب البناء شيء من الخراب في عهد الخليفة العباسي المأمون . ولما قام هذا الخليفة بزيارةبيتالمقدس في سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠م أمر بترميمه . ولما انتهى العمالمن

ذلك أستبدلوا باسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان اسم المأمون، ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة . إذ يوجد – فوق الأعمدة التي يقوم عليها سقف المسجد حول الصخرة من الناحية الجنوبية– خط ضيق مصنوع من البلاط الأزرق نقشت عليه بالأحرف الكوفية المذهبة الكلمات الآتية : (بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي عنه آمين) (٥٠) . ويظهر من التاريخ المذكور ان عبد الملك بن مروان هو الذي قام ببناء القبة، ولم يفطن الصانع الذي غير الاسم إلى تغيير التاريخ . ثم إنه وجد المكان ضيقاً بحيث لايتسع لاسم الخليفة المأمون وألقا به ، فاضطر إلى كتابة ذلك بطريقة تخالف تلك التي كتبت بها الكلمات الأخرى . أي إن الحروف التي كتب بها اسم المأمون جاءت مزدحمة متراصة يختلف شكلها عن الحروف التي سبقتها . ثم إن لون الفسيفساء التي جرى بها التحريف أشد سمرة من لون الفسيفساء القديمة (٥١) .

ويقال أنه سبق أن حدثت عدة زلازل قبل ذلك أثرت في بناء المسجد الأقصى، وخاصة في أيام الخليفة أبي جعفر المنصور . فأمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على أبواب المسجد الأقصى وضربت دنانير ودراهم أنفقت في بنائه(٥٢) .

* * *

٤ ــ موقف القبائل العربية والمدن الشامية من العباسيين :

بقيت بلاد الشام في حالة غليان واضطراب إن لم نقل في حالة ثورة لمدة طويلة بعد دخول العباسيين إليها . وكان كره القيسية لهم في الشام كبيراً . وأبلغ دليل على ذلك ماقاله ابن جعونه(٥٣) للخليفة أبي جعفر المنصور : (إن الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون في وقت واحد) . فأمر المنصور أن يقتل الرجل فوراً (٥٤).وعلى الرغم من كل ماحصل بين أهالي الشام والعباسيين ، فان الأخيرين كانوا في بعض الأحيان يعملون على انصاف أهالي الشام. ولم تكن سياستهم قاسية باستمرار ، يؤكد ذلك مايذكره الجهشياري (٥٥) من أن أموياً جاء يطلب مظلمة ، فدخل على الخليفة هارون الرشيد ، فأحسن إليه ووصله وأجرى له رزقاً في بلده ورده إليه .

وبالرغم من كل شيء ، فان الوضع الاقتصادي في بلاد الشام كان في العهد الأموي أفضل منه في العهد العباسي . على أن سياسة الاعتماد على فرع قبلي واحد التي طبقها ولاة العباسيين أدت إلى حدوث نزاعات قبلية في الشام،كما أدت إلى خروج أهالي الشام على أبي العباس وخلفائه من بعده ، فقد ثاروا في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين .

١ ـ النزاعات القبلية في الشام وسياسة العباسيين :

لابد لي قبل أن أدخل في خضم بحث النزاعات القبلية من أن أثبت حقيقة كان قد طمسها المستشرقون الذين جهدوا لاثبات أن الخلافة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، وأغمضوا الدور الكبير الذي قام به العرب في هذا المجال . ويبدو أن هؤلاء حين كتبوا ، كتبوا في ضوء ما حدث فيما بعد من أهمال للعرب . ومهما يكن من أمر ، فلا بد من ذكر مايشير إلى دور العرب الكبير في الدعوة العباسية ، وفي قتال الأمويين ، وفي الشطر الأكبر من حكم أوائل العباسيين . وأول ماتبادر إلى ذهني ذكر ماكتبه ابن قتيبه حين تحدث عن تعداد الجيش الذي قاتل الأمويين ، حيث فرق بين أهل خراسان من العرب وبين الفرسان منهم ، فذكر أن تعداد الجيش كان اثني عشر ألفاً من أهل خراسان سوى الأعاجم (٥٦) .

كما يبرز دور العنصر العربي في الدعوة العباسية وفي حروب العباسيين مع الأمويين ، حين نعلم أن شيخ النقباء والنقباء كانوا من العرب. فقد كان سليمان بن كثير الخزاعي شيخ النقباء ، وأما النقباء الاثنا عشر فمنهم أربعة من خزاعة، وأربعة من تميم،وواحد من طيء ، وآخر من شيبان ، والثاني عشر مولى لحنيفة . وتتأكد هذه الحقيقة حين نعلم أن أكثرية نظراء النقباء من العرب ، وكذلك الدعاة ودعاة الدعاة (٥٧).

وقد ترك لنا الجاحظ نصاً أوضح لنا فيه دور العرب البارز في الدعوة العباسية بشكل لايدع مجالاً للشك فقال : (وهل أكثر النقباء

إلا من صميم العرب ومن صليبة هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة ابن شبيب الطائي ، وأبي معد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن ابراهيم الذهلي ، وكأبي عمرو لاهزبن قريظ المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مالك بن الطواف المزني . وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباته بن حنظلة . الاعرب الدعوة والصميم من أهل الدولة (٥٨) .

ولكن العرب بقبائلهم ، لم يقفوا من العباسيين موقفاً موحداً . فعلى حين انضم العرب اليمانية إلى الدعوة العباسية وناصروها ، فان العرب القيسية لم يفعلوا ذلك . وقد أكد ابراهيم الإمام على دور العرب اليمنية في الدعوة العباسية حين أوصى أبا مسلم الخراساني في الاعتماد عليهم قائلاً له : (إنك رجل منا أهل البيت ، احفظ وصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله لايتم هذا الأمر الا بهم) (٥٩) .

وبدا اعتماد العباسيين واضحاً على العرب اليمنية حين فتح عبد الله ابن علي مدينة دمشق ، فقد خاطبهم بقوله : (أنتم منا ، ولكم قوام أمرنا ، فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر(٦٠) . وكان لهذه السياسة ثمارها ، فقد ترك العرب اليمنية الذين كانوا في دمشق قتاله مما اضطر فرع العرب الآخر إلى الرحيل عنها . وفتحت أبواب دمشق

للعباسيين . وقد اعترف الخليفة أبو جعفر المنصور بالدور الكبير الذي لعبه العرب اليمنية في نجاح الدعوة العباسية . فقد صرح بان الدعوة قامت على أكتافهم ، وأن النقباء كلهم منهم ، وأضاف قائلاً بأنه على العباسين أن يعترفوا لهؤلاء بحق نصرهم ، وقيامهم بالدعوة ، ونهوضهم بالدولة) . كما أن الخليفة المنصور خاطب العرب اليمنية أثناء حصار واسط قائلاً لهم : (السلطان سلطانكم والدولة دولتكم) (٦١) .

هذا عن العرب بقبائلهم بشكل عام ، أما في الشام فقد حاول العباسيون استغلال هذا النزاع القبلي لتثبيت مركزهم في الشام . فأخذوا في المراحل الأولى يعتمدون على العرب اليمنية اعتماداً كلياً . فأدى ذلك إلى حقد القبائل القيسية على العباسيين . وكانت معظم الثورات القبلية التي اندلعت في بلاد الشام عقب دخول العباسيين إليها ، ثورات أشعلتها القبائل القيسية خوفاً على مركزها .

لم تكن سياسة الانحياز إلى فرع قبلي واحد في صالح العباسيين . وكان عليهم أن يعدلوا عن هذه السياسة عقب تثبيت مركزهم . ولكن ولاة العباسيين في بلاد الشام لم يقدروا هذا الأمر حق قدره ، بل إنهم في كثير من الأحيان عملوا على اشعال نار العصبية القبلية بسوء سياستهم.

وأخذ ولاة الشام أيام خلفاء العباسيين الأوائل يناصرون القبائل اليمنية في الشام ـ كلما نشب نزاع بين الفرعين القبليين ـ دون تمحيص في الأمر ، أو اهتمام باحقاق الحق ، وانصاف المظلوم، وتهدئة النزاع.

اللهم باستثناء الوالي ابراهيم بن محمد المهدي(٦٢) المعروف بابن شكلة الهاشمي أخي الرشيد . فقد عمل جاهداً على مساعدة الطرفين ، واحضارهما إليه ومعاملتهما حسب قانون أرضاهم . إذ أمر حاجبه باحضار رؤساء الفرعين القبليين وتسمية أشرافهم ، وأن يقدم من كل حي الأفضل فالأفضل . فأمر بأن يكون أول الناس من الجانب الأيمن مضرياً وعن شماله يمنيـاً . ومن دون اليمني مضري ، ومن دون المضري يمني ، حتى لايلتصق مضري بمضري ولا يمني بيمني . وأوضح لهم بأنه لكي يتم العدل بين الطرفين ينبغي أن يتناوب الطرفان أمكنتهم يومياً ، فيكون مجلس رئيس المضريه في اليوم التالي في الجانب الأيسر ، ورئيس اليمنية في الجانب الأيمن وهكذا .

وبهذه الطريقة تمكن ابراهيم بن المهدي من تهدئة النفوس ، وانصرفوا من مجلسه وكلهم حامد له . ولم يستطع أغلبية ولاة الشام العباسيين من الاستمرار في هذه السياسة ، بل عادوا إلى الانحياز ثانية على الرغم من أن بعضهم حاول أن يعمل على الحد من الخلافات ، وأن يعامل الفرعين القبليين بالمثل . فقد أوضح أحد ولاة العباسيين لرؤساء الفرعين القبليين ، أنه لن يقدم فريقاً على آخر إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء . وأوضح بأن الجميع اخوة يعاملون معاملة الند للند . وكان في غدائه يتغذى مع جلة الفريقين ، ويسوي بينهم في الاذن والمجلس(٦٣) .

ولكن هذه التصرفات الشخصية من قبل بعض الولاة لم تكن لتحول

دون وقوع منازعات بين القبائل كانت متكررة . وكانت الثورات القبلية في الفترة الأولى في أغلبها قيسية . ويبدو أنه منذ مطلع القرن الثالث الهجري بدأت ثورات القيسية في الانحسار ، وبدأت تظهر للعيان ثورات كان يقوم بها العرب اليمنية من أهالي مدينة حمص على عمالهم . وقد يكون لكل ثورة من هذه الثورات أسباب مباشرة قريبة أدت إليها . إلا أنه لابد من وجود سبب عام شامل جمعها . وهو انحياز ولاة العباسيين على مايبدو إلى القيسية ، وسوء معاملة القبائل اليمنية على عكس ماكان الحال أوائل قيام الخلافة العباسية .

ومن أشهر الثورات القبلية ثورة أبي الهيذام القيسية التي نشبت سنة ١٧٦ هـ،والتي تضامن فيها القيسيون في الشام ، ضد التجمع اليمني . وثورة اليمانية في حمص سنه ٢٤٠ هـ (٦٤) .

وهكذا فان خلفاء بني العباس على الرغم من أنهم كانوا يدركون بأن النزاعات القبلية كان لها دور كبير في نهاية الخلافة الأموية، فانهم لم يأخذوا عبرة من ذلك ، بل إنهم ساروا في نفس الطريق . وكان الاجدر بهم ان يعملوا على ايجاد توازن بين القبائل حيث اثبت ذلك فاعلية كبيرة في أيام والي دمشق ابن شكلة .

كانت هذه سياسة العباسيين مع القبائل الشامية بشكل عام ، يضاف إليها سياسة كانت أكثر قوة ، وأعمق تأثيراً. تلك السياسة التي بدت واضحة للعيان منذ عهد المأمون وهي سياسة بنيت على إهمال شأن العرب

بصورة عامة من قيسيين ويمنيين ، واخراجهم من الدواوين . وقد كان يبدو للعيان استياء العرب عموماً من هذه السياسة . فأخذوا يتساءلون أمام الخلفاء عن سبب هذا الاهمال كلما سنحت لهم الفرصة . وقد سأل أحد رجال الشام الخليفة المأمون عن سبب ذلك فأجابه قائلاً : أكثرت علي ياأخا أهل الشام . والله ماأنزلت قيساً من ظهور الخيل، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن، فوالله ماأحببتها وما أحبتني قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر. ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما شارياً . اعزب فعل الله بك(٦٥).

وقد توج غضب العرب على سياسة العباسيين هذه بثورة نصربن شبث العقيلي الذي صرح موضحاً سبب ثورته بأنه ليس له هوى في غير العباسيين ، وأنه اتاقاتلهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم(٦٦).

ـ ثورة نصر بن شبث العقيلي :

أدى ابعاد العباسيين للعرب تدريجياً ، وازدياد نفوذ الفرس في الدولة ، وحظوتهم لدى الخلفاء إلى نشوب ثورة عارمة بقيادة نصربن شبث بدأها في سنه ١٩٨هـ / ٨١٣ م . وقد عبر نصر تعبيراً صادقاً عن أسباب ثورته بتصريحاته التي قالها لنفر من شيعة الطالبيين حينما سألوه أن يدعم مركزه بأن يبايع لخليفة . إذ صرح لهم بقوله أنه لايكره

بني العباس . ولم يكن قتاله لهم إلا لانحرافهم عن العرب ولاعتمادهم على الأعاجم(٦٧) .

ونتج عن شعور نصر باهمال العباسيين للعرب وتفضيلهم للموالي حبه للخليفة الأمين وكرهه للمأمون ، لأن أم الأمين عربية . فتطوع في الجيش الشامي الذي شكله عبد الملك بن صالح لنجدة الأمين . إلى جانب أنه ساعد الزواقيل(٦٨) من العرب القيسية في نزاعهم مع الجنود الخراسانية في الشام . واشتد غضب نصر لمقتل الأمين فاستولى على الجزيرة(٦٩) . ونهض يناوىء المأمون ، فأخذ يستولي على ماجاوره من البلاد ، وملك سميساط ، واجتمع حوله كثير من الأعراب منهم من كان صادقاً في مشاعره ، وآخرون من أهل الطمع (٧٠) .

يضاف إلى ذلك أن نصربن شبث العقيلي استفاد من الظروف التي تمر بها بلاد الشام في فترة اضطراب الخلافة العباسية نتيجة الخلاف بين الأمين والمأمون ، كما استغلها غيره . فقد سيطر في هذه الفترة كل رجل وجد في نفسه المقدرة على منطقة من المناطق أو مدينة من المدن . وعندما اعتلى المأمون العرش كان أحمد بن عمر بن الخطاب الربعي يسيطر على نصيبين وماوالاها . وموسى بن المبارك اليشكري على ميافارقين وعبد الملك بن الجحاف السلمي ، ومحمد بن عتاب على ارمينية ، وحبيب بن الجهم على رأس عين وكفرتوثا . وعثمان بن ثمامة العبسي على قورس وماوالاها من كور قنسرين . وكان كل من منيع التنوخي

ويعقوب بن صالح الهاشمي يقتتلان للسيطرة على حاضر حلب . وكان الحواري بمعرة النعمان وتل منس وماوالاها، وحراق البهراني بحماة وماوالاها ، وبنو بسطام بشيزر وماوالاها ، وبنو السمط بمدينة حمص. وثابت بن نصر الخزاعي بالمصيصة وأذنة وماوالاها من الثغور الشامية. وأقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعة من سائر القبائل . وكان أصعب هؤلاء شوكة وأشدهم امتناعاً نصر بن شبث ، وكان يسيطر على كيسوم وماوالاها من ديار مضر .

كان نصر بن شبث يتقد غضباً – للأسباب التي ذكرناها – على العباسيين . ولذلك فانه أعلن ثورة مسلحة ضدهم . وانضمت إليه أعداد كبيرة فشعر بقوة مركزه . ولذلك فانه عمل في سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م على مهاجمة حران وحصارها .

أقضت هذه الثورة مضاجع العباسيين . وكانت سبباً لمشكلات كثيرة مع السكان في منطقة الفرات والجزيرة . وقد انضم لنصر ابن شبث في ثورته قائد آخر من قواد الجند يقال له عمر . وظلا ثلاثة عشر عاماً يثيرون الذعر على ضفتي الفرات . وكان نصر يتحصن بكيسوم وسروج(٧٦). أما عمر فيتحصن في سميط(٧٧) .

وقد اهتم الخليفة المأمون اهتماماً كبيراً بالقضاء على هذه الثورة. ففي سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ولى طاهر بن الحسين حلب والشام ، وكلفه بقتال نصر. فتحصن الأخير في كيسوم . وجاءه طاهر فهاجمه بها إلا أنه لم يظفر به . وقاتل نصر بجرأة نادرة ، وأثخن في أصحاب

طاهر وتمكن من هزيمتــه في الرقــة . ولم تزل الحرب بينــه وبين طــاهر حتى قــدم المأمون إلى بغــداد . فانصرف طاهر إليه بعد أن ولى مكانه يحيى بن معاذ ، الذي أقام بالرقة حتى توفي . فخلفه شبيب البلخي ، إلا أنه هزم أمام قوة نصر(٧٨) .

وفي سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، ولى المأمون عبد الله بن طاهر قتال نصر ، وأعطاه ولاية المنطقه الممتدة من الرقة إلى مصر (٧٩) . وقد أوصى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله بهذه المناسبة وصية مشهورة أوضح له فيها الطريق الذي يجب أن يسير فيه،وحسن معاملة الناس، وقدم له خبرته في الحروب . وباختصار فان هذه الوصية جمعت محاسن الآداب والسياسة ومكارم الأخلاق.إذ لم يترك شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به(٨٠) .

أقام عبد الله على محاربة نصر خمس سنوات جرت خلالها معارك كثيرة ، ولم يستطع عبد الله خلالها أن يحقق انتصاراً حاسماً ، وجرت أثناء ذلك محاولة لانهاء الحرب وابرام الصلح ،وكاد الصلح يتم وتحقن الدماء ويذهب عن الناس في تلك النواحي ماأصابهم من فزع وهلع ، لولا كبرياء في رأس نصر ، قابلها الخليفة بالعنــاد . فقــد شرط نصر لقبول الصلح أن لايطأ بساط المأمون . ولكن المأمون لم يرض بهذا الشرط . وصرح بأنه لن يجيبه إلى هذا مهما كلفته الحرب . حتى لو أفضى ذلك إلى بيع قميصه(٨١).

وكان احتجاج المأمون ، أنه إذا كان نصر خجلاً مما كان منه ، فانه لم يكن أكبر جرماً ممن سبقه في عداء المأمون من أمثال الفضل بن الربيع ، وعيسى بن أبي خالد ، ومع ذلك فانهم وطئوا بساطه . وكان جواب عبدالله بن طاهر على ذلك ، بأن نصراً رجل لم يكن له يد قط فيحمل عليها ، ولا لمن مضى من أسلافه ، بل إنهم من جند بني أمية(٨٢).

قضى تشدد الطرفين على كل فرصة للصلح . ويعود تشدد نصر في موقفه ، إلى أنه كان يرى نفسه أقوى من المأمون لأن ثورته ثورة عربية ؛ وأن دعم العرب له يجعله في موقف قوة . ويحتقر جيرش المأمون وقواته لأنها لم تستطع أن تقضي على ثورة الزط . يتضح ذلك مما صرح به بلهجة عامية بعد رفضه لشروط المأمون قائلاً : ويلي عليه — يقصد المأمون — وهو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه يقوى على بجلبة العرب . ثم صاح بالخيل معلناً العودة للقتال(٨٣) .

وعاد عبد الله بن طاهر لقتاله فحاصره في كيسوم ، وضيق عليه حتى طلب الأمان. وكتب عبد الله بن طاهر إلى سائر المتغلبين في النواحي من أهالي الجزيرة والشام . وأرسل إليهم الرسل فأعلنوا جميعاً الطاعة، وطلبوا أن يكتب لهم كتب الأمان(٨٤) . وخرج نصر إلى عبد الله في الرقة ، حيث سيره إلى بغداد إلى المأمون ، فوصلها في صفر سنه ٢١٠ هـ/ ٨٢٥م ، ووكل به من يحفظه . وقام عبد الله بتخريب حصن كيسوم، وهدم سور معرة النعمان، كما هدم معظم الحصون الصغار مثل حصن الكفر وحصن حناك(٨٥) . وتمكن عبد الله بن طاهر من إعادة بلاد الشام إلى حوزة الخلافة العباسية .

وعلى هذا الشكل انتهت هذه الثورة العربية التي نهض بها عرب الشام للوقوف في وجه الخلافة العباسية بسبب ابعاد العنصر العربي عن مسرح السياسة والقيادة العسكرية .

• • •

يتضح من دراسة موقف العباسيين من القبائل العربية في الشام ، وموقف القبائل العربية منهم أن العباسيين على الرغم من اعتمادهم على

العرب في بداية الأمر ، فانهم عملوا على اهمال شأن العرب تدريجيا ، حتى كان قرار الخليفة المعتصم باسقاطهم من العطاء ، وعلى الرغم من هذا الاهمال ، فانهم في تعاملهم مع العرب في الشام أخذوا في الفترة الأولى ينحازون إلى قبائل اليمن حتى عهد المأمون الذي أعلن أنه لم يحب العرب اليمنية ، ولم يحبه هؤلاء، إذ قال : وأما اليمن فوالله ماأحببتها وما أحبتني قط(٨٦). وقام هؤلاء الولاة في الشام بدور كبير في تحريض فرعي العرب الواحد ضد الآخر ، مما نتج عنه اذكاء نار العصبية القبلية ، وتسبب في حروب كثيرة كادت تخرب بلاد الشام ، وتودي بوحدته . وأخذ العنصر العربي يحتضر نفوذاً وسلطانا منذ عهد المأمون. كما وأنه نتيجة لذلك تأخرت أحوال بلاد الشام الاقتصادية كثيراً عما كانت عليه أيام الأمويين .

- ثورات اجناد الشام ، وموقف العباسيين منها :

ظن العباسيون أن الجو سيصفو لهم باتباع سياسة الشدة مع الأمويين وأنصارهم . ولكن ذلك أدى إلى ردة فعل عكسية ، فقد نشبت الثورات في كل مكان من بلاد الشام . في حوران والبثنية ، وفي قنسرين ، ودمشق ، وحمص ، وفلسطين ، ولبنان .

ا - ثورة حوران والبثنية : ثورة حبيب بن مرة المري :

كانت الثورة التي التهبت في حوران والبثنية ، رداً على سياسة الانحياز التي قام بها العباسيون عقب فتح الشام مباشرة . فقد نهضت القبائل القيسية في المنطقة بزعامة حبيب بن مرة المري ، الذي كان قائداً من قواد الخليفة الأموي مروان بن محمد . فخلعوا طاعة العباسيين ، وبايعوا رجلاً من بني أمية . وسار عبد الله بن علي لقتالهم . وجرت

بين الفريقين معارك كثيرة لم تسفر عن نتائج حاسمة، واضطر عبد الله إلى عقد صلح معهم لنشوب ثورة كبيرة في قنسرين. فدعا حبيب بن مرة وأمنه ومن معه وخرج متوجهاً إلى قنسرين (٨٧).

ويبدو أن عبد الله لم يكن مرتاحاً للصلح الذي عقده مع أهالي حوران والبثنية لأنه عقده مضطراً. وخشي أن يعود هؤلاء للثورة، وخاصة بعد التجاء القبائل القيسية في دمشق إليهم. فعاود عبد الله قتالهم حتى هزمهم. وقامت ثورات أخرى في جنوب الشام في عهد الخليفة المستعين بالله قضي عليها جميعها.

ب ــ ثورة قنسرين وحلب: أبو الورد الكلابي(٨٨) والسفياني(٨٩):

بايع أبو الورد ومن معه من جنرد بني أمية للعباسيين، على اثر هزيمة مروان بن محمد. ثم مالبث أن أعلن الثورة ونكس ببيعة العباسيين، ودعا أهالي قنسرين وحلب إلى اتباعه(٩٠). ويعزى ذلك إلى أن أولاد مسلمة بن عبد الملك الذين كانوا مجاورين له في بالس والناعورة، اضطروا إلى ترك أراضيهم بضغط من العباسيين، والتجؤوا إلى أبي الورد. حيث شكوا له سوء حالهم، فقرر انصافهم، واحقاق الحق. يضاف إلى ذلك أن أبا الورد لم يكن راضياً عن الأساليب القاسية التي كان العباسيون يستخدمونها للحصول على الأموال والأراضي من أصحابها، فقرر أن ينتقم منهم(٩١). ولكي يضفي على ثورته صفة الشرعية بايع لرجل أموي تلقب بالسفياني(٩٢). وكان أول من استخدم هذه النغمة السياسية.

دعا أبو الورد أهالي حمص وتدمر إلى الثورة. فقدم إليه ألوف، نظمهم فجعل السفياني على المقدمة وترك لنفسه تدبير الجيش.

كان عبد الله بن علي مشغولاً بقتال حبيب بن مرة المري . فوجه أخاه عبد الصمد في زهاء عشرة آلاف فارس ، فانهزموا لأول لقاء مع أبي الورد . عند ذلك صالح عبد الله حبيب بن مرة وخرج متوجهاً إلى قنسرين . والتقى بالقوات الثائرة في مرج الأخرم . وما لبث السفياني أن انهزم ، وفر بمن كان معه إلى تدمر . بينما ثبت أبو الورد في نحو من خمسمائة من أهل بيته حتى جرح ، ثم مات متأثراً بجراحه(٩٣) .

وبهذه الهزيمة تراجع أهالي حمص عن بيعة السفياني ، وأقاموا في منطقتهم . وانصرف عبد الله عائداً إلى دمشق ليؤدب الثائرين الذين خرجوا فيها(٩٤). وما أن انصرف عبد الله عن شمال الشام حتى عاد السفياني إلى الثورة في حلب . فأرســل العباسيون إليه جيشين ، أحدهما أرسله المنصور الذي كان يومئذ بالجزيرة وارمينية وأذربيجان ، والآخر بقيادة عبد الله بن علي .

سار الجيش الأول من الرقة ونزل منبج واصطدم مع السفياني في معركة كبيرة . هزمه على اثرها ودخل حلب . وحين وصل عبد الله بن علي ، وجد أن الأمور قد استقرت ، فارتحل إلى دابق ، حيث قضى الشتاء . ثم نزل سميساط لحصار اسحق بن مسلم العقيلي(٩٥).

ج ـ ثورة الجزيرة : اسحق بن مسلم العقيلي :

استغل أهالي الجزيرة فرصة خروج أبي الورد ، وانتقاض أهالي قنسرين على العباسيين ، فأعلنوا عصيانهم وخلعوا طاعة أبي العباس . وسار الثائرون برئاسة اسحق بن مسلم إلى حران لحصار موسى بن كعب والي العباسيين . وقد دام هذا الحصار نحواً من شهرين .

أرسل الخليفة أبو العباس جيشاً بقيادة أخيه أبي جعفر لقتال هذا الثائر . وانضم إلى هذا الجيش عناصر ممن كانوا يحاصرون ابن هبيرة في واسط . ولكن هذا الجيش اضطر ان يقاتل بالرها عدة مرات قبل أن يسير إلى حران . وكتب أبو العباس أيضاً إلى عبد الله بن علي بالمسير بجنوده لنفس الغرض . وعلى اثر ذلك ارتد اسحق إلى سميساط ، فألقى أبو جعفر الحصار عليها . وعلى الرغم من طول الحصار الذي دام سبعة أشهر ، فان اسحق لم يوافق على انهاء الثورة إلا إذا تيقن من أن مروان بن محمد قد قتل . ولما تحقق من الأمر طلب الأمان من أبي جعفر فأجيب إليه(٩٦).وما لبثت الثورة ان عادت إلى الاشتعال ثانية في نفس المنطقة بقيادة أبان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي شكل جيشاًمن خيرة من كان مع اسحق . ولكنه هزم والتجأ إلى سميساط ، فتبعه عبد الله ، ونازل المدينة حتى افتتحها . إلا أن الخليفة أبا العباس مالبث ان دعاه إلى ترك القتال ورفع السيف عن الناس ، وذلك في ١٠ رمضان سنة ١٣٣ هـ / ١٧ نيسان / ابريل ٧٥١ م(٩٧) .

د ـ ثورات دمشق :

عاد عبد الله مسرعاً إلى دمشق ليؤدب الثائرين فيها ، الذين نقضوا بيعة العباسيين ورفعوا راية الأمويين وجعلوا على قيادتهم عثمان بن عبد الأعلى بن سرادقة الأزدي . وقاموا بالهجوم على أبي غانم والي العباسيين فهزموه . ثم أخذوا الأموال والمتاع التي استولى عليها عبد الله دون أن يتعرضوا لأهله بأذى .

اقترب عبد الله من دمشق ، فخرج أهاليها لقتاله في جيش يتألف من ثمانين الفاً . وأراد عبد الله أن يغير من سياسة الشدة التي استعملها

مع أهالي الشام منذ قام بفتحها ، وأن يعمل بنصيحة الخليفة ، بعد أن أثبتت سياسة الشدة فشلها . وارتأى أن يستفيد من العصبية القبلية لتفريق الجنود الذين خرجوا لقتاله : فخاطب رؤساء القبائل اليمنية وذكرهم بالدور الفعال الذي قاموا به في نشر الدعوة العباسية ، وبالمساعدات التي قدموها إليه أثناء دخوله دمشق ، والتي كانت سبباً في سهولة فتح المدينة . وأدت هذه السياسة ثمارها . فقد ترك العرب اليمنية القتال ، كما لحقت بهم ربيعة . ولما رأى عرب مضر ذلك خافوا على أنفسهم وتركوا القتال ورحلوا عن دمشق بذراريهم وأموالهم . وانضموا إلى حبيب بن مرة . وانفسح بذلك المجال أمام عبد الله فدخل دمشق، ثم توجه منها للقضاء على ثورة حوران بقيادة حبيب(٩٩) .

ويمكن أن نعزو أسباب الثورات التي نشبت في دمشق إلى سوء الأحوال الاقتصادية والعمرانية ، إلى جانب سياسة القسوة والشدة التي كان يستعملها الولاة مع الأهالي . فمن المعروف أن مدينة دمشق لم تحظ بأية رعاية أو اهتمام من جانب العباسيين ، وكانت تسير عمرانياً واقتصادياً إلى الأسوأ . حتى ان دمشق أصبحت جرداء مقفرة . يبدو ذلك واضحاً حين نعلم أن الخليفة هارون الرشيد عزل واليه الحسين بن عمار عنهـا حين تنبـه إلى ذلك ، وخاطبـه مؤدبـاً له موضحاً أسباب عزله فقال : (وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر . تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري . فما برح بك التعدي لارفاقهم أن جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال والله ياأمير المؤمنين ماقصدت لغير التوفيق من جهته . ولكني رأيت أقواماً ثقل الحق على أعناقهم فتفرقوا في ميادين التعدي . ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع

باضرار السلطان . وأرادوا بذلك المشقة على الولاة . وان سخط أمير المؤمنين قد أخذ بالحظ الأوفر من مساءتي)(١٠٠) .

ويبدو أن الضعف الذي عم مدينة دمشق جعل سكانها يركنون إلى الهدوء لفترة من الزمن ، حتى كانت سنه ١٩٥ هـ / ٨١٠ م ، حيث نشبت ثورة سفيانية كبيرة ، وهي الثورة التي سميت بثورة أبي العميطر(١٠١). وكانت هذه الثورة أوسع انتشاراً من كل الثورات السفيانية التي سبقتها. فعلى الرغم من أنهـا اندلعت في دمشـق ، إلا أن آثارها امتدت إلى منـاطق القيسية في حوران ومناطق بني نمير في شمال الشام . وأدت إلى انتشار الفوضى في طول البلاد وعرضها . حتى فكر العباسيون في نقل الأموال من مصر إلى بغداد عن طريق الحجاز ، بعد أن كانت تنقل عن طريق الشام (١٠٢) .

دعا هذا الثائر لنفسه بالخلافة ، وبايعه عدد كبير من الناس . وتغلب على سليمان بن منصور عامل العباسيين . وتمكن أحد أنصاره من الاستيلاء على صـيدا وضـمها لـه . وبذلك أصبحت المنطقة التي تحت أمرته تشمل أواسط بلاد الشام(١٠٣) . لقد نجحت ثورة السفياني في الفترة الأولى من عهدها بضم عدد كبير إليها . لأن السفياني كان يشتهر بأنه من العلماء المشهورين . وكان متقدماً في السن ، ومعروفاً بحسن السيرة . ومالبث الناس أن انفضوا من حوله حين رأوا فيه عكس ذلك(١٠٤).

أراد السفياني أن يدعم جيشه بانضمام القبائل القيسية إليه إلى جانب اليمنية التي كان يتألف منها معظم جيشه ، فلم يستطع ، فأسفر عن

عدائه للقيسية ، وهاجمهم في المناطق التابعة له . واستنجدت القيسية بزعيمها ابن بيهس ، الذي لم يجد بدأ من نصرة قومه .

واصطدم ابن بيهس بمعركة عسكرية مع أنصار أبي العميطر ، وتمكن من هزيمتهم على الرغم من تفوق أعدائه عددياً . وارتد هؤلاء عن دمشق ، فانفسح المجال أمام ابن بيهس لحصارها . وتعرض أثناء الحصار لهجمات أبي العميطر ، وتمكن من دحر جيوشه ، وقتل ابنــه في احدى الجولات(١٠٥) .

أدت انتصارات ابن بيهس إلى ضعف أمر أبي العميطر . واستغل الأول الفرصة ، فحرض رؤساء بني نمير على مبايعة أحد أحفاد مسلمة ابن عبد الملك بالخلافة . وكان يقصد من ذلك ضرب الرجلين الواحد بالآخر . ثم عاد هو إلى حوران . وسنحت بذلك الفرصة لابن بيهس وأصحابه بالتغلب على دمشق . وبقي الوضع كذلك إلى أن قدم عبد الله بن طاهر إلى دمشق ، حيث أخذ ابن بيهس معه إلى العراق ، فمات بها(١٠٦). واشتعلت في دمشق نيران ثورات متعددة أخرى . كان أشهرها الثورة التي اشتعلت في سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ — ٨٥٥ م في عهد الخليفة المتوكل على الله . وكان سبب اشتعال هذه الثورة قسوة وظلم والي دمشق سالم ابن حامد . فقد عسف بأهالي دمشق وقتل جماعة من أشرافهم ، فثاروا في وجهه وتمكنوا من قتله على باب قصر الخضراء ، كما قتلوا عدداً من رجاله ، ونهبوا ماوصل إلى أيديهم من الأموال .

أراد الخليفة أن يثأر لمقتل عامله بقسوة ، فجمع قواده وقال لهم : (من لدمشق وليكن في صولة الحجاج) . فأشير عليه بأفريدون التركي.

فأمره على جيش قوامه عشرة آلاف جندي بين فارس وراجل ، وأحل له القتل والنهب لمدة ثلاثة أيام . ولكن شاءت الأقدار أن تنجو دمشق منه قبل أن يطرق أبوابها . ويبدو أنه على الرغم من موت القائد ، فان جنوده دخلوا دمشق ونهبوها ، وأعملوا السيف في سكانها(١٠٧).

هـ ــ ثورات لبنان وحمص : أهل الذمة :

بدأت الثورات في لبنان منذ الفترة الاولى لدخول العباسيين إلى بلاد الشام. ففي سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م قام الجراجمة بثورة قادها الياس ، فقام بنهب البقاع وقراه وسكانه . فأرسل إليه عبد الله بن علي رسلاً للتفاهم وعقد الصلح . ولكن يبدو ان هذه الوساطة لم تسفر عن شيء ، فاضطر الوالي إلى مهاجمته في قرية المرج حيث تمكن من قتل الياس (١٠٨).

وعلى الرغم من قتل قائد الثوار نفسه ، فان الثورة لم تهدأ ، وقادها قائد جديد يسمى سمعان ، وهو ابن اخت الياس . فسارت إليه جيوش الشام ،ودارت بين الطرفين حرب في قرية الشوير ، تمكن سمعان خلالها من هزيمة جند الشام . وكان مردة لبنان يحصلون على مساعدات من البيزنطيين عن طريق البحر . فقوي أمرهم وأخذوا يمنعون الناس من المرور في المناطق المجاورة لمناطقهم . وهددوا المناطق المحيطة بهم بالغزو حتى حمص وحماه . ولم يتمكن المسلمون من السيطرة عليهم لتحصنهم في الجبال المرتفعة(١٠٩) .

هذا وقد نشبت ثورة في لبنان سنه ١٤٢ ــ ١٤٣ هـ / ٧٥٩ ــ ٧٦٠م في المنيطرة القريبة من أفقا بسبب تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب على الأهالي . وخشي هؤلاء أن تنزل عليهم مصادرات جديدة ،

فحملوا السلاح منتهزين فرصة وجود اسطول بيزنطي في مياهطرابلس. وانقضوا من قاعدتهم في المنيطرة ، وانتهبوا عدداً من قرى البقاع . وقتلوا المسلمين فيها، وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقراً لعامل العباسيين ، ونصبوا كمينا لجنود العباسيين ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، واضطروا الباقي إلى الانهزام(١١٠) .

كانت ردة الفعل عنيفة عند العباسيين . فقد عمد صالح بن علي إلى الانتقـــام شر انتقـــام . فهاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة . وأمر باخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها. ولكنه لم يتعرض لديانتهم بسوء . وقد كان لهذا التدبير الإداري أثر سيئ في نفس الإمام الأوزاعي ، الذي رفع احتجاجاً إلى الحاكم جاء فيه (. . . وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ماقد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله تعالى أن لاتزر وازرة وزر أخرى . وهو أحق ماوقف عنده ، واقتدي به . وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله (ص) فانه قال من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه(١١١) .

وقام الخليفة المنصور في نفس الفترة بزيارة الشام . وارتأى أن يتخذ خطوات ايجابية للحد من قوة الجراجمة في لبنان . فأخذ يعمل على نقل قبائل عربية بحالها إلى هذه المنطقة لتستقر بها . وتمكن بذلك من ادخال عناصر عربيه مسلمة ، وأوكل إلى هؤلاء مهمة الدفاع عن المنطقة

أمام هجمات الجراجمة والبيزنطيين . ولذلك فانه أصدر أوامره إلى قبيلة لخم بالسكنى في هذه المناطق فلبوه مخلصين وأنعم عليهم باقطاعات أخرى في لبنان(١١٢) .

وهدأت الثورات نسبياً في لبنان على اثر ذلك ، حتى كان عهد المتوكل على الله الذي أصدر تدابير صارمة في حق النصارى في سنتي ٢٣٦ و ٢٤٠ ه / ٨٥٠ و ٨٥٤ م . فقد أجبر النصارى واليهود على أن يجعلوا على بيوتهم تماثيل خشبية للشياطين ، وأن لايرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الأرض ، وأن يرتدوا معطفاً عسلي اللون له رقعتان على كل كم ، وأن لايركبوا إلا البغال والحمير ، وذلك على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيتان كأنهما رمانتان ، فصار الذمي يسمى بسبب هذه الملابس الخاصة بالأرقط(١١٣) .

أدت هذه الاجراءات إلى نشوب فتنة عظيمة في حمص سنة ٢٤١ ه / ٨٥٥ م . اشترك فيها النصارى والمسلمون . ولكنها أخفقت بعد مقاومة شديدة . فضربت أعناق زعمائها وصلبوا على أبواب المدينة. ثم هدمت جميع الكنائس إلا تلك التي ضمت إلى المسجد الكبير وأبعد جميع النصارى عن المدينة الثائرة ، فهدأت بذلك الثورات (١١٤) .

و — ثورة فلسطين والأردن المبرقع اليماني :

كانت فلسطين مسرحاً لفتنة كبيرة . ففي سنة ٢٢٦ ه / ٨٤٠م ، عمد رجل من عرب اليمن مجهول النسب من أهالي غور فلسطين والأردن إلى اعلان العصيان وخلع طاعة العباسيين . وعمد إلى رفع العلم الأبيض . ولبس برقعاً على وجهه فسمي المبرقع . وأخذ يدعو الناس

لنفسه فتبعه خلق كثير من الزراع وغيرهم . وقد اعتقد أتباعه بأنه السفياني المنتظر ، وأنه يملك الشام . وقد استفحلت هذه الثورة ، وخاصة بعد أن بلغ تعداد أصحاب المبرقع مائة ألف رجل . وكان أتباع المبرقع على الأغلب من أبناء المناطق الريفية ، ومن طبقة المزارعين، مما يشير إلى أن سبب الثورة اقتصادي(١١٥) .

وهناك سبب آخر يعود إلى سوء معاملة جنود العباسيين وخاصة الأتراك منهم للأهالي ، وعدم احترامهم لحرمة المنازل . أما السبب المباشر فيعود إلى اعتداء أحد الجنود الأتراك على حرمة منزل المبرقع ، ولما منعته السيدة الموجودة في المنزل ، ضربها بسوط كان معه ، فاتقته بذراعها فأصابها فأثر فيها . وما أن عاد المبرقع إلى المنزل حتى اشتكت له ماحدث،فثارت عنده النخوة العربية وقرر أن يثأر لبيته ، ويثور على الخلافة العباسية . فقتل الجندي ثم ألبس وجهه برقعاً كي لايعرف، وصار إلى جبل من جبال الأردن(١١٦) .

آوى المبرقع إلى جبل واعتصم به . وأخذ يظهر من مخبئه في النهار، يراه الرائي فيأتيه فيحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويذكر الخليفة فيعدد عيوبه . واستمر على ذلك حتى استجاب له قوم كبير من فلاحي تلك المنطقة وأهل القرى المجاورة . ولما كثر أتباعه من هذه الطبقة ، دعا أهل البيوتات من تلك الناحية،فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء القبائل اليمنية ، حتى بلغ مامعه زهاء مائة ألف . ولا كساب ثورته صفة الشرعية ادعى أنه أموي . وبلغ أمره إلى الخليفة المعتصم قبل وفاته . فأرسل إليه قائده رجاء بن أيوب الحضاري في

زهاء ألف من الجند . وحين وصل إليه لمس كثرة أتباعه ، فكره منازلته ، وعسكر قريباً منه متريثاً حتى تسنح له الفرصة . ولما دنا وقت حراثة الأرض ، انصرف معظم أنصار المبرقع للقيام بأعمالهم الزراعية السنوية ، وبقي هو بأعداد قليلة من رجاله . عند ذلك وجد رجاء الفرصة سانحة لقتال المبرقع ، فهاجمه وتمكن من أسره وحمله إلى سامراء(١١٧).

* * *

وهكذا فانه يبدو ان العباسيين استعملوا الشدة مع أهالي الشام بقصد اخضاع هذه البلاد لسلطتهم . ولكن أهالي الشام قابلوا ذلك بثورات متعددة ، بدأت منذ الفترة الأولى لحكم العباسيين . وكانت الثورات متلاحقة حتى أعجزت ولاة العباسيين . كما أنها أعجزت الخلفاء أنفسهم . فقاموا بتغيير مستمر للولاة ، كلما رأوا في ولاتهم عجزاً عن اخضاع البلاد . كما قام الخلفاء بزيارة الشام بأنفسهم للاطلاع على مايجري فيها .

ولم يكن كل هذا كافياً لتهدئة الثورات ، لأن أسبابها كامنة في البلاد . ولم يعمل العباسيون على استئصالها ، بل كثيراً ماتسبب ولاتهم في ايقاد نارها بتحيزهم لفرع قبلي دون آخر . ونشبت ثورات المدن والمناطق الشامية كرد فعل على تأخر أحوالها ، وخاصة الاقتصادية والعمرانية . وزادت هذه الثورات في التأخر والتدهور .

٥ ــ موقف أهالي الشام من النزاع بين أفراد الأسرة العباسية :

ــ موقف أهالي الشام من ثورة عبد الله بن علي :

بعد انتصار العباسيين في معركة الزاب ، كتب أبو العباس إلى عميه عبد الله وصالح على أجنادالشام. فكانت قنسرين وحمص وكور دمشق والأردن للأول وفلسطين للثاني . أما الجزيرة فكانت لعبد الله ابن محمد«المنصور». كما كلف عبد الله بالقيام بالصائفة في أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل . فسار حتى بلغ دلوك . حيث وافاه خبر وفاة الخليفة أبي العباس الأحد في ١٢ ذي الحجة سنه ١٣٦هـ/ ١٠ حزيران / يونيو ٧٥٤ م . وبيعة المنصور بأمر من أبي العباس قبل موته(١١٨).

وما أن سمع عبد الله بذلك حتى أعلن الثورة ودعا الناس لبيعته ، واعتبر بيعه المنصور باطلة باعتبار أن الخليفة أبا العباس قد وعده بها قبل أن يخرج لقتال مروان بن محمد.وشهد لهالبعض بذلك، وانضموا إليه. وكان عبد الله يعتمد في ثورته هذه على جيش كبير جيد التدريب كان قد حشد في الأصل لقتال البيزنطيين(١١٩) . وارتحل عبد الله من دلوك فاستولى على حران .

رأى الخليفة المنصور أن عليه أن يحزم الأمر ويقضي على ثورة عمه . وبما أن معظم قوات عبد الله من الخراسانيين ، فان المنصور رأى أن يختار أبا مسلم الخراساني لقتاله . وكان غرضه من ذلك أن يضعف قواته ، بانضمام الخراسانيين في جيش عبد الله إلى أبي مسلم بمجرد أن يبدأ اللقاء الأول .

وأدرك عبد الله ذلك ، فرأى أن يتخلص من جنوده الخراسانيين، ومن القائد العربي حميد بن قحطبة . إلا أن حميداً اكتشف المؤامرة وفر مع أنصاره(١٢٠).وعلى هذا الشكل فانه يمكن القول بأن عناصر الجيش الذي برفقة عبد الله كان يتألف بمعظمه من أهالي الشام .

ونزل عبد الله مع رجاله في نصيبين وبرفقته مائة ألف مقاتل ، ومائة ألف عامل ، عملوا على حفر خندق من جبل نصيبين إلى نهرها، خندق خلفه . وجعل فيه كل مايحتاج إليه من العدة والآلة . ونصب المجانيق والعرادات ، وبث الحسك ، وسد الطريق على من يقصده من العراق . وجعل بذلك كل القرى والمناطق المزروعة خلفه وامداداً له (١٢١) .

وأقبل أبو مسلم متجهاً نحو الشام ، فرأى عبد الله بن علي يعسكر في منطقه حصينة . وقدر صعوبة القضاء عليه في هذه المنطقة . فقرر أن يستعمل الحنكة والدهاء ليفرق بين عبد الله وأصحابه من أهل الشام . فكتب إليه بأنه لم يؤمر بقتاله ، ولم يوجه لذلك بل إن الخليفة ولاه الشام وأنه ذاهب إليها .

وقد تحقق لأبي مسلم ماأراد ، لأن أهل الشام ماأن رأوا أبا مسلم يتوجه إلى بلادهم حتى أخذوا يطالبون عبد الله بالعودة إليها للدفاع عن حرمهم وأموالهم . وجهد عبد الله ليوضح لمن معه من أهالي الشام ، بأن ذلك حيلة من أبي مسلم . وأنه لايريد الشام ، بل يريد اخراجهم من مناطقهم الحصينة . ولكن نفوسهم لم تطب ، وأبوا إلا المسير إلى الشام(١٢٢). ورضخ عبد الله لرأي رجاله . فاستغل أبو مسلم الفرصة وأتى حتى

نزل مكانه في خندقه ، واستولى على جميع مافيه . ثم أفسد المياه التي حوله ، لئلا يستفيد منها أعداؤه(١٢٣) .

وبلغ عبد الله خبر نزول أبي مسلم في معسكره فعاتب أهل الشام على ماكان منهم . وحاول العودة إلى معسكره فلم يستطع . واضطر للنزول في الموضع الذي سبق أن كان لأبي مسلم ، على بعد أربعة فراسخ من نصيبين في موضع ليس فيه ماء ، إلا ماء الآبار التي أفسدها أبو مسلم(١٢٤) . وبدأ القتال بين الطرفين ، وامتد مايقارب سته أشهر وكانت الحرب سجالاً . ويقال بأن أبا مسلم كان يجلس على عريش ، ويرى كل مايحدث في ساحة القتال فيوجه جيشه . وينبه إلى نقاط الخطأ . وتمكن أبو مسلم عن طريق إعادة تنظيم جيشه من هزيمة عبد الله هزيمة ساحقة .وتبعه حتى الرقة حيث استولى على الخزائن والأموال ، وما كان احتواه عبد الله من بني أميه ، وكنوز الشام . ثم تبع عبد الله إلى رصافة هشام ، حتى هزمه ، ففر ملتجئاً إلى البصرة(١٢٥).

وكتب أبو مسلم إلى الخليفة المنصور يبشره بالنصر . فسر من ذلك ، وكتب إلى أبي مسلم بأن يحتفظ بما في يديه من الأموال ، لأنه كان على علم بأن جميع ذخائر بني أمية من الأموال والجواهر كانت مع عمه عبد الله . وأصبحت الآن في يد أبي مسلم . وأدى ذلك إلى حدوث خلاف بين الخليفة وأبي مسلم . كانت نتيجته قتل أبي مسلم(١٢٦).

وبعد قضاء المنصور على ثورة عمه ، استقرت له بلاد الشام ، فأعطى ولاية دمشق إلى عمر بن محمد بن عبد المطلب بن ربيعة . وولى حلب وقنسرين وحمص إلى صالح بن علي ، فنزل حلب وانهابتني

خارج المدينة قصراً يقال له بطياس . ويبدو أن صالحاً استمر في ولايته حتى سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م . ويثبت ذلك النقود التي ضربت في أيامه. فقد كتب على أحد وجهيها (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ١٤٦ هـ) وعلى الوجه الآخر (مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله)(١٢٧).

ويبدو أن بلاد الشام قد استقرت مؤقتاً بعد القضاء على ثورة عبد الله بن علي . ويظهر ذلك من حديث دار بين الخليفة المنصور وأحد محدثيه عند قيام ثورة النفس الزكية إذ قال : (اني أعرف أنه رجل سيطلب غير موضعه . ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك . وفكرت في البصرة فخفت عليها منه) (١٢٨) .

— موقف أهالي الشام من الخلاف بين الأمين والمأمون :

لقد كان للاضطرابات التي رافقت النزاع على الخلافة بين الأمين والمأمون رد فعل قوي في بلاد الشام . وكان أغلب من في الشام يؤيد الأمين ويكره المأمون ، لأنه في نظرهم فارسي النزعة . وكان الأمين يدرك هذا الأمر ، وازداد يقيناً به بعد أن ذكر له عبد الملك بن صالح صفات أهل الشام ، وانهم قوم قد ضرستهم الحروب ، وأدبتهم الشدائد . كما أكد له بأن أكثرهم ينقادون إليه ويطيعونه . وان بامكانه أن يجهز له منهم جيشاً تعظم نكايته في عدوه ، ويكون النصر على يديه(١٢٩).

وقد كان الأمين على شفا الهزيمة ، وأراد أن ينقذ نفسه بتشكيل جيش جديد . فارتأى استغلال مكانة عبد الملك عند أهل الشام ، فأعطاه ولاية الشام والجزيرة ، وكلفه بتجنيد رجالها ليكونوا دعماً له في قتال جيوش أخيه المأمون بقيادة طاهر وهرثمة(١٣٠) .

واسل عبد الملك رؤساء القبائل في الشام ، يطلب منهم جمع الرجال لدعم الخليفة الأمين ، فأجابوه جميعاً ، وأخذوا يتواردون عليه متتابعين . واراد عبد الملك أن يجمع قلوب جميع من جاءه على الأمين . فأخذ يخلع عليهم ، ويمنحهم المنح . وألف عبد الملك من هؤلاء جيشاً لدعم مركز الأمين . ولم يكن هذا الجيش متماسكاً ، بل كان يتألف من قبائل متنافرة ، وكل منها له رئاسة خاصة به . كما أنه يضم بين جنباته جماعة من الخراسانية ، ممن كان مع عبد الملك . وإلى جانب ذلك فانه ضم عدداً كبيراً من المشاغبين والمتلصصة وغيرهم . ومثل هذا الجيش لايصمد للأحداث ، بل إنه يمكن القول بأن مشاكله وسوء تركيبه أخذت تظهر قبل أن يذهب لانقاذ الخليفة، وقد ظهرت في نقطة تجمعه الأولى بين الخراسانية والزواقيل . وجرى صدام وقتال بالأسلحة(١٣١) .

بلغت الأنباء عبد الملك ، فوجه إلى المتقاتلين رسولاً يأمرهم بالكف، ووضع السلاح ، فرموه بالحجارة ، واستمروا في القتال . ويبدو أن الخراسانيين كانوا هم الأقوى ، فقتل من العرب عدد كبير . وجاء الخبر إلى عبد الملك فثار لعروبته وقال : (واذلاه تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها) . وتحمست نتيجة لذلك كل جماعة لأختها ، وبدا وكأن هناك حرباً بين العرب والموالي . أخذ العرب يتذكرون ماكان من الخراسانيين أيام فتح الشام . ويحرضون جنودهم على ترك القتال ، والعودة إلى مناطقهم(١٣٢) .

كان انسحاب عرب الشام من هذا الجيش بعد انهزامه أمام الخراسانيين ، على الرغم مما فعله نصر بن شبث من دعم العرب .

وتوفي عبد الملك بن صالح في سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م بالرقة . وانتهى هذا الأمر دون وصول الجيش الشامي للأمين . واضطربت الشام بعد وفاة عبد الملك ، وسيطر كل رئيس قوم على منطقته . وانقسم الناس إلى حزبين أحدهما يظاهر الأمين ، والآخر يظاهر المأمون . وأخذ هؤلاء يقتتلون دون أن يجدوا سلطة تمنعهم(١٣٣) .

ومما لاشك فيه بأن نفوذ الفرس قد زاد في عهد المأمون . فقد انتصر الفرس ثانية كما انتصروا أول مرة حين انتصر العباسيون على الأمويين ، لأن اغلب الفرس تعصب للمأمون وأكثر العرب تعصب للأمين . فعدت غلبة المأمون نصرة فارسية(١٣٤).

٦ ـ الخليفة المتوكل على الله في بلاد الشام :

توجه المتوكل إلى بلاد الشام في ٢٠ ذي القعدة سنه ٢٤٣ ﻫ / ١١ مارس ٨٥٨ م . وقد كان الحافز لهذا العمل تبرم الخليفة بالأتراك ، لكثرة ماأحدثوا في الدولة من فوضى ، وفساد للشؤون العامة . حتى ضاق بهم أهالي العراق ، وضاق بهم الخليفة ، كما انهم بدورهم حقدوا على الخليفة لأنه حرمهم مما كان في أيديهم من الولايات والمناصب . فهم فوق كرههم للعرب والفرس ليسوا على وفاق فيما بينهم، كل فريق منهم يتعصب لقائد من قوادهم . وأصبحت لذلك مؤامراتهم ودسائسهم لاتنقطع ، وأصبح همهم جمع المال بكل وسيلة .

أحس المتوكل بالضيق من هذا الجو الذي يثيره الأتراك ، وأحس ببغضهم له وتربصهم به . ففكر في الافلات من قبضتهم ، وعمل على نقل العاصمة من العراق إلى دمشق لعله يجد في الشام من العنصر العربي مايقف في وجه هذا العنصر التركي (١٣٥) .

هذا هو السبب الرئيسي لانتقاله إلى دمشق . وهناك تعليلات أخرى تذكرها بعض المصادر التاريخية ، لايمكن للدارس والمحقق في التاريخ أن يأخذ بها ، إلا على أنها مبررات ظاهرية لما حدث . فيذكر البعض بأن الخليفة المتوكل كان محروراً ، فوصف له برد هواء دمشق فكتب إلى رجاله يأمرهم باتخاذ القصور واعداد المنازل .

ويبدو أنه حدثت أحداث أدت بالمتوكل إلى ترك مدينة دمشق والعودة إلى عاصمته سامراء . ومما لاشك فيه أن هناك أسباباً رئيسية أدت به إلى العودة . وهي أعمق بكثير من الأسباب التي ترددها المصادر العربية ، حيث تقول بأن الخليفة المتوكل لم يعجبه هواء دمشق لبرودته وتكاثف هواء الغوطة عليها ، وما يرتفع من بخار مياهها . وأن الريح تهب فيها مع العصر . فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل . وهي كثيرة البراغيث ، والأسعار فيها غالية والثلج يحول دون وصول الميرة إليها بسرعة(١٣٦) . ولا يمكننا أن نأخذ بهذه المبررات التي ابتدعت لتبرير ترك الخليفة لمدينة دمشق . فقد سكن خلفاء وملوك وأمراء كثيرون قبله ، ومدحها الشعراء بأجمل قصائدهم ، وخاصة وأن حقائق المناخ في دمشق تؤكد بأنها بالذات مدينة جافة الهواء ، مرتفعة عن سطح البحر . وهذا كله يدعونا إلى أن نرى عدم صحة هذا السبب . والحقيقة التي يجب أن نؤكد عليها ، والتي يمكن أن نستخلصها هي أن العباسيين بشكل عام ، والمتوكل بشكل خاص ، لم يكن محبوباً من أهالي دمشق حيث أنه كان قاسياً عليهم ، جباراً في القضاء على ثوراتهم . ولا بد لي من أن أذكر هذه العبارة التي قالها المتوكل حين أراد أن يختار قائداً من قواده للقضاء على ثورة دمشق في عهده (من للدمشق وليكن في صولة الحجاج) . ثم انه أحل لواليه القتل والنهب فيها لمدة ثلاثة أيام(١٣٧) .

يضاف الى ذلك ان جنود الخليفة قاموا بثورة عارمة في دمشق مطالبين بزيادة أعطياتهم . فجردوا سلاحهم ، وأخذوا برمي النشاب . واستشار المتوكل رجاء الحضاري فيما يفعله ، فأشار عليه بوضع الأعطيات تفادياً لامتداد الثورة . وقام المتوكل بانفاق المال ، إلا أنه أعلن في نفس الوقت الرحيل إلى العراق .

والحقيقة التي لابد من ذكرها هنا هي أن مجيء المتوكل إلى دمشق أفسد مابينه وبين جنوده وقواده من الأتراك ، حتى إنهم أساؤوا النية فيه ، وبدأوا يتآمرون عليه وهو بدمشق ، وأرادوا قتله لولا اختلافهم على ذلك . ووقف بغا الكبير في وجه القرار ، ومانع في تطبيقه . عند ذلك خشي بقية الجنود والقواد عاقبة الأمر . وارتأوا ان يفسدوا فيما بين بغا الكبير والمتوكل لابعاده عن الخليفة ، ثم تنفيذ خطتهم . ونجحوا في مساعيهم وقرر المتوكل ابعاد بغا الكبير عنه ، فأعطاه الشام ، وانصرف هو عنها(١٣٨) .

* * *

يبدو من هذا العرض لأحوال بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية حتى منتصف القرن الثالث الهجري . أن حالة شديدة من الفوضى سادت البلاد ، بسبب الثورات الكثيرة التي نشبت بها . وكلما حاول العباسيون تهدئة ثورة ، نشبت في وجههم أخرى .

ومما لاشك فيه أن معظم هذه الثورات كانت تعمل جاهدة على مبايعة أحد الأمويين خليفة ، وتمنحه لقب السفياني ، لادراك القائمين بهذه الثورات أن أهالي الشام يحبون الأمويين ، وأنه لايمكن لثورة من هذه الثورات أن تضم حولها أعداداً كبيرة من الأنصار إلا بهذه النغمة السفيانية . وكانت هذه الثورات تستغل حالة الفوضى الشديدة ، وعدم الاستقرار السياسي التي كانت عليها بلاد الشام .

وأدت كثرة الثورات إلى حالة من الذعر وعدم الثقة بين الأهالي والحكام ، فلم تعد الطرق آمنة ، وانتشر قطاع الطرق . حتى إن ذلك

دعا ولاة مصر إلى تحويل الطريق الذي يسير فيه حاملو خراج مصر إلى الخلافة من الشام إلى الحجاز . فمما يذكر في ذلك ، أن الفضل بن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد ، كتب إلى واليه على مصر في سنة ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م أن يحمل الأموال إلى بغداد . فلما صار بفلسطين ، وثب أهل الرملة على المال فقالوا : هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا . فأخذوا من ذلك عطاءهم كاملاً (١٣٩). إلى جانب ذلك فاننا نجد أن أعراب البادية كثيراً ماقاموا في أثناء ثوراتهم بنهب القوافل ، واساءة معاملة الحجاج ، مثال ذلك ماحدث في سنه ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م حين نشبت ثورة بين أعراب بادية الشام فنهبوا القوافل ، وأقلعوا عن الصلاة ، وأساؤوا معاملة الحجاج ، فبعث إليهم الخليفة العباسي المهدي بقوة قمعت حركتهم في الحال (١٤٠).

يضاف إلى ذلك سوء الأوضاع الاقتصادية التي تردت فيها البلاد ، فولاة العباسيين لم يقوموا بأي عمل من شأنه تحسين أحوال البلاد . وكانت الثورات تخرب كل ماكان من مرافق اقتصادية قبل دخول العباسيين إليها . فمعظم القرى والضياع خربت ، وكثير من القصور هدمت ، وأهمل أهالي البلاد استغلال الأراضي . وأبلغ دليل على ذلك ماورد من حديث بين هارون الرشيد وأحد ولاته على الشام حين عزله وعاتبه على سوء سياسته في بلاد الشام ، وتأخرها اقتصادياً في عهده ، حتى لم تعد هذه البلاد تغذي بيت المال كما كانت من قبل . وكان رد الوالي أبلغ من كلام الرشيد حين أفهمه أن أهالي الشام استاؤوا من معاملة العباسيين فتفرقوا في ميادين التعدي ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار السلطان . كما أنهم أرادوا بذلك أن يشقوا على ولاة العباسيين . وكان اشتراك مائة ألف رجل في ثورة المبرقع معظمهم من الفلاحين والمزارعين أكبر دليل على تأخر البلاد اقتصادياً في هذه الفترة (١٤١).

وأهم من ذلك كله ، هو أن انتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد ، قد ولد عصبية من نوع جديد هي العصبية بين دمشق وبغداد ، أو بالاحرى عصبية بين أهل الشام والعراق . لقد كانت دمشق في عهد الأمويين مدينة زاهرة ، ومركزاً لكل من كان يقصد الخلفاء كما أنها مركز بيت مال المسلمين جميعاً، يردإليها خراج البلاد الاسلامية جميعاً، وينعكس ذلك على رخاء المدينة وسكانها ، وذهب كل هذا بمجرد انتقال الخلافة إلى العباسيين . فلم تعد دمشق العاصمة ، وانتقل بيت المال منها واتجهبعيداً إلى الشرق ، وأصبحت هذه المدينة كغيرها ليس لها مزية في شيء . وانعكس ذلك على مشاعر سكانها تجاه الخلافة العباسية ، فأخذوا يبادرونهم بالثورات المتكررة ، والعداء المستديم.

وليس هذا فحسب بل أن ولاة العباسيين أخذوا يعملون جاهدين على اشغال أهالي الشام بقتال بعضهم بعضاً ، فأثاروا العصبيات القبلية بتحيز هم لفرع قبلي دون آخر . وكان مسرح هذه الثورات القبلية بلاد الشام جميعها من أقصاها إلى أقصاها ، فخربت البلاد ، و هدمت المدن ، و تأخر الاقتصاد .

والخلاصة أن أهالي الشام لم يجتمعوا على حب العباسيين . بل كان هواهم على الغالب مع بني أمية ، وكان أكثرهم في انتظار السفياني لمبايعته . وحقدوا على العباسيين لاعتمادهم على الفرس والترك ، فقاموا بثورتهم المشهورة بقيادة نصر بن شبث العقيلي والتي كانت وكأنها ثورة عربية شامية ضد اعتماد العباسيين على الموالي . هذا بينما حقد العباسيون على أهل الشام، واعتبروهم أنصار بني أمية ، وأبعدوهم تدريجياً عن مناصب الدولة .

أدت هذه النظرة المتبادلة بين الطرفين إلى نشوب ثورات متعددة ومتنوعة ، أربكت الخلافة العباسية ، وتعرض الولاة فيها إلى مخاطر القتل والنهب والابعاد ، كما راح ضحية ذلك عدد كبير من أهالي الشام .

* * *

حواشي الباب الأول

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، الجزء الثالث من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم ، طبعة بريل ١٨٧١ ، ص ١٨١ .

(٢) ابن قتيبة الدينوري : المعارف ، المطبعة الاسلامية ١٩٣٤ م ، ص ١٦٢

(٣) الطولوني : النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية ، وهو الباب العاشر من كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية . مطبعة الجوائب القسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ ، ص١١٩

(٤) فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٩م جزء ٢ ، ص ١٥٤

(٥) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٢ ، طبعة بولاق ١٢٨٣ ، ص ١٦٢ — ابن الوردي : تاريخه ، طبعة المطبعة الوهبية سنه ١٢٨٥ هـ ، ص ١٩٠

(٦) قد يكون في هذا مافيه من المبالغة لابراز قيمة نصر العباسيين على الأمويين لأن كل المصادر التي نأخذ عنها مكتوبة في العصر العباسي أو بعده ، أو نقلت عن المصادر التي سبقتها . منها : الأزدي : تاريخ الموصل ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، سنه ١٩٦٧ ، ص ١٣٣

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف سنه ١٩٦٦ ، جزء ٧ ، ص ٤٣٢

(٨) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٢٨

(٩) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٤ – ابن دحية الكلبي : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، مطبعة المعارف بغداد سنه ١٣٦٥ هـ ، ص ٢١ .

(١٠) ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة ، مطبعة النيل ١٩٠٤ ، جزء ٢ ، ص ١٤٠

(١١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ ، جزء ٣ ، ص ١٣٠ - ١٣١

(١٢) من أجل تفاصيل معركة الزاب انظر : الأزدي : تاريخ الموصل ، من ص ١٢٥ حتى ١٣٠- الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، من ص ٤٣٢ - ٤٣٥ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٣٠

(١٣) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ١٦٢ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٨ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، المطبعة المنيرية نشر ١٣٥٧ هـ ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠

(١٤) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٦ - بيتشوف الجرماني : تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ، طبعة بيروت ١٨٨٠ ، ص ١٥

(١٥) المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٦٤

(١٦) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٧

(١٧) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٢

(١٨) يتضح ندم مروان بن محمد لاعتماده على القيسية من قوله : انفرجت عني قيس انفراج الرأس ماتبعني منهم أحد . وذلك أنا وضعنا الأمر في غير موضعه ، وأخرجناه من قوم أيدنا الله بهم ، وخصصنا به قوماً والله مارأينا لهم وفاء ولا شكراً : انظر ابن قتيبة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٩

(١٩) ابن قتيبة الدينوري : المعارف ، ص ١٦٣ - أبو الفداء : تاريخه ، مطبعة القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، جزء ١ ، ص ٢٢٣

(٢٠) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٣

(٢١) المسعودي : مروج الذهب ، جزء٢، ص ١٦٢ - الطبري : المصدر السابق، جزء ٧ ، ص ٤٣٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠

(٢٢) العيون والحدائق ، ص ٢٠٣ - بيتشوف : المرجع السابق ، جز ٤ ، ص ١٥

(٢٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠

(٢٤) محمد كرد علي : خطط الشام ، طامة دمشق ١٩٢٥ ، جزء ١ ، ص ١٧٤

(٢٥) اليعقوبي : تاريخه ، مطبعة العزى النجف سنة ١٣٥٨ ، جزء ٣ ، ص ٩٢
٩٣

(٢٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ – ابن الوردي : تاريخه ، طبعة المطبعة الوهبية ١٢٨٥ ه ، جزء ١ ، ص ١٩١

(٢٧) محمد كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٤

(٢٨) الكندي : الولاة والقضاة ، مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ ، ص ٩٥ – اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٨٣

(٢٩) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤١ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ – المقدسي : البدء والتاريخ ، مطبعة برطوند بمدينة شالون سنة ١٩١٩ م ، جزء ٦ ، ص ٧٣

(٣٠) انظر : عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية ، ٣ أجزاء ، طبعة دار العلم للملايين بيروت سنه ١٩٦٨ ، جزء ٣ صفحة وحاشية ٩٩١ – Encyc of Isl : Article «Kalb B. Wabara» Vol II. و PII. p.688 : أمينة بيطار : رسالة ماجستير موقف القبائل العربية في الشام من الدولة الفاطمية ، حتى أواخر القرن الخامس الهجري ، ص ١١٥ – ١١٦ – ١١٧

(٣١) حتي : تاريخ العرب ، جزء ٢ ، ص ٣٥١

(٣٢) ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٤٠

(٣٣) ثابت اسماعيل الراوي : العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، طبعة مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٥ ، الطبعة الأولى ، ص ١٨٤ – أحمدزكي صفوت : عمر بن عبد العزيز ، دار المعارف القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٣ ، ص ٦٩

(٣٤) فان فلوتن : السيادة العربية في عهد بني أمية والشيعة والاسرائيليات ، الطبعة الأولى سنه ١٩٣٤ ، مطبعة السعادة ، ص ٦٢ - ٦٣

(٣٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٤

(٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ١٥٣

(٣٧) ابن قتيبة الدينوري : عيون الأخبار ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٦٣ ، جزء ١ ، ص ٢٠٤- الربعي : فضائل الشام ودمشق ، تحقيق المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ص ١١

(٣٨) ابن الساعي البغدادي : مختصر أخبار الخلفاء ، الطبعة الأولى ، المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٠٩ ، ص٦

(٣٩) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٩٣

(٤٠) المقريزي : النزاع والتخاصم ، ص ٧٠ – كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ، مصر ١٩٣٤ ، ص ١٢٢

(٤١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، الوقائع المصرية ١٢٩٣ هـ ، الجزء الثاني ، ص ١٧٦

(٤٢) الأزدي: المصدر السابق ، ص ١٣٩ – ابن الاثير : المصدر السابق، جزء٤، ص ٣٣٣ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٣

(٤٣) ابن عبد ربه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٧٦ – ١٧٧

(٤٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٤

(٤٥) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، الطبعة الثالثة ١٩٦٩، دار المعارف بمصر ، ص ٤٠٢

(٤٦) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٣

(٤٧) المقريزي : النزاع والتخاصم ، ص ٧٠ – صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ، طبعة دار الحياة ١٩٥٧ ، ص ٥٢ نقلا عن الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني – مجلة المجمع العربي بدمشق ، جزء ١٢ ، مجلد ١٦ ، ص ٥٥٦ مقال لصلاح الدين المنجد عن جواهر الخلفاء العباسيين

(٤٨) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة بريل ١٨٦٦ ، ص ١٥١ – الريس : المرجع السابق ، ص ٤٠٧ – ٤٠٨

(٤٩) المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد الثالث ١٩٧٤ ، مقال عن تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي للدكتور عواد مجيد الأعظمي ص ٣٢٨ .

(٥٠) عارف العارف : الحرم المقدسي ، مطبعة دار الأيتام الاسلامية الصناعية بالقدس ١٩٤٧ ، ص ١٦ - زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٣٩

(٥١) عارف العارف : المرجع السابق ، ص ١٦ – زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٣٩

(٥٢) عارف العارف : المرجع السابق ، ص ٤٣ – ٤٤

(٥٣) هو منصور بن جعونه بن الحارث العامري القيسي ، كان تولى بناء الحصن الذي سمي باسمه.وكان مقيماً به أيام مروان بن محمد ليرد العدو ، ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة وارمينية . وحين امتنع أهالي الرها على العباسيين في بداية خلافتهم، كان ابن جعونة على رأسهم . فحصرهم أبو جعفر المنصور وهو عامل لأخيه على الجزيرة وارمينية حتّى استسلموا،وهرب ابن جعونه . ولكن المنصور تمكن من القبض عليه وقتل بالرقة سنة ١٤١ ه انظر اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠٦ – ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة لايبزغ ١٨٦٧ ،جزء ٣ ، ص ٢٧٨ – ٢٧٩

(٥٤) عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، طبعة دمشق ١٣٣١ ، مجلد ٣ ، ص ٣٩٢

(٥٥) الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا والأبياري ، مطبعة البابي ١٣٥٧ ، ص ١٨٧ - ١٨٨

(٥٦) فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الأولى ، دار الارشاد بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٢٤ نقلا عن الامامة والسياسة

(٥٧) انظر فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٥٨ – ١٥٩ و ص ٢٩٦ حتّى ٢٩٨ نقلا عن مخطوط أخبار العباس ، وتاريخ الطبري .

(٥٨) الجاحظ : فضائل الأتراك وما اختصوا به من الشجاعة وعلو الهمة وحسن البلاء في خدمة الاسلام ، المطبعة العمومية بمصر ١٨٩٨ ، ص ١٥ – ١٦

(٥٩) المقريزي : النزاع والتخاصم فيما بين بي أمية وبني هاشم ، المطبعة الابراهيمية ١٩٣٧ ، ص ٦٦ – ٦٧ – محمد جواد مغنية : الشيعة والحاكمون، منشورات المكتبة الأهلية بيروت ، ص ١٣١

(٦٠) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٤٤

(٦١) فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ نقلا عن الأزدي ، وص ١٩٥ نقلا عن الإمامة والسياسة .

(٦٢) تولى الشام سنه ١٨٧ هـ ، انظر : الصفدي : أمراء دمشق في الاسلام ، تحقيق المنجد ، طبعة دمشق ١٩٥٥ م ، ملحق ٢ ، ص ٢٠٣

(٦٣) كرد علي: الادارة الاسلامية، ص ١٣٩ — ١٤٠ ، وخطط الشام ، جزء ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٠

(٦٤) انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٥١ ، وص ٢٦٢ — ٢٦٤ ، وجزء ٩ ، ص ١٩٧ — ابن الاثير : المصدر السابق جزء ٥ ، ص ٩١ — ٩٢ — ٩٣ وص ١٢٠ و ٢٩٣ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ — أبو الفداء : تاريخه، جزء٢ ، ص ١٤ — ١٦ ، وص ٢١ — الصفدي : المصدر السابق، ص ٢٠٣

(٦٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ — بيطار : المرجع السابق من ص ١١٨ — ١١٩

(٦٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة ، رقم ٥٤٠٢٦ و ٥٤٠٢٧ ، جزء ٦ ورقة ٧٣ — العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ و ٥٥٩ معارف عامة ، جزء ١٩ ، مجلد ٣ ، ورقة ٤٦٥ — سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ط ١٩٦٧ ، ص ١٦

(٦٧) خاشع المعاضيدي : المرجع السابق ، ص ٤١

(٦٨) الزواقيل من مادة (زقل) ومعناها اللصوص . وهناك قوم بناحية الجزيرة وما حولها يسمون بهذا الاسم : انظر ابن منظور : لسان العرب ، طبعة الدار المصرية ، جزء ١٣ ، ص ٣٢٥ — المرتضى الزبيدي : تاج العروس ، المطبعة الخيرية بمصر ، طبعة اولى ١٣٠٦ هـ ، جزء ٧ ، ص ٣٥٨

(٦٩) العيون والحدائق ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣

(٧٠) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٧١

(٧١) كفرتوثا : مدينة في ديار ربيعة من أرض الجزيرة ، ومنها إلى دارا خمسة فراسخ على طريق نصيبين – ارزن.انظر ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، طبعه ليدن١٨٨٩ ، ص ٩٥ – الاصطخري : صور الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ٧٤

(٧٢) قورس : حصن من العواصم منه إلى منبج مرحلتان ، انظر ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ايدن ١٨٩١ ، مجلد ٧ ص ١٠٧ – ابن حوقل : صورة الأرض : الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٨٧

(٧٣) تل منس : بضم الميم وتشديد النون وفتحها وسين مهملة . حصن قرب معرة النعمان بالشام ، وهو من أعمال جند حمص . انظر : اليعقوبي : البلدان ، مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٢٣

(٧٤) كيسوم : حصن على الطريق من الرقة إلى الثغور . انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٩٧ – اليعقوبي :تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ – ١٧٤

(٧٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٧٢ و ١٧٦

(٧٦) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، بينها وبين عبدا سبعة فراسخ. انظر : ناصر خسرو . سفر نامه ، ترجمه يحيى الخشاب: مطبوعات معهد اللغات الشرقية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ص ١٠

(٧٧) فازمليف : العرب والروم ، ترجمة شعيرة ، طبعة دار الفكر العربي ، ص ٨٧ ، ويبدوأن سميساط هي سميساط . أما عمرفلم اعثر له على ترجمة كاملة .

(٧٨) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٦٩ – ١٧١ - ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي ١٩٥١ ، جزء ١ ، ص ٦٥

(٧٩) ابن قتيبة : المصدر السابق ، ص ١٧٠ – ١٧١

(٨٠) هذه الوصية موجودة بنصها كاملة في : الطبري : المصدر السابق، جزء٨ من ص ٥٨٢ – حتى ٥٩١ ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٦ – ٥٣

(٨١) ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤١ – الرفاعي : عصر المأمون ، مجلد ١ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥

(٨٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥٢ – ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤١ – ١٤٢

(٨٣) ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤٢

(٨٤) نسخة كتاب الأمان موجود في ابن طيفور : تاريخ بغداد ، جزء ٦ ، ص ١٣٩ – ١٤٠

(٨٥) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٦

(٨٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨

(٨٧) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ – ٤٤٦ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٤ .

(٨٨) عن أبي الورد انظر فيما سبق

(٨٩) هو أبو محمد زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . أنظر : المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٧٣

(٩٠) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٣ – ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٤ – ٥٥

(٩١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٣

(٩٢) وفيما بعد دخلت على هذه النغمة السفيانية أفكاراً اخرى كمسير الأمويين من بلاد الاندلس إلى الشام ، وأنهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر . وغرضهم من ذلك أن لا ينقطع الأمل من رجوع دولتهم . وكان ذلك سبباً في فتك العباسيين بكل من من توهموا فيه الرائحة السفيانية . ولم تنقطع هذه النغمة في الشام إلا في نهاية القرن الثالث . انظر كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٧

(٩٣) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٤ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٥

(٩٤) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٥ – بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥

(٩٥) بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥ – ١٦ – بينما يذكر المقدسي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٣ – ٧٤ أن جيش عبد الله بن علي حاربه مع جيش المنصور وهزماه . ومزقا جموعة كل ممزق وقتلوا منهم مالا يحصى .

(٩٦) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٧ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦

(٩٧) ابن العديم : زبده الحلب ، جزء ١ ، ص ٥٦ – ٥٧ – بيتشوف : المرجع السابق ، ص ٦

(٩٨) الأزدي: المصدر السابق، ص ١٤٤ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء٤، ص ٣٣٤ — ٣٣٥

(٩٩) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٥ وص ١٤٤

(١٠٠) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ١٠٤ — ويذكر كرد علي في كتابه الإدارة الاسلامية ص ١٤٤ ذلك ولكن مع بعض التغيير في الألفاظ

(١٠١) يسمى علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد ، وكانت أمه تنتسب إلى علي بن أبي طالب . وكان يقول أنا ابن شيخي صفين : انظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٤

(١٠٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٤٦ – ١٤٧

(١٠٣) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥

(١٠٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧

(١٠٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٥

(١٠٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ – جورج يني : المرجع السابق ، ص ٢٢٥

(١٠٧) كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٣ – حتي : تاريخ سورية، جزء ٢ ، ص ١٦٧

(١٠٨) عن الجراحمة وأصلهم ، انظر : حتي : لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور حتى أيامنا ، ترجمة أنيس فريحة ، ص ٢٩٨ – ٣٠٠ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ص ١٧٩

(١٠٩) عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور ، مطابع دار الصحافة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، ص ٤٠

(١١٠) كانت بعلبك تابعة لولاة دمشق حتّى استولى عليها أحمد بن طولون: انظر ميخائيل ألوف البعلبكي : تاريخ بعلبك ، طبعة المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٢٦ ، ص ٧٦ — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٢ — كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٢٦ — حتّي : تاريخ سورية جزء ٢ ، ص ١٦٧ — ولبنان في التاريخ ، ص ٣٢٧

(١١١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٢ — ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١٨ و ص ٥٩ — الطباخ : أعلام النبلاء ، جزء ١ ، ص ١٤٦ —١٤٧— كرد علي : الإدارة الاسلامية ، ص ١٢٦—عن الاوزاعي: انظر الباب الخامس .

(١١٢) عجاج نويهض : المرجع السابق ، ص ٤٠ نقلا عن كتاب تاريخ الأعيان لطنوس الشدياق .

(١١٣) حسن حبشي : أهل الذمة في الاسلام ، مترجم عن ترتون ، ص ١٢٥ - ١٢٦ — حتّي: تاريخ سورية ، جزء ٢ ، ص ١٦٨

(١١٤) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٩٩ — حتّي : المرجع السابق، جزء ٢ ، ص ١٦٩

(١١٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٨ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ ولكنه يذكر أن الثورة كانت سنه ٢٢٧ هـ . — كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٢ — فيليب حتّي : تاريخ سوريه ، جزء ٢ ، ص ١٦٦

(١١٦) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٢ — ١١٦ — ابن خلدون: المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ — العيون والحدائق : ص ٤٠٨

(١١٧) الطبري: المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ص ١١٦ -١١٨ ابن خلدون: المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ - العيون والحدائق : ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(١١٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء٧ ، ص ٤٥٩ — ٤٦٠ — ومن ص ٤٧٢ حتّى ٤٧٤ — الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ — ابن دحية الكلبي : النبراس في

تاريخ خلفاء بني العباس ، ص ٢٣ – القاسمي : المقنع في أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء ، ص ٤٤

(١١٩) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠١ – حتي : تاريخ سورية ، جزء ٢ ، ص ١٦٠ – ويورد ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٥ رواية مخالفة تماماً لهذه . يتضح منها أن عبد الله بن علي ثار على الخليفة أبي العباس نفسه. فيذكر أنه لما تولى السفاح الشام (هكذا يلقب ابن قتيبة عبد الله بن علي) واستصفى أموال بني أمية أعجبته نفسه ، وحسد ابن أخيه . . . وثار عليه .

(١٢٠) الطبري: المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٥ – ٤٧٦ – اليعقوبي: تاريخه ، جزء ٣ ، ص١٠١ -بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٦

(١٢١) المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٧٧

(١٢٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ص ٤٧٦ – ٤٧٧ – العيون والحدائق ، ص ٢١٨

(١٢٣) المقدسي : المصدر السابق،جزء ٦ ، ص ٧٨ – الطباخ : أعلام النبلاء ، جزء ١ ، ص ١٤٠

(١٢٤) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٧ – العيون والحدائق ، ص ٢١٨

(١٢٥) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ١٨٥ – ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨ – المقدسي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٨

(١٢٦) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٦٤

(١٢٧) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٦٥ – ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

(١٢٨) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ١٨٧

(١٢٩) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٥٤ – ١٥٥ – الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٢٥ – العيون والحدائق ، ص ٣٢٨ – الطباخ : المرجع السابق، جزء ١ ، ص ١٦٧ – ١٦٨

(١٣٠) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٢٥ - بينما يذكر اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٦٤ بأن الأمين ولاه على الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور .

(١٣١) الطبري: المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٢٥ - العيون والحدائق ، ص ٣٢٨

(١٣٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ - الرفاعي : عصر المأمون ، مجلد ١ ، ص ٢٥٣

(١٣٣) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٦٩ - الطبري : المصدر السابق، جزء ٨ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨

(١٣٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٦ ، جزء ١، ص ٤٢ ، ٤٣

(١٣٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٠٩ - حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ ، جزء ٣ ، ص ٥ = حسن محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٣٣١

(١٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٢٧٦ - الطبري : تاريخه، جزء ٩ ، ص ٢١٠ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٩٨

(١٣٧) كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٣

(١٣٨) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٢٧٦

(١٣٩) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٤٦ - ١٤٧

(١٤٠) سيد أمير علي : المرجع السابق ، ص ٢٠١

(١٤١) انظر فيما سبق ثورات دمشق . وانظر فيما بعد الباب الخامس: الحياة الاقتصادية

الباب الثاني

بلاد الشام
في عهد ولاية الطولونيين
٢٦٤-٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م

الباب الثاني

بلاد الشام في عهد ولاية الطولونيين

٢٦٤ ــ ٢٩٢هـ / ٨٧٧ ــ ٩٠٤م

١ ــ ضم بلاد الشام إلى حكم الطولونيين :

ــ اوضاع بلاد الشام قبل ضمها للطولونيين .

ــ الظروف التي ساعدت أحمد بن طولون على ضم الشام .

٢ ــ موقف بلاد الشام والثغور من الطولونيين .

ــ موقف أهالي الشام من الطولونيين .

ــ موقف أهالي الثغور وولاتها من الطولونيين .

٣ ــ بلاد الشام بين الطولونيين والعباسيين :

ــ بلاد الشام بين أحمد بن طولون والموفق .

ــ التنافس على بلاد الشام في ولاية خمارويه .

٤ ــ انحسار نفوذ الطولونيين عن بلاد الشام :

ــ خروج بلاد الشام عن طاعة الطولونيين في عهد جيش بن خمارويه.

ــ بلاد الشام في ولاية هارون بن خمارويه .

٥ ــ نشاط الاسماعيلية والقرامطة في بلاد الشام .

ــ الاسماعيلية .

ــ القرامطة : روابطهم مع الاسماعيلية ، غاراتهم على الشام .

٦ ــ نهاية الدولة الطولونية ، وعودة بلاد الشام إلى الخلافة العباسية.

١ — ضم بلاد الشام إلى حكم الطولونيين .

يبدو مما تناولناه في الباب الأول أن بلاد الشام في عهد حكم ولاة العباسيين لم تكن مستقرة . بل إن الفوضى بها كانت عامة وشاملة . ولم يستطع ولاة الخلفاء العباسيين إقامة وفاق بين القبائل العربية في الشام ، كما أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على سكان المدن وتوحيد صفوفهم . وكم يجد الباحث في دراسة الشام من صعوبة في دراسة هذه الفترة، لأنه يجد نفسه مضطراً إلى دراسة تاريخ كل مدينة أو منطقة على حدة ، لتفرق الأهواء وعدم وجود وال فيها يسيطر على أمورها جميعاً . بل إن الولاة أنفسهم كثيراً ما كانوا يعملون على إثارة الخلافات بين القبائل، وإثارة المشاكل بين المدن ، وقد يكون هذا عن قصد منهم تمشياً مع سياسة« فَرِّقْ تَسُدْ » . أو قد يكون نتيجة سوء إدارة من المسؤولين. وبقيت بلاد الشام على هذه الحال ، حتى قيض الله لها المنقذ في شخص أحمد بن طولون ، مؤسس الامارة الطولونية .

تمكن أحمد بن طولون بحسن سياسته وتدبيره من تأسيس الدولة الطولونية في مصر، منذ سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م . فشرع في تحصين البلاد، واعداد الجيش وتسليحه ، وانشاء السفن الحربية . وبنى مدينة القطائع(١). وضرب دنانير خاصة به عرفت بالاحمدية(٢) . وبعد أن استقرت له الأمور كما يحب تطلع إلى حماية حدوده الشمالية ، وأراد أن يمد نفوذه

عبر بلاد الشام حتى الثغور لأن حصوله على ولايتها يعطيه في نظر الجميع صفة الرجل المدافع عن حدود بلاد الشام ، وحامي دار الاسلام من أعظم خطر يتهدده ، وهو الخطر البيزنطي . وتحقق أمله حين قلده الخليفه ولايتها . وتبع ذلك توليته خراجها أيضاً فأخذ يبذل مزيداً من الجهد للحصول على ولاية الشام بأكملها للدفاع عن حدود مصر الشمالية(٣) ، وليجعل أجزاء ممتلكاته متصلة ، إضافة إلى مايجنيه من خيرات الشام .

- اوضاع بلاد الشام قبل ضمها للطولونيين :

كانت المنطقة الشمالية في بلاد الشام تابعة لابن أبي الساج منذ سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٧ م ، ثم أصبحت تابعة للموفق منذ سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧١ م . بينما كان عيسى بن الشيخ الشيباني يتقلد جنوب الشام ووسطه بما فيه دمشق وفلسطين والأردن منذ سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م . ثم توفى هذا فأخذها عنه ابنه أو حفيده(٤) . ولم يكن الأخير مخلصاً للعباسيين . يضاف إلى ذلك أن أمور بلاد الشام كانت مضطربة في عهده. فخلافات بين قبيلتي لخم وجذام في فلسطين سنه ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م . وقتال على نهر بيروت بين الأمير نعمان والجراجمة سنه ٢٥٨ هـ / ٨٧١ م (٥) . وفوق كل هذا وذاك، فقد كان ابن الشيخ يطمع في التغلب على بلاد الشام بأسرها ، ويتعدى ذلك إلى التفكير في ضم مصر . وراودته فكرة استغلال ظروف الخلافة العباسية السيئة في تلك الفترة أثناء فتنة الأتراك في بغداد . فنهض لتقوية جيشه وزيادة أعداده . وقد أسفر عن سوء نيته حين استولى على أموال مصر ، والتي تقدر بسبعمائة وخمسين ألف دينار ، والتي كان ابن المدبر - عامل الخراج فيها - قد أرسلها إلى دار الخلافة في بغداد . ووزع قسماً منها على أصحابه ليكتسب قلوبهم(٦).

وقد كان على الخليفة المهتدي بالله العباسي الوقوف في وجه هذا الثائر . فأنفذ قائده حسين الخادم ، يرافقه بعض الفقهاء ، لمطالبة ابن الشيخ بأموال خراج مصر التي استولى عليها وبالأموال التي وجبت عليه عن ولايته في الشام . وأن ينصرف عن ولاية الشام مقابل توليته على ارمينية .

لم يستجب ابن الشيخ لأوامر الخليفة ، بل استغل فرصة قتل الخليفة المهتدي في رجب سنه ٢٥٦ هـ / يونيو ٨٧٠ م ، ومبايعة المعتمد على الله خليفة لاعلان العصيان(٧) . ويبدو أنه جرت اتصالات بين الوفد الموجود في بلاد الشام ، وبين الخليفة المعتمد ، طلب فيها الخليفة من رئيس الوفد ، مداراة ابن الشيخ ريثما يعطي البيعة بعد اغرائه بابقائه في ولاية الشام مضافاً إليها ارمينية ، وجعلها وراثية لأبنائه من بعده . فتحقق للخليفة ما أراد ، وحصل على بيعة الشام له (٨) .

لم يكن الخليفة المعتمد على الله مرتاحاً للطريقة التي حصل بها على بيعة أهل الشام . وكان يشك في ابن الشيخ ، ويرى وجوب القضاء عليه. ونظر فيمن حوله ، فرأى أن يعتمد في ذلك على أحمد بن طولون واليه على مصر . فكتب إليه يأمره بان يتأهب للخروج لاخضاع هذا الثائر ، وطلب منه أن يزيد في عدته ، وأطلق له الأموال لتحقيق ذلك ، وكتب إلى ابن المدبر واليه على الخراج باطلاق يد ابن طولون في الأموال . وكان ابن طولون يحلم بمثل هذه الفرصة ليقوي نفسه من جهة وليتخلص من منافس خطير يجاوره من جهة أخرى (٩) .

وهكذا سنحت الفرصة لابن طولون لتأسيس جيش قوي كان يحلم بتكوينه ، وباذن من الخليفة نفسه . وقد جهزه على أحسن

مايمكن ، لأنه حرص على أن يكون قادراً على تحقيق أهدافه حين يرى الوقت مناسباً لذلك . فاشترى عدداً كبيراً من العبيد الترك والسودان والحبش وغيرهم . كما أنه جدد أسلحته وعدته وعتاده (١٠) .

أرسل ابن طولون إلى ابن الشيخ في صفر سنه ٢٥٦ هـ / يناير ٨٧٠م، يدعوه لطاعة الخليفة، ورد ماأخذه من مال مصر . فأجاب الوفد بأقبح الإجابات . وبدا للعيان بأنه لابد من استخدام القوة ، فعسكر ابن طولون في منية الأصبغ بانتظار تعليمات جديدة من دار الخلافة . وبدأ الوشاة يلعبون دوراً في تغيير ثقة الخليفة بابن طولون ، وأدخلوا في روعه بأنه إذا نجح في مهمته وضم الشام إلى أملاكه ، فانه سيكون أكثر خطراً على الخلافة من ابن الشيخ نفسه . وكان لموقف الموفق تأثير كبير على هذا القرار الذي اتخذه الخليفة المعتمد من أحمد بن طولون ، حين أصدر الأوامر إليه بالعودة إلى مصر . وأسند هذا العمل إلى أحد غلمانه المسمى أماجور الافرنجي بعد أن أقطعه الشام (١١) .

عمل ابن الشيخ على الحيلولة دون دخول أماجور إلى دمشق ، فأرسل جيوشه لمواجهة أماجور خارج أبوابها . وعلى الرغم من كثرة تعداد جيش ابن الشيخ ، وقوة رجاله ، فان النصر كان حليف أماجور الذي دخل دمشق متوجابالنصر . وذلك في سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م . وعندما اتصل بابن الشيخ خبر هزيمة جيشه ، رحل عن الشام متخذاً طريق الساحل إلى إرمينية ، حيث استولى على الحكم فيها . بينما أصبحت بلاد الشام تابعة لأماجور ، الذي جهد من أجل استقرار الأمور له في كافة مناطقها (١٢) .

وهكذا فان بلاد الشام أصبحت تحت أمرة منافس جديد لاينكر

خطره على أحمد بن طولون في مصر . وخشي كل منهما الآخر . ورأى أماجور في مجاورة أحمد بن طولون خطراً كبيراً على وجوده بالشام . فقد كانت سلطات ابن طولون تزداد بسرعة كبيرة ، كما كانت ثروته في ازدياد أيضاً.وأدرك أماجور بثاقب نظره مطامع ابن طولون ورغبته في توسيع حدوده ، فبدأ يحيك المؤامرات ضده – مؤيداً بمنافسي الأخير في مصر ، أمثال ابن المدبر صاحب الخراج ، وشقير الخادم صاحب البريد – وكانت حجة هؤلاء أمام الخليفة ، في أنه اجتمع لابن طولون مالم يجتمع لابن الشيخ ، وانه أكثر خطراً منه على الخلافة (١٣) .

كان لهذا الكلام وقع كبير في نفس الخليفة ، فكتب إلى ابن طولون يأمره باستخلاف نائب عنه في مصر ، وأن يشخص إلى بغداد لتسلم منصب رفيع فيها . ولم يخف ذلك على ابن طولون،بل أدرك أن ذلك يعني تنحيته عن امارة مصر . ورأى أن يستعمل الحكمة في التخلص من هذه الأزمة . فأرسل كاتبه الواسطي إلى عاصمة الخلافة محملاً بالهدايا والأموال لأولياء الأمر في البلاط ، فاستطاع ان يكسب ودهم، وأن يحصل على تثبيت الخليفة له في مصر .

يتضح لنا من هذا العرض أنه كادت الفرصة تسنح لابن طولون في أن يحقق أهدافه في بلاد الشام،ولكن هذه الفرصة فاتته بسبب وشاية الوشاة . وبدا أن عليه أن ينتظر فرصة أخرى . ويمكننا القول أن هذه الفرصة لم تذهب هدراً ، بل إنها أتاحت لابن طولون تكوين جيش

قوي ناجح فعال . بلغ تعداده فيما روي مائة ألف مقاتل ساعده فيما بعد على تحقيق أحلامه (١٤) .

ــ الظروف التي ساعدت أحمد بن طولون على ضم الشام :

انتظر أحمد بن طولون فرصة أخرى لتحقيق أهدافه التوسعية في بلاد الشام ، وقد تهيأت اه الظروف الصالحة في سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م، ومن هذه الظروف :

١ ــ رسوخ أقدام أحمد بن طولون في مصر ، وامتلاكه لجيش قوي . وكان مركزه سنة ٢٦٤ هـ يختلف تماماً عن مركزه سنة ٢٥٦هـ حين حدثت ثورة ابن الشيخ ، هذا في نفس الوقت الذي بدت فيه الخلافة العباسية عاجزة عن القضاء على الثوار في مركز الخلافةنفسها(١٥).

٢ ــ عجز قوات الخلافة عن الدفاع عن الحدود أمامالبيزنطيين، وسقوط بعض الحصون في أيديهم مثل حصن لؤلؤة ، مما دعا الخليفة المعتمد على الله إلى إعادة الثغور إلى أحمد بن طولون . وكتب له بذلك طالباً منه انفاذ طائفة من أصحابه إليها لضبطها . فأرسل في سنة ٢٩٣هـ/ ٨٧٦ م واليه طخشي بن يلبرد إليها ، وأوصاه بحسن معاملة الأهالي(١٦).

٣ ــ كان الوقت مناسباً ، والفرصة سانحة لتحقيق أهدافه ، وخاصة بعد موت منافسه موسى بن بغا وأماجور . يضاف إلى ذلك حصوله على وثيقة رسمية من قبل الخلافة بتوليته الشام (١٧) .

٤ ــ كان على أحمد بن طولون أن يشغل قواته المتزايدة العدد

باعمال عسكرية ، ليبعدها عن القيام بالفوضى . وقد كان الأغالبة في المغرب في قمة ازدهارهم ، لذا لم يكن ابن طولون يفكر في الاحتكاك بهم . أما في الجنوب فقد كان موقف النوبيين قويا ، وكانوا يعملون على السيطرة على بلاد الصعيد ، وضمها إلى املاكهم كلما عادت قوات ابن طولون عنها . ولكن الأخير تمكن بفضل صلابة موقفه من أن يوقف خطر النوبيين ويحسره عن البلاد (١٨) .

٥ — اهتمام ابن طولون الشديد بأمور بلاد الشام نتيجة سياسته الخاصة بالدفاع عن سلطانه في مصر . ولأن حدوده الشمالية كانت مهددة في غالب الأوقات من قبل ولاة الشام . وقد أعطاه موت أماجور والي دمشق في سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م الفرصة لتحقيق هدفه في بلاد الشام إذ انتقل حكم المنطقة إلى علي بن أماجور وكان لايزال صبيا ، ولم يكن في كفاءة أبيه . ولم يشأ ابن طولون أن يضيع الفرصة من يده ، فأعلن فوراً بدء الجهاد ضد البيزنطيين (١٩) .

استخلف ابن طولون ابنه العباس على مصر ، وأيده بكاتبه أحمد بن محمد الواسطي ، وأوصى ابنه بالاقتداء برأيه . وخرج في شوال سنه ٢٦٤هـ/ ٨٧٨ م إلى الشام ، بعد أن كتب إلى علي بن أماجور كتابا يعزيه فيه بأبيه ، ويذكر في كتابه إليه أن أمير المؤمنين قد قلده الشام كله مضافا إليه الثغور الشامية ، وأنه في اثر كتابه . كما طلب منه أن يجهز له الميرة والعلف الضروري للجيش . وما أن وصل هذا الكتاب إلى علي حتى عمل على تنفيذ محتواه (٢٠) . مما يشير إلى شرعية دخول ابن طولون إليها على الرغم من غياب الوثائق المؤكدة .

حصل ابن طولون على طاعة سكان الشام ، وخضعت مدنها ومناطقها لسلطته دون مقاومة تذكر بسرعة، ماعدا بعض المدن مثل طرسوس وانطاكية ، واتبع ابن طولون سياسة حسنة في اخضاع الشام لسلطانه، إذ أنه كان يقر ولاة المدن على ولاياتهم بعد اقرارهم بالتبعية له(٢١).

بلغ أحمد بن طولون مدينة الرملة ، فتلقاه واليها محمد بن رافع ، وقدم له الطاعة وهيأ له كل مايحتاجه الجيش ، وأقام له الدعوة ، فأقره ابن طولون على المدينة ، ومضى إلى دمشق ، حيث بلقاه علي بن أماجور وجميع قواده وأصحابه بكل احترام وتقدير ، وأعدت له الميرة والعلف وكل مايحتاج إليه في مسيره . كما تسلم الخزائن فيها ، وانضم إلى جيشه عدد كبير من كبار القواد ، ممن كان مع أماجور وابنه(٢٢).

أقام ابن طولون عدة أيام في دمشق ، حتى استوثق له أمرها ، فأقر عليها ابن دوغباش(٢٣) . ثم توجه إلى حمص حيث لقيه والي المدينة عيسى الكرخي . وكما فعل في الرملة ودمشق ، فانه أراد أن يقر عيسى الكرخي على حمص، غير أن الأهالي ثاروا على قراره لسوء سيرة أميرهم فيهم ، فعيّن ابن طولون — نزولاً عند رغبتهم — يمنا التركي واليا على حمص ، وتوجه منها نحو شمالي البلاد بعد أن ارسل قسما من جيشه إلى بيروت وعكا وطرابلس الشام . كما تمكن ابن طولون من ضم حماه وحلب إليه . ثم بدأ يفكر جديا في السيطرة على الثغور . ولا بد قبل البدء بالأعمال التي قام بها ابن طولون لتنفيذ رغبته هذه من اعطاء لمحة موجزة عن أحوال الثغور قبل سيطرة ابن طولون عليها(٢٤) ٥

كانت أمهات الثغور يومئذ أنطاكية وطرسوس والمصيصة وماطية. وكان على انطاكية محمد بن يحي الأرمني . وعلى طرسوس سيما الطويل . وكانت مطامع سيما لاتقف عند حد . وأراد أن يسيطر على الثغور بكاملها ، فحاول في أحد الأيام الدخول إلى انطاكية ، والسيطرة عليها . ولما لم يستطع حرض على قتل الأرمني .

غضب الموفق من تصرف سيما هذا ، فعزله وأمّر ارجون بن اولغ بن طرخان التركي على الثغور وأمره بالقبض على سيما الطويل. فلم يحسن التصرف ، ولم يستطع تنفيذ ماأوكل إليه ، وتسبب في ضياع قلعة لؤلؤة . عند ذلك لم يجد الخليفة العباسي المعتمد على الله وأخوه الموفق مفراً من إعادة الثغور إلى أحمد بن طولون ، وكتب إليه بذلك ، وبعث الأخير طخشي بن يلبرد إلى الثغور ليقوم باصلاح شؤونها (٢٢) .

ولكن يبدو أن طخشي لم تكن له السيطرة الكاملة على الثغور ، لوجود سيما الطويل في انطاكية . ولم يرضخ سيما لمراسلات ابن طولون على الرغم من وعده باقراره على مابيده.ويبدو أن سيما لم يكن ليقبل لأحمد بن طولون بما رفضه على الموفق نفسه ، فلم يجبه إلىماطلب. واعتصم بحصن انطاكية . عند ذلك وجد ابن طولرن نفسه مضطراً لقتاله،فألقىالحصارعلى المدينة في نهاية سنه ٢٦٤ ه / ٨٧٧ — ٨٧٨م(٢٦)، بعد ان نصب المنجنيقات وأخذ يرمي الحصن بالحجارة والنفط. ووقع سكان انطاكية في ضيق شديد إذ أنهم أصبحوا بين نارين نار الحصار من جهة ، وسوء معاملة واليهم سيما من جهة أخرى . ولما كانوا يدركون أن أحمد بن طولون سوف يدخل المدينة لامحالة ، وأنه يعتبر

منقذاً ومخلصا لهم من ظلم سيما ، ساعدوه على دخولها في محرم سنه٢٦٥هـ/ سبتمبر ٨٧٨ م . وقتل في اثناء ذلك وقبض ابن طولون على جميع أمواله وممتلكاته (٢٧) .

وبعد أن اطمأن ابن طولون على سير الأمور في انطاكية ، ارتحل إلى بقية الثغور الشامية ليثبت سلطانه عليها . فخضعت له كل من المصيصة وأذنه.ثم رحل إلى طرسوس ذلك الثغر الذي قضى به قسما من شبابه بين العلماء والمجاهدين ، وعزم على المقام به ، وملازمة الغزاة مع جنوده . فتضايق أهاليه بسبب نقص الأقوات وغلاء الأسعار ، ونهضوا مطالبين ابن طولون بالاقتصار على عدد يسير من جنوده إذا أراد البقاء معهم. وارتأى حفاظا على الثغر ،وليظهر أهله وحماته بمظهر القوة أن يتظاهر بأنه انهزم أمام الطرسوسيين ثم يرحل عن البلد ، فيرى العدو أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهالي طرسوس .

توجه ابن طولون إلى حران فجعلها ضمن ممتلكاته ، وترك فيها فرقة من قواته ، كما أرسل فرقة أخرى بقيادة مولاه لؤلؤ إلى الرقه حيث أدخلها في دائرة نفوذه (٢٨) .

وهكذا فان ابن طولون تمكن من فتح الشام بكاملها ، وتوحدت مصر والشام في عهده. وبدأ حربه المقدسة ضد البيزنطيين . ولكنه مالبث أن اضطر إلى ايقاف نشاطه هذا عقب الأخبار التي وصلته عن ثورة ابنه العباس في مصر . وقبل أن يغادر بلاد الشام ، نظم شؤونها وترك الحاميات فيها لتثبيت نفوذه . فحامية في الرقه ، واخرى

في حران ، وثالثة في دمشق . وجعل قيادة حاميات المناطق الشمالية والوسطى لحاجبه اؤاؤ الذي اصبح صاحب الكلمة العليا في بلاد الشام (٢٩).وسنحت الفرصة لابن طواون كي ينتقم من عدوه القديم أحمد بن المدبر ، فقبض عليه في دمشق ، وأخذ منه ستمائة ألف دينار.ويقال أنه أودعه في سجن ضيق حتى مات . وترك أحمد بن طواون بلاد الشام وهو يشعر في قرارة نفسه أن أموره قد استقرت فيها (٣٠) .

* * *

٢ — موقف بلاد الشام والثغور من الطولونيين :

أ — موقف أهالي الشام من الطولونيين :

على الرغم من أن بلاد الشام قد نعمت بالاستقرار والهدوء في عهد أحمد بن طولون ، وأن الأهالي قبلوا ولايته وحكمه بارتياح ، فان هذا لم يمنع قيام بعض الحركات المناوئه ضده . وقد كانت هذه الثورات أو بالأحرى الغارات أقل بكثير مما كان يحصل في عهد ولاة العباسيين ، وكانت في معظمها من الأعراب الذين كانوا يطمعون بالسلب والنهب . وقد بدأت ثوراتهم بعد أقل من سنتين من تاريخ ضم الشام إلى الطولونيين . ومن ذلك ثورة أعراب بني عقيل (٣١) وثورة بكار الصالحي (٣٢) . وعلى العموم فان ثورات أهالي الشام إبان الفترة الأولى من حكم الطولونيين كانت قليلة ، ولكن ما إن بدأ الضعف يدب في جسد الدولة الطولونية حتى ثارت القبائل العربية في جنوب الشام مستغلة الفرصة ، فنهض بعض الأعراب ، وهاجموا قوافل الحجاج في الفترة التي كان فيها خمارويه مشغولاً بقتاله مع أبي العباس بن الموفق. ولكن سعداً الأيسر أدب الأعراب وحمى طريق الحاج .

كما استغل أعراب طيء ظروف الدولة الطولونية والضعف الذي تردت فيه سلطتها في الشام ، فقاموا بغارات متكررة ضد قوافل الحجاج ،

وغايتهم من ذلك الحصول على الأموال والغنائم (٣٣) . ففي سنة٢٨٥ه / ٨٩٨ م قاموا بقيادة زعيمهم صالح بن مدرك بقطع طريق الحاج في منطقة الأجفر(٣٤) ، وأخذوا من الأموال والمماليك والنساء ماقيمته مليون دينار (٣٥) .

وتكررت هذه الحادثة بعد مضي سنتين ، نتيجة ضعف السلطة الحاكمة في البلاد ، وعدم قدرتها على الوقوف في وجههم . ففي محرم سنه ٢٨٧ ه/٩٠٠ م قام صالح بن مدرك وهاجم الحاج العراقي، كما فعل فيما سبق . وتمكن أمير الحاج من النجاة مع من معه بعد قتال يوم وليلة (٣٦) .

ب – موقف أهالي الثغور وولاتها من الطولونيين :

حدثت معظم الثورات التي قامت في وجه الطوانيين في الشام في منطقة الثغور على الرغم من أن ابن طواون كان يحمل إليها الأموال والسلاح والثياب وكل مايحتاج إليه حماتها للوقوف في وجه البيزنطيين. وقد دعا إلى ذلك ضعف مركز ابن طواون في شمالي الشام نتيجة دعاية الموفق ضده ، وخروج بعض مواليه عن طاعته أمثال اؤاؤ(٣٧) . يضاف إلى ذلك كثرة الطامعين في السيطرة على أجزائها لاستغلال مكانتها الدينية والدنيوية . فقد كانت الثغور تتلقى المساعدات المالية من كل من كان يرغب في الثواب ، ونوال صفة المجاهد في الأموال إلى جانب ماكان يحصل عليه حكامها من صفة الدفاع عن الاسلام .

كان للموفق دور كبير في إثاره الثغور ضد ابن طولون . وقد بدأ بذلك منذ أن استصدر من أخيه الخليفة أمراً بعزل ابن طولون ولعنه فوق المنابر . واشتد تأثيره عليها بعد انتصاره على قوات الأخير في مكة ، وظهور بوادر نجاحه أمام الزنج . واستمالته لعدد من حكام هذه المنطقة ، وعلى رأسهم لؤلؤ .

توجه ابن طولون من مصر إلى بلاد الشام مسرعاً ليؤدب مولاه الثائر قبل انضمامه إلى الموفق ، إلا أنه فشل في ذلك . فقد وصلته أنباء التجاء لؤلؤ إلى الموفق حين بلغ الرملة ، ولذلك توجه إلى دمشق . وفي أثناء ذلك وصلته الأخبار بثورة يازمان مولى الفتح بن خاقان في الثغور وتأييد أهالي طرسوس له(٣٨) . ويبدو أنه ظهرت من يازمان تصرفات لم يرض عنها ابن طولون فطلب من مولاه على طرسوس والمدعو خلف الفرغاني القبض عليه وحبسه . ونفذ خلف الأوامر التي صدرت إليه . إلا أنه اصطدم بثورة أهالي طرسوس الذين كانوا يميلون إلى يازمان . فهاجموا السجن وأخرجوه ، ثم ولوه على طرسوس. وكادوا يقتلون خلفاً لولا فراره إلى دمشق (٣٩) .

وأعلن يازمان ثورته على ابن طولون ، فاضطر الاخير إلى المسير إليه لتأديبه . وسلك ابن طولون طريقاً شاقة وعرة للوصول إلى أذنة ، ومن ثم إلى المصيصة لئلا تقع حيلة عليه . ومن هناك أرسل يدعوه إلى الطاعة والانقياد إلى الأوامر . ولكنه لم يجد من يازمان أذناً صاغية فسار إلى طرسوس حيث حاصر المدينة في شهر جمادى الثانية ٢٦٩ هـ / كانون الأول ديسمبر ٨٨٢م وقت اشتداد البرد . وزاد على ذلك ماقام به يازمان من فتح مياه نهر البردان ، فغرقت المنطقة التي كانت فيها مضارب وخيام

ابن طولون عندئذ قرر الرحيل إلى أذنه . ومنها كتب إلى يازمان كتاباً يذكر اه فيه أنه لم يترك قتاله عجزاً فقد كان عنده الجنود الأشداء القادرون . والكن انصرافه كان خوفاً على عساكره وعلى ساكني الثغر (٤٠) .

وطال مقام أحمد بن طولون في أذنة . وكان ذلك في عنفوان اشتداد البرد . ومات عدد كبير من جنوده ، فارتحل عنها إلى المصيصة بعد أن عاهد الله ، أن لايجهز جيشاً اقتال طرسوس ، لأنه يعتبرها سكن الاسلام . فأقام بالمصيصة ثلاثة أيام مرض بعدها ، وبلغ انطاكية وقد اشتد عليه المرض(٤١) .

واستمر ابن طولون في محاولاته للحفاظ على بلاد الشام من طمع الطامعين بها حتى بعد أن أصابه المرض . وخرج بجنوده لمواجهة منافسيه اسحق بن كنداج ، وأحمد بن أبي الساج ، في نفس الوقت الذي أرسل فيه جيشاً إلى الشام ، وبقي في منية الأصبغ يتابع المعركة حتى وافته الأنباء بزوال الخطر . وكان انتقاله على هذه الصورة مما أجهده . وعاد وقد اشتد به المرض وتوفي فخلفه ابنه خمارويه (٤٢) في ١٠ ذي القعدة سنه ٢٧٠ هـ / ١١ أيار/مايو ٨٨٤ م .

* * *

كانت طرسوس خارجة عن طاعة الطولونيين حين اعتلى خمارويه عرش الامارة بعد وفاة والده والنفوذ فيها ليازمان . وتمكن الأخير بجهوده الشخصية من أن يقود معركة الجهاد ضد البيزنطيين بنجاح. وبعد أن تتابعت انتصارات خمارويه . وبدا للجميع احكام سيطرته على

بلاد الشام ، وخاصة بعد أن أخضع رجلي الموفق اسحق بن كنداج، وابن أبي الساج ، وفرض السلام في منطقة الجزيرة(٤٣) . أراد أن يبقي على هذه الانتصارات وأن يضاعف منها بالتعاون مع يازمان . فارتأى ان يستميله ليضمن بقاء الثغور تحت سيطرته . فراسله وأرسل إليه في سنة ٢٧٧ ه / ٨٩٠ م ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف ، ثم أتبع ذلك بخمسين ألف دينار .

ولم يكن ماأرسله خمارويه إلى يازمان هبة بقدر ماكان عوناً لهؤلاء المدافعين عن الثغر . ولم يرفض يازمان اليد التي مدت إليه بالخير ، بل دعا لخمارويه على منابر الثغور في نفس السنة . وكان ذلك بداية لتعاون وثيق بين يازمان وخمارويه لدفع الخطر البيزنطي(٤٤) . وقد ظلت هذه العلاقات متصلة حتى جرح بازمان في حروبه مع البيزنطيين ، عندما كان يقوم بغزو إلى سلندو في سنه ٢٧٨ ه / ٨٩١ م ومات متأثراً بجراحه ، ونهض ابن عجيف للقيام بشؤون طرسوس بعد أن كتب إلى خمارويه بالأمر ، فأقره على ولايتها (٤٥) .

ويبدو أن الأمور في طرسوس لم تكن حسنه ، ولم يكن أهالي المدينة مع الطولونيين وولاتهم.ويتضح من مجريات الحوادث أن أموراً قد طرأت على طرسوس أدت إلى أن يطلب ابن عجيف من خمارويه التدخل . وسار الأخير على رأس جيشه إلى هذه المدينة ، بعد أن أقسم برأس أبيه أن يؤمن حدود دولته . وبعد أن دخل المدينة أناب عنه فيها ابن عمه محمد بن موسى بن طولون المعروف بالأعرج . ولكن أهالي طرسوس لم يرضوا به . وما أن ذهب خمارويه حتى أخرجوه منها ،

وواوا مكانه راغباً أحد رجال العباسيين الذي كان قد نزل بطرسوس للجهاد (٤٦) .

وهكذا فان خمارويه حرص على بقاء علاقات حسنة مع ثغر طرسوس . لئلا تتفرق جهود المسلمين ، ولكن سكان طرسوس . رفضوا وصايته ، وفضلوا عليه ولاة من قبل العباسيين .

وعلى الرغم من أن راغباً قام بتأدية الواجب المقدس ، وجاهد البيزنطيين . إلا أن خمارويه لم يكن يرضى بخروج الثغور عن طاعته بتلك السهولة . وكان يتحين الفرصة للقضاء على راغب وإعادة ابن عمه إليها . وواتته الظروف وتمكن من القبض على راغب ، وإعادة ابن عمه على الثغور في ٢١ جمادى الأولى سنه ٢٧٩ هـ / ٢٠ اغسطس ٨٩٢ م . وقابله أهالي الثغور بالقبض على ابن عمه وسجنه. وأرسلوا إليه يعلنون له أن محمداً رهينة في أيديهم ، حتى يطلق إليهم راغبا . فاسقط في يد خمارويه ، ولم يستطع إلا مسايرة أهالي الثغور، فأطلق سراح راغب ، بعد أن أنفذ معه أحمد بن طغان والياً على الثغور على أن يكون راغب معاوناً له . ووافق على عزل ابن عمه . ودخل راغب ومعه أحمد بن طغان إلى طرسوس الثلاثاء ١٣ شعبان سنه ٢٧٩هـ/ ١٠ نوفمبر ٨٩٢ م(٤٧) . وعلى هذا الشكل عادت سلطة الطولونيين ثانية إلى الثغور . وفي عهد هارون بن خمارويه بدأ الخلاف بين راغب وأحمد بن طغان . ويبدو واضحاً في هذا الخلاف تدخل العباسيين في شؤون الثغور . ففي سنه ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م استغل راغب انشغال ابن طغان بالاشراف على تنفيذ الفداء مع البيزنطيين ، فترك الدعاء لهارون ودعا لبدر مولى الخليفة المعتضد . وعندما أنهى أحمد بن طغان الفداء،

عاد أدراجه إلى هارون بحراً ، وعادت السيطرة في الثغور إلى راغب الذي أرسل رجالات الطولونيين في الثغور إلى الخليفة المعتضد . وهذا دليل واضح على أنه كان للعباسيين يد في محاولة راغب الاستقلال عن الطولونيين (٤٨) .

على هذا الشكل بدأت الثغور في الاضطراب وولاتها في التنافس وأصبحت تدين تارة لطاعة الطولونيين ، وأخرى ترفض هذه الطاعة. وكان الموفق يتحمل مسؤولية تحريض بعض رجالات الثغور على الطولونيين ، وبالتالي فانه يتحمل مسؤولية قيام الثورات في هذه المنطقة ، واضعاف الجبهة الشمالية في وجه البيزنطيين . وكان بإمكان الموفق عزل ابن طولون عنها ، إلا أنه لم يستطع أن يجد له كفؤاً ، إضافة إلى تأييد الخليفة المعتمد له . ثم تغيرت الظروف ، وبدا ضعف الطولونيين وعدم تمكنهم من الحفاظ على هذه البقعة الهامة بعد وفاة خمارويه ، فسار وفد من أهالي المنطقة في محرم سنه ٢٨٤ هـ / شباط فبراير ٨٩٧ م إلى الخليفة المعتضد يسألونه أن يولي عليهم والياً من قبله ، رافضين غلمان الطولونيين لإساءتهم إلى الأهالي . فحمل طغج بن جف هذه المسؤولية . عند ذلك ارتأى هارون بن خمارويه أن يقايض الخلافة العباسية ، يسلمها الثغور مقابل اعترافها بحكمه في مصر والشام . وتسلم المعتضد قنسرين والثغور من الطولونيين ، وجعلها مع الجزيرة في ولاية ابنه المكتفي (٤٩) .

٣ – بلاد الشام بين الطولونيين والعباسيين :

– بلاد الشام بين أحمد بن طولون والموفق .

حقق ابن طولون أحلامه بجعل بلاد الشام تحت أمرته . إلا أنه لقي متاعب جسيمة من موقف الموفق العدائي الذي عمل جاهداً على ابعاده عنها . كانت سنه ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م بداية النزاع بين ابن طولون والموفق . وتعود جذور النزاع إلى أن الأول كان يعمل على مراعاة شؤون الخليفة المعتمد على الله ، وتنفيذ رغباته ، وخاصة المادية منها. وكثيراً مااضطر إلى القيام بذلك سراً دون علم الموفق . ففي هذه السنة أرسل ابن طولون الأموال سراً إلى الخليفة بناء على رغبته ، على الرغم من أن الموفق كان في حاجة إليها لانفاقها في حروبه مع صاحب الزنج . ويبدو أن الموفق علم بذلك فأرسل خادمه إلى ابن طولون . وكان ظاهر الأمر أن هذا الخادم جاء يستحث ابن طولون على حمل الأموال . وحقيقه الأمر كما وضحها الخليفة المعتمد على الله لابن طولون ، أن هذا الخادم جاء ليراقب تصرفاته ، ويحرض قواده ضده بتوزيع كتب عليهم .

تنبه ابن طولون ، وأدرك خطورة الموقف ، فاعتقل خادم الموفق وأخذ منه الكتب . وبعد الاطلاع عليها عرف موقف كل قائدمن قواده ، واتخذ في حقهم الاجراءات المناسبه . ثم شيع خادم الموفق بعد أن سلمه مليوناً ومائتي ألف دينار ورقيقا وطرزاً (٥٠) .

أخذ الموفق بالكيد لابن طولون ، وأراد أن يقوض الأساس القانوني الذي يستند إليه ، فاستصدر قراراً بعزله عن مصر ، وتقليد أماجور عليها . ولم يتجرأ الأخير على تسلم ولايته لأنه كان يعرف قوة ابن طولون ومنعته . فلم يجد الموفق بداً من استعمال القوة المسلحة لتنفيذ مضمون كتابه . فاختار موسى بن بغا – المشرف على ولاية المفوض إلى الله لاكساب عمله صفة الشرعية – وجعله قائداً مكلفاً باخراج ابن طولون من مصر ، وتسليمها إلى أماجور (٥١) .

كانت الحجة التي تذرع بها الموفق ، هو أن الأموال التي أرسلها ابن طولون لم تكن كافية . وأساء ابن طولون جوابه ، فكتب إليه موضحاً فضله على الدولة العباسية ، وأنه يعمل على صيانتها والذود عنها . وعاتبه على جفائه له وهو القوي الذي يجتمع عنده الجند والأموال ، في الوقت الذي لايستطيع الموفق عمل شيء ازاء صاحب الزنج . كما أوضح له أن مصر ليست تابعة له . وأنه ليس ملتزماً نحوه في شيء . وهو بعمله هذا ينقض العهد الذي أخذه الخليفة عليه بعدم تدخله في المناطق التابعة لابنه المفوض إلى الله (٥٢) .

سار موسى بن بغا إلى الرقه ، ومن هناك أرسل إلى ابن طولون يستحثه في ارسال الأموال . وأخذ ابن طولون حذره فحصن حدوده ومداخل عاصمته . واجتهد في بناء المراكب الحربية . وخشي ابن بغا منازلته ، فأقام بالرقة عشرة أشهر ثم عاد إلى العراق يجر أذيال الخيبة ، بعد ان شغب أصحابه عليه . ثم مالبث أن توفى في صفر سنه ٢٦٤ هـ / اكتوبر ٨٧٧ م بعد أشهر يسيرة من عودته (٥٣) .

حارب الموفق ابن طولون ثالثة بحرمانه من الثغور الشامية – وكان قد وليها منذ سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م على أن يحمل في كل سنه أربعمائة ألف دينار إلى الخلافة(٥٤).واحتج لدى أخيه الخليفة بأن الثغور تحتاج

إلى من يقيم فيها ويغزو بأهلها . وأن ابن طولون عاجز عن حمايتها والقيام بأمر الجهاد . وأنه يرسل إليها من هو ليس كفؤاً لها . واستقر الأمر على أن ترسل ولاتها من قبل الخلافة مباشرة ، وأول من ندب لهذا الأمر توفي قبل وصوله إليها ، فأعطيت لمحمد بن علي الأرمني . وحدث خلاف بينه وبين سيما الطويل بسبب منعه للارمني من دخول انطاكية ، وتشجيعه لأهالي طرسوس على الثورة ضده ، وانتهى الأمر بقتل الأرمني (٥٢).

وصلت الأخبار إلى الموفق فحنق على سيما ، وأرسل أرجون بن يولغ بن طرخان التركي خلفاً للأرمني ، وأمره ان يقبض على سيما الطويل . ولكنه لم يكن كفؤاً للقيام بالمهمة التي وسدت إليه ، واشتغل بطمعه عن مصلحة المنطقة ، فاستولى على أموال الجنود في قلعة لؤلؤة وعلى الميرة الخاصة بهم ، كما حرمهم من المعونات التي أرسلها إليهم أهالي طرسوس . ولما لم يأخذ الجنود عطاءهم غادروها ، فضعفت واستولى البيزنطيون عليها . وهي القلعة التي بذل أوائل العباسيين جهوداً جبارة حتى جعلوها في حوزة المسلمين(٥٦) . وقد كان لهذا العمل السيىء أثر كبير في نفوس أهالي الثغور ، وبلغ ذلك الخليفة المعتمد على الله فأعاد الثغور إلى أحمد بن طولون ، على الرغم من عدائه للموفق ، ولم يجد الأخير حيلة لمنعه من تحقيق ذلك (٥٧) .

بدأ الموفق يكيد لابن طولون بتأليب ولاته عليه . ومن هؤلاء لؤلؤ الذي كان ابن طولون يثق به كثيراً ، وائتمنه على كل شيء من أموال وأمتعة وأسلحة ، وأطلق يده في الثغور الشامية(٥٨) . وبدأ تمرده بسك اسمه على العملة إلى جانب اسم ابن طولون(٥٩) ، ثم كشف عن نواياه الحقيقية حين قطع الدعاء لسيده في كافة المناطق التابعة له ، ثم سار متوجهاً إلى العراق بعد أن استولى على نحو مليون دينار . وأخذ يخضع المناطق والمدن لسلطة العباسيين المباشرة ، ويعين فيها ولاة يرضى عنهم(٦٠).

علم ابن طولون بما كان من لؤلؤ ، فارتأى أن لايلجأ للقتال مباشرة ، بل يكاتبه ويلاطفه عسى أن يعود إلى الصواب . ولما لم يجد أذناً صاغية ، عزم على الخروج إليه ليؤدبه ، ولكنه لم يستطع اللحاق به .

لقد كان انضمام لؤلؤ إلى الموفق ذا أثر كبير على ابن طولون . فقد حدث ذلك في نفس الوقت الذي شارف فيه الموفق على الانتصار على الزنج ، وبات متوقعاً أن يواجه ابن طولون بكل مايملك(٦٠) . وقد اختلف في تفسير خلاف لؤلؤ مع ابن طولون ، فيرى البعض أن ابن طولون على الرغم مما ترك لواليه من مال وسلاح للدفاع عن شمالي الشام حين تم له دخولها ، فانه أخذ بعد أن استقرت له الأمور فيها بسياسة مالية صارمة. فتشدد في جباية الخراج ، وكان عامل الخراج يتبع له مباشرة ، ويأتمر بأمره ، ويغل يد لؤلؤ . فأبدى سخطه واستولى على شطر من الخراج . ثم التجأ إلى الموفق .

ويعزو البعض أسباب هذه الثورة إلى أن ابن طولون عهد إلى صهره محمد بن الفتح بن خاقان بديار مضر بعد أن كانت تابعة إلى لؤلؤ . والغالبية تظهر محمد بن سليمان المحرض الحقيقي للؤلؤ على الانضمام إلى الموفق . ويرى البعض أن لؤلؤاً لم يكن راضياً عن تعيينه حاكماً في الشام واقصائه عن بلاط الأمير(٦٢) . وأهم من ذلك كله الدور الذي لعبه الموفق في توسيع شقة الخلاف بين لؤلؤ وابن طولون ، ليضعف موقف الأخير ويشغله بالقتال مع ولاته ، ليتمكن من تحقيق أهدافه .

وفي رأيي أن تضييق ابن طولون على لؤلؤ من الناحية المالية بعد أن سبق وترك له أكثر مما يحتاج إليه ، أشعره بتغير نظرة سيده تجاهه . وزاد على ذلك تضييق المنطقة التي كان يحكمها بتعيين محمد بن فتح ابن خاقان ، مع تحريض كل من الموفق ومحمد بن سليمان له على الثورة. هذه الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى قيامه بالثورة. وأستبعد أن يكون

لؤلؤ قد قام بثورته لاقصائه عن بلاط الأمير على الرغم من أن ما يورده التنوخي(٦٣) يدل على أن لؤلؤاً قد تغير حاله عند ابن طولون قبل انفاذه إلى الشام ، إذ لو كان ذلك لما ترك ابن طولون لمولاه كل ما تركه له من مال وسلاح ومتاع . ولو كان الخلاف حدث في سنة ٢٦٤هـ لكان الأجدر بلؤلؤ أن يلتجيء إلى الموفق في هذه السنة أو بعدها بفترة بسيطة . ولا يمكن أن نفسر أن لؤلؤا استغل الفترة بين تعيينه حاكماً على شمالي الشام وخروجه على سيده كفترة استعداد قبل الثورة ، وذلك لأن الموفق يعتبر جاراً للؤلؤ في ولايته في شمال الشام ، ولذلك فهو لايحتاج إلى مثل هذا الاستعداد الطويل ، وخاصة وأن ماتركه ابن طولون لمولاه من مال وغيره يساعده على هذا العمل بسرعة.ولسنا نظن أن لؤلؤاً كان يطمع في أن يصل مع الموفق إلى مرتبة أعلى مما نالهعند ابن طولون .

وفشل ابن طولون في القضاء على ثورة واليه لؤلؤ ، كما فشل في منعه من اللجوء إلى الموفق . وبدا العداء سافراً بين ابن طولون والأخير . وزادت حدة الأمور حين عزم الخليفة المعتمد سنه ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ - ٨٨٣م على ترك بغداد هرباً من الموفق ، وكتب إلى ابن طولون يشكو إليه سوء حاله مع أخيه ، فأجابه بكتاب هام حسن له فيه المجيء إلى مصر . ووعده بأن تكون جميع القوات التي عنده تحت أمرته . وأرسل له سفتجة بمائة ألف دينار . ومالبث ان جاءه جواب الخليفة يذكر وصول رسوله وكتابه والمال المسفتج ، وأنه في طريقه إليه .

كان اهتمام ابن طولون بالخليفة في هذه المرة موجهاً ضد الموفق، يدل على ذلك ماجاء في كتاب ابن طولون إلى الخليفة حين يذكر له أن أمره سيرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز . ولا يتهيأ منه شيء مما يخافه عليه منه في كل لحظة(٦٤) . وتشير المصادر والمراجع إلى هلع الموفق حين علم بتصميم أخيه على الخروج من العراق ، فقد أدرك أنه إذاتم

هذا الأمر ، استولى ابن طولون على أمر الخلافة ، ولم يبق لأحد معه شيء (٦٥) .

رتب ابن طولون الأمر على أن تتم محاولة الخليفة في أثناء وجوده في بلاد الشام حتى يستطيع أن يكفل للخليفة الحماية المنشودة . وسار هو من دمشق لملاقاته ، ولكنه حين علم باحباط محاولته عاد ثانية إلى دمشق، حيث كتب إلى عامله بمصر أن الموفق قد نكث البيعة وطلب منه أن يسير إليه الفقهاء والقضاة والأشراف ، ولما حضروا إليه عقد معهم اجتماعاً ضم قضاة وأشراف أهل الشام بما فيها الثغور ، وقرروا في هذا الاجتماع خلع الموفق وبرروا عملهم هذا بأن الموفق كان يخالف المعتمد ويحصره فوجب جهاده على الأمة . وكتب الكتاب على عدة نسخ وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر في جميع أمصاره، وذلك في يوم الخميس١٢ ذي القعدة سنه ٢٦٩ هـ /٢٤ مايو ٨٨٣م(٦٦).

كان لهذه الأعمال من قبل ابن طولون أثر كبير في نفس الموفق، ولذلك أمر بلعنه في دار العامة وعلى المنابر . وقد صدر قرار اللعن باسم الخليفة المعتمد ليكون له صفة الشرعية(٦٧) . كما أصدر قراراً باعطاء ولاية المناطق التابعة لابن طولون إلى اسحق بن كنداج ، وفوض إليه من باب الشماسية إلى افريقية ، مع توليته قيادة شرطة الخاصة ، وقلده سيفين (٦٨) ٥

وفي غمرة هذه الأحداث خرج ابن طولون بأمر آخر على الناس. فقد بنى على قبر معاوية بن أبي سفيان أربعة أروقة ، ورتب عند القبر أناساً يقرؤون القرآن ، ويوقدون الشموع عند القبر . ومن المرجح أن أن يكون ذلك تحدياً لبني العباس لكرههم التقليدي للأمويين. ويبدو أن

ما استحدثه ابن طولون استمر في عهد أبنائهمما دعا الخليفة المعتضد إلى الرد على احياء ذكرى معاوية بلعنه على المنابر . وقام بانشاء كتاب يقرأ على الناس،ولكنه توقف عن التنفيذ لتحذير بعض رجاله له(٦٩) .

وبعد مضي فترة على الصراع بين ابن طولون والموفق ، وجد الطرفان أن لافائدة من ذلك . وبدأا يظهران ميلاً للتفاهم واقرار السلام . وجرت مراسلات بين الطرفين ، كان الموفق البادىء بها ، وجنح ابن طولون بدوره إلى المسالمة واعتذر للموفق موضحاً له أن انحرافه عنه لم يكن إلا بسبب حصره الخليفة .وبادر الموفق بتكريم الخليفة ، ورد إليه اعتباره وأطلقه من محبسه ، فقام ابن طولون برد الدعوة للموفق . وجاءه كتاب اسقاط اللعن عنه . وكانت الخطوة التالية أن يعترف الخليفة رسمياً بشرعية حكم بني طولون في مصروالشام(٧٠).

لقد كان الطولونيون من الناحية الشرعية ولاة من قبل الخلفاء العباسيين . وكانوا ينقشون اسم الخليفة على السكة . وقد قيل أن ابن طولون لم يضع اسمه على السكة مع الخليفة العباسي ، إلا بعد أن قام بحملته الأولى على الشام ، وأصبح له نفوذ عظيم هناك (٧١) .

ومات أحمد بن طولون في يوم الأحد ١٠ ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ /١١ أيار مايو ٨٨٤ م ،وكانت وصيته أن يتولى ابنه العباس بلاد الشام ومنطقة الثغور شرط أن يبايع خمارويه وأن يقدم له فروض الطاعة، ولكنه لم يف بالوصية فقتله أخوه (٧٢) .

– التنافس على بلاد الشام في ولاية خمارويه :

بعد وفاة أحمد بن طولون تولى ابنه أبو الجيش خمارويه البلاد التي كانت تابعة لأبيه بكاملها مخالفا وصية أبيه لأسباب متعددة . وحاول خمارويه اكساب حكمه للبلاد صفة الشرعية فكتب إلى مركز الخلافة طالبا الاعتراف ، فلم يجب إلى طلبه.عند ذلك أدرك أن أعداءه سوف يكيدون له ، وأن ابن كنداج – الأمير الشرعي للبلاد منذ الأزمة التي ثارت بين الموفق وأبيه – سوف يستغل عدم شرعية حكمه . ولذلك فانه نظم أمور المنطقة الشمالية الشرقية ، وشحنها بالجيوش ، وجعل قيادتها إلى قائده أحمد بن دوغباش إضافة إلى ولاية دمشق (٧٣) .

وحدث ماكان يتوقعه خمارويه ، فقد طمع كل من اسحق بن كنداج ، وابن أبي الساج في بلاد الشام ، وتمكنا من ضم أحمدبن دوغباش إليهما . واتفق الجميع على ابعاد الطولونيين عن المنطقة(٧٤) ، وقد هدف ابن كنداج من حركته تثبيت ولايته على أملاك الطولونيين .وحرص على جعل خطواته مدعمة من قبل الخلافة العباسية . ولذلك فانه كاتب الموفق ، واعلمه بالأمر وطلب منه المساعدة .

كانت الظروف كلها في صالح ابن كنداج ، فقد كانت منطقة الموصل والجزيرة ذات الموقع الهام بالنسبة لبلاد الشام تحت حكمه ، وله الشرعية في حكم المنطقة.بينما كانت ظروف خصمه خمارويه سيئة ، فقد كان شابا ناشئا لم يجرب الحروب ، كما أنه لم يحصل على اعتراف

الخلافة بولايته ، يضاف إلى ذلك كره الموفق لابن طولون وأبنائه ، وخيانة بعض نوابه مثل والي دمشق .

وعلى الرغم من صغر سن خمارويه فانه اهتم باعداد جيشه على غرار جيش أبيه . وبلغ تعداد جنوده في الشام ومصر نحو أربعمائة ألف فارس (٧٥) .

وسار ابن كنداج إلى الرقة والثغور والعراصم فملكها وطرد عامل الطولونيين منها ، ودعي له على منابرها . ودخل حلب في ربيع الثاني سنه ٢٧١ هـ / اكتوبر ٨٨٤ م . وكان على خمارويه أن يقف وقفة قوية للمحافظة على أملاكه . فأرسل جيشا بريا من مصر جعل على قيادته سعداًالأيسر(٧٦) ، وأمده بأحمد بن محمد الواسطي ليدبر الجيش ويتولى النفقات(٧٧) . وأرسل كذلك قطعا من اسطوله لمراقبة الساحل، ومساعدة قواته البرية(٧٨) . وفي فلسطين انضم الواسطي إلى جيوش الخلافة العباسية .

ولا بد لنا من مناقشة الأسباب التي أدت بالواسطي إلى التخلي عن أسياده والارتماء في أحضان العباسيين . لقد كان الواسطي يخشى من خمارويه لأنه كان قد أشار عليه بقتل أخيه العباس. ويرى البعض أن خروج الواسطي كان لاعتقاده بأن أعداءه سوف يكيدون له عند خمارويه مستغلين فرصة غيابه . وقد بدت بوادر نجاحهم في الايقاع به حين تمكنوا من ابعاده عن العاصمة وتعيينه في الجيش الذاهب للقتال فيالشام. وحاول أول الأمر أن يستعيد مكانته التي فقدها بسبب ثورة العباس بالتوسط لإعادة العلاقات الطيبة بين الموفق والطولونيين .

ومن المرجح أن الواسطي قد ساءه أن يسير في جيش يقوده سعد الأيسر ، وأن يتولى إدارة هذا الجيش ونفقاته فقط . وكان يطمع في أن يدير أمر خمارويه ، ويسيطر عليه لصغر سنه . وازداد حنقه

حين رأى أحد أتباعه وهو محبوب بن رجا يأخذ مكانه عند خمارويه، يتضح ذلك حين نعلم أثر ذلك على الواسطي وهو لايفتأ يتحدث عن أن محبوبا كان أحد كتابه ، فكيف يصبح تحت أمرته . لقد أوقد تصرف خمارويه هذا مراجل الغضب عند الواسطي لدرجة أنه أقسم ليهدمن ماكان قد بنى ، ويقصد أخذه البيعة لخمارويه من دون اخوته (٧٩) .

ومن أجل ذلك أرسل الواسطي إلى الموفق يحثه على ارسال جيوش عسكرية للقضاء على الامارة الطولونية ، ويهون أمر خمارويه ، ويؤكد له نقص القوات في مصر . وقد وصل هذا الكتاب بعد توجه الجيوش العباسية إلى حلب بقيادة أبي العباس . وكان لهذا الكتاب تأثير كبير في اسراع أبي العباس ومن معه من القواد لقتال جيوش الطولونيين .

وصلت القوات التي أرسلها خمارويه إلى مدينة دمشق ، وكان واليها ابن دوغباش قد انضم للعباسيين ، وكذلك خرج الواسطي عن اجماع الجيش الطولوني ، وعسكر في الرملة لقطع الامدادات الطولونية عن دمشق . وكان لهذا العمل تأثير كبير في سرعة سقوط دمشق بيد العباسيين (٨٠) .

سار ابو العباس مجداً ليباغت جيوش خمارويه في شيزر . وكان وصوله إليها مفاجأة تامة للقوات الطولونية ، إذ كان قد حل فصل الشتاء والأمطار على أشدها ، مما اضطر معه أصحاب خمارويه إلى التفرق في منازل شيزر(٨١) . وأنزل أبو العباس ضربات شديدة بجنود خمارويه،وسار من سلم منهم إلى دمشق على أقبح صورة . وتوجه أبو العباس إليها حيث تمكن من هزيمة سعد الأيسر . وبذلك خضعت دمشق لسلطة العباسيين المباشرة في شعبان سنه ٢٧١ هـ / شباط فبراير ٨٨٥ م (٨٢) .

توجهت جيوش الطولونيين التي تراجعت عن دمشق إلى الرملة،

حيث اصطدمت مع القوات المرابطة مع الواسطي ، وانتصرت عليها. فأخذ الواسطي طريق الساحل حيث لحق بجيوش العباسيين ، بينما دخلت القوات الطولونية مدينة الرملة ، واستولوا على ماكان للواسطي فيها . وأعلموا خمارويه بذلك (٨٣) .

وفي أثناء وجود جيوش العباسيين في دمشق ساءت علاقة أبي العباس مع كل من ابن كنداج وابن أبي الساج . فقد نسبهما إلى الجبن لأنهما انتظرا مجيئه لبدء الهجوم على القوات الطولونية. فتركاه وتوجها إلى حلب وبرفقتهما أحمد بن دوغباش . وأخذا في جباية أموالها لصالحهما (٨٤) .

وحين تفرق صف الجيش العباسي ، توجه خمارويه إلى الشام يرافقه جيش كبير ، وعسكر في الطواحين على مقربة من جيش أبي العباس . وقام كل فريق بتنظيم جيشه وتقسيمه وتعبئته لمواجهة الفريق الآخر . وجعل خمارويه القيادة له ولسعد الأيسر . وحملت ميسرة أبي العباس على ميمنة خماروية فمرقتها . وظن خماروية أن الهزيمة قد حلت بجيشه ، فانهزم تاركا ساحة المعركة(٨٥) وبذلك سنحت الفرصة لأبي العباس بالدخول إلى خيام خمارويه فغنم مافيها(٨٦) . وفي نشوة النصر هذه قام الجيش الذي يقوده سعد الأيسر بمهاجمة قوات أبي العباس بقوة ، فاضطروا إلى ترك الغنائم والتراجع حتى طرسوس. وكان أبو العباس ينوي ضم قوات الثغور إليه ففشل ، ولذلك فانه أخذ طريقه إلى بغداد . بينما قام سعد الأيسر باستعادة كافة المناطق في الشام، وأعادها إلى طاعة خمارويه . وسيرت البشارة إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات ، ووزعت الأموال ، وأطلق سراح الأسرى . وخرج خمارويه إلى الشام ليشارك في فرحة النصر ، حيث بقي شهراً واحداً عاد بعده إلى الفسطاط (٨٧) .

وثق خمارويه في البداية بواليه سعد الأيسر ، إلا أنه مالبث أن تغير رأيه فيه بعد أن لاحظ جنوح الأيسر إلى الاستقلال ، وحطه من شأن خمارويه حين يتحدث أمام أنصاره . ويصفه بأنه صبي مشغول باللهو ، بينما هو يكابر الشدائد . وكانت تصرفات سعد تصل إلى خمارويه فتضايقه حتى قرر التخلص منه . وسار حتى وصل الرملة حيث قتل سعداً الأيسر (٨٨) .

ثار أهالي دمشق غضبا لمقتل واليهم — لاخلاصه وتفانيه في نشر الأمن — فقد أمن طريق الحاج بعد أن قطعه الأعراب قبل ولايته لمدة ثلاث سنوات . وبقي خمارويه في دمشق حتى هدأ ثائرة سكانها ، واستقرت له الأمور بها . ثم عمل على التقرب منهم ، فأصلح طريق الحاج ، وأحسن إلى الفقراء والمساكين والمستورين وأهل العلم (٨٩).

وهكذا هدأت أحوال الشام حتى سنة ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ — ٨٨٧ م ، ولكن الأمور مالبثت أن تأزمت ثانية بسبب مطامع ابن أبي الساج . وابن كنداج فيها . وخشي خمارويه مطامعهما فسار إليهما حتى نزل حلب . وهناك أطمع ابن أبي الساج بمبلغ مالي كبير . واتفق معه على ابعاد ابن كنداج عن المنطقة(٩٠) . ثم عبر خمارويه الفرات ونزل بالرافقة يؤازره ابن أبي الساج (٩١).والتقى الجمع مع ابن كنداج في قتال عنيف ، وكانت الحرب في أولها على خمارويه . وانهزم أصحابه وثبت هو في طائفة منهم حتى أحرز النصر ورد ابن كنداج على اعقابه حتى اضطره إلى الالتجاء إلى قلعة ماردين ، بينما بلغ بعض أصحابه سر من رأى .

حوصر ابن كنداج في ماردين ، وضيق عليه . فوجد أن لافائدة من القتال.ولذلك مد يده بالصلح إلى خمارويه . ودعا له في المناطق التي كانت في يده، كما دعا ابن أبي الساج لخمارويه في الجزيرة والموصل(٩٢). وقد ظهرت في هذه المعركة خبرة خمارويه العسكرية . وكان نصره على ابن كنداج عظيما ، لأن الأخير كان مؤيداً بخطواته من الموفق . وأذهل هذا النصر المعاصرين ، وفل عزيمة الموفق . فقد تمكن من جعل عدوه يتراجع بارتباك حتى سامراء . وبعد أن كان يدعي الامارة على مصر رضي بالصلح مع خمارويه ، وأصبح عاملاً من عماله في المناطق التي كانت في يده . وتوطد نفوذ خمارويه في اقليم الجزيرة ، وضرب نقوداً في مدينة الرافقة بهذه المناسبة سنة ٢٧٣ ﻫ / ٨٨٦ — ٨٨٧م(٩٣).

وعلى هذا الشكل ، وبعد هذه الحروب الدامية التي استمرت منذ أن تولى خمارويه الحكم حتى نهاية سنة ٢٧٣ ﻫ تقريبا ، لم يستطع العباسيون وحلفاؤهم تحقيق حلمهم في القضاء على الدولة الطولونية أو ابعادها عن بلاد الشام . ولذلك نرى الموفق ، وبعد أن رفض الاعتراف بولاية خمارويه فيما سبق ، يقبل ذلك اثر مكاتبةمن خمارويه، وكتب له كتابا أرسله إلى مصر مع غلامه فالق الخادم في رجب سنة ٢٧٣ ﻫ/ ديسمبر ٨٨٦ م . ذكر فيه أن المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم تعظيما لخمارويه ، وترحيبا بهذا السلام . وحمل هذا الكتاب تطوراً خطيراً في تاريخ العلاقات بين الطولونيين والعباسيين . فقد حصل خمارويه على ولاية مصر والشام جميعا بما في ذلك الثغور لمدة ثلاثين سنة . وشرط المعتمد على خمارويه أن يحمل إليه في كل سنة بعد القيام بجميع مصاريف المنطقة التابعة له وأرزاق أجنادها مائتي

ألف دينار(٩٤).وبهذايكون الخليفةقد أعطى خمارويه الحق في أن يحكم هذه الدولة وأن ينفرد بها ثلاثين سنة ، لايهدد بعزل أو تدخل في شؤونه . وأضاف بعض المؤرخين شرط التوريث ، فذكروا أن الاعتراف كان لخمارويه وأولاده(٩٥).وامر خمارويه بالدعاء للموفق، وبذلك استوفت الامارة الشكل ، وأصبحت الدولة الطولونية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمي والفعلي (٩٦) .

وظن خمارويه أن الهدوء سيطر على الشام،وذهب إلى مصر . إلا أن الوضع مالبث أن اضطرب في شمالي الشام، فقد أفسد الصلح الذي تم بين ابن كنداج والطولونيين العلاقة الطيبة التي قامت بين ابن أبي الساج وخمارويه ، واستدعى ذلك تدخل خمارويه . واستطاع الأخير هزيمة ابن أبي الساج واستعادة نفوذه على شمالي الشام(٩٧) . ولكن ابن أبي الساج عاود الكرة ، فقاتله خمارويه في ثلاث جولات عسكرية كبيرة، تم له النصر فيها ، وعادت قوات ابن أبي الساج تجر أذيال الخيبة(٩٨) .

قضى خمارويه على أعدائه ، وأقر السلام على حدوده . واهتم بعدها باقليم الثغور ليستأنف أمر الجهاد ضد البيزنطيين ، واتصل بيازمان الذي كان خارجاً على الطولونيين ، وأرسل له الهدايا والأموال ، فدعا للطولونيين . ثم مالبث الموفق أن توفى سنة ٢٧٨ هـ ، وتبعه ابن كنداج. وفي سنة ٢٧٩ هـ توفى الخليفة المعتمد على الله ، وتولى أبو العباس الخلافة بلقب المعتضد.فبادر خمارويه بارسال الهدايا إليه . وورد كتاب المعتضد إليه باقراره على ولايته . وتجددت بذلك الوثيقة التي كان المعتمد قد منحها له . وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ،

على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عمامضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل . وتقدم خمارويه بتزويج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، فاختارها لنفسه ، وتزوجها سنة ٢٨١ هـ . وكان صداقها مليون درهم . وقد قيل أن المعتضد أراد بزواج قطر الندي افقار الطولونيين . وحدث له ماأراد ، فقد جهزت قطر الندى بجهاز لم يعلم مثله (٩٩) .

وفي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م خرج خمارويه إلى دمشق فقتل هناك . ويروي المؤرخون قصصاً شتى عن مقتله وأسبابه . ومما يلفت النظر اضطراب هذه الروايات التي تؤكد معظمها أنه ذبح على فراشه بأيدي غلمانه في قصره بسفح قاسيون أسفل دير مران – الأحد ٢٨ ذي القعدة ٢٨٢ هـ / ١٩ يناير ٨٩٦ م(١٠٠)– وتختلف في ذكر السبب الذي دعا غلمانه إلى قتله . ولا داعي لذكر كل ماقيل في هذا الأمر . إلا أن لي رأياً في الموضوع عسى أن أصل به إلى الصواب وقد بدالي ذلك من خلال مطالعاتي في مخطوطة بغية الطلب لابن العديم(١٠١)، مما جعلني أرجح أن غلمانه قتلوه بايعاز وتحريض من طغج بن جف .

ينقل ابن العديم عن أقدم مؤرخي هذه الفترة وهو ابن زولاق ، فيذكر أن حضور خمارويه إلى دمشق في المرة الأخيرة ، كان على اثر غضبه الشديد من طغج بن جف لعدم تنفيذ أوامره التي أصدرها إليه بقتل راغب الخادم . وكان خمارويه مصمماً على قتل طغج . وشعر الأخير بالأمر ، وخاصة حين امتنع خمارويه عن الشرب على المائدة التي أحضرها له طغج . ويبدو أن الحديث دار في هذه الجلسة

بينهما حول نفس الموضوع ، وأن خمارويه اعترف بأنه ماجاء إلى دمشق إلا من أجله فقط . وبدا الاضطراب على طغج ، مما اضطر معه خمارويه إلى تغيير الحديث . ثم انصرف كل منهما ، وطغج بن جف في أشد حالات الخوف ، لأنه أدرك أنه سيقتله كما قتل صافي غلام أبيه في دمشق قبل ذلك . ولما أصبح الصباح كان العكس قد حصل ، إذ وجد خمارويه مقتولاً . وتظاهر طغج بعد مقتله باهتمامه بأمر الإمارة الطولونية ، وأخذ البيعة لجيش ابنه ليبعد عن نفسه الشبهة ، إلا أنه مالبث أن تغير على الطولونيين .



٤ ــ انحسار نفوذ الطولونيين عن بلاد الشام :

ــ خروج بلادالشام عن طاعة الطولونيين في عهدجيش بن خمارويه.

اضطربت أحوال الدولة الطولونية بعد موت خمارويه . وتدخل الجند في الحكم ، وتنافس الأمراء الطولونيون فيما بينهم . واشتعلت الفتن والثورات . وفقد أمراء البيت الطولوني عنصر القوة . فقد تولى الامارة أبو العساكر جيش . وكان صبياً غراً لم يتجاوز الرابعة عشرة ، إلا أنه كان أكبر أولاد خمارويه، وتولى طغج حاكم دمشق أخذ البيعة له من قواد الجيش . ولم يكن جيش على مستوى المسؤولية التي حملها ، إذ أنه لم يستطع القيام بالمهمات التي يتطلبها مركزه كحاكم لمصر والشام ومدافع عن الثغور الشامية . فلم يقد الجيوش ، ولم يستطع السيطرة على الحكومة ، وعكف على لذاته. وتسلط بعض أصحاب المصالح الخاصة عليه ، وعملوا جاهدين على ابعاده عن الأنصار الصالحين . فتنكر لكبار رجال الدولة ، وأخذ يهددهم ويتوعدهم حتى أجمعوا على خلعه . بينما فر بعضهم إلى بغداد ملتجئين إلى الخليفة المعتضد (١٠٢) .

لم تكن مشكلات الإمارة في عهد جيش تنحصر في سوء سياسته،بل إنه تسلمها والخزانة فارغة من الأموال(١٠٣) . وقد يكون ازواج

قطر الندى من الخليفة المعتضد ، وماجهزت به أثر كبير في ذلك .
ومما زاد من مشاكل الامارة تفكك الأسرة الطولونية ، وحسد أفرادها بعضهم لبعض ، ونفور أفراد الأسرة من جيش لقتله ثلاثة من أعمامه.

أغضبت تصرفات جيش طغج بن جف عامل الطولونيين على دمشق ، فخلع الطاعة ، وشاركه في ذلك كثير من القواد . كما أعلن أحمد بن طغان حاكم الثغور خلع جيش . وكان على جيش أن يدخل في حروب متواصلة مع من نقضوا بيعته لتعود الأمور إلى نصابها (١٠٤) .

وعلى هذا الشكل ، خرجت بلاد الشام عن طاعة جيش . وبدأ بها أول مظاهر اختلال الحكم الطولوني . وحكم طغج مابيده من أعمال الشام دون أن يقدم الطاعة للأمير أو يذكر اسمه في الخطبة . وقد كان خروجه على هذا النحو من النذر الخطيرة التي لاحت في هذه الفترة من حياة الطولونيين ، إذ كان تحت إمرته قوات طولونية عظيمة ، وبيده من أموال بلاد الشام الشيء الكثير . وكان جيش غارقاً في ملذاته وكأنه لم يدر بشيء مما يحدث حوله . كما ساءت أحوال مصر في عهده. وبقي الأمر على هذه الحال حتى قتل جيش وخلفه أخوه هارون سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م (١٠٥) .

ـ بلاد الشام في ولاية هارون بن خمارويه :

كان هارون أقل خبرة من أخيه . فلم يستطع القضاء على الفوضى التي بدأت في عهد سلفه في بلاد الشام . وزاد الأمر سوءاً امتناع طغج عن مبايعته ، وخروج منطقة الثغور عن الطاعة . واضطر هارون للمحافظة على تبعية الشام له ، إلى مساومة طغج على أن تبقى ولاية الشام له مقابل

مبايعة هارون ، فوافق طغج على ذلك(١٠٦). بينما لم يستطع الطولونيون إعادة الثغور للطاعة أمام اصرار واليها على عدم مبايعة هارون . ومما زاد الأمر سوءاً عدم اعتراف الخليفة العباسي المعتضد بامارة هارون ، على الرغم من الحاح هارون في ذلك . وفي سنه ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م أرسل هارون إلى المعتضد طالباً منه الاعتراف بامارته على مابيده من بلاد في مصر والشام . وعاد الرسول وبرفقته رسول الخليفة ليقدم شروطه للاعتراف به . ويبدو ان هذه الشروط تنص على تبعية الثغور للعباسيين وتقديم الطولونيين مبالغ سنوية مقابل اعتراف العباسيين على مابيد الطولونيين من بلاد، على أن يقوم إلى جانب الأمير الطولوني مولى تركي من قبل الخلافة للاشراف على أمور الطولونيين في مصر نفسها، وأن تصدر جميع الأوامر الادارية باسم هذا المولى. ووافق هارون على شروط الخلافة، وبخاصة حينما وجد أن الثغور قد خرجت فعلاً من يده ، وأن تبعيتها إليه اسميه . وأن المعتضد بدأ يتدخل بشكل مباشر في أمورها دون أن يتمكن هارون من الاتيان بأي عمل .

واعترف الخليفة بامارة هارون على مصر والشام ، وتسلم منه أعمال قنسرين والعواصم(١٠٧) . وكانت هذه الاتفاقية بينهما تعني اعتراف الطولونيين بتسليم جزء هام من أملاكهم ، بعد أن كانوا في فترة قوتهم يحرصون عليه كل الحرص . ووافق هارون على دفع مبلغ كبير من المال في الوقت الذي لم يكن يجد فيه عطاء الجند ، كما رضي أن يكون للخليفة وصاية على أمور مصر الداخلية ، وأن يصبح والي مصر في المرتبة الثانية .

ويعود اهتمام الخليفة المعتضد بأمر الثغور ، منذ ان قدم إليه وفد من

أهالي طرسوس يناشدونه العناية بشؤونهم وضبط أمور ثغرهم ، وتعيين من يقودهم في الجهاد(١٠٨) . وكان ذلك قبل سنه ٢٨٦ ه / ٨٩٩ م . فقد وجدت نقود ذهبية في الرافقه تعود إلى سنه ٢٨١ه /٨٩٤ – ٨٩٥م ، لم يذكر عليها أسماء الأمراء الطولونيين ، بل اقتصرت على ذكر اسم الخليفة المعتضد . أما بعد سنه ٢٨٦ ه ، فقد قام العباسيون بتنظيم أمور الثغور . وجعلها تابعه بشكل فعلي للخلافة(١٠٩) . كما أن حلب خرجت في نفس السنه عن طاعة الطولونيين ، وأصبحت تحت سلطة الخلافة العباسية المباشرة ، يدل على ذلك نقود ذهبية سكت في سنه ٢٨٦ ه/ ٨٩٩ م في حلب ، لم يذكر عليها اسم الأمير الطولوني(١١٠) .

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الطولونيين في الشام . وانحسار نفوذهم عنها تعرضهم لخطر القرامطة . وكان وجود القرامطة المتزايد بالشام مرتبطاً بخلافهم مع أئمة مذهبهم في سلمية ولذلك فانه يتحتم علينا دراسة علاقة القرامطة بالاسماعيلية لتبرير ظهورهم في الشام (١١١) .

٥ — نشاط الاسماعيلية والقرامطة في بلاد الشام :

— الاسماعيلية

عين جعفر الصادق ابنه اسماعيل خلفاً له ، إلا أن ظروفاً دعته إلى تغيير ذلك ، منها أن اسماعيل توفى فاضطر أبوه إلى أن يعطي الامامة لابنه الأصغر موسى الكاظم ، وآخرون يرون أن جعفر حرم اسماعيل من الإمامه لأنه كان يشرب الخمر كثيراً ، فأراد أن يبعد الشكوك عن نفسه وعن جماعته ، وخاصة بعد أن اتضح العباسيين أن اسماعيل كان على صلة ببعض الغلاة . ولكن أنصار اسماعيل لم يسلموا بتحويل الإمامة عن اسماعيل لأنهم كانوا يرون أن الامام معصوم ، وأن شرب الخمر لايفسد عصمته .

وعلى الرغم من أن جعفر الصادق أكد وفاة ابنه اسماعيل سنه١٤٣هـ/ ٧٦٠ م ، فان أنصار اسماعيل تفرقوا بين مصدقين لوفاته ، ومنكرين لها. ورأى الذين لم يسلموا بموته أنه كان حياً حتى بعد وفاة أبيه بخمس سنوات ، وأن بعضهم رآه في سوق البصرة(١١٢) ، وأن اظهار موته كان تقية حتى لايقصد بالقتل(١١٣).

وهكذا انقسم أتباع جعفر على أنفسهم حول الامام بعده . فبعضهم يرى أنه موسى الكاظم(١١٤)،وآخرون يرون أن الإمامه لابنه الأكبر

اسماعيل وأبنائه من بعده ، وهؤلاء هم الاسماعيلية موضع البحث(١١٥).
ورأى هؤلاء أن الإمامه بعد اسماعيل حتى وإن كانت وفاته في حياة أبيه يجب أن تكون في ابنه محمد ، لأن النص لايرجع قهقرى (١١٦).وتبنى الاسماعيلية مبدأ الاستقرار والاستيداع ورأى المعتدلون منهم أن موسى الكاظم كان إماماً مستودعاً لاسماعيل وأبنائه لأنهم أئمة استقرار ، شأنه في ذلك شأن الحسن مع الحسين وأبنائه. ويقولون أن اسماعيل أوصى قبل موته أباه جعفر بتعيين وصي لابنه محمد، فعين ابنه موسى الكاظم وصياً على حفيده محمد بن اسماعيل ليكون ستراً عليه ، وليتكتم أمره على أعدائه . وأنه لو ملك موسى الكاظم لرده إلى أهله ، وأحله محله .

وعلى هذا النحو بدأ تاريخ فرقه الاسماعيلية ، التي أصبحت ذات طابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعي والديني والسياسي . فقد نادوا بالتأويل ، واهتموا بالمعنى الباطن للقرآن(١١٧) . ولازمهم لقب الباطنيه لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً (١١٨).
وأصبح للدعوة الاسماعيليه ثلاثة أركان وهم الإمام ، والحجه ، ثم الداعي . واستترأئمة الاسماعيلية بعد محمد بن اسماعيل (١١٩) ويمكن تلخيص أسباب ذلك بما يلي :

١ ــ اخفاق ثورات الشيعة المتكررة ، وتعرض القائمين بها إلى القتل مع أنصارهم ، وتتبع العباسيين لهؤلاء للتخلص منهم ، وتعرضهم للاضطهاد حتى اضطر من بقي منهم على قيد الحياة إلى الفرار إلى بلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية (١٢٠) .

٢ ــ ذهب الاسماعيلية إلى أن الإمام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه . ومن المرجح أنهم نهجوا هذه الطريقة

خشية أن يلحق بهم مالحق أتباع طائفة الاثني عشرية من الاضطهاد والقتل(١٢١) .

وقد تمكن الاسماعيلية من الاستفادة من الظروف المحيطة بهم ، فعملوا على استقطاب أنصار الفرق الشيعية المضطهدة الأخرى . كما أنهم وجدوا أن المدينة المنورة لاتصلح للبقاء فيها ، خشية انكشاف أمرهم . ففر محمد بن اسماعيل وتوغل في شرقي المملكه الاسلامية، وأخذ مع حجته ميمون القداح في وضع أسس الدعوة الاسماعيلية، ولم يمت حتى كانت أسس الدعوة قد وضحت(١٢٢) .

ونتج عن استتار الأئمة بعد محمد بن اسماعيل نتيجة خطرة وهي اختلاف المؤرخين في أسمائهم ، والتباس الأمر حول أسماء الأئمة والحجج(١٢٣) ، وهذا ماجعل التحقق من شخصية الأئمة المستورين أمراً متعذراً على الناس سنيين أم شيعيين ، كما أصبح من الصعب التفريق بين الحجج والأئمة لاتفاق أكثرهم في التسمية . أضف إلى ذلك أن رؤساء الدعوة في مراكز الدعوة الرئيسية كانوا يختلفون فيما بينهم في ذكر أسماء الأئمة حتى كان ذلك من أهم العوامل التي حفظت الأئمة المستورين وحالت دون التعرض لأشخاصهم . كما كان ذلك من أكبر العوامل في اختلاف المؤرخين حول نسب الفاطميين(١٢٤) . ولسنا هنا بصدد بحث مايقال عن نسب الأئمة الاسماعيليه وتسلسلهم ، والآراء التي قيلت في ذلك، وترجيح أحدها على الآخرى ، وانما الذي يهمنا من كل ذلك أن نسترشد به فيما يختص ببحثنا وهو نشاط الاسماعيلية في بلاد الشام في الفترة موضع الدراسة .

فمما يدلنا على امعان الأئمة المستورين في التخفي ماذكره الداعي

ادريس بأن استتار الإمام كان كظلمة الليل الشديد، لأنه رأى أن الباطل غلب على الحق ، ولشدة طلب العباسيين لمعرفة هؤلاء الأئمة والتخلص منهم . ولم يكن يذكر اسم الإمام لأتباع الدعوة، ومن علت مرتبته منهم كان يعرف اسم الحجة فقط(١٢٥) .

ويبدو أن عبد الله بن محمد (الرضي) ، الذي عرف عند الاسماعيلية بالإمام عبد الله الأكبر، كان أول الأئمة المستورين الذين استقروا بسلمية. ذلك أن العباسيين تتبعوه في عهد المأمون ، وتمكنوا من قتل أبنائه ، وفتكوا بعامة أسرته . فهرب مع ابنه أحمد وولي عهده في الإمامة فقصدا سلميه(١٢٦) التي أصبحت دار الهجرة والمركز الرئيسي للدعوة الاسماعيلية – وادعى هناك للهاشميين بأنه عباسي ، وظل بينهم موضع الاحترام والتقدير لتقاه وورعه(١٢٧).

وإذا تساءلنا عن السبب الذي دعا أئمة الاسماعيلية لاتخاذ سلمية مركز القيادة العليا، فان ذلك يعود إلى موقعها الجغرافي الهام على طريق من طرق التجارة العالمية في ذلك الوقت ، وعلى حافة الصحراء من جهة ثانية . فاتخذوها مركز قيادتهم مستغلين ضعف الدولة العباسية ، واضطراب أوضاع بلاد الشام. وأخذ الدعاة يخرجون منها لنشر الدعوة الاسماعيلية في البلاد ، وظلت على هذه الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ، الذي استطاع أن يقيم في سلمية آمناً مطمئناً دون أن تناله يد العباسيين . والواقع أن كرم الإمام الحسين . وبذله الأموال الكثيرة، وتفانيه في اظهار حبه للهاشميين ، وتفاني أنصاره في طاعته ، كل ذلك ساعد على ذيوع الدعوة في سلمية (١٢٨).

كان هرب الإمام عبد الله بن محمد مفاجأة لكثير من دعاته، الذين لم يستطيعوا العثور عليه إلا بعد مشقة ، بعد أن أخذوا جادين في التفتيش عنه . وتوالى ارسال الأموال والذخائر على الأئمة من كل بلد

من قبل دعاتهم إلى سلمية . وتتألف هذه الأموال مما كان يدفعه أنصار الاسماعيلية ـ الذين يطلق عليهم اليماني اسم (المؤمنون) ـ عن أعمالهم وأخماسهم ، وبما يتقربون به من الأئمة . وكانت هذه الأموال تصل الدار دون أن يعلم أحد بما يجري . وكانت الأموال كثيرة حتى يقال أن المهدي ماكسب بعد أن فتح الله له إلا نحواً مما خلف بسلمية . وإن دل هذا على شيء فانما يدل على مدى انتشار الدعوة لأئمة الاسماعيلية في ذلك الحين ، وعلى تفاني أنصارها في دعمها مادياً ومعنوياً(١٢٩).

ـ القرامطة : روابطهم مع الاسماعيلية ، غاراتهم على الشام :

القرامطة طائفة من طوائف الاسماعيلية ، اعتنقوا المذهب الاسماعيلي على يد دعاة الاسماعيلية . فقد تمكن هؤلاء الدعاة قبل سنه ٢٦٥ هـ من اجتذاب رجل في سواد الكوفة يسمى حمدان إلى المذهب الاسماعيلي، وقام حمدان قرمط أول الأمر في نشر الدعوة الاسماعيلية في سواد العراق(١٣٠). وكان من أكبر دعاة حمدان صهره عبدان الذي صادفت الدعوة الاسماعيلية على يده كثيراً من النجاح ، حتى أن أبا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين ، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة شمال غربي العراق وبادية السماوة قد أخذا الدعوة عنه(١٣١).

ولكن حمدان قرمط مالبث أن اختفى . ويبدو أن ثمة صراعاً خفياً قد حدث بين زعماء القرامطة في العراق حول رئاسة طائفة القرامطة بعد حمدان قرمط . وكان عبدان وزكرويه يطمحان في تلك الرئاسة . فعبدان كان عقل القرامطة المفكر ، والرجل الذي اعتنق الدعوه على يديه رجال القرامطة المشهوورن.ولذلك كان من الطبيعي أن يخلف حمدان. وكان زكرويه ينافس عبدان على تلك الزعامة ، ويعتقد أنه أحق بها لأن أباه كان من دعاة أئمة الاسماعيلية الأوائل ، وأحد أنصارها قبل حمدان قرمط نفسه . وكان شعور آل زكرويه بأصالتهم في الدعوة

على هذا النحو مدعاة لطموحهم ذلك الطموح الذي دفعهم إلى قتل عبدان حتى يصفو لهم الجو لتولي زعامة القرامطه في العراق .

ازداد نشاط القرامطة في العراق وعلى رأسهم زكرويه ، وتوسعوا في سواد الكوفه . ولكنهم أخذوا يتلقون ضربات متتالية من الخلافة العباسية ، بعد أن وطد المعتضد عزمه على استئصال شأفتهم ، فوجه إليهم عدة حملات تمكنت من قتل أعداد كبيرة منهم . منها تلك الضربة التي وجهت إليهم في نواحي الكوفة سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م ، حيث تمكن أحد قواد الخليفة المعتضد من مداهمتهم على غرة،والقبض على كثير منهم وقتل رؤسائهم(١٣٢).

عند ذلك فكر زكرويه أن يوجه نشاط القرامطة إلى بلاد الشام ، ليوسع منطقة دعوته،وليضم عناصر جديدة إليها . يضاف إلى ذلك أن بلاد الشام كانت في حالة شديدة من التفكك السياسي ، وأن حكامها من الطولونيين كانوا من الضعف على درجة كبيرة تسمح للقرامطة بالعمل على مد نفوذهم . وفوق كل ذلك كان أهالي الشام على معرفة بالدعوة الاسماعيلية ، إذ كانت قد تسربت إليهم بشكل عام من سلمية. وأصبح لهذا المذهب في مدن الشام وباديتها كثير من الأنصار والأتباع. ونستطيع أن ندرك بسهولة مدى انتشار هذه الدعوة حين نعلم أن أهالي حمص دعوا الحسين بن زكرويه المعروف بأبي مهزول وصاحب الشامة إبان حصاره دمشق ، وأعلنوا أنهم سيكونون في طاعته ، ونفذوا ماوعدوا به حين سار إليهم . وكذلك مافعله أهالي حماه حينما قابل وفد من مشايخها على رأسه أبو الحسين بن الأسود ، الحسين ابن زكرويه للسلام عليه .

وأهم من كل هذه الأسباب التي دعت القرامطة إلى التوجه إلى بلاد الشـــام ماحدث من خلاف بين زعماء القرامطة لتولي رئاسة الدعوة ، بسبب طموح آل زكرويه إلى توليها . ثم توسع هذا الخلاف ليصبح خلافاً بين القرامطة وأئمة الاسماعيلية . ويبدو أن زكرويه وأبناءه الثلاثة تحالفوا وتعاقدوا فيما بينهم على القيام بعمل من شأنه تصحيح أوضاعهم من الدعوة . ولم تكن قراراتهم ولا خطواتهم واضحة ، وانما دلت عليها سير الحوادث فيما بعد . ومن الممكن القول أنهم قرروا حمل المهـــدي على الموافقـــة على توليهم رئاســـة الدعوة ، وإلا فانهم سيحرضون عمال الشام والعباسيين ضد المهدى . فاختفى زكرويه في احدى القرى في سواد الكوفة ، وأرسل أولاده إلى بادية الشام ليعملوا على نشر النفوذ القرمطي هناك ، وأخذ من مخبئـــه يشرف على هـــذا النشاط (١٣٣) .

وسار القرامطة في تعميق نفوذهم في بادية السماوة على سياسة فرق تسد ، وعلى استغلال سوء الأوضاع الاجتماعية . والاعتماد على الطبقة الفقيرة الحاقدة . فأثاروا الفقراء على الأثرياء لجذب الناس إليهم. وأدى ذلك إلى حدوث اضطرابات في بادية السماوة وفي مناطق أخرى في الشام . فقد حمل يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ موالي بني العليص(١٣٤). على أسيادهم فقتلوا جماعةمنهم وأذاوهم. وتمكن بأفكاره هذه من أن يؤثر تأثيراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في بلاد الشام . وقد صنف بعض المؤرخين الفئات التي استجابت لدعوة القرامطة ، وأوضحوا الأسباب التي دفعت كل فئة إلى الاستجابة لها ومن هؤلاء ابن الجوزي الذي ذكر أن هذه الفئات إما أن تكون من ضعفاء العقول

والبصائر الذين غلبت عليهم البلادة والبله ،ولم يأخذوا شيئاً من العلوم، وإما أن يكونوا من أهالي السواد والأكراد وجفاة الأعراب وسفهاء الأحداث ، أو أن يكونوا من ملاحدة الثنوية الذين اعتقدوا ان الشرائع ايست إلا معجزات أتى بها الأنبياء ،فاذارأوا من يعطيهم شيئاً من أغراضهم مالوا إليه . ويذكر من هؤلاء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس ، ويرى ان انضمامهم إلى القرامطة كان بسبب الحقد الذي يسكن في صدورهم(١٣٥) .

ويبدو أن ظروفاً دعت إمام الاسماعيلية في سلمية «عبيد الله المهدي » إلى ترك سلمية. فمن هذه الظروف ، ظهور بوادر انشقاق من آل زكرويه بعد قتلهم اعبدان ، وابعادهم عن رئاسة الدعوة بالكوفة ، مما أشعر المهدي بعداوتهم له (١٣٦) . ومنها أن أبا عبد الله الشيعي أرسل له يغريه بالذهاب إلى المغرب . فقد أرسل اه وفداً من كتامه قابله في سلمية ، ووقف منه المهدي على مدى نجاح الدعوة في بلاد المغرب ، فقرر التوجه إليها . إلا أنه أخبر أنصاره بأنه سيتوجه إلى اليمن . وذلك حرصاً منه على ألا يقع في قبضة العباسيين ، غير أن أهم هذه الظروف هي ماقد تنبهت إليه الدولة العباسية من خطورة مركز سلمية في القرن الثالث الهجري ، وذيوع الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن والمغرب، الأمر الذي دفعها إلى تعقب حركات عبيد الله ومحاولة القبض عليه(١٣٧).فقد أدرك كل من المعتضد والمكتفي أن الدعوة لإمام اسماعيلي مستور قد بلغت ذروتها ، وأن نشاط الاسماعيلية يزداد في سلمية، وأنه أصبح لزاماً عليهما أن يعملا للقضاء على هذه الحركة قبل أن

يستفحل خطرها . ومماثبه العباسيون إلى ذلك أن أحد ولاة سلمية من قبلهم ثارت شكوكه حول المهدي ، لأنه وجده صاحب مقام كبير في سلمية ، ورجح لديه أنه هو الذي تروج الدعوة باسمه في أنحاء العالم الاسلامي كافة(١٣٨) .

وعلى الرغم من عدم الثقة المتبادلة بين أئمة الاسماعيلية والقرامطة، فمن المرجح أنهم لم يفكروا جدياً في الدعوة لأنفسهم ، فقد كانوا يدعون إلى المهدي ، وحاولوا مراراً بعد تركه سلمية العمل على إعادته إليها ، إلا أنهم بعد أن فشلوا في ذلك دخلوا سلمية ،وقتلوا كل من وجدوه فيها من هاشميين واسماعيلية ، وإلا فبماذا يفسر تأخرهم في دخول سلمية حتى بعد حصارهم لدمشق ودخولهم بعلبك وحمص وحماة ، علماً بأن دخول سلمية كان أقل مشقة عليهم من دخول أي من هذه المدن .

أما المهدي فانه على الرغم من تركه لسلميه فقد بقي في الرملة فترة ليست قصيرة ، فبماذا يعلل بقاؤه هناك ؟ . من الجائز أن يكون ذلك لوجود أنصار له فيها تمكنوا من كتمان أمره عن العباسيين الذين أرسلوا إلى ولاتهم في مدن الشام ومصر وشمال افريقية بالعمل جادين للقبض عليه ، وكذلك لتضليل هؤلاء عن مكان وجوده . وفي نفس الوقت فانه كان ينتظر ماتسفر عنه حروب القرامطة في الشام ، وقد كان من الممكن أن يفكر في البقاء فيها وأن يصلح أموره مع القرامطة فيما لو نجحوا في مهمتهم . ولذلك فان المهدي حينما حاول الحسين بن زكرويه اغراءه بالعودة إلى سلمية سنه ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م لم يعد لأنه كان يشك

في اخلاص القرامطة ، ولكنه أيضاً لم يحاول ترك الرملة والفرار من الشام ، لأن القرامطة كانوا يدعون للإمام المهدي في مدن الشام التي فتحت أبوابها لهم ليكسبوا تأييد الأهالي الذين تأثروا بهذا المذهب . فقد خطب الحسين بن زكرويه في حمص قائلاً : (اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر ، المهدي صاحب الوقت ، أمير المؤمنين المهدي . اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً، ودمر اللهم دمر أعداءه) (١٣٩) .

وجلسة اللقاء في الرمله كما يذكرها النيسابوري بين المهدي والحسين ابن زكرويه لاتدل على خروج القرامطه نهائياً عن طاعة المهدي ، فقد وصل الحسين إلى الرملة في نفس الوقت الذي كان أخوه يحاصر دمشق. وكانت بغيته الحصول على وثيقة من المهدي تثبت أنهم يعملون من أجله ، ويأملون من ورائها النجاح في مهمتهم،ودخول دمشق . وعلى الرغم من أنه هدد باشهار أمر المهدي إذا لم يعمل على الاجتماع به ، إلا أنه في حديثه مع المهدي لم يكن خارجاً عليه ، ولو كان المهدي يخافه في تلك الفترة لكان أصدر أمره إلى أنصاره بالقبض عليه والتخلص منه وهو في الرملة . أو أن يحصل العكس ويتخلص الحسين بن زكرويه من المهدي . وهاك ماذكره النيسابوري عن هذا اللقاء بين الطرفين ، فقد تكلم الحسين مخاطباً المهدي بقوله : (يامولانا خرجنا من بلدنا أنا واخوتي ندور عليك . فالحمد لله الذي جمع بيننا وبينك ، أخي قدم بالعسكر وحصر دمشق ، وتركته على أخذها ، فارجع فقد استقام لك الأمر ، فما جئنا من بلدنا إلا لترضى عنا ، ولا تكن ساخطاً علينا . وهذا من مقال أبي الحسين الذي أقلقنا وأقلقك ، فان كنت لاتمضي أنت فاكتب إلى أخي ليرضى عني فانه ساخط عليّ) (١٤٠) .

والسؤال الذي يتوارد إلى الذهن هو لماذا كان القرامطة يعملون جادين كل هذه الفترة على ارضاء المهدي ، والعمل على إعادته إلى سلمية واستمرار بقائه في الشام ؟ حقيقة الأمر أن أنصار القرامطة كانوا يناصرونهم لأنهم يدعون للمهدي ، وبشكل خاص مشايخ القاصيين . ولذلك فان يحيى بن زكرويه الشيخ ، حين ضاقت أموره واحتدم الصراع بينه وبين طغج بن جف بعد وصول امدادات الطولونيين ، أوفد أخاه الحسين إلى الرملة ، وكلفه بمهمة مقابلة المهدي واستعطافه للعودة ، أو أن يحصل منه على رسالة تأييد تظهر أن القرامطة انما يقاتلون بأمره ومن أجله . وكان ابن زكرويه يبغي من ذلك أن يحمس أنصاره ويدفعهم إلى القتال . ولما عاد الحسين بكتاب المهدي ، جمع يحيى مشايخ القاصيين ، وقال لهم (هذا أخي قد قدم ، ونحن بالغداة نلتقي على باب المزة) . وطلب منهم بعد ذلك أن يبايعوا لأخيه ففعلوا(١٤١). ثم أننا إذا تتبعنا سير المعارك التي قام بها القرامطة في الشام لوجدنا أنهم كانوا على وجه التقريب منتصرين في كل الفترات التي سبقت دخولهم سلمية واظهار خلافهم للمهدي وقتل داعيته أبي الحسين بن الأسود . أما بعد ذلك فقد بدأت الهزائم تتوالى حتى تمكن العباسيون من ابعادهم عن الشام(١٤٢).

فقد شعر القرامطة بعد انتظارهم الطويل للمهدي وخاصة بعد دخولهم مدينة حماة ، أن المهدي يماطلهم ولن ينفذ ماوعدهم به . ولذلك فانهم تخلصوا من أبي الحسين ، ودخلوا سلمية وفعلوا مافعلوا.

وهكذا يتضح لنا أن سعي القرامطة كان حتى ذلك الحين وقبل

دخولهم سلمية ، لم يكن للتخلص من المهدي . ولو كان ذلك لفعلوا حين لحقوا به في الرملة ، ولاغتالوه كما اغتالوا عبدان من قبله . وقد أصبح الحسين بن زكرويه من أكبر أعداء المهدي ، وأراد أن يرشد العباسيين إلى مخبئه وأوصافه بعد القبض عليه . إذ آلمه أن يصبح سجيناً وحياته معرضة للخطر ، في نفس الوقت الذي استطاع فيه المهدي النجاة بنفسه ، فوشى به ، ووافى العباسيين بأوصافه الخلقية وبجميع المعلومات التي تساعدهم على القبض عليه ، كما أخبرهم أنه هو — أي المهدي — الذي أصدر لهم الأوامر بالثورة ، ليحمله مسؤولية كل ماقاموا به من تخريب في الشام(١٤٣).

وقد أدت هزيمة الحسين إلى مغادرةالمهديللرملة . فقدتركهاوترك بلاد الشام التي درجت فيها الدعوة الاسماعيلية ، وآوت جميع أئمة الاستتار ، وكان ذلك في أوائل سنه ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م . ونجحت رحلة المهدي نجاحاً كبيراً ، ويعود ذلك إلى أنها كانت منظمة تنظيماً دقيقاً . فقد كانت الأخبار تصله بسرعة فائقة عن طريق الحمام الزاجل ، وكذلك كان على علم بتطورات الموقف ، وكان يتخذ الاجراءات اللازمة قبل أن يداهمه الخطر . كما كان المهدي ومن سبقه من أئمة الاسماعيلية وحججهم ودعاتهم يعملون على جذب بعض الحكام إليهم . فبعض الحكام ممن كانوا في خدمة العباسيين ويتظاهرون بعقائدهم السنية كانوا يدينون في الباطن بعقائد المذهب الاسماعيلي ، وينتصرون لقضية الاسماعيلية ، ويشايعون المهدي المنتظر ، ويعملون على نجاح دعوته . وكان عامل مدينة الرملة من قبل الطولونيين من أحسن الأمثلة

التي تؤيد هذا الرأي . فقد كان اسماعيلياً يتستر على المهدي وحاشيته . وعلى الرغم مما بذلته الخلافة العباسية من الجهودللقبض على عبيد الله، إلا أنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً بفضل ماقدمه له أنصاره من معونة(١٤٤).

وقد خاض القرامطة معارك متعددة في الشام منذ أن قرر زكرويه توجيه نشاطه نحو بلاد الشام ، وارسال أبنائه الثلاثة إليها . والذي نلاحظه في حركة أبناء زكرويه أنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء، فقد استغلوا حالة الانحلال السياسي في تلك البلاد ، وتأثير المذهب الاسماعيلي فيها على يد الداعي أبي الحسين بن الأسود ، فانتسبوا إلى اسماعيل بن جعفر وادعوا أنهم فروا من وجه العباسيين ، فالجأهم أعراب بني كلب إليهم . وكان هؤلاء يعتقدون أنهم انما يساعدون بمساعدتهم أبناء الرسول . وأسندوا رياستهم في أول الأمر إلى يحيى ابن زكرويه ، فادعى أن النصر حليفهم ، وأن ناقته مأمورة أن تبعوها ظفروا وإلا أخفقوا . ومن ثم فانه سمي صاحب الناقة ، وسماه أنصاره الشيخ ، فتمكن من قلوب أنصاره في بادية السماوة منذ سنة ٢٨٩ ه / ٩٠١ م . وادعى أن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة الف تابع(١٤٥). وفوق كل ذلك فانه تظاهر بالقدرة على اتيان المعجزات ، وأخذ يموه على أصحابه قبل وفاته سنه ٢٩٠ ه / ٩٠٢ م بقوله إني غداً أطلع إلى السماء ، وأقيم فيها أربعين يوماً(١٤٦).

اشتد أمر القرامطة في الشام ، وأخذوا يفسدون في المناطق والقرى التي حولهم . فنهضت القوى الاسلامية المسؤوله للدفاع عن الشام ، وأخذ الطولونيون وولاتهم أول الأمر موقف الدفاع عن البلاد ، ولما فشلوا في ذلك تسلم العباسيون زمام الأمر ، وقاموا بقتال القرامطة حتى

هزموهم ، وأسروا رئيسهم الحسين بن زكرويه . وعلى الرغم من محاولة القرامطة تجديد نشاطهم في الشام على يد أبي الفضل بن زكرويه، وأحد رجاله القاسم بن أحمد ، إلا أن هذين اضطرا إلى الفرار إلى البادية خوفاً من فتك العباسيين بهما .

* * *

٦ ـ نهاية الدولة الطولونية ، وعودة بلاد الشام الى الخلافة العباسية :

كان للضعف الذي أخذ يدب في جسد الدولة الطولونية أثر كبير في القرار الذي اتخذه الخليفة المكتفي باسترجاع مصر والشام من الطولونيين . فقد بدت الدولة الطولونية تتهاوى أمام ضربات القرامطة في الشام . وكان أميرهم هارون بن خمارويه سيء السيرة ، حتى أن معظم قواده وأنصاره تركوه وانضموا إلى العباسيين . وخرجت بلاد الشام عن سلطتهم على يد طغج ابن جف . كما أن الخزينة الطولونية كانت فارغة ، وعجز الطولونيون عن دفع رواتب الجند . هذا فضلاً عن تنافس أفراد الأسرة الطولونية للوصول إلى كرسي الامارة .

وفوق كل ذلك فان الخلافة العباسية شهدت في عهد كل من الخليفتين العباسيين المعتضد والمكتفي فترة من فترات الاحياء تعود إلى قوة شخصية هذين الخليفتين . وقد اتضح أثر ذلك في عهد الخليفة المكتفي الذي تمكن من استعادة هيبة الخلافة العباسية ، وتمثل في انتصاره على القرامطة ، ثم فيما بعد في استعادة مصر والشام من الطولونيين .

لعب محمد بن سليمان القائد المشهور دوراً كبيراً في تحريض الخليفة المكتفي على قتال الطولونيين ، وتعهد له بالنصر . فعينه الخليفة قائداً

لتحقيق هذا الغرض . وكان محمد بن سليمان يحقد على الطولونيين ، ويجد في نفسه رغبة ملحة للانتقام منهم لتنكرهم له حين كان في خدمتهم. فعمل جاهداً منذ أن كان يقاتل القرامطة في الشام على تحريض قواد الطولونيين من أمثال بدر الحمامي وفائق على أمرائهم ، حتى حصل من هؤلاء على وعد بتقديم المساعدة للقضاء على الطولونيين(١٤٧).

بدأ محمد بن سليمان بتنظيم قواته ودعمها . وأراد أن يكون قتاله برياً وبحرياً . فكتب إلى دميانة والي طرسوس يأمره بالمسير في مراكبه إلى سواحل مصر وفلسطين . وسار هو إلى بلاد الشام، وأخذت مدنها تتهاوى أمامه واحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر . وقرب مدينة دمشق انضم إليه من قادة الطولونيين كل من بدر الحمامي وفائق في جميع جيوشهما ، فازدادت قوته وتوجه إلى فلسطين حيث أعلن واليها الطولوني الطاعة ، وانضم إليه(١٤٨).

وتضايق هارون بن خمارويه من الأخبار التي توالت إليه عن مسير محمد بن سليمان ونجاحه السريع في اخضاع بلاد الشام لطاعة العباسيين، وانضمام معظم قواد الطولونيين إليه . فأخذ يستعد للوقوف في وجهه والحيلولة دون دخوله إلى مصر . فأرسل قواته البحرية إلى تنيس وتولى بنفسه قيادة الجيش البري ، وتوجه للقاء محمد بن سليمان . وفي مدينة العباسية حاول أن يعيد إليه قواده الذين انضموا إلى العباسيين فلم يستطع (١٤٩) .

انهزمت قوات هارون البحرية أمام دميانة عند اللقاء الأول ، وانضم عدد كبير من الجنود الطولونية إلى العباسيين ، ودخل دميانة

إلى تنيس، فأمن أهلها وسكنهم، ثم توجه إلى دمياط ، فخضعت له بعد قتال بسيط ،واحتوى على كل المراكب الراسية بها بما فيها(١٥٠). وبذلك تكون الجيوش البحرية العباسية قد حققت مهمتها بنجاح وسيطرت على شواطىء مصر في نفس الوقت الذي كانت فيه أمور مصر الداخلية مضطربة ، وبوادر الشك والريبة تبدو واضحة بين أفراد الإمارة الطولونية . وانتهى ذلك بقتل هارون من قبل عميه يوم الأحد ١٩ صفر سنة ٢٩٢ هـ / ٢ يناير ٩٠٥م ، وتولى بعده عمه شيبان (١٥١) .

زادت الأحوال سوءاً بمقتل هارون ، وتفرق من بقي من قواد الطولونيين ، إذ أدرك هؤلاء سوء حال الامارة الطولونية ، وتنازع أمرائها ، فأرادوا أن يضعوا حلاً سريعاً لهذه المأساة ،فانضم إلى العباسيين من لم يفعل من قادة الطولونيين . بعد أن طلبوا الأمان .

وتقدمت القوات العباسية حتى صارت على مقربة من القطائع عاصمة الطولونيين . وظن شيبان أنه يستطيع كسب قلوب الجنود إذا بذل لهم الأموال ، إلا أنهم لم يلبثوا أن تفرقوا عنه وانضموا إلى محمد ابن سليمان . واضطر شيبان إلى طلب الأمان له ولاخوته(١٥٢) .

وهكذا سقطت الامارة الطولونية ، وعادت مصر والشام إلى العباسيين . واستولى محمد بن سليمان على أموال الطولونيين ، وكتب بالنصر والفتح إلى الخليفة المكتفي ، وسير من بقي من آل طولون إلى بغداد ، وكانوا بضعة عشر رجلاً (١٥٣) .

وفي نهاية هذا البحث يبقى لزاماً علينا أن نتساءل ، لماذا اشتد نشاط

الاسماعيلية والقرامطة في عهد الطولونيين ؟ والجواب على ذلك هو أن هؤلاء واولئك بدأوا نشاطهم في بلاد الشام بعد أن دخلت الدولة الطولونية مرحلة الضعف ، وكذلك كانت الدولة العباسية . وكان هذا الضعف نتيجة للصراع الدامي الذي نشب بين العباسيين وأحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه إلى جانب الأسباب الأخرى .

* * *

على الرغم من كل ماحدث في بلاد الشام في عهد الطولونيين ، فان الأهالي قبلوا ولاية ابن طولون وأبنائه بارتياح . ولكن هذالم يمنع من قيام بعض الحركات المناوئة للطولونيين . ولكنها مهما بلغت فلم تكن في قوة الثورات التي حدثت في عهد ولاية العباسيين .

ومن المحتمل أنه لولا هذه الخلافات التي اتخذت من بلاد الشام مسرحاً لعملياتها لتقدمت أحوال بلاد الشام في عهد الطولونيين . إلا أنه والحال كما ذكرنا ، فلم يتضح تقدم هذه المنطقة في عهدهم إلا في مجال البحرية الحربية(١٥٤).

* * *

حواشي الباب الثاني

(١) عن أحمد بن طولون وتأسيس الدولة الطولونية . انظر : البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ص ٣ ، و ص ٣٤ – ٣٦ – المقريزي : الخطط ، مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤ ، جزء ٢ ، ص ١٠٤

(٢) المقريزي : النقود الاسلامية ، مطبعة الجوائب ١٢٩٨ ، ص ١٢ – ١٣

(٣) حسن محمود : مصر الاسلامية العصر الطولوني ، ص ص ٨١ – ٨٢

(٤) هو عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد جساس بن مرة من شيبان : انظر يوسف الياس الدبس : تاريخ سورية ، مطبعة بيروت العمومية سنة ١٩٠٠ ، مجلد ٥ ، جزء ٣ ، ص ٣١٧ – زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، جزء ١ ، ص ٤٣ وص ٤٩

(٥) كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠٣

(٦) البلوي : المصدر السابق ، ص ٥٠ – ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلى المغرب ، مصر ١٩٥٣ ، ص ٨٠ – سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٩٦٥ ، ص ٦٣

(٧) البلوي : المصدر السابق ، ص ص ٥٠–٥١ – يوسف الياس الدبس : المرجع السابق ، مجلد ٥ ، جزء ٣ ، ص ٣١٧ ويؤكد أنه قام بذلك في سنة ٢٥٢

(٨) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢١٥ – البلوي : المصدر السابق ، ص ٥١

(٩) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢١٥ – ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٨٠ – ابن تغري بردي الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ١٣٥١ ، جزء ٣ ، ص ٧ – سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، ص ٦٣ – ٦٤

(١٠) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٤

(١١) ابن سعيد : المصدر السابق، ص ١١٦ — سيدة كاشف : المرجع السابق، ص٦٥

(١٢) البلوي : المصدر السابق ، ص ٥٢ — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٨١ — كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٦ — ٦٧

(١٣) البلوي : المصدر السابق ، ص ٥٦ — سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٧

(١٤) البلوي : المصدر السابق ، ص ٨٣ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٨٣ —سيدة كاشف : المرجع السابق، ص ٦٧ — ٦٨ — حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية، ص ٤٢ — ٤٣

(١٥) ابن ظافر الأزدي : المصدر السابق ، ورقه ٢٩ —
Zaky. M. Hassan : les tulunides Etude - de L'egypte musulmane à la fin du Ixe siécle ، paris 1933 — pp 4 - 64 - 65 .

(١٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، مخطوطة مصورة عن مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٨٩٣ تاريخ : ورقة ٧٥ ظهر — ابن العديم: بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ١٩٢ ظهر و ١٩٣ وجه — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٩٢ — فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي ١٩٦٦ ، ٣ أجزاء ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٩

(١٧) ابن ظافر الأزدي : المصدر السابق ، ورقة ٢٩ — سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، طبعة بيروت ١٩٢١ ، ص ٦٩
— Zaky Hassan : op cit ، pp 64 — 65 .

(١٨) Zaky Hassan : op . cit ، p 64 .

(١٩) البلوي : المصدر السابق ، ص ص ٩١-٩٢ — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١١٥ — Zaky Hassan : op. cit ، pp 64 — 65.

(٢٠) البلوي : المصدر السابق ، ص ٦٢ — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١١٦

(٢١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٨ — حتي : تاريخ سورية ، جزء ٢ ، ص ١٨٦ — LANE Poole : A History of Egypt in the Middle Ages ، p 60

(٢٢) البلوي : المصدر السابق ، ص ٩٢ – ٩٣ – المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣١٩

(٢٣) Zaky Hassan : op. cit ., pp. 65 — 66

(٢٤) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ – البلوي : المصدر السابق ، ص ٩٢ – ابن سعيد : المصدر السابق، ص ١١٦ – عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، طبعة الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٤٣

(٢٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١١٦ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٠ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠١

(٢٦) المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣١٩ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٨

(٢٧) البلوي : المصدر السابق ، ص ٩٦ – ٩٧ – المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣١٩ – الكندي: الولاة والقضاة ، ص ٢٢٠ – مصطفى طه بدر : مصر الاسلامية ، النهضة المصرية ١٩٥٤ ، جزء ١ ، ص ١١٤

(٢٨) المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٩ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٨ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٩٣ – حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٨٥ – ٨٩ – Lane Poole : op . cit ., p. 66

(٢٩) Zaky Hassan : op . cit ., pp 66 — 67 . – حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٨٦

(٣٠) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة حيدر أباد سنة ١٣٥٩ – Lane Poole : op . cit ., pp 67 — 68

(٣١) في الفترة موضوع البحث كان القسم الأكبر من العقيليين يستقرون في المنطقة بين الموصل وحلب . كما أن بعضهم سيطر على حوران والبثنية في بلاد الشام ، وكان من هؤلاء ظالم بن موهوب العقيلي : انظر – المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٤٨ ، ص ١٧٤ – أمينة بيطار : رسالة ماجستير : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٢٩ وص ٢٦٣

(٣٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥١ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٠ – ابن العديم : زبده الحلب ، جزء ١ ، ص ٧٩

(٣٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤

(٣٤) الاجفر : جمع جفر ماء مذكور في رسم ضرية بينها وبين فيد جبل عنيزه . انظر : البكري : معجم مااستعجم من أسماء البلا د والمواضع ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ، جزء ١ ، ص ١١٣ ، وجزء ٣ ، ص ١٠٣٣

(٣٥) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١١٥ — ١١٦

(٣٦) كان الحاج العراقي يمر بالشام في ذهابه وعودته . انظر عبد القادر الأنصاري الجزيري : درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ص ٤٦٨ — ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٢١ — ١٢٢

(٣٧) البلوي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ — ١٨٤

(٣٨) البلوي : المصدر السابق ، ص ٢٨٧ — وص ٣١١ . ويرد الا سم في ابن الا ثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٠ بازمار ، وفي ابن خلدون جزء ٤ ، ص ٣٠٤ (مازيار)

(٣٩) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ — ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٤ — ٤٥

(٤٠) البلوي : المصدر السابق ، ص ٣١١ — ٣١٢ — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٢٨ — الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٢٧ — ٢٣١
Zaky Hassan : op cit . و pp 89 — 90 —

(٤١) البلوي : المصدر السابق ، ص ٣١٢ — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٢٨ — ١٢٩

(٤٢) اسحق بن كنداج ، ومحمد بن أبي الساج من الأتراك ، كان الأول يلي الموصل والجزيره ، والثاني على الأنبار والرحبة وطريق الفرات . انظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣١

(٤٣) ابن الا ثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٨٤ — ٨٥ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٧

(٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٦٧ — ابن شداد : مخطوطة الأعلا ق الخطيرة ، ورقة ٧٦ وجه

(٤٥) سلندو : حصن في بند القباذق ، انظر المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٧٨ ووردت على هذا الشكل في كل من : الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧ - Zaky Hassan : op cit . و p 121 - أما في ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٦ وجه فترد شلندو . وقد أورد ياقوت الحموي في معجم البلدان ، جزء ٥ ، ص ١٣١ تعريفاً لمدينة سمندو ، وأظن أنها هي سلندو ، فذكر أنها بلد وسط بلاد الروم غزاه سيف الدولة

(٤٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨
- Zaky Hassan : op cit . و p 122

(٤٧) راغب هومولى الموفق ، انظر : الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٨-٢٩
- الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ، جزء ٤ ، ص ٦١
- Zaky Hassan : op cit . و p 122

(٤٨) يرد في الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٥١ - وابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٨ إن راغباً ترك الدعاء لخمارويه وهذا خطأ ، لأن خمارويه كان قد توفي منذ ذي القعدة سنه ٢٨٢ هـ .

(٤٩) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٨٥ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٩

(٥٠) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٨٧

(٥١) المفوض إلى الله هو جعفر بن المعتمد على الله وولي عهده . وقد جعل له الخليفة حكم الأقسام الغربية من الخلافة ، وضم إليه موسى بن بغا ، بينما جعل أخاه الموفق على المشرق وجعله ولي العهد بعد جعفر . انظر : ابن الجوزي : المنتظم ، القسم الثاني من الجزء الخامس ، ص ٢٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٩٩

(٥٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ٨٩ - ٩١ - البلوي : المصدر السابق ، ص ٨٢ - ٨٥

(٥٣) الكندي : المصدر السابق ، ص ص ٢١٨ - ٢١٩ - سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٨٣

(٥٤) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ١ ، ورقة ١٧٢ . لم تذكر المصادر نص الوثيقة الرسمية التي أصدرها الخليفة إلى ابن طولون بتولي الثغور ، ولذلك فان المصادر اختلفت في تحديد المناطق التي أصبحت تابعة لأحمد بن طولون بموجب هذه الوثيقة . وتغفل هذه المصادر تاريخ توليه الشام كله . ومن المرجح أنه تولى الشام كله في نفس سنة توليه الثغور أو بعدها بموجب وثيقة خاصة .

(٥٥) ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ وجه – البلوي : المصدر السابق، ص ٨٩

(٥٦) ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ وجه – البلوي : المصدر السابق ، ص ٨٩ – ٩٠ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٠ وانظر الباب الرابع.

(٥٧) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢١٧

(٥٨) البلوي : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٣

(٥٩) يدل على ذلك دينار ضرب في الرافقة سنة ٢٦٨ هـ ، ومحفوظ في مجموعة دار الكتب المصرية . بينما نرى في المجموعة نفسها ديناراً ضرب في الرافقة سنة ٢٧٠ هـ بعد خروج لؤلؤ ، ويحمل اسم أحمد بن طولون وحده . انظر : Lane Poole : Catalogue of the Collection Arabic Coins . و p 135

(٦٠) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦١٤ – التنوخي : الفرج بعد الشدة ، مطبعة الهلال بالفجالة ١٩٠٤ ، جزء ١ ، ص ١٨١ –١٨٢– حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٧٠ – ٧١

(٦١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٢٦

(٦٢) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٦٣) الفرج بعد الشدة ، ص ١٨١

(٦٤) البلوي : المصدر السابق ، ص ٢٨١ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٠٧–١٠٨ – Lane Poole : op . cit . و p. 68

(٦٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٧٤ – ٧٥

(٦٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٩ – السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان . المطبعة الشرقية ١٣٢٧، ص ١٤٦ – ١٤٧ – سيدة كاشف : المرجع السابق، ص ١١٠ – Lane Poole : op . cit ., p 69 نص الكتاب موجود في البلوي : المصدر السابق ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦

(٦٧) علي ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ، ص ١٩٨ – ١٩٩
– Lane Poole : op. cit ., p 68

(٦٨) ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٧٢ – ابن الوردي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٩

(٦٩) من المعروف ان قبر معاوية في دمشق في المنطقة بين باب الجابيةوباب الصغير. انظر : ابن بطوطة : رحلته ، المعروف تحفة النظار وعجائب الأسفار : المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ ، جزء ١ ، ص ٧٠ – العيون والحدائق ، جزء ٤ ، ص ٨٧ – ٨٨ – ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ، ص ١٧١

(٧٠) البلوي : المصدر السابق، ص ٣٠٣ – ٣٠٥ – السيوطي : حسن المحاضرة، ص ١٤٧

(٧١) طه بدر : مصر الاسلامية ، جزء ١ ، ص ١٢٧
– Lane Poole : Catalogue of Arabic Coins ., p 136

(٧٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جزء ١ ، ص ١٥٥ – ١٥٦ – ابن العديم: بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقه ٢٥ ظهر – Lane Poole : A History of Egypt ., p71

(٧٣) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ١٣٠ ظهر وزبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٠ – ابن تغري بردي: المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٩ – حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ١٠٧

(٧٤) Lane Poole:op. cit., p 72 - Zaky Hassan :op. cit. ,p111

(٧٥) كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠٤

(٧٦) الكندي : المصدر السابق، ص ٢٣٣ – ٢٣٥ – ويرد الاسم في كرد علي: خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠٥ (سعد الأعسر)

(٧٧) ابن العديم: بغية الطلب، جزء ٢ ، ورقة ٥٢ وجه . بينما يذكر كل من حسن محمود: المرجع السابق، ص ١٠٧ و Zaky Hassan : op. cit. , pp 110-111 أن الواسطي كان يقود جيشاً منفصلا .

(٧٨) كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥

(٧٩) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ٥٢ – ٥٣

– Zaky Hassan : op . cit ., p. 111

(٨٠) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ٥٣ – ٥٤ – ابن تغري بردي : المصدر السابق، جزء ١ ، ص ٥٠ – Zaky Hassan : op. cit ., pp 110-111

(٨١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨١

(٨٢) Lane Poole :op. cit ., p 73– Zaky Hassn :op cit ., p 111

(٨٣) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ٥٤ .

(٨٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٨ .

(٨٥) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ – ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ٥٤ ظهر ، وزبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨١ – ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٥٠ – Zaky Hassan : op . cit ., p 111

(٨٦) سعيدبن بطريق : المصدر السابق ، ص٧١ – Lane Poole : op cit ., p 72

(٨٧) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ – ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٨٠ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٢

– Zaky Hassan : op. cit ., p 73

(٨٨) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ – ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، حاشية ص ٦٤ – ٦٥ – ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٧٢ – ٧٣

– Lane Poole : op. cit ., p 73

(٨٩) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٥١ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠٥ .

(٩٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٢ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٩١) مدينة ملاصقة للرقة وهي ربضها وهما على طرفي الفرات. انظر : الاصطخري : صور الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ٧٥ – المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٤١ .

(٩٢) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢٠٦ .

(٩٣) Lane Poole : op. cit . ، p 73 — Lane Poole : Catalogue of Arabic Coins . ، p 177

(٩٤) ابن ظافر : الدول المنقطعة ، ورقة ٣٢ — ٣٣ — حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ١٢٢

(٩٥) ينقل الدكتور حسن محمود عن زكي حسن ، ص ١٢٢ ، بأن هذا الكتاب تضمن الاعتراف بخمارويه وأبنائه على الشام والثغور وارمينية . ويعلق على ذلك بأن اضافة ارمينية لا تخلو من مغزى . فهي اعتراف بالجهود التي بذلها خمارويه في منطقة الجزيرة وأعالي الفرات ، وهي امتداد لنفوذ الطولونيين على بلاد لم تكن لهم من قبل . ويبدو أن تبعية ابن أبي الساج لخمارويه ، هي التي أدت إلى تبعية ارمينية له . لأن ارمينية كانت لابن أبي الساج .

(٩٦) Lane Poole : op. cit . ، p 73 — Zaky Hassan : op. cit ، p 115 .

(٩٧) Lane Poole : op . cit . ، p 73

(٩٨) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٦٣ — ٦٤ — ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٣
— Zaky Hassan : op. cit . ، p 116

(٩٩) يقال أنه في جهاز قطر الندى ألف هاون من ذهب . ومن نوادر ما يذكر في ذلك أنه لما زفت على الخليفة المعتضد بالله قال المعتضد اكرموها بشمع العنبر . فوجد في خزائنه أربع شمعات من عنبر في أربع أواني فضة . فلما كان وقت العشاء جاءت قطر الندى وامامها أربعمائة وصيفة في يد كل منهن اناء من ذهب أو فضة وفيه شمعة عنبر . فقال المعتضد اطفئوا شمعنا واسترونا . انظر : ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٣٢ — ٣٣ — ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٥٢

(١٠٠) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤١

(١٠١) مجلد ٦ ، ورقة ١٠ — ١٣ وهناك قصص كثيرة في أسباب قتله انظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٨٥ — سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٧٢

(١٠٢) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ — سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٧٢ — Zaky Hassan : op . cit . ، p 134 .

(١٠٣) Lane Pool : op . cit ., p 75

(١٠٤) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ – أبو الفداء : المصدر السابق ، جزء٢، ص ٦٠ – كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٧

– Zaky Hassan : op. cit ., p . 136

(١٠٥) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ١٦٣ – ١٦٤

(١٠٦) ZakyHassan : op . cit ., p 141 – حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ١٦٥

(١٠٧) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٧٠ – ٧١

– Lane Poole : op. cit ., pp 75 — 76

(١٠٨) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ص ١٦٩ – ١٧٠ نقلا عن زكي حسن . ويذكر أنه عزز رأيه بالإشارة إلى بردية . وأظهر أنها تعترف للمولى بدر الذي عينه الخليفة في مصر الى جانب الطولونيين بهذه المكانة .

(١٠٩) LanePoole : The Mohammadan Dynasties ., p 86

(١١٠) Lane Pool : op . cit ., p 86

(١١١) عن القرامطة ونشأتهم،انظر : ابن العميد : تاريخ المسلمين،ص ١٧٤–١٧٥ – محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ ، ص ٢٠ – ٢٥ –حتي: تاريخ سورية ، جزء٢، ص ١٨٩ – ١٩٠

(١١٢) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني ، مادة الاسماعيلية ، مقال ل Huart ، ص ١٨٧ – ١٨٨ – حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٣٥

(١١٣) الشهرستاني : الملل والنحل على هامش كتاب الفصل في الملل والنحل لا بن حزم ، المطبعة الأدبية مصر ١٣١٧ هـ الجزء ٢ ، ص ٢٨

– Juwayni : Ta'rikh – Jahan – Cushy ., vol 111 ., p 57

(١١٤) حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف : عبيد الله المهدي ، طبعة الشبشكي ١٩٤٧ ، ص ٣٠

(١١٥) يرى الشهرستاني في الملل والنحل ، ص ٢٧ ، أن اسماعيل الإمام السادس وأن محمداً ابنه السابع التام،أما حسن ابراهيم حسن في عبيد الله المهدي ، ص ٣٠ فيذكر أن اسماعيل كان في نظر الاسماعيلية الإمام السابع ، وأن أصحابه عرفوا بالاسماعيلية أو السبعية ، ثم يعود في ص ٣٩ فيقول ويعتبر الاسماعيلية محمد بن اسماعيل الناطق السابع.

(١١٦) الشهرستاني : الملل والنحل ، جزء ٢ ، ص ٢٨

Juwayni : op . cit . , p 57

(١١٧) الإمام المستودع هو الذي يكون إماماً في حياته ، ولا يستطيع أن يورث أبناءه الإمامه ، وانما يكون كحامل الأمانة ، عليه أن يردها عند الحاجة . أما المستقر فهو الذي تستقر الإمامة فيه ويستطيع نقلها إلى أبنائه . انظر : حسن ابراهيم حسن . المرجع السابق حاشية ١ ، ص ١٧ وص ٣١ — ٣٢ — ٣٩

(١١٨) الشهرستاني : المصدر السابق ، ص ٢٩

(١١٩) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الاسماعيلية ، ص ١٩٣

(١٢٠) عن اضطهاد العباسيين للعلويين والقضاء على ثوراتهم ، انظر : محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٦٠ من ص ١٩٤ حتى ٢٠٠ — حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ١٩٥ ، والدولة الفاطمية ، ص ٣٩

(١٢١) سرور : المرجع السابق ، ص ١٧

(١٢٢) حسن ابراهيم حسن : عبيد الله المهدي ، ص ٢٩ ، وص ٤٠ — سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٧ — عارف تامر : القرامطة أصلهم نشأتهم ، دار الكاتب العربي بيروت ، ص ٥٣

(١٢٣) فيذكر كل من النيسابوري : استتار الامام ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني — ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي الفاطمي ، ص ٣٥ — عارف تامر : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، أن الأئمة المستورين بعد محمد بن اسماعيل هم : عبد الله الأكبر واحمد والحسين والمهدي . وهناك تسلسل آخر ذكره ابن النديم في الفهرست ، ص ٢٦٥ يمكن العودة إليه

(١٢٤) انظر ماكتبه المؤرخون حول نسب الفاطميين في : الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، المسمى الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق المنجد ، القاهرة ١٩٦١ من ص ٤ — ١٥ حيث يجمع أقوال المؤرخين الذين سبقوه في نسب الفاطميين — العيون والحدائق : الجزء الرابع القسم الأول ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ١٥١

(١٢٥) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٤١ — ٤٢

(١٢٦) سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٧

(١٢٧) محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر : مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الرابع ، جزء ٢ – ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي مايو ١٩٣٦ – ، ص ١٠٨

(١٢٨) سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٨

(١٢٩) اليماني : المصدر السابق ، ص ١٠٨ – ١٠٩

(١٣٠) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ٩٦ وعبيد الله المهدي ص ٦٣ – محمد عبد الفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ٥٧ – ٥٨

(١٣١) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي : جزء ٣ ، ص ١٩٧. ويذكر صاحب كتاب العيون والحدائق ، جزء ٤ ، قسم ١ ، ص ١٠٨ أن زكرويه بن مهرويه كان داعية لقرمط .

(١٣٢) عليان : المرجع السابق ، ص ٨٩ – ٩٠ وص ١٣١

(١٣٣) عليان : المرجع السابق ، ص ٨٧ – ٨٨ – وص ٩٠

(١٣٤) هم من بني كلب انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٩٥

(١٣٥) انظر عليان : المرجع السابق ، ص ٩٢ وص ٢٨ – ٢٩ نقلا عن ابن الجوزي

(١٣٦) حسن ابراهيم حسن : عبيد الله المهدي ، ص ٨٥

(١٣٧) سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٢١

(١٣٨) محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر ، ص ١٠٩ – ١١٠

(١٣٩) ثابت بن سنان وابن العديم : تاريخ أخبار القرامطه وترجمة الحسن الأعصم القرمطي ، تحقيق سهيل زكار ، دار الأمانة بيروت ١٩٧١ ، ص ٢٠

(١٤٠) النيسابوري : استتار الإمام ، ص ٩٨

(١٤١) النيسابوري : المصدر السابق ، ص ٩٧ – ٩٩

(١٤٢) لقد تمكن القرامطة في الفترة الأولى من اخضاع مدن الشام . كما أنهم انتصروا على أبواب حلب على الجيش العباسي بقيادة أبي الأغر . وكان أبناء زكرويه يقاتلون كل مرة في مقدمة جيوشهم . أما بعد ذلك وحين أدركوا ان معظم أنصارهم تركوهم فانهم تركوا قيادة الجيش حفاظاً على أرواحهم .

(١٤٣) النيسابوري : المصدر السابق ، ص ص ١٠٠ و ١٠٦

(١٤٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٢٨ – سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٢٢

(١٤٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٩٥ – العيون والحدائق ، جزء ٤ قسم أول ، ص ١٠٨ – عليان : المرجع السابق ، ص ٨٧

(١٤٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٠٤ – عليان : المرجع السابق ، ص ٩٣ – ٩٤

(١٤٧) عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٦ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٠

(١٤٨) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ – عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٧ – ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٩

(١٤٩) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٩

(١٥٠) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦

(١٥١) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، بينما يذكر عدد من المؤرخين منهم : الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١١٩ وعريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٧ أنه حدث اضطراب وفتنة في عسكره ، فخرج إليهم ليسكنها ، فأصيب بحربة رماها بعض المغاربة فلقي حتفه فيها .

(١٥٢) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣١٠

(١٥٣) ابن دحية الكلبي : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ص ٩٤ – ٩٥ – عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٨

(١٥٤) انظر فيما بعد : الباب الخامس

° ° °

الباب الثالث

بلاد الشام

في عهد ولاية
الاخشيديين والحمدانيين

الباب الثالث

بلاد الشام في عهد ولاية الاخشيديين والحمدانيين

١ ـ أحوال بلاد الشام قبل قيام امارتي الاخشيديين والحمدانيين.

ـ ثورة ابن الخلنجي .

ـ حركات أعراب الشام .

ـ القرامطة يجددون نشاطهم في بلاد الشام .

ـ الفتن الطائفية .

٢ ـ بلاد الشام تحت حكم الاخشيديين .

٣ ـ تأسيس الامارة الحمدانية في الموصل وحلب .

٤ ـ الحروب بين الاخشيديين الحمدانيين .

٥ ـ المتاعب التي واجهت حكم الاخشيديين في الشام :

ـ ثورة أهالي الشام وزعماء القبائل العربية .

ـ ثورات متنوعة .

ـ تعرض كنيسة القيامة للنهب من قبل الصناجي والى بيت المقدس .

ـ محمد بن رائق أمير الامراء .

ـ القرامطة .

٦ ـ نهاية الامارة الاخشيدية :

٧ – الأخطار التي واجهها الحمدانيون في بلاد الشام :

– عصيان موالي الحمدانيين عليهم .

آ – ثورة نجا غلام سيف الدولة .

ب– ثورة رشيق النسيمي وابن الاهوازي .

– ثورات بعض الحمدانيين – التنافس على الحكم .

– هجرة قبيلة بني حبيب واعتداءاتها على حدود الشام الشمالية .

– ثورة المترفع القرمطي .

– موقف أعراب الشام من الحمدانيين .

– الحروب بين الحمدانيين والبيزنطيين .

٨ – الفتح الفاطمي لبلاد الشام .

١ ــ أحوال بلاد الشام قبل قيام امارتي الاخشيديين والحمدانيين .

لقد اضطربت أحوال الشام مرة أخرى بعودتها إلى حكم الخلافة العباسية المباشر على اثر سقوط الامارة الطولونية . فقد تنافس الولاة على حكمها ، وسادتها فترة من الفوضى استغلها القرامطة لاستعادة نشاطهم. ونهض ابن الخلنجي(١) لاحياء الدولة الطولونية ، وبدأت ثورته في جنوب بلاد الشام ، ثم انتقل مسرح عملياتها إلى مصر . واضطرت الخلافة العباسية إلى ارسال جيوش متعددة ــ عن طريق بلاد الشام ــ للقضاء على هذه الثورة وغيرها من الثورات التي نشبت في مصر . ولتوضيح هذه الفترة الانتقالية التي مرت ببلاد الشام بين حكم الدولتين الطولونية والاخشيدية . علينا أن نستعرض أهم الأحداث التي شهدتها، والتي تتمثل في ثورة ابن الخلنجي ، وحركات أعراب الشام ، وتجدد نشاط القرامطة فيها ، والفتن الطائفية .

ــ ثورة ابن الخلنجي :

جرت محاولات من جانب أنصار الطولونيين للدود عن حقوقهم في مصر والشام . فقامت ثورة بقيادة محمد الخلنجي أحد قوادالطولونيين. وعلى الرغم من أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل إلا أنها شغلت العباسيين عن نشاط دعاة القرامطة في بلاد الشام ، مما أدى إلى تجدد نشاطهم .

انفصل ابن الخلنجي عن ركب القائد محمد بن سليمان أثناء عودته الى الشام. وهو من قواد الطولونين . والتف حوله عدد كبير من الجند والأمراء الذين كانوا في خدمة بني طولون ، والذين كانوا لايزالون يعيشون على ذكرى عظمة الدولة الطولونية ويخشون ماكان ينتظرهم في العراق. ومالبث أن ازداد عدد أنصاره بانضمام أنصار جدد إليه ، وبايعه الجميع قائداً عليهم . وكانت أولى انتصاراته على العباسيين في الرملة إذ دخلها في شعبان سنة ٢٩٢ هـ / يونيو ٩٠٥ م(٢) . ثم استولى على العريش والفرما ، وهزم جيش عيسى النوشري الذي توجه لقتاله من مصر . وتتابعت انتصاراته على فلول الجيش المنهزم حتى تمكن من دخول مدينة الفسطاط ، فأحسن الشعب استقباله ، ودعا على المنابر للخليفة ثم لابراهيم بن خمارويه ثم لنفسه . ونجح في تهدئة الأمور ، والقضاء على الفوضى في البلاد ، وأفلح في جمع الضرائب ، ودفع رواتب الموظفين والجند(٣) .

اهتم الخليفة المكتفي بأمر هذا الثائر . وأرسل جيوشاً متعددة للقضاء عليه ، فكان مصيرها الهزيمة . وأخيراً قاتله براً وبحراً ، فكان الجيش البري بقيادة فاتك المعتضدي والبحري بقيادة دميانة . وكان اللقاء بين الطرفين بالقرب من النويرة ، وتمت الهزيمة على ابن الخلنجي ، وقبض عليه في رجب سنة ٢٩٣ هـ / مايو ٩٠٦ م . وبذلك عادت الشام لطاعة العباسيين ، وتخلصت الخلافة من هذا الثائر الذي عمل على إعادة الدولة الطولونية ، وعلى تحقيق أهدافه الخاصة(٤).

ـ حركات أعراب الشام :

بعد القضاء على الدولة الطولونية ، قامت القبائل العربية في الشام

ببعض الحركات المناوئة . وكانت هذه القبائل ترى في الفوضى والمنازعات في بلاد الشام فرصتها للحصول على مغانم . وقد سبق لها أن استغلت الفوضى التي سادت البلاد حين دخلها القرامطة . واشتركت فيما وقع بالشام من ثورات وفتن ومن هؤلاء بنوطيء وكلب(٥) .

وفي سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ – ٩٠٧ م ، تمكن أعراب كلب ونمر وأسد وغيرهم من هزيمة الحسين بن حمدان ، ثم مالبث ان انتصر عليهم في هجمة مرتدة ، وأسر وقتل أعداداً كبيرة منهم . وبعد سنة تمكن ابن حمدان من الانتصار على بني تميم في خناصرة ، وأنقذ حلب وواليها ذكا الأعور من هجومهم(٦) .

وتكرر خروج الأعراب على العباسيين ، ففي سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥– ٩١٦ م ، ثاروا بناحية الأجفر ، كما ثار بنو الفصيص في حصونهم باللاذقية في سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ – ٩٣٢ م(٧) .

– القرامطة يجددون نشاطهم في بلاد الشام :

كان الأمل مازال يراود زكرويه في امكان نجاح دعوته في بلاد الشام، حتى بعد مقتل وسجن معظم رؤساء القرامطة فيها، وهذا الأمل هو الذي دفعه إلى بذل المزيد من النشاط ، فاستغل احوال بلاد الشام وما حدث فيها من اضطرابات عقب القضاء على الطولونيين مباشرة، كما استغل انشغال العباسيين في العمل على تهدئة الأوضاع ، فأخذ يجدد نشاطه . وأرسل في سنه ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ – ٩٠٦ م داعيه أبا غانم (الذي تسمى نصراً) إلى الشام، وكان هذا من أخلص أتباعه(٨) ، فتنقل بين أحياء العرب يدعوهم إلى رأيه ، ويبشرهم بقرب ظهور المهدي بين القرامطة(٩).

وعلى أثر حركة ابن الخلنجي . وما حدث من فوضى في الشام، سار إلى مدينة بصرى فدخلها ثم سار منها إلى أذرعات والبثنية ، وتوجه شمالاً نحو مدينة دمشق(١٠) . إلا أنه اصطدم عند أبوابها بالدفاع العنيف الذي قام به الأهالي فتركها وتوجه نحو طبرية . فأرسل الخليفة المكتفي جيشاً يرأسه الحسين بن حمدان ، يرافقه بعض القواد الآخرين لقتالهم . وما أن وصل ابن حمدان إلى دمشق حتى سبقه صيته إلى القرامطة ، فتركوا طبرية ، وفرواهاربين نحو بادية السماوة(١١).

وتكررت اعتداءات القرامطة ، فهاجموا هيت ونهبوا ربضها وقتلوا عدداً من سكانها ، وبلغ الخبر إلى المكتفي ، فكلف كلاً من محمد بن اسحق بن كنداج ، والحسين بن حمدان بقتالهم ، وزودهما بكل مايحتاجان إليه . وتمكنا من قطع الطريق على القرامطة في العودة، أو في الحصول على الامداد . فقدم أنصار أبي غانم خضوعهم بعد أن قتلوا رئيسهم . فعفا عنهم الخليفة ، وأمر قواده بالكف عن قتالهم(١٢).

وقد وقع أبو غانم في خطأ جسيم ، لانه لم يعمل على الاستقرار في البلاد التي فتحها ، بل اكتفى بتخريبها ، مما مكن العباسيين في النهاية من تضييق الخناق عليه . وكان قتله على يد أنصاره صدمة كبيرة اصابت القرامطة في الصميم ، وكانت سبباً في إشاعة الفرقة بينهم ، فاعتذر الكثيرون للخليفة العباسي عما كان منهم ، وطلبوا منه الحماية والأمان ، بينما بقي بعضهم متمسكين بمذهب القرامطة(١٣). ورأى الخليفة أن يجتث أصول هؤلاء ، فوجه إلى الحسين بن حمدان يأمره بمعاودتهم والقضاء عليهم . عند ذلك وضع زكرويه نهاية

لاختفائه الطويل ، وقرر الظهور لمواجهة أعدائه ، وأخذ في تقوية نفوس أتباعه بمذهبهم ، وأبلغهم بأن وقت ظهورهم على أعدائهم قد اقترب . ومهد لذلك بارسال القاسم بن أحمد إلى أنصاره في بلاد الشام ، وأمره أن يبشرهم بقرب ظهور إمامهم ووليهم ، ويطمئنهم إلى أن تعداد أنصارهم في الكوفة وسوادها حوالي نصف مليون نسمة ، وأنهم جميعاً ينتظرون الإشارة لكي يقضوا على الخلافة العباسية(١٤)، كما قرر زكرويه أن ينقل ميدان المعركة مع العباسيين إلى العراق ذاته بعد أن فقد في بلاد الشام كثيراً من أتباعه . وأمر أصحابه أن يسيروا إلى الكوفة في يوم النحر سنه ٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ — ٩٠٦م. وقرر أن يظهر العباسيين بمظهر العاجزين عن حماية طريق الحاج ، إلى جانب ماكان يقوم به جنوده في أنحاء العراق من اعتداءات على المدن والقرى ، حتى لم يبق دار في العراق إلا وفيها مصاب وضجة وعويل(١٥). وفي سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ — ٩٠٧ م اعترض القرامطة قافلة الحاج عند العقبة ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء ، واحتووا على مافي القافلة من أموال قدرت بمليوني دينار . وانتظروا قدوم القافلة الأخرى ، فهاجموها في الهبير ، وفعلوا بها مافعلوا في الأولى(١٦).

تطايرت الأخبار إلى المكتفي ، وعلم بما جرى للحجاج ، فعظم عليه ذلك . وأصدر أوامره بتجهيز الجيوش لقتال زكرويه،ومنعه من قطع طريق الحاج . وجعل على رأس هذا الجيش وصيف بن صوارتكين ودعمه بعدد آخر من القواد . فالتقى بزكرويه ومن معه من القرامطة على طريق خفان . ونشب قتال شديد دام يومين متتاليين . وفي اليوم الثاني قتل من القرامطة مالا يحصى عدده . وتمكنت الجيوش العباسية من الوصول

إلى زكرويه نفسه بعد أن أصيب في رأسه وأخذ أسيراً . كما قبضوا على خليفته وخواصه وأقربائه وكاتبه وزوجته وابنه . واحتوى العسكر على كل ماكان عند زكرويه . ومات زكرويه بعد خمسة أيام فأرسلت جثته والأسرى إلى بغداد ، وفر جماعة من أصحابه إلى الشام فلقيهم الحسين بن حمدان فقتلهم جميعاً .

* * *

كان الحسين بن حمدان أكثر الناس أثراً في حرب القرامطة . إذ عمل على استئصال شأفتهم بالقتل والأسر . وتتبعهم في كل مكان حتى ضرب به المثل(١٧).

وهكذا فانه بالحزم الذي أظهره المكتفي في قتال القرامطة بالشام، وبالجيوش الكثيرة التي جهزها ضدهم من بغداد ومن مصر اضمحل أمرهم ، وانفض عنهم من كان لحق بهم من الأعراب والمتلصصة .

وكانت وفاة زكرويه من الأمور الحاسمة في القضاء على نشاط القرامطة ببلاد الشام وايذاناً بنهاية القرامطة بالعراق . فلم تعد تلك الطائفة قادرة على نشر الرعب والهلع ، كما كانت تفعل من قبل . ولئن كان بعض القرامطة قد حاولوا الذهاب إلى بلاد الشام بعدموت زكرويه إلا أن هؤلاء فشلوا في اشعال الثورة هناك من جديد ، لأن الحمدانيين تمكنوا من التنكيل بهم ، وكان آخر عهد القرامطة ببلاد الشام محاولة فاشلة لرجلين يعرف أحدهما بالحداد والآخر بالمنتقم . وكان الأخير أخا امرأة زكرويه . وقد حاولا دعوة أعراب الشام القاطنين على طريق مكة إلى الخروج على الخليفة العباسي . ولكن هؤلاء الأعراب لم يستمعوا لهما وقبضوا عليهما(١٨).

ولكن أحوال الشام مالبثت أن ساءت حين هدد أبو طاهر الجنابي(١٩) مناطق الجزيرة في الشام . فقد سار في سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨-٩٢٩ م من الأنبار إلى الدالية عن طريق الفرات . فدخلها وقتل من أهلها جماعة. ثم سار إلى مدينة الرحبة فدخلها في ٨ محرم من نفس السنة/٥ مارس ٩٢٨ م ، ووضع السيف في أهلها بعد أن ظفر بهم ، وخافه الأعراب، فأخذوا يفرون من وجهه .

اتخذ أبو طاهر من مدينة الرحبة مركزاً له يرسل منه السرايا إلى المدن والقرى المحيطة ، فتوجه إلى الرقة ، واصطدم مع أهلها ، ولم يستطع دخولها (٢٠) . وطلب الأمان منه كل من أهالي رأس عين وكفرتوثا . فقرر على كل رأس ديناراً يحملونه إلى هجر(٢١) . وكان في نيـــة أبي طاهر الجنابي التوجه إلى قلب الشـــام ودخول احدى مدنها ، إلا أنه اضطر إلى ترك بلاد الشام في اول شعبان سنه ٣١٦ هـ . وهكذا فان أباطاهر تمكن من فرض أموال سنوية على بلاد الشام، كما فرضها على مناطق كثيرة من العالم الاسلامي(٢٢).

— الفتن الطائفية :

أصبحت بلاد الشام في هذه الفترة مسرحاً للفتن الطائفية . فكثيراً مانشبت خلافات واضطرابات بين المسلمين وأهل الذمة ، مثال ذلك ماحدث سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، فقد ثار المسلمون في دمشق وهدموا كنيسة كبيرة ، وأخذوا منها زهاء مائتي ألف دينار من صلبان ذهب وفضة وكؤوس ونحوها ، ونهبوا ديارات كثيرة . وامتدت هذه الثورة إلى مناطق متعددة من بلاد الشام، ففي الرملة هدم المسلمون

كنيستين للملكانيين ، وفي قيسارية هدمت كنيسة كبيرة ، ونهبوا مافيها وأحرقوها . وعاضد اليهود المسلمين في هدمها ، فكانوا يشعلون النار في الحطب ، ويجرونه بالبكر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها، فينحل الرصاص وتقع العمد . وقد خرج اسقف عسقلان إلى بغداد متوسلاً لردها فلم ينجح له مسعى .وثار المسلمون أيضاً في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ — ٩٣٧ م في بيت المقدس ، ودخلوا كنيسة القيامة وأحرقوها ونهبوا ماقدروا عليه(٢٣).

ومما لاشك فيه أن المسلمين الذين عاشوا متسامحين مع أهالي الذمة طوال العصور الاسلامية ، لم يفعلوا مافعلوا إلا نتيجة ظروف فرضت عليهم ذلك. ولا أشك في أن هذه الظروف تتعلق بتعاطف أهالي الذمة في الشام مع البيزنطيين الذين أخذوا في بداية القرن الرابع الهجري بمهاجمة الثغور، وأحرزوا انتصارات ملحوظة فيها . وبلغ الأمر مبلغه حين أخذ البطارقة في الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس بالدعوة في صلواتهم للامبراطور البيزنطي ، وحين هدد الأخير أهالي الثغور بالقتل إن لم يحملوا له الخراج(٢٤).

* * *

وعلى الرغم من الفوضى التي كانت في الشام في تلك الفترة ، فقد كانت تتبع للعباسيين تبعية مباشرة . وتدل النقود التي ضربت فيها في الفترة التي تلت سقوط الدولة الطولونية ، على أنه لم يكن هناك نفوذ لأي وال حكمها . إذ أن النقود التي سكت في معظم مناطقها لم تحمل سوى اسم الخليفة . ومن أمثلة ذلك النقود الذهبية التي ضربت سنة ٣٠١هـ في دمشق وحملت اسم المقتدر فقط(٢٥) .

٢ ـ بلاد الشام تحت حكم الاخشيديين :

في هذه الظروف لمع نجم محمد بن طغج وبدا أنه الشخص الذي يصلح لحكم الشام ومصر . ويجعل مصالحهما متفقة مع مصالح الخلافة العباسية . وكان أبوه طغج قد اتصل بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو مقيم بديار مضر فاستخدمه عليها . ثم انحاز طغج إلى اسحق بن كنداج . وبقي معه إلى ان مات ابن طولون وجرى الصلح بين خمارويه وابن كنداج فأخذه خمارويه إليه ، وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق وطبرية(٢٧).

وحدث في سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٤ ــ ٨٩٥ م أن أرسل خمارويه إلى طغج يأمره بالمسير إلى طرسوس والقبض على راغب وقتاله وغزو البيزنطيين ، إلا أنه لم يفعل ، فغضب خمارويه عليه . وعاد طغج يتلمس المعاذير عند خمارويه لامتناعه عن القبض على راغب . وعزم خمارويه على الفتك به . غير أنه قتل قبل تحقيق ذلك(٢٨) .

وشق طغج عصا الطاعة في دمشق على جيش . ولما تولى هارون ابن خمارويه الامارة ، كان طغج يحكم الشام حكماً مستقلاً إلى حد كبير . ونتيجة اتصالات دبلوماسية عاد طغج إلى طاعة الطولونيين. وكان من بين القواد الذين لم يرضوا عن قتل هارون ، ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون . وكان له دور في تحريض بعض قواد الطولونيين عليهم . وكان لهؤلاء القواد الذين انضموا للجيش العباسي ــ الذي يقوده محمد بن سليمان للقضاء على حكم الطولونيين ــ أثر كبير في انتصار هذا الجيش وتحقيق هدفه(٢٩).

وبعث محمد بن سليمان طغج إلى الثغور ، وجعله والياً على قنسرين ، وضم إليه طائفة من جند بني طولون . وعين بدراً الحمامي على دمشق . ولم يبق طغج في هذا المنصب طويلاً ، بل إنه اضطر إلى الذهاب إلى بغداد . وهناك سجن مع ولديه على اثر خلاف مع وزير الخليفةالمكتفي. وسنحت الفرصة لولدي طغج بقتل الرزير بعد وفاة والدهما في السجن ، ثم توجه أحدهما وهو محمد بن طغج فاراً إلى الشام(٣٠).

بقي ابن طغج في بادية الشام لمدة سنة ، ثم اتصل بابن بسطام الذي كان عاملاً على خراج الشام . وأخذ يخدمه في شؤون الصيد على وجه خاص ، حتى عرف باسم بازيار ابن بسطام . ولما تقلد الأخير خراج مصر سنة ٢٩٦ ه / ٩٠٨ — ٩٠٩ م صحبه إليها . وعندما تقدم الجيش الفاطمي لغزو مصر بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي سنة ٣٠٢ ه ، أبلى ابن طغج بلاء حسناً في قتال هذا الجيش ، وكانت فرصة مناسبة لتوثيق صلته مع تكين(٣١).

وعندما تقلد تكين ولاية دمشق اصطحب معه ابن طغج وأنابه عنه في عمان وجبل الشراة . وقد اتيحت له الفرصة هناك ليكسب عطف الخليفة ورضاه ، بعد أن كسب عطف العناصر التركية في الشام ومصر. وبرز اسمه في سنة ٣٠٦ ه / ٩١٨ — ٩١٩ م بسبب ماقام به من تخليص الحجاج من هجمات الأعراب الذين تجمعوا عليهم ، وحاولوا ايذاءهم والاستيلاء على مامعهم . وكان مع القافلة قوم من أعيان العراق ، ومعهم جارية لأم الخليفة المقتدر ، فشكره تكين ، ورضي عنه الخليفة(٣٢).

وساعده الحظ ثالثة حين تعاون مع مؤنس الخادم أمير أمراء بغداد

في صد الخطر الفاطمي عن مصر ــ الغزوة الثانية ، وعاد مؤنس إلى بغداد راضياً عن محمد بن طغج . وساعدته الظروف لتحسين مركزه، فقد حدث أن عين مؤنس الخادم محمد بن جعفر القرطي على الحسبة ثم على الخراج في مصر ، وصرف بذلك الماذرائيين . فما لبث هؤلاء أن اتهموه باختلاس الأموال من خراج البلاد فعزله المقتدر . وبادر القرطي بالاختفاء عند محمد بن طغج ــ الذي كان صديقاً له منذ قدومه إلى مصر ــ وأفلح ابن طغج في تدبير خطة لاخراج القرطي ، وانقاذه من الوقوع في يد الماذرائيين . وحفظ القرطي لابن طغج هذا الصنيع. واستطاع بجهوده وبما عرفه مؤنس الخادم عنه أن يحصل على تقليد بولاية الرملة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ ــ ٩٢٩ م(٣٣) . وكانت هذه الولاية بداية لولايته على سائر الشام . وعمل ابن طغج منذ حصوله على ولاية الرملة إلى تحسين مركزه ، وقد ساعده صديقه القرطي في بغداد على تحقيق ذلك . وكانت نتيجة هذه المساعي حصوله في سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١م على تقليد من الخليفة بولاية دمشق ، فرحب أهلها بتوليته(٣٤).

أتيح للاخشيد بعد حصوله على ولاية دمشق أن يوسس لنفسه جيشاً ضم إليه طائفة كبيرة من الجند الذين كانوا تابعين لعدد كبير من القواد السابقين . كما اجتمع حوله اخوته عبيد الله والحسن والحسين وعلي بنو طغج . كما أنه جمع مالاً كثيراً بمختلف الطرق والوسائل ، وعلى رأسها مصادرة الأموال عند من يعرف عنهم الثراء (٣٥).

وعلى الرغم مما حققه في الشام ، فقد كان يطمع بولاية مصر . وسنحت له فرصتان لتحقيق هذا الحلم،ضاعت منه الأولى في سنة ٣٢١هـ بعد شهر واحد من بدء الدعوة له ، واقتنص الثانية التي واتته في عهد

الخليفة العباسي الراضي . فدخل مصر في ٢٣ رمضان سنة ٣٢٣ هـ / ٢٧ اغسطس ٩٣٥م(٣٦) .

وبذلك أصبحت ولاية مصر في يد ابن طغج ثانية ، وضمت إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين(٣٧) . وعلى الرغم من حصول ابن طغج على كتاب تولية ، فانه لم يستطع دخول مصر إلا بقوة السيف بسبب تمسك الماذرائيين بها . ويبدو والأمور على هذا الشكل ان ولاية الأقاليم كانت للأقوى وليس لمن يحمل وثيقة توليته من قبل الخلافة ، إذ كثيراً ماكانت ولاية منطقة تعطي لأكثر من وال ولم يكن ممكنا لوال أن يتسلم ولايته إلا إذا استعمل السيف لإزاحة أعدائه ومنافسيه . ولاشك في أن هذه الحالة في الولايات تعكس سوء الأوضاع في عاصمة الخلافة(٣٨).

وهكذا حقق ابن طغج كل مايصبو إليه ، فقد امتد حكمه على الشام ومصر ، وتمكن من جعل قبضته قوية فيها . وجعل مركز حكمه في مصر ، وعين نواباً عنه في الشام ، فقلد بدراً الخرشني مدينةدمشق ، كما قلد أحمد بن سعيد الكلابي حلب(٣٩).

وفي رمضان سنه ٣٢٧ هـ / يونيو ٩٣٩ م حصل ابن طغج من الخليفة الراضي على لقب الاخشيد ومعناه ملك الملوك . وكان حصول ابن طغج على هذا اللقب بناء على كتاب أرسله إلى الخليفة الراضي بالله يسأله أن يلقبه بالاخشيد . وقال في كتابه . (قد كنى أمير المؤمنين جماعة ولقبهم فليبشرني بما سألت) . وكان الخليفة الراضي بالله يحب ابن طغج ويقرظ دائماً ، ويصفه بأحسن الصفات ويرضى عن جميع مايفعله . وكان مما يقوله إذا ذكر اسمه أمامه (رجل كبير العقل ، حسن الطاعة ، يشبه أجلاء الموالي الماضين، وما أدري بماأكافئه) (٤٠)،

وصدرت أوامر الخليفة الراضي بتسميته بالاخشيد . ودعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام . وفي هذا اعتراف من الخليفة بمكانة الاخشيد ، كما كان صدى لما أصبح للاخشيد من مكانة في العالم الاسلامي (٤١) . حتى ان القائم بأمر الله الفاطمي لما رأى بلاء الاخشيد وقوته أراد أن يستميله إليه ؛ فكتب له بيده كتاباً خاصاً أرسله إليه مع رسوله رغبة منه في أن يحقق بالسياسة ماعجز عن تحقيقه بالسيف(٤٢). كما استنجد الخليفة المتقي لله به بعد أن فر من ظالم توزون(٤٣) . وأرسل له كتاباً يشرح له فيه وضعه ، وخرج على اثر ذلك إلى الرقة مع أولاده وحرمه ، يرافقه وزيره ابن مقلة . فوصلها في أوائل رمضان سنة ٣٣٢ ﻫ / ابريل ٩٤٤ م .

ولما ورد كتاب الخليفة على الاخشيد ، سـار إلى الشـام حتى وصـل دمشـق (٤٤) . ثم أنفذ مع أحمد بن سعيد الكلابي أموالاً إلى الخليفة المتقي(٤٥) . وتوجه بدوره نحو شمالي الشـام . فدخل حلب بعد أن فر منها الحسين بن حمدان أمامه . وسـار الاخشيد حتى بلغ الرقة ، واجتمع مع الخليفة(٤٦).

كان استنجاد الخليفة المتقي لله بالاخشيد ، لثقته به إلى جانب ما كان يعلمه من قوة جيوشه . ولما حضر لنجدة الخليفة ، واقترب من ما بين الرقة والرافقة أشرف أهلها على السواحل والأسوار ، ونظروا من عظم العسكر وحسن عدته ، مالم يشاهدوا مثله(٤٧) .

وقد أظهر ابن طغج الخضوع للخليفة ، وحمل إليه هدايا وأموالاً كثيرة . ولم يدع أحداً من أصحاب الخليفة وحواشيه إلا بره ووصله. وكان يخاطبه بقوله : أنا عبدك وابن عبدك . واجتهد بالمتقي لله أن

أن يسير معه إلى الشام ومصر وأبي ، فأشار عليه بالمقام مكانه وضمن له أن يمده بالأموال فلم يفعل . ولا شك في أن تصرفه هذا كان لخوفه من الأتراك والحمدانيين(٤٨) .

وهكذا كرر الاخشيد مافعله ابن طولون ليجعل من مصر قاعدة للخلافة العباسية،ولم ينجح في ذلك ، وظفر فقط بتجديد اعتراف الخليفة له بولاية الشام ومصر ، وجعلها له ولابنه أونوجور لمدة ثلاثين سنة(٤٩). وبهذا الاعتراف من الخليفة المتقي بتبعية بلاد الشام للاخشيد ولابنه من بعده ، فانه يكون قد حرم بني حمدان منها ، ووقف في وجه مطامعهم.

وكان سرور ابن طغج عظيماً بالمكانة التي حصل عليها عند الخليفة وبمخاطبته بكنيته، – والخليفة لايكني أحداً – وبالعهد الذي حصل عليه. ويبدو ذلك مما كتبه لخادمه كافور بعد أن قابل الخليفة المتقي لله.

وعاد الاخشيد من الرقة إلى حلب ، حيث ولى عليها أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي . وولى أخاه انطاكية . وبذلك ظن أن الأمور استقرت له في الشام، فعاد إلى مصر(٥٠). بينما عاد الخليفة إلى بغداد في محرم سنة ٣٣٣ هـ / اغسطس ٩٤٤ م بعد أن أجرى صلحاً مع توزون . ولكنه لم يف بوعده فقبض على الخليفة وسمل عينيه ، وبايع المستكفي خليفة(٥١) .

ومما لاشك فيه أن الغلاء والشدة التي حدثت في العراق أيام الخليفة المتقي لله ، كان لها أكبر الأثر في تضعضع مركز الخليفة . وعدم استطاعة أنصاره حمايته . فقد بيع كر الحنطة بتسعين ديناراً(٥٢) .

ووصل الجوع إلى قصر الخلافة . فخرج عدة من الخدم من قصر الخلافة بالرصافة ينادون (الجوع الجوع) (٥٣) .

ولم يطرأ أي تغيير على علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية في بغداد في عهد الخليفة المستكفي وخلفه المطيع . فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدولة الحمداني على حكم الشام . واتخذت الخلافة موقف المتفرج. فلم يكن لها في هذا الخلاف رأي تبديه أو إرادة تمليها(٥٤).

* * *

٣ ـ تأسيس الأمارة الحمدانية في الموصل وحلب :

الحمدانيون من العرب العدنانية ، وهم بطن من تغلب بن وائل . وكانت تغلب تقيم في بادية الشام . فلما ضاقت البادية بالقبائل التي نزلت بها ، اضطرت إلى تركها ، ونزحت إلى ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين (٥٥) . بينما نزل بنو بكر في شماليها في المنطقة التي تعرف باسم ديار بكر(٥٦) . وقد اعتنق بنو تغلب النصرانية ، وغلبت عليهم لمجاورتهم للروم ، واعتنق بعضهم الاسلام في حيـــاة الرســـول (٥٦) . وظلت غالبيـــة بني تغلب على دين النصرانية . ولذلك حاربوا في صف البيزنطيين سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م . ولكن قبيلة تغلب مالبثت أن تحمست لقومها العرب ، وحاربت معهم وشاركتهم في فتح العراق ـ قبل أن يفتح المسلمون الجزيرة . وسار عدد منهم تحت راية المثنى بن حارثة سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م لمقاتلة الفرس. كما انضموا إلى جيش ابن أبي وقاص سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م وحاربوا معه في تكريت .

ولما فتح المسلمون الجزيرة الفراتية سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م في عهد عمر ابن الخطاب ، رأى قائد جيش المسلمين اكراه التغلبيين على الاسلام ، واستشار الخليفة عمر بن الخطاب في هذا الأمر ، فكتب إليه بأن الاسلام

يفرض فرضاً على أهل الجزيرة العربية فقط ، إذ لايقبل منهم فيها إلا الاسلام . أماخارجها فلا اكراه في الدين . فاعتنق فريق من التغلبيين الاسلام ، وأبى من بقي منهم على دين النصرانية أن يعطي الجزية حمية وأنفة ، ورضي أن يعطي الصدقة مضاعفة . ثم دخلوا كلهم مع الزمان في الاسلام(٥٨).

والجدير بالذكر أن قبيلة تغلب كانت مشايعة لخلفاء بني أمية . وهذا مانلمسه في شعر شعرائهم المشهورين في العصر الأموي مثل الأخطل والقطامي . ومما يؤيد ذلك أيضاً مشاركتهم في حروب الدولة الأموية، مثال ذلك انضمامهم سنة ٧٧ ﻫ / ٦٩٦ — ٦٩٧ م إلى الحجاج بن يوسف الثقفي في قتاله لشبيب (٥٨).

وفي بداية العصر العباسي ضعفت قبيلة تغلب شأنها في ذلك شأن بقية القبائل العربية وذلك بسبب غلبة العناصر الفارسية على الدولة العباسية في عصرها الأول . ولكنهم مالبثوا أن نهضوا عندما لمسوا الضعف الذي تمر به الدولة العباسية في عصرها الثاني ، وخاصة بعد أن شاهدوا نشأة دويلات مستقلة عنها . ورأوا أنهم لايقلون شأناً عن أصحاب هذه الدويلات المستقلة .

وكانت الظروف التي تمر بها الجزيرة الفراتية تشجع الحمدانيين على القيام بهذا الدور . إذ كانت هذه المنطقة تفتقر إلى سلطة مركزية قوية تستطيع أن تواجه الدولة البيزنطية التي مرت في ذلك الوقت بفترة من فترات الاحياء التي كانت تمر بها من وقت لآخر في حياتهاالأخيرة الطويلة . ومن ثم كان قيام الدولة الحمدانية — كدولة حاجزة — في

منطقة الجزيرة الفراتية ، ضرورة استدعاها ضعف الدولة العباسية في عصرها الثاني ، وعجزها عن حماية هذه المنطقة من الخطر البيزنطي.

ومن ذلك يتضح أن ظهور الحمدانيين نابع من طبيعة المنطقة التي نشأوا فيها . وحاجتها إلى الدفاع الناجح في وقت انتعشت فيه الامبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية منذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي . ونشطت هذه الأسرة لمهاجمة العالم الاسلامي . وبرزت في قتال الحمدانيين خاصة في عهد نقفور فوكاس ٣٥٢ – ٣٥٩ هـ / ٩٦٣– ٩٧٠ م ، وخلفه يوحنا تزيمكس . وكانت غايتهم استرداد بلاد الشام أو على الأقل تدمير القوة الاسلامية في الثغور والحد من نشاطها(٦٠). وقد حققوا جزءاً من أهدافهم ، فقد أصبحت المنطقة الساحلية في بلاد الشام ومنطقة الجزيرة والفرات خاضعة للسيادة البيزنطية(٦١) . إذ أحرز البيزنطيون انتصارات واضحة في مناطق الحدود . وقاموا برد هجمات المسلمين في جنوبي وشرقي طرسوس والفرات وحدود ارمينية، وكذلك في حدودهم مع بلاد الشام عند طرسوس وشيزر واصفونا، وتل باشر ، وتل خالد(٦٢) . وكانت كفة المسلمين تتأرجح بين الهزيمة والانتصار بسبب ماكانت تعانيه الدولة العباسية من اضطرابات وتفككك .

ويضاف إلى ظروف هذه المنطقة ، ظروف العرب عامة ، والحمدانيين خاصة . فقد انتعش العنصر العربي بعد ضعف العباسيين في العصر الثاني . ووجد بنو حمدان الامــارات المســتقلة تنتشر في أطراف الدولة العباسية . ورأوا تغلب عمال الأطراف عليها حتى في المناطق التي

ظلت خاضعة للخليفة العباسي . فاستغلوا هذه الظروف لتأسيس إمارة لهم .

وقد بدأ ذلك بقيام حمدون الحمداني بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في الموصل سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ — ٨٧٤ م ولكنه اضطر إلى الفرار لخلاف نشب بينه وبين الخليفة المعتضد سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ — ٨٩٥ م من أجل قلعة ماردين . غير أن هذا الخلاف لم يلبث أن زال(٦٣). وزادت شهرة الحمدانيين لنشاط الحسين بن حمدان في حروبه ضد القرامطة ، حتى وثق بهم المعتضد(٦٤).

وسار الخليفة المكتفي سيرة أبية من الثقة بآل حمدان ، والركون إليهم في كافة الشؤون لأنه رأى فيهم العنصر العربي الذي يشارك الخلفاء في شعورهم وأحاسيسهم . وقد اتصل ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان بخدمته منذ سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ — ٨٩٤ م . وحصل على ولاية الموصل سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م(٦٥) . فأحسن السيرة في أهلها ، وأمنت البلاد في عهده واستقامت(٦٦) . وكان يساعده في حكمها ابتداء من سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ — ٩٢١ م ابنه الحسن . وسنحت الفرصة للأخير أن يبسط سيطرته على الجزيرة كلها وشمالي بلاد الشام أي مايسمى دياربكر وربيعة . وقد احتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ — ٩٦٩ م عدا فترة لاتزيد على سنتين تبدأ من سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، حين عزل عن الموصل نتيجة خلاف حدث بينه وبين الخليفة المقتدر(٦٧). وتولاها عوضاً عنه عماه سعيد ونصر . بينما ضمن الحسن ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين ومعها من ديار بكر ميافارقين وأرزن (٦٨) .

ولم يكن الحسن راضياً عن ابعاده عن الموصل ، ولذلك فانه قتل عمه سعيد ، وعاد إليها في سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ — ٩٣٥ م ، وعمل على ارضاء الخليفة . ثم بدأ بتنظيم أمور الإمارة ، فسلم إلى أخيه علي (سيف الدولة) ميافارقين وديار بكر ليحكمها باسمه(٦٩).

وفي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ — ٩٤٢ م ، استقبل ابن حمدان الخليفة المتقي لله في الموصل مع أمير الأمراء ابن رائق ، الذي فر تحت ضغط الظروف السياسية في بغداد . وقد استغل ابن حمدان الفرصة ، وقتل ابن رائق ثم توجه مع الخليفة العباسي إلى بغداد ، حيث منحه الخليفة منصب أمرة الأمراء ، وخلع عليه لقب ناصر الدولة وعلى أخيه لقب سيف الدولة(٧٠) .

وبمقتل ابن رائق انتقل التنافس على الشام الذي كان بين الاخشيديين وابن رائق إلى نزاع بين الحمدانيين والاخشيديين . فقد اعتبر الاخشيديون أن البلاد التي كانت خاضعة لسلطان ابن رائق أصبحت ملكاً لهم بموته. كما كان الحمدانيون يسعون جاهدين لمد نفوذهم على هذهالمنطقة(٧١). وبشكل خاص منطقة شمالي الشام . وكانت ولاية حلب مجال مساومة بين العمال في عهد سادت فيه الفوضى والأطماع . وشارك الحمدانيون الاخشيديين مطامعهم في حلب ، وحين توجهت أنظار كليهما للسيطرة على شمالي الشام كان نواب ابن رائق مازالوا يحكمون هذه المنطقة. ففي حلب كان أحمد بن علي بن مقاتل وبرفقته مزاحم بن رائق ، وفي دمشق كان نائبه محمد بن يزداد(٧٢).

أراد محمد بن طغج أن يثبت سيطرته على شمالي الشام . فأرسل

جيوشه إليها ، ثم تبعها بنفسه . وفي دمشق استأمن إليه محمد بن يزداد ، فأقره عليها . وكذلك فان ابن حمدان أراد مد نفوذه على شمالي الشام وطرد علي بن مقاتل منها . وأفلح في البداية . إلا أن جهود الاخشيد في استمالة ولاة الحمدانيين على حلب اثمرت ، وانضم إليه بالتتابع كل من علي بن خلف ، ويانس المؤنسي . وعلى اثر ذلك رأى ناصر الدولة أن يقلدها لعمه الحسين بن حمدان إضافة إلى ديار مضر والعواصم وما يفتحه من الشام . فتوجه الحسين إلى الرقة ، وتمكن من دخولها في رجب سنة ٣٣٢ ه / مارس ٩٤٤ م بعد مقاومة شديدة من أهالي المدينة ، وبعد ذلك دخل حلب ، ودانت له معرة النعمان وحمص ، كما دان له العرب في المنطقة .

توجه الاخشيد بجيشه في سنه ٣٣٢ ه / ٩٤٣ – ٩٤٤ م إلى شمال الشام ليستعيد المناطق التي خضعت لبني حمدان ، والتي يعتبرها من ممتلكاته . ولمادنا من حلب ، رأى الحسين بن حمدان نفسه عاجزاً عن مجابهته ، ففر منها متوجهاً إلى الرقة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها ، لوجود الخليفة المتقي بها بعد هربه من توزون . وكان يريد مصانعة الاخشيد والاعتماد عليه إذا فشل في محاولة الصلح مع توزون . فاضطر الحسين ابن حمدان إلى التوجه إلى الموصل (٧٣) .

وهكذا عادت منطقة شمالي الشام مؤقتاً إلى الاخشيد ، فأعطى ولاية حلب إلى أبي الفتح الكلابي ، وأنطاكية إلى أخيه وعادهو إلى مصر . فاستدعى أبو الفتح قبيلته من نجد لتكون له عوناً في الولاية والحكم (٧٤).

وهكذا يتضح أن قوات الاخشيديين التي جاءت إلى بلاد الشام في هذه الفترة ، لم تصطدم بمعارك عسكرية تذكر مع الحمدانيين . وعمل ابن طغج الاخشيد على إعادة شمالي الشام لحوزته بالطرق الدبلوماسية كمراسلة ولاة الحمدانيين عليها ، واطماعهم بهبات وغيرها .

ومما يؤكد عدم حدوث معارك عسكرية تذكر بين الحمدانيين والاخشيديين في الفترة الممتدة من سنة ٣٣٠ حتى ٣٣٢ هـ / ٩٤١-٩٤٤ م في بلاد الشام مايذكره الصولي عن توسط الخليفة العباسي بين الطرفين طالباً من ابن طغج التوقف عما قرره من قتال الحمدانيين . وقبل الاخشيد توسط الخليفة في هذا الأمر . كما حاول ناصر الدولة تخفيف حدة التوتر هذه بينه وبين ابن طغج بارسال الرسل والهدايا (٧٥).

ويمكننا أن نقول إن ناصر الدولة ، وأخاه سيف الدولة ، قد استغلا الظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة العباسية أيما استغلال. وعملا جاهدين على الحصول على الشرعية في حكم شمالي الشام ، حتى منحهما توزون — أمير الأمراء — قراراً بضم البلاد من مدينة الموصل إلى آخر أعمال الشام . وعلى الرغم من حصولهما على هذا القرار . فلم يستطيعا ضم المنطقة إلى حكمهما بالطرق الدبلوماسية . ولذلك فان حلب ظلت تابعة للاخشيد وعليها أبو الفتح الكلابي حتى سنة ٣٣٣هـ(٧٦).

وهكذا أصبح واضحاً أن بلاد الشام لمن يغلب . ولما كان سيف الدولة يطمع في ولاية مستقلة يحكمها فقد شجعه أخوه ناصر الدولة على دخول الشام ، وصرح له بذلك حين قال له : (الشام أمامك ومافيه أحد يمنعك) . وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين وضعف

أبي الفتح عن مقاومته، فسار إلى حلب ودخلها في ٨ ربيع الأول سنة ٣٣٣ هـ / ٣٠ اكتوبر ٩٤٤ م ، وأقام الخطبة فيها للخليفة العباسي المستكفي ولأخيه ولنفسه ، كما سار إلى قنسرين والثغور الشامية وحمص وانطاكية فأخذها . وملك سيف الدولة ميافارقين ، وأسس دولة جعل عاصمتها حلب . وبدأ بذلك طور جديد من أطوار النزاع على السيادة على بلاد الشام(٧٧).

* * *

٤ ــ الحروب بين الاخشيديين والحمدانيين :

بدأالصراع على شمالي الشام بين الاخشيديين والحمدانيين منذ أن تأسست الامارة الحمدانية في حلب . وتوالت بينهما الحملات العسكرية. ذلك أن مطامع سيف الدولة لم تكن تنحصر في حلب وحدها ، بل كان يحلم ببلاد الشام كلها . فما أن استقرت له الأمور في حلب حتى أسفر عن نيته في ضم دمشق . وبلغ الاخشيد ذلك ، فأرسل إلى الشام جيشاً مر بدمشق ، وسار في اتجاه حمص ، حيث التقى بسيف الدولة عند بلدة الرستن . وكان النصر لسيف الدولة،وتقهقر جيش الاخشيد إلى دمشق ، وخرج منها قاصداً الرملة ليعود إلى مصر . وسار سيف الدولة حتى دخل دمشق ، وكتب إلى أهلها كتاباً قرىء على منبر المسجد الأموي فيها ، وحملت نسخته إلى الاخشيد . وقد تضمن حرص سيف الدولة على صيانة أرواح الأهالي ، والمحافظة على أموالهم(٧٨) . حينذاك عزم الاخشيد على المسير بنفسه للقاء سيف الدولة، واستعادة دمشق . وقد تمكن من تحقيق ماعزم عليه بمساعدة بعض العوامل منها :

ــ ان اهالي دمشق لم يكونوا يميلون إلى سيف الدولة.

ــ وجود سيف الدولة خارج المدينة في تلك الفترة ، لتأديب بعض الاعراب الخارجين عليه(٧٩).

ـ وجود أنصار للاخشيد داخل دمشق ، وقدرته على الاستفادة منهم . فقد كاتب عيسى كيل أحد قواده السابقين بها ووعده بالأموال الطائلة ، والمكافأة الطيبة ، ومناه بتقليده أعلى المناصب ، طالباً منه التمهيد له لدخول دمشق .

وسار الاخشيد من دمشق إلى حمص ثم إلى قنسرين (٨٠) ، والتقى مع سيف الدولة في قنسرين في شوال سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م . وكان النصر في البـــداية حليف سيف الدولـــة ، غير أنه مالبث أن انهزم ، ودخل الاخشيد حلب حاضرة الحمدانيين . وأفسد أصحابه في جميع النواحي ، وقطعت الأشجار التي في ظاهر حلب . وبالغ عسكر الاخشيد في ايذاء الأهالي لأنهم كانوا يحبون سيف الدولة . ولم ينصرف سيف الدولـــة بل عسكر بجيوشه مقابل الاخشيد . فاختار الأخير المسالمة ، وأرسل إلى سيف الدولة في الصلح(٨١)، وتم ذلك بينهما على شروط منها :

١ ـ أن يكون لسيف الدولة حلب ومايليها من بلاد الشام شمالاً اعتباراً من جوسية وحمص ، وأن يكون للاخشيد دمشق وأعمالها.

٢ ـ أن يدفع الاخشيد لسيف الدولة جزية سنوية (٨٢) .

وبعد هذه المعاهدة عقدت مصاهرة بين الطرفين ، وتزوج سيف الدولة من ابنة أخي الاخشيد،وأظهر سيف الدولة كرماً ملموساً في هذه المناسبة ، كما ظهر كرمه فيما حمله للحسن بن طاهر الذي توسط للصلح (٨٣) .

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي دعت الاخشيد إلى عقد الصلح

على هذا الشكل على الرغم من انتصاره على سيف الدولة ؟ من المرجح أنه قام بذلك للأسباب الآتية :

ا — الخطر الذي كان يحدق بمصر من جهة الفاطميين الذين تزايدت قوتهم في المغرب وأخذوا يرسلون الحملات المتتالية لاحتلال مصر .

ب— أن تبقى الدولة الحمدانية حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين، فلا يستطيع هؤلاء التعرض لأملاكه من وقت لآخر . وبذلك يتحمل الحمدانيون عن الاخشيد ثقل هذه التبعة الهامة . فقد كان البيزنطيون لايفترون عن مهاجمة الولايات الاسلامية المتاخمة لبلادهم . واشتدت هجماتهم في هذه الفترة(٨٤) .

حـ — إن هذا الاقليم يعد المجال الحيوي لاتساع سلطان الحمدانيين الذين أسسوا دولتهم في الموصل .

د — إن انتصار الاخشيد لم يكن حاسماً وأن الحرب ستظل قائمة إلى أن يتم النصر لسيف الدولة .

وكان الاخشيد ذا طبيعة مسالمة ونظرة ثاقبة . فقد عقد هذه المعاهدة لأنه كان يرى أنه حتى لو رزق النصر على سيف الدولة ، فانه لن يتمكن من سجنه ولا قتله . لأنه إذا فعل فسيورط نفسه في حروب مستمرة مع الحمدانيين (٨٥) .

وبعد عقد هذا الصلح هدأت أحوال بلاد الشام مؤقتاً واستقامت الأمور وتفرغ سيف الدولة للجهاد آمنـــاً . ثم مالبث أن توفى الاخشيد

في ذي الحجة سنة ٣٣٤ ﻫ / يوليو ٩٤٦ م ، وتولى بعده ابنه أبو القاسم اونوجور ، واستولى على تدبير الأمور أبو المسك كافور . وثارت الفتنة بدمشق عند موت الاخشيد ، ونهبت خزائنه ، واستمرت مشتعلة ثلاثة ايام (٨٦) . وقد رأى سيف الدولة أن يستغل فراغ دمشق من حامية قوية بعد غياب الاخشيد ، وعودة جنوده إلى مصر ، فنقض الصلح ، واتجه بجيشه إلى دمشق . فسقطت في يده بعد أن استسلم حاكمها الاخشيدي في صفر سنة ٣٣٥ ﻫ / سبتمبر ٩٤٦ م . ثم دخل الرملة (٨٧) .

وبدأ سيف الدولة بمطالبة أهالي دمشق بودائع الاخشيد . كما أنه حين ذهب إلى غوطة دمشق يرافقه أحد رجالاتها المسمى العقيقي أعجب بها سيف الدولة ايما اعجاب . فقال لمرافقه بأن غوطة دمشق تصلح لرجل واحد . فأجابه العقيقي بسرعة بأنها لأقوام كثيرة . فما كان رد سيف الدولة إلا قوله : لو أخذتها القوانين السلطانية تبرأوا منها . فأعلم العقيقي أهالي دمشق بذلك ، فاستدعوا كافوراً ، فجاء مسرعاً إلى دمشق (٨٨) . ونشب قتال بينه وبين سيف الدولة في منطقة اكسال بنواحي الأردن (٨٩) ، وذلك في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥ ﻫ / ٢٢ ديسمبر ٩٤٧ م . وكان النصر حليف الاخشيديين الذين اسروا عدداً من بني حمدان . بينما اتجه سيف الدولة إلى حمص ، فجمع جموعاً من الأعراب لم تجتمع له من قبل من بني عقيل ونمير وكلب وكلاب ، توجه بهم إلى مرج عذراء . وكان النصر لسيف الدولة أولاً ثم مالبث أن حلت به الهزيمة ، وتفرق قسم كبير من أصحابه . وفر قسم آخر من المعركة بينما تبعه فريق إلى حلب . واستمر سيف الدولة في تقهقره ، حتى وصل إلى

الرقة ، ودخلت جيوش كافور إلى حلب في ذي الحجة سنة ٣٣٥ هـ/ يونيو ٩٤٧ م ، وأقام وجنوده بها (٩٠) .

وترددت الرسل بين سيف الدولة والاخشيديين . وانتهت المفاوضات بينهما على عقد معاهدة الصلح بنفس الشروط التي كانت بين الأخشيد وسيف الدولة ، ماعدا الجزيةفان كافوراً لم يقبل دفعها . وانتهت الحروب بين الدولة الاخشيدية وسيف الدولة على اثر هذا الصلح ، وساد الصفاء بينهما . وبدأ سيف الدولة ينظم إمارته ، فقام ببناء داره بالحلبة ، وقلد ابن عمه أبا فراس منبج وما حولها من القلاع (٩١).

لكن بلاد الشام لم تنعم بهذا الهدوء الذي ساد فيها . إذ أنه حدث في سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ ـ ٩٤٨ م غلاء عظيم لم يسمع مثله ، واضطر الناس إلى أكل ما لا يؤكل . ومات نتيجة ذلك عدد كبير من الناس (٩٢) . وعلى الرغم من هذه الأحداث العارضة ، فان نفوذ سيف الدولة أخذ يزداد . وأصبح لكلمته وزن في المجتمع الذي يحيط به . حتى أن معز الدولة بن بويه قبل توسطه لديه في شأن أخيه ناصر الدولة . فأبرم الصلح معه على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التي يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها لبيت المال في بغداد.

ومنذ ذلك الوقت لم نعد نسمع بقيام الحمدانيين بغارات على جنوب بلاد الشام ، أو العكس . وعلى الرغم من عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين ، فقد استنجد سيف الدولة بالاخشيديين في الشام على اثر الهجوم الذي قام به الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس على حلب ، واستيلائه

عليها . فسارت قوة من دمشق وعلى رأسها ظالم بن السلال العقيلي — الذي كان يليها من قبل الامارة الاخشيدية — لمساندة سيف الدولة . وكان مسير هذه الحملة إلى شمال البلاد من ضمن الأسباب التي حملت نقفور على الرحيل عن حلب . او ربما كان هذا الأمر سبباً في أن بعض المؤرخين ذكروا أن الجيش الاخشيدي استطاع في أواخر أيام كافور أن ينشر نفوذ الاخشيديين في حلب ، وفي ولايات الثغور مثل طرسوس والمصيصة وغيرها (٩٣) .

* * *

٥ – المتاعب التي واجهت حكم الأخشيديين في الشام :

تعرضت سيادة الاخشيديين على بلاد الشام للخطر ، بسبب كثرة القوى السياسية التي تنازعت السيادة عليها في تلك الفترة . فالى جانب ماتعرضت له من خطر من قبل الحمدانيين ، أدى إلى حصر سلطتها على جنوب بلاد الشام ، فقد تعرضت أيضاً إلى ثورات تزعمها بعض أهالي الشام وزعماء القبائل العربية وثورات قام بها أهالي الذمة في البلاد ، إلى جانب أخطار خارجية من الطامعين في السيطرة عليها من أمثال محمد بن رائق الخزري ،والقرامطة . وسنتعرض لكل من هذه الأخطار على حدة :

– ثورات أهالي الشام وزعماء القبائل العربية :

لقي الاخشيديون في بلاد الشام بعض المقاومة من جانب بعض الثوار ، ولكنهم نجحوا في القضاء عليها . ومن هذه الثورات :

أ – ثورة أهالي الشام عقب وفاة محمد بن طغج الاخشيد :

قضى الاخشيد السنة الأخيرة من حكمه في الشام يدبر أمورها بعد

أن استقر السلام بينه وبين سيف الدولة . ولما مات في دمشق في ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٣٤ ﻫ / ٢٨ يونيو ٩٤٦ م —وهو في السادسة والستين من عمره — نقل إلى بيت المقدس ودفن فيها . وعلى الرغم من أن سياسة الاخشيد كانت حسنة مع جميع رعاياه(٩٤) ، إلا أن أهالي دمشق استغلوا موته وأشعلوا نيران ثورة عارمة ، ونهب العامة خزائن الأمير . والظاهر أنقسطاً وافراً من أموال الاخشيد لم تصل إلى أيدي العامة ، لأن الاخشيد كان يوصي بألا توضع هذه الأموال في صناديق ينشدها الثواروالصوص، بل في أكياس من الأمتعة لاينتبه إليها أحد . وأفادت هذه الفكرة في حفظ أمواله عند وفاته . إذ أمر كافور حين قامت الفتنة أن تلقى هذه الأكياس في بركة من الماء ، وظلت فيها حتى سكنت الفتنة . وقد شغلت هذه الفتنة التي اندلعت نارها بعـــد وفاة الاخشيد مباشرة رجاله عن دفنه ثلاثة أيام(٩٥).

وإلى جانب هذه الثورة ، فقد نشبت ثورات أقل أهمية منها : ثورة المهلهل العقيلي ، وثورة شبيب بن جرير العقيلي(٩٦) . وثورة محمد بن أحمد السلمي (٩٧) ، كما تعرضت كنيسة القيامة للنهب من قبل الصناجي والي بيت المقدس،بسبب مطامعه في أموال بطريرق بيت المقدس . وأهم من كل ذلك — منافسة محمد بن رائق أمير الأمراء :

ومما لاشك فيه أن هناك ظروفاً دعت ابن رائق إلى ترك مركز الخلافة في بغداد والتوجه بأنظاره نحو بلاد الشام . وتتلخص هـــذه الظروف فيما كان يسود مقر الخلافة العباسية من منافسات ومؤامرات للاستئثار بالنفوذ والاستيلاء على منصب أمير الأمراء . فقد كان ابن رائق في عداء مع بجكم ، وكان الأخير يقف له بالمرصاد ، مما أدى

به إلى التفكير في ترك بغداد ، والطمع في ولاية الشام يستقل بها ويجبي موارده‌ا لصالحه . وأن يكون في ولايته قريباً من مركز الخلافة . وصادف وجود من شجعه على ذلك . وحصل ابن رائق على تقليد من الخليفة يشمل طريق الفرات وديار مضر و جند قنسرين والعواصم (٩٨).

وهكذا فان ابن رائق ابتعد عن المنازعات التي كانت تتأجج نارها في بغداد من أجل منصب إمرة الأمراء . وحصل على حماية الخليفة لشخصه الذي خاطب بجكم حين أراد الاعتداء عليه قائلاً له : (هذا رجل قد أمنته وقلدته ناحية من النواحي فسمع وأطاع وما أمكنك منه) (٩٩) .

بدأت الاصطدامات بين ابن رائق والاخشيد منذ أن استولى ابن رائق على حلب في سنه ٣٢٧ ه / يناير ٩٣٩ م . واعتبر ذلك تهديداً لممتلكاته وخاصة حين طالبه ابن رائق بدفع مقدار من المال كجزية على ممتلكاته في الشام .

حاول الاخشيد في البدايه استرضاء ابن رائق بالمال ، ولكنه مالبث أن أدرك أن المال لن يكفي وأن غايه ابن رائق الاستيلاء على الشام . واتضحت غايته حين بدأ بالاستيلاء على الرقة وحلب وحمص ودمشق وغيرها من المدن والثغور ، وسار حتى دخل مدينة الرملة في آخر ذي الحجة سنه ٣٢٧ ه / سبتمبر ٩٣٩ م ، وانصرف أصحاب الاخشيد عنها بدون قتال (١٠٠).

أراد الاخشيد أن يستطلع رأي الخليفة في الأمر ، فكتب إلى ممثله في بغداد بذلك . ومثل رسول الاخشيدأمام الخليفة مقدماً رسالة سيده،

وكان مجلس الخليفة يضم بجكم أمير الأمراء ، فأنصت الخليفة ولم يتفوه بشيء ، وأجاب أمير الأمراء ، ولعل جوابه يعبر عن الوضع في بلدان الخلافة في تلك الفترة ، ويثبت عجز الخليفة عن حماية أي من الطرفين فقد قال بجكم : (من ضرب بالسيف ، وهزم صاحبه فالعمل له) . وليس هذا الأمر غريباً على الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وأمير الأمراء صاحب الأمر والنهي (١٠١) .

ثارت ثائرة الاخشيد حين علم بموقف الخليفة ، وتبدلت صلة المودة التي كانت تربطه بالخليفه العباسي إلى كراهية ، لدرجة أنه أصدر أوامره بقطع الخطبة للخليفة العباسي ، وذكر اسم الخليفة الفاطمي عوضاً عنه . على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا شيئاً عن تنفيذ ذلك(١٠٢) . ومن المرجح أن بعض أفراد حاشية الاخشيد عملوا على صرفه عن الدعوة للفاطميين ، وأوضحوا له أن هذا الأمر لايفيد إلا خصمه ابن رائق ، وأن ذلك قد يحمل الخليفة العباسي على عزله عن مصر وتقليدها لابن رائق .

وهكذا فان الاخشيد لم ير بداً من اعداد العدة لقتال ابن رائق ، فبعث باسطوله إلى السواحل الشامية ، وخرج على رأس جنده في محرم سنة ٣٢٨ ﻫ / اكتوبر ٩٣٩ م ، وسار حتى نزل مدينة الفرما . كما تقدمت طلائعه إلى الشام ، وكانت بين الفريقين مناوشة ، ثم سعى البعض بالصلح بينهما . وتم ذلك على أن تكون طبرية وشماليها من بلاد الشام لابن رائق . ثم عاد الاخشيد إلى مصر في جمادى الأولى سنه ٣٢٨ ﻫ / فبراير ٩٤٠ م (١٠٣) .

ولم يدم هذا الصلح طويلاً إذ مالبث ابن رائق أن نكث العهد ، وسار بجيشه من دمشق إلى أن وصل الرملة . وفشلت المحاولات السلمية لحقن الدماء ، وعند ذلك خرج الاخشيد على رأس جيشه إلى بلاد الشام، وقابل جيوش ابن رائق عند العريش في يوم الأربعاء منتصف شهر رمضان سنة ٣٢٨ ﻫ / ٢٥ يونيو ٩٤٠ م (١٠٤) . ووقعت معركة عظيمة انهزم فيها جيش الاخشيد في البداية . ولكن الهزيمة مالبثت أن تحولت إلى نصر ، بعد أن نجح الاخشيد في مباغتةابن رائق وجنوده ، فانسحب إلى دمشق بعد أن أسر من رجالهمايقارب٥٠٠ رجل (١٠٥) .

وأرسل الاخشيد الحسين بن طغج لمطاردة ابن رائق .فسرى إليهم ابن رائق في جماعة من الغلمان ، فكبسهم في منطقه اللجون . ففروا مولين الأدبار ، وقتل الحسين بن طغج وأسر وجوه قواده في ذي القعدة سنه ٣٢٨ ﻫ / اغسطس ٩٤٠ م وسار بهم ابن رائق إلى دمشق . ثم رأى أن يعمل على عقد صلح مع الاخشيد ، فحنط جثة أخيه القائد القتيل، وأرسلها إليه في تابوت مع ابنه مزاحم . وكتب إليه كتاباً يعزيه في أخيه ، ويعتذر عن قتله . ويعرض عليه استعداده لأن يفديه بابنه مزاحم فأكبر الاخشيد هذا العرض ، وأكرم الابن ورده إلى أبيه (١٠٦) .

وأفلحت الوساطة بالصلح بين الفريقين ، على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة ، وعلى أن يدفع الاخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعين ألف دينار(١٠٧) .

ولا نشك في أن الظروف المحيطة بالاخشيد هي التي دعته إلى عقد الصلح على هذا الشكل . فقد أصبح يخشى تهديد الفاطميين له ، حيث

أن قوتهم تزايدت في المغرب ، وأصبح في مقدورهم أن يهددوه في مصر . كما أنه كان يعرف مكانة ابن رائق ، ولا يريد أن يستمر في حرب معه ، إذ كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره على خصمه (١٠٨) .

وقد عد بعض المؤرخين هذه المعاهدة دليلاً على ضعف الاخشيد ، إذ تمّ توقيعها بينهما بعد أن كانت جيوش الاخشيد قد نجحت في الوصول إلى حلب . فيذكر ابن العديم(١٠٩) أن الاخشيد في محاولاته لابعاد ابن رائق عن بلاد الشام سير كافوراً من مصر يرافقه جيش كبير وأن هذا الجيش وصل إلى حلب ، وتمكن من هزيمة جيش ابن رائق. ثم عاد كافور القائد المنتصر إلى مصر بعد أن ولى على حلب مساور بن محمد الرومي . وللمتنبي شعر يذكر فيه هذه الحادثة . ويقال أن عساكر كافور ، أفسدوا في المناطق المحيطة بحلب ، وقطعوا الأشجار التي كانت بظاهرها ، وأنهم بالغوا في ايذاء أهاليها (١١٠) .

وقد ساعدت ظروف الخلافة العباسية السيئة ، والنزاع على منصب إمرة الأمراء في عودة بلاد الشام إلى الاخشيد.إذ تجددالنزاع بين بجكم والبريدي (١١١) ، وانتهى الأمر باغتيال بجكم على يد رجل من الأكراد في سنه ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ — ٩٤١ م، فكتبالخليفة المتقي لله إلى ابن رائق يخبرهبالأمر ، ويستدعيه إلى بغداد . فسار ابن رائق من دمشق في رمضان سنة ٣٢٩ هـ / يونيو ٩٤١ م ، بعد أن استخلف على أعماله في الشام ابنه الحسن . ولما وصل إلى الموصل حمل إليه ابن حمدان مائة ألف دينار ، فأخذها وسار إلى بغداد (١١٢) .

ولكن الأمور لم تستمر على هذا الشكل ، إذ مالبث البريدي أن احتل اقليم واسط ، وخرج ابن رائق لقتاله . وانتهى الأمر بعقد صلح بينهما يدفع البريدي له بموجبه جزية سنويه في نظير حكمه لواسط . ولكن الأتراك سرعان ماتخلوا عن ابن رائق ، كما نشبت الفتن في بغداد بسبب القحط والغلاء . ورأى البريدي أن يستغل الفرصة ، فأرسل جيشاً إلى بغداد هزم ابن رائق . فالتجأ كل من الخليفة المتقي وابن رائق إلى الموصل . يستنجدان بناصر الدولة (١١٣) .

ويبدو أنه كانت هناك حزازات وخلافات بين ابن رائق وابن حمدان . فاستغل الأخير فرصة عبور ابن رائق مع ابن الخليفة إليه ، فأمر غلمانه بقتله . ثم احتج أمام الخليفة بأنه فعل ذلك لأنه يتآمر عليه(١١٤) . وسار ناصر الدولة إلى بغداد ففر منها البريدي ، وتسلم ناصر الدولة إمرة الأمراء لمدة ثلاثة عشر شهراً . ثم قاومه الترك فاضطر إلى الرحيل منها . واختار الخليفة القائد توزون أميراً للأمراء . فدخل بغداد في رمضان سنه ٣٣١ هـ / مايو ٩٤٣ م (١١٥).

— القرامطة :

تعرضت سيادة الاخشيديين على بلاد الشام للخطر من جانب قرامطة البحرين. وقد بدأ هؤلاء بالغارة على بلاد الشام منذ سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨— ٩٢٩ م . وفي عهد السيادة الاخشيدية هاجم القرامطة بلاد الشام في سنه ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م ، وانتصروا على الاخشيديين في هذه الحملة التي تعرف بحملة طبرية . وقد تمكن جيش القرامطة بمعاونة الحمدانيين من احراز النصر على الحسن بن عبيد الله الذي كان يلي هذه البلاد ، ودفع للقرامطة مبلغاً مالياً كبيراً .

ثم قام القرامطة بحملة أخرى في سنه ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ — ٩٦٨ م ، عجز الحسن بن عبيد الله عن صدها ، فسقطت الرملة في أيديهم وتعهد لهم الحسن باتاوة سنوية(١١٦) قدرها ثلاثمائة الف دينار كل سنه (١١٧) . وبذلك امتد نفوذ القرامطة إلى بلاد الشام في أواخر عهد الاخشيديين .

ومن الملاحظ أن قرامطة البحرين حين هاجموا بلاد الشام ، هاجموا المناطق التابعه للاخشيديين دون المناطق التابعة للحمدانيين منها ، ويبدو أنه كان هناك صلة مودة وصداقة بين الحمدانيين والقرامطة . ومما يؤكد هذه الصداقه الرسائل المتبادلة بينهما ، ومن أشهرها تلك الرسالة التي حررها القاضي ابن عرافه ونائبه(١١٨) . بدأت العلاقات الطيبة بين الحمدانيين والقرامطة منذ أيام ناصر الدولة ، وتدعمت في عهد ابنه وخليفته أبي تغلب الذي لم يكتف بتقديم المساعدات المالية للقرامطة ، وانما قدم إليهم أيضاً مساعدات عسكرية(١١٩) . وأكثر من ذلك فقد كان سيف الدولة يشجع القرامطة على غزو بلاد الشام . والاستيلاء عليها . وخاصة بعد بدء خلافهم مع الفاطميين . فمما يذكر في ذلك أنه في سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ — ٩٦٢ م(١٢٠) . كتب القرامطة إلى سيف الدولة يستهدونه حديداً ، فقلع أبواب الرقة ، وأخذ كل حديد وجده بديار مضر ، حتى أنه أخذ موازين الباعة والبقالين ، وأرسلها إلى القرامطة . واستمر في الارسال حتى كتب له القرامطة قد استغنيناعنه . فأخذ القاضي أبو الحصين مابقي من الحديد الذي جمع وصاغه أبواباً لداره . ثم طلب القرامطة حديداً فبعث القاضي بأبواب داره بعد أن جمع إليها سائر ماقدر عليه من الحديد . وكان الحديد يحمل في الفرات إلى هيت ثم إلى هجر عن طريق البرية . وإن دل هذا على شيء ، فانما

يدل على أن سيف الدولة كان يمد القرامطة بالحديد لتسليح أنفسهم في نفس الوقت الذي كان فيه هؤلاء يهاجمون الاخشيديين في بلاد الشام . وقد يكون سيف الدولة قد قصد من امداد القرامطةبالحديدأن يجعل منهم حاجزاً بينه وبين الفاطميين في المغرب وفي مصر ان قدر لهم أن يحتلوها بعد المحاولات المتكررة التي قاموا بها للسيطرة على مصر ، وخوفاً من أطماعهم التي كانت تتعدى مصر إلى بلاد الشام ، لأن في ذلك تهديداً لسلطانه ، وخاصة أنه كان يشعر بظهور بوادر الضعف على موقف الاخشيديين في الشام ومصر (١٢١) .

هذا من جهه ، ومن جهة أخرى فاننا إذا ناقشنا كلمة « استهدوا» التي جاءت في كافة المصادر العربية ، لاتضح أن الحمدانيين حين قدموا الحديد للقرامطة ، قدموه كهبة منهم دون أن يطالبوهم بدفع قيمته . ومثل هذه الهدية لا تقدم إلا اذا كانت هناك صداقة عميقه ، ومصالح مشتركة بين الطرفين . وقد يعود سبب مساعدة الحمدانيين للقرامطة إلى العداء بين البويهيين والحمدانيين على حكم بلاد الشام .

ومن الملاحظ أيضاً أن سيف الدولة كان قد ولى بعض أفراد من القرامطة حكم مناطق في بلاد الشام .فقد تولى مروان القرمطي سواحل الشام من قبل سيف الدولة ، ومروان هذا هو الذي ساعد سيف الدولة حين توجه إلى آمد سنه ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ — ٩٥٠ م (١٢٢) .

ولابد لي من القول بأن موقف الحمدانيين بين القرامطة من جهة وكل من الاخشيديين ثم الفاطميين من جهة أخرى ، كان يخضع لصراع القوى في الشام ، قبل أن يخضع للموقف العقائدي المذهبي .فمن المعروف أن

القرامطة كانوا من أتباع الفاطميين ثم انقلبوا عليهم . وتشيع الحمدانيون أيضاً ولكنهم لم يكونوا من الاسماعيلية . وبمجرد أن فتح الفاطميون مصر أصبحوا خطراً على القرامطة والحمدانيين . فبدأ الصراع بينهم قوياً واضحاً متأثراً بالمصالح الخاصة أكثر من تأثره بالنواحي العقائدية والمذهبية .

* * *

٦ — نهاية الأماره الاخشيدية .

توفي الاخشيد ، وتولى حكم الامارة بعده ولداه أبو القاسم أو نوجور ثم أبو الحسن علي بن الاخشيد ، وكان كافور وصياً عليهما، وفي أثناء هذه الوصايه حكم كافور البلاد في قوة واقتدار ، كما يدل على ذلك صراعه مع الحمدانيين في الشام . ولما توفي أبو الحسن علي بن الاخشيد حكم كافور الامارة الاخشيدية باسمه زهاء سنتين وأربعة أشهر حتى وفاته في ٢٠ جمادى الأولى سنه ٣٥٧ هـ / ٢٣ ابريل ٩٦٨ م .

وبعد وفاته عقدت الولاية لأحمد بن علي بن الاخشيد وكان صبياً في الحادية عشرة من عمره ، ولم يبايعه الحسن بن عبيد الله أولاً ، بل أخذ البيعة لنفسه في الشام ، واستولى على ماكان لكافور من أموال في الرملة . ويبدو أن الأمور سارت في النهاية على أن يدعى لأحمد على منابر مصر والشام والحرمين ثم من بعده للحسن بن عبيد الله (١٢٣) . إلا أن الامارة الاخشيدية في مصر مالبثت أن سقطت في يد الفاطميين ثم تبعتها بلاد الشام . وبذلك فقد وضع الفاطميون حداً لسلطان الدولة الاخشيدية ، ويمكننا أن نلخص أسباب سقوط الدولة الاخشيدية بما يلي :

— الخلافات بين أفراد الأسرة الاخشيدية ، وتنافسهم فيما بينهم

على الوصول إلى عرش الامارة ، إلى جانب اختلاف القواد على تولي أمر الجند ، وتنافسهم على التسمي بالأمير ، وترقب الفرص لايقاع بعضهم ببعض ، وقد أدى ذلك إلى فرار قسم كبير من الجنود من مصر ، واللحاق بالحسن بن عبيد الله في الشام . ونتج عن ذلك قلة عدد جنود الاخشيد في مصر .

ـ وقد لعب ارتفاع الأسعار وتعذر الأقوات دوراً كبيراً في سقوط الامارة يتضح ذلك مما ذكره لنا المقريزي(١٢٤) إذ قال (مات كافور فكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير وانتهبت أسواق البلد . وأحرقت مواضع عديدة . فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات،حتى بيع القمح كل ويبة بدينار . واختلف العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن ابن عبيد الله بن طغج وهو يومئذ بالرملة . وكاتب الكثيرمنهم المعز لدين الله الفاطمي وعظم الارجاف بمسير القرامطة إلى مصر . وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب) .

وقد رافق اضطراب الأسعار وزيادة ثمن الحبوب وباء عظيم . امتد لفترة طويلةحددهاالأنطاكي من سنه ٣٥٣ ـ ٣٥٧ ﻫ / ٩٦٤ ـ ٩٦٨م، بينما يذكر المقريزي أنها دامت تسع سنين متتابعة ابتدأت من سنه٣٥٢ﻫ/ ٩٦٣ م . ويعزى سبب ذلك إلى انخفاض فيضان النيل . ومما يذكر أن الأمر تفاقم في سنه ٣٥٧ ﻫ / ٩٦٨ م وهلك الضعيف من الناس ، وأكلوا الجيفة ، وانتشر الوباء . وكانوايسقطون موتى من الجوع والمرض . حتى إنهم لم يتمكنوا من دفن كافة موتاهم . وكانوا يحفرون لهم حفراً

وينزل فيها عدد كبير ، ويردم عليهم التّراب من غير صلاة ولاغسل ولا كفن(١٢٥).

– كما عانت الدولة الاخشيديه المتاعب بسبب كثْرة الحروب التي اضطرت إلى خوضها . وكان آخر هذه الحروب مع القرامطة الذين أضعفوا مركزهم في بلاد الشام ، وبالتالي فقد ضعف مركزهم في مصر نفسها . وجاء الفاطميون فوجدوا البلاد على حالة شديدة من الضعف فسهل عليهم تحقيق أهدافهم في القضاء على الدولة الاخشيدية في مصر والشام وضمها إلى أملاكهم .

* * *

٧ – الأخطار التي واجهها الحمدانيون في بلاد الشام :

لاشك في أن أمور بلاد الشام لم تكن صافية للحمدانيين ، فقد واجهتهم أخطار متعددة تمكن الحمدانيون في حلب ، – وبشكل خاص زعميهم سيف الدولة – من القضاء عليها . ولكن ذلك أضعفهم وبدد قوتهم التي يجب أن توجه لأهم هذه الأخطار ، وهو الخطر البيزنطي . ومن هذه الأخطار التي واجهت الحمدانيين :

– عصيان موالي الحمدانيين عليهم :

لم يخلص معظم موالي الحمدانيين لأسيادهم ، وكثيراً ماأشعلوا نيران ثورات اضطرت الحمدانيين إلى تجهيز الجيوش لاخمادها،ومن هذه الثورات : ثورة نجا غلام سيف الدولة في حران ، الذي صادر أموال أهاليها ، وقوي بالأموال على الثورة . فقبض على عدد كبير من أهالي المدينة ، ثم وسع نطاق الثورة باستيلائه على ميافارقين ومدن أرمينية هامة مثل خلاط وملاذكرد وموش(١٢٦). وضاق سيف الدولة بثورة غلامه فتوجه إلى ميافارقين ، وما كاد يصل إليها حتى فر نجا من وجهه فاستعاد سيف الدولة البلاد والقلاع التي استولى عليها . وبدأ أصحاب الأخير يستأمنون إلى سيف الدولة ، كما استسلم نجا نفسه ،

فأكرمه سيف الدولة ، وأعاده إلى مركزه السابق . ولكن خدمه لم يلبثوا أن قتلوه في داره بميافارقين في ربيع الأول سنه ٣٥٣ هـ / مارس ٩٦٤ م (١٢٧) .

ومن هذه الثورات أيضاً ثورة رشيق النسيمي وابن الاهوازي في أنطاكية ، كان رشيق والياً على طرسوس لسيف الدولة ، وقائد قوات الثغور . إلا أنه اضطر إلى ترك مركزه والالتجاء إلى انطاكية ، على اثر استيلاء البيزنطيين على المصيصة وعين زربه وطرسوس . فاستولى على أنطاكيه بتحريض ابن الأهوازي ، وقطع خطبة سيف الدولة منها مستغلاً ضعف سلطته ، وادعى أنه كلف بادارة الثغور من قبل الخلافة العباسية . وحين علم أن سيف الدولة غائب عن حلب لفداء الأسرى سنة ٣٥٤ هـ ، سار رشيق إلى حلب وبرفقته ابن الأهوازي(١٢٨) . إلا انه مالبث أن تراجع عنها بمجرد سماعه نبأ وصول امدادات إليها . ثم قتل من قبل أصحابه .

وبموت رشيق النسيمي انتقل الأمر لابن الأهوازي في انطاكية ، فظلم الناس وجمع المال ، واستقل بأمر المدينة . فوجه إليه سيف الدولة الجيوش بقيادة قرعويه . وجرت بينه وبين ابن الأهوازي معركتان كانت الأولى على ابن الأهوازي ، ثم انهزم قرعويه في الجولة الثانية وعاد إلى حلب . إلا أنه مالبث أن انهزم أمام الجيش الذي قاده سيف الدولة بنفسه(١٢٩) . ثم كتب سيف الدولة إلى ابنه أبي المعالي يبشره بنصره ،

ويوضح له بأن تفاقم الثورة انما يرجع إلى انشغاله بأمر الفداء (١٣٠).

وكذلك عصى قرعويه مولاه سعد الدولة بن سيف الدولة ، مستغلاً الضعف الذي بدأ يدب في جسد الحمدانيين في حلب في عهده في سنه ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ - ٩٦٨ م . وقد عمل قرعويه على كسب ثقة الأهالي والجند ، فجدد القلعة وحصنها ، وعمر أسوار المدينة وقواها(١٣١). وبعد أن ضمن ولاء الجند والأهالي له أخرج سعد الدولة منها ، وقطع الدعاءله ، واستبد بالأمور دونه ، وحال دون عودته إليها . وبدأت منذ هذه اللحظة فترة مضطربة في تاريخ حلب ، ويكفي لابراز مدى اضطراب تاريخ حلب في هذه الفترة أن نعلم أنها كانت تتأرجح في ولائها بين البيزنطيين والعباسيين والفاطميين . وان البيزنطيين بقيادة ملكهم نقفور أخذوا يغيرون على بلاد الشام دون أن تتمكن القوات الحمدانية من صدهم . ويبدو أن اعتداء البيزنطيين على حلب سنة ٣٥٩ هـ وعقدهم معاهدة صفر أنهى مشكلة الخلاف على السلطة ، وعادت الخطبة لسعد الدولة في حلب ، إلا أنه آثر البقاء في حمص(١٣٢) .

- ثورات بعض الحمدانيين - التنافس على الحكم .

وكانت الخلافات بين الحمدانيين والتنافس بينهم على تسلم الإمارة أحد هذه الأخطار. فمما يعزى إلى سعد الدولة قتله لخاله وابن عمه أبي أبي فراس بن أبي العلاء الحمداني الشاعر سنه ٣٥٧هـ/٩٦٧-٩٦٨م (١٣٣) لأنه عزم على التغلب على حمص . كما نافس هبة الله بن ناصر الدولة عمه سيف الدولة ، وأراد أن يستولي على أملاك عمه ، مستغلاً المرض الذي اصاب سيف الدولة في أخريات أيامه . ووجد أن الفرصة

صالحة له حين قام سيف الدولة باحدى غزواته ، ولم يستطع مغادرة طرسوس لمرضه . فأعلن ان عمه قد قضى نحبه ، وطلب من أهالي حران أن يكونوا سلماً لمن سالمه ، وحرباً لمن حاربه ، فحلفوا له واستثنوا عمه من اليمين(١٣٤).

— هجرة قبيلة بني حبيب واعتداءاتها على حدود الشام الشمالية .

عسف الحمدانيون برعاياهم من أجل مصادرة الأموال . فجلا نتيجه لذلك كثير من أهالي البلاد التي كانت تحت سيطرتهم . ومن هؤلاء بنو حبيب الذين التجؤوا إلى البيزنطيين وتنصروا(١٣٥) . ولشدة حقدهم على الحمدانيين قاموا بغارات انتقامية على أرض المسلمين ، واستولوا على بعض معاقلها الهامة مثل حصن منصور وحصن زياد ، وحاصروا كفرتوثا ودارا . كما أعادوا الكرة مراراً(١٣٦) . ولا بد أن يكون الموقف قد بلغ حداً لايحتمل حتى أدى إلى هجرة قبيلة بأسرها من موطنها إلى بلاد أجنبية ، ودعا إلى مفارقة هؤلاء لدينهم في وقت كان المسلمون يشمخون بأنوفهم ويعتزون باسلامهم . وينظرون بازدراء إلى النصرانية .

— ثورة المترفع القرمطي :

في سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ — ٩٤٨ م ظهر رجل من القرامطة يقال له المترفع ، ويلقب بالهادي . دعا إلى نفسه فتبعته قبائل من العرب من بينها طيء وكلب . وورد الخبر إلى حلب ، فسار سيف الدولة إلى القرمطي ، والتقى معه بوادي العرب على ماء يقال له أمهين على نحو

خمسين ميلاً من حمص . فانهزم القرمطي وقتل وأخذ رأسه . كما قتل عدد كبير من أصحابه حتى لم ينج منهم إلا القليل (١٣٧) .

ـ موقف أعراب الشام من الحمدانيين .

كانت الأعراب في الشام ـ كعادة كل الأعراب ـ يحبون السلب والنهب ويصعب عليهم الانضباط تحت قبضة السلطة الحاكمة . وفي حالة نشوب نزاع بين فريقين كان الأعراب يسيرون مع من يدفع لهم أكثر ، وفي الطريق الذي يحقق لهم سلباً ونهباً أكثر . ولهذا السبب بالذات كثيراً ماتسببوا في هزيمة الجيش الذي يسيرون معه . حدث هذا لسيف الدولة مع قبيلتي قشير ونمير ، حين كان يحارب توزون . فنهبتا سواد سيف الدولة عوضاً عن قتال أعدائه . وانشغل سيف الدولة بقتالهما وانهزم أمام خصمه بسببهما (١٣٨).

وفي أوائل سنة ٣٤٣ هـ / مايو ٩٥٤ م هاجم بنو كلاب نواحي بالس . فسار سيف الدولة الحمداني خلفهم ، يرافقه أبو الطيب المتنبي ، فأوقع بهم ليلاً وانتصر عليهم . ويبدو من الحروب التي اضطر سيف الدولة الحمداني إلى خوضها ضد الأعراب أنه كان قاسياً في معاملتهم ، أو أنه لم يكن يهتم بأمورهم ومطالبهم ، حتى إن قبائل متعددة تعود في نسبها إلى عامر بن صعصعة تجمعوا للوقوف في وجهه ، ومن هؤلاء عقيل وقشير وعجلان وأولاد كعب بن ربيعة بن عامر . وعسكر هؤلاء بمروج سلمية ، بينما عسكر بنو كلاب ، ومن انضم إليهم بالقرب من خناصرة . واتفق هؤلاء واولئك على اشغاله من كل ناحية ، وأن ينهبوا يداً واحدة إذا قصد طائفة منهم(١٣٩) . وقاتلهم

سيف الدولة حتى هزمهم ،ثم أقبل وفد من مشايخهم إليه يطلبون منه قبول طاعتهم ، وانضمامهم إليه . فوافق على ذلك في سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م ولكن هذا الاتفاق مالبث أن انفض وثارت القبائل ضده ثانية في تدمر ، ففاجأ جموعهم فيها ، فقتل وأسر وحوى المال ، وصفح عمن ملكه من النساء . وسجل الشعراء انتصار سيف الدولة على القبائل العربية ، فأنشده أبو فراس وأنشده المتنبي ، ومما قاله في ذلك :

طوال قنا تطاعنها قصـــار وقطرك في ندى ووغى بحار

وأخذ للحـــواضر والبوادي بضبط لم تعـوده نزار(١٤٠)

– الحروب بين الحمدانيين والبيزنطيين :

كان لموقع الامارة الحمدانية في حلب والموصل على الحدود البيزنطية، أثر كبير في قيام الامارة بدورها الكبير في صد البيزنطيين . وخاصة وأنه صادف في هذه الفترة انتعاش الامبراطورية البيزنطية ، وظهور قادة عملوا على استرجاع مااستطاعوا من بلاد الشام .

وكان أقدر رجال الحمدانيين في قتال البيزنطيين سيف الدولة الحمداني . ويقال أنه غزا الأراضي البيزنطية المجاورة لامارته أربعين غزوة انتصر في بعضها ، وحلت به الهزيمة في بعضها الآخر . وقد أصبحت كثير من مناطق الشام مسرحاً الحروب التي دارت بين الحمدانيين والبيزنطيين في ذلك العصر .

وفي نهاية عصر سيف الدولة ، شعر البيزنطيون ، بقوتهم ، وضعف موقف الحمدانيين–نتيجة لأسباب متعددة داخلية وخارجية – فأخذوا يصولون ويجولون ويقتطعون أجزاءمنبلاد الشام ، مما اضطر سعيف الدولة الحمداني إلى عقد معاهدة كانت بنودها في صالح البيزنطيين.

٨ — الفتح الفاطمي لبلاد الشام :

كانت هذه أوضاع الشام عندما فكر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بفتحها . حمدانيون واخشيديون يتصارعون ، وليس هذا فحسب بل إن الحمدانيين أنفسهم كانوا في خلاف مع مواليهم منذ وفاة سيف الدولة . وقرامطة يحاولون السيطرة على البلاد والحصول على أكبر كسب مادي منها . وبيزنطيون قد نهضوا في عهد الأسرة المقدونية وحاولوا أن يستغلوا هذه الظروف فأغاروا على بلاد الشام . واستطاعوا اقتطاع أجزاء منها ، وفرض نفوذهم عليها . فضلا عن المتاعب والأخطار الداخلية التي تعرض لها نفوذ الاخشيديين والحمدانيين في بلاد الشام .

ولنحاول أن نستعرض في شيء من الايجاز العوامل التي أدت إلى قيام الفاطميين بفتح بلاد الشام ، وأثر ذلك على الفتح وعلى السيادة الفاطمية على بلاد الشام . وهذه العوامل هي :

١ — رغبة الفاطميين — وخاصة المعز — في احتلال بلدان الخلافة الشرقية ، بعد ان سنحت له الظروف بفتح مصر . فتوجه جنوده لفتح الشام . وكان في نية الفاطميين أن يجعلوا منها جسراً يعبرون منه لفتح بغداد نفسها . وكان فتح الشام حلم الخليفة المعز . وكثيراً ما منى أنصاره بفتحها واستعادة سلمية . ويظهر لنا ذلك مما دار بين المعز وأنصاره عندما قدم لهم طبقاً من التفاح قائلاً لهم : (هذا تفاح جاءنا من المشرق من البلد الذي خرج منه المهدي والقائم صلوات الله عليهما ، ومن الضياع التي كانت لهما . ودفع إلى كل واحد منا شيئاً منه وقال : تبركوا به.

فانه نرجو إن شاء الله أن تجنوه معنا بأيديكم ، وقد أنجز الله لنا وعده ، وأهلك عدونا بفضله) .

وتتأكد رغبة الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية وجعل بغداد عاصمة لهم بعد أن تم لهم فتح مصر ، في ذلك الحديث الذي دار بين المعز في مصر ورسول الامبراطور البيزنطي قائلاً له : (أتذكر إذا أتيتني رسولاً وأنا بالمهدية ، فقلت لك لتدخان علي وأنا بمصر مالكاً لها . وأنا أقول لك لتدخلن علي بغداد وأنا خليفة) (١٤٢) .

٢ – الضرورة السياسية والحربية كانت تقتضي من الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر – أن يولوا وجوههم شطر الشام . ولم تخف تلك الحقيقة عن جوهر الصقلي(١٤٣) ، الذي كان يرى انه لابد من تأمين حدود مصر من الشمال الشرقي للوقوف في وجه البيزنطيين والقرامطة ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بفتح الشام . كما أن فتح الشام سوف يهيىء للفاطميين من الناحية البحرية السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (١٤٤) .

وقد تضمن كتاب الأمان الذي أعلنه للمصريين إشارة واضحة إلى خطر القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشام ، وأوقعوا الهزيمة بقوات الاخشيديين سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م وأخذوا يهددون مصر(١٤٥).

٣ – المنافع الاقتصادية التي يمكن أن تجنيها الدولة الفاطمية من خيرات بلاد الشام . وقد كانت حاصلاتها متممة لحاصلات مصر .

٤ – أراد جوهر الصقلي أن يبعد جعفر بن فلاح عن مصر خشية أن ينافسه في حكمها ، لما اشتهر به جعفر من الشجاعة وحسن القيادة ، يتضح

ذلك جلياً بعد أن تم لجعفر فتح دمشق ، اذ أنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب مباشرة . فغضب المعز لذلك ، ورد كتبه كما هي مختومة(١٤٦).

٥ — أراد المعز أن يظهر نفسه بأنه أكثر حماسة من العباسيين في الدفاع عن الاسلام ، ومواجهة البيزنطيين ، وخاصة حين بدا ضعف العباسيين وعجزهم عن الوقوف في وجههم ، كما حاول أن يبرز أمام سكان الثغور والمناطق المجاورة لها كمخلص لهم من قبضة البيزنطيين ، وقد أنشد ابن هانيء مخاطباً المعز مبيناً الأوضاع في بلاد الشام والعراق في تلك الفترة وضعف القائمين في الأمر عن حمايتها فقال :

الشام قد أودى وأودى أهله   إلا قليلاً والحجاز على شفا(١٤٧)

* * *

وبعد أن تم فتح مصر لجوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ ﻫ / ٩٦٨ — ٩٦٩ م ، وتمكن من تثبيت أقدامه فيها ، بدأ يفكر جدياً في فتح بلاد الشام ، كمقدمة للسيطرة على العراق والقضاء على الدولة العباسية ، ولتحقيق ذلك سير جوهر الصقلي القائد جعفر بن فلاح إلى الشام لفتحها . وقد حارب ابن فلاح الاخشيديين في الشام في ثلاث معارك كتب له النصر فيها جميعاً . كانت الأولى في الرملة مع الحسن الاخشيدي ، الذي انهزم أمام وطأة جند (١٤٨) الفاطميين في ذي الحجة سنة ٣٥٨ ﻫ / اكتوبر ٩٦٩ م ، ووقع الحسن أسيراً في يد جعفر بن فلاح . هذا ويمكننا أن نرد هزيمة الحسن الاخشيدي إلى العوامل الآتية :

١ — إن كثرة حروبه مع القرامطة ذهبت بقوته وأضعفته ، وخاصة الهزيمة التي لقيها قبل قتاله للفاطميين مباشرة . إذ انه حين تأهب لحرب الفاطميين اللذين احتلوا مصر ، واتجه إلى الرملة ، وردت إليه الأخبار بأن القرامطة قد ساروا من بلدهم قاصدين إليه فلقيهم الحسن الاخشيدي ، إلا أنه انهزم أمامهم ، فصالحهم على مبلغ من المال وصاهرهم. وكان لهذه الهزيمة أكبر الأثر في نفس الفاطميين الذين استصغروا شأن الحسن واستضعفوه وأرسلوا إليه جيوشهم .

٢ — تقاعس رجاله عنه ، وخيانتهم له . فتقاعد شمولا في دمشق عن مده بالمعونة ، ويقال بأنه كاتب جوهراً ووعده المساعدة . كما انضم ابن ملهم والي طبرية إلى جعفر ، وسار سيرتهما الصباحي والي بيت المقدس .

٣ — سياسة ابن فلاح في استمالة ولاة الأعمال ، فقد كان يمنيهم في كتبه التي أرسلها إليهم ، ويعدهم بالاحسان إذا مادخلوا في طاعة المعز (١٤٩) .

أما المرحلة الثانية فهي فتح طبرية . ولم يجد ابن فلاح كبير مقاومة ، لخوف القائمين على الأمر منه ، وبذلك دخلها دون بذل مجهود يذكر (١٥٠). ثم بدأت المرحلة الثالثة بالتحرك نحو دمشق . ولا تخفى أهمية دمشق بالنسبة للفاطميين ، إذ يمكن اتخاذها مركزاً هاماً للانطلاق منها نحو بغداد . وقد ألم الذعر بأهالي المدينة بعد أن عرفوا انتصارات الفاطميين ورأوا أن يرسلوا إلى جعفر وهو مايزال في طبرية جماعة من كبار رجالهم يطلبون منه الأمان ، فلم يحسن جنود جعفر استقبالهم ، بل سابوهم

ماعليهم ، وهددوهم بالمسير إلى دمشق . فعادوا دون أمل خائبين ، وأظهروا لأهالي دمشق مافعله جنود الفاطميين بهم فاستاؤوا ونفروا منهم (١٥١) .

وقام جعفر بسياسة ضرب القبائل ببعضها . وأراد أن يزيح من طريقه إلى دمشق بني عقيل ، وزعيمهم ظالم بن موهوب العقيلي ، الذين كانوا يسيطرون على حوران والبثنية(١٥٢). فاستغل ولاء قبائل مرة وفزارة له وأرسلهم لقتال بني عقيل ، وأتبعهم بجنود من الفاطميين يساعدونهم إذا اقتضى الأمر ذلك . واستطاعت مرة وفزارة الانتصار على بني عقيل ، وانهزم هؤلاء فارين شمالاً نحو حمص ، فتبعوهم إليها . وفي أثناء عودتهم مالوا إلى غوطة دمشق فنزلوا بظاهرها ، وبدأوا بالسلب والنهب . فثار عليهم أهالي دمشق وقاتلوهم وقتلوا منهم عدداً كثيراً . وكانت هذه أول أعمال أهالي دمشق العدائية ضد الفاطميين وأنصارهم من القبائل .

هذا ويجب أن لاننسى هنا أن نذكر ماتميزت به هذه المرحلة الأخيرة من الفتح الفاطمي لبلاد الشام — فتح دمشق — من مقاومة شعبية شاملة ، قادها أهالي المدينة في وجه جعفر وجنوده . فقد توحدت كلمة الأهالي على قتالهم ، على الرغم من أنهم أضحوا دون أمير يدير شؤونهم ويوحد كلمتهم بعد فرار شمول الاخشيدي منها والتجائه إلى ابن فلاح . وقد تركها وترك الأهالي بها وهم بحاجة شديدة إلى وال أو أمير يقودهم . وكان لذلك أثر كبير في انتشار الفوضى في المدينة ، وسيطرة الأحداث وحاملي السلاح ، الذين قاموا بدور كبير في هذا

الصراع(١٥٣) . وقد دارت رحى الحرب بين جنود جعفر وأهالي دمشق ، انتهت بهزيمة أهالي دمشق بعد أن صمدوا بضعة أيام في وجه ابن فلاح وجنوده ، ومن انضم إليه من القبائل العربية في الشـــام ، وعلى الرغم من هذا الصمود ، فقد أدرك أهالي دمشق أنه لاقدرة لهم على الوقوف في وجه الجند الفاطمي ، وأرادوا عقد صلح مع ابن فلاح ، فأرسلوا إليه بعض رجالهم فأهينوا . وتكررت اعتداءاتهم على الأهالي. وكثر عبثهم وسوء معاملتهم لهم ، حتى سخط عليهم أهالي دمشق(١٥٤)

ومهما يكن من أمر فان ابن فلاح استطاع دخول دمشق في محرم سنة ٣٥٩ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ٩٦٩ م ، وأقام الخطبة فيها للمعز الفاطمي. وبدأت منذ ذلك الحين سلسلة من الثورات المتتالية في دمشق التي كان يذكي نارها عدة أسباب ، ويلهبها الخلاف المذهبي ، ولم يرضخوا للفاطميين إلا بقوة السلاح التي كانت دائماً وأبداً مسلطة فوق رؤوسهم(١٥٥) . فثاروا برئاسة الشريف بن أبي يعلي الذي جمع حوله أحداث دمشق وعوامها(١٥٦) . فاضطر ابن فلاح ، وكان بالرملة ، العودة لقتال الثائرين في دمشق . فلم يصمدوا طويلاً ، بل انهزم رئيسهم فانهزموا بانهزامه(١٥٧) . وعندما رأى الأهالي ذلك ، شعروا بعجزهم عن مقاومة جعفر ، فعادوا لطلب الصلح فمنحه لهم . ولكن عساكره عبثت في دمشق ، ونهبت المنازل ، فعاد السكان إلى الثورة ، ولكنها كمثيلاتها لم تستطع الثبات أمام جيوش ابن فلاح المدججة بالسلاح ، فعاد الأهالي لطلب الأمان وذلك في محرم سنة ٣٦٠هـ/تشرين الثاني نوفمبر ٩٧٠ م .

لم ينقطع عبث جنود ابن فلاح بالأهالي ولا نهبهم وسلبهم لهم . ويظهر أن ذلك يعود إلى عدم اصدار جعفر الأوامر الصارمة لجنوده، التي يتلوها العقاب لمن يخالفها ، وتنبيههم إلى عدم التعرض للاهالي بسوء . كما يحتمل أنه كان يأمرهم بالكف عن ذلك فلا يطيعونه ، ولا يأتمرون بأمره لقلة أعطياته لهم . فقد قام جنوده بعد هذه الاتفاق الأخير بنهب الأهالي ، وانتهاك حرمة المنازل وسلب مافيها . ولم يكن باستطاعة أهالي دمشق السكوت على مثل هذه الأعمال ، فثاروا عليهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم وخاف الأهالي من انتقام جعفر فأرسلوا إليه مشايخ البلد لطلب الصلح . فأنكر عليهم ذلك، وقال لهم (دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم) وهددهم باستعمال العنف . ولم يعف عنهم إلا مقابل دفع دية من قتل من رجاله وكانت كبيرة جداً ، حتى أنه لما جمعت أفقرت الأهالي(١٥٨) . وقام جعفر بعد ذلك بالقضاء على زعماء الفتنة ، وضرب أعناقهم ، وعلق رؤوسهم على الأبواب ، وقد بدا من خلال ذلك قلة خبرته السياسية ، مما دعا باقي الزعماء في دمشق ورؤساء القبائل في الشام إلى الفرار ، ومن هؤلاء ظالم بن موهوب العقيلي الذي لجأ إلى القرامطة، وأوغر صدورهم ضد الفاطميين وحمسهم على قتالهم . كذلك لجأ عدد من الاخشيدية والكافورية وزعمائهم إلى الحمدانيين ، ولعبوا دوراً في تحريضهم ضد الفاطميين .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فان ابن فلاح استطاع أن يقيم الخطبة في دمشق للخليفة الفاطمي المعز بدلاً من الخليفة العباسي . ولكن استيلاءه على دمشق لم يسمح له ببسط سلطانه على جميع أرجاء الشام . فقد اعترضته عدة مشاكل لم يستطع التغلب عليها .

فالحمدانيون ومن لجأ إليهم من الاخشيديين في الشمال في حلب كانوا يناوئون الفاطميين من حين لآخر . ويرفعون العداء في وجوههم بالسيف ويحتمون بالبيزنطيين إذا وجدوا ضرورة لذلك (١٥٩) . ولولا حماية البيزنطيين للحمدانيين في فترة الضعف هذه لما استطاعوا الاستمرار في مناوأة الفاطميين ، ومنعهم من بسط نفوذهم على شمال الشام . كما كان البيزنطيون يهددون المناطق الشمالية ومدن الساحل . وكان للقرامطة بعض النفوذ في بلاد الشام منذ أن أغاروا عليها سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ — ٩٦٨ م . ولا يخفى إلى جانب هذا ماأدت إليه ثورات الأهالي التي قامت في وجه الفاطميين من عدم استقرار الأحوال لهم .

وقد تكفل الحمدانيون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بصد غارات البيزنطيين . ولولا الجهود التي بذلها الحمدانيون في هذه السبيل ، لاستولى البيزنطيون على بلاد الشام في غفلة من العباسيين . فقد قوي البيزنطيون منذ أن اعتلى عرشهم نقفور فوكاس ، فتقدموا إلى حدود بلاد الشام الشمالية . وقد أصبحت حلب تابعة لنفوذهم منذ أن وقع قرعوية معهم اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ / كانون الأول ديسمبر ٩٦٩ م . ولكن سعد الدولة مالبث أن رفض تلك الاتفاقية في أول الأمر ، فتقدم البيزنطيون في أملاكه(١٦٠).

ولم يكن رفض سعد الدولة للاتفاقية هو وحده الذي دعا البيزنطيين إلى ذلك، فقد أقلقهم ازدياد نفوذ الفاطميين في بلاد الشام ، وشعروا أنهم بنفوذهم هذا يهددون الحدود البيزنطية في الوقت الذي كان البيزنطيون قد احتلوا انطاكية ، واتخذوها قاعدة لانطلاقهم داخل الأراضي الاسلامية . ولما كان الفاطميون يريدون أن يظهروا بمظهر حماة الاسلام

والبلاد الاسلامية دون الخلافة العباسية فقد عمل ابن فلاح على استرداد انطاكية وأرسل المذلك حملة بقيادة غلامه فتوح الذي نازلها خمسة أشهر، ولكن انطاكية استعصت عليه ، ولم تستطع قواته أن تحقق أهدافها، واضطر للعودة عنها وفك الحصار بعد وصول الحسن الأعصم إلى بلاد الشام(١٦١).

وقد أدى هجوم الفاطميين على انطاكية إلى اتخاذ الامبراطور تزيمكس قراره باسترجاع بلاد الشام ، واستعادة بيت المقدس(١٦٢).

كان استيلاء الفاطميين على دمشق نقطة تحول في العلاقة بين الفاطميين من جهة ، وكل من القرامطة والحمدانيين من جهة أخرى . فمن المعروف ان القرامطة حرصوا منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على المحافظة على علاقاتهم الودية مع الفاطميين ، لدرجة أنهم سمحوا لهم بالتدخل في شؤونهم الداخلية . فقد تولى احمد ابن سعيد الجنابي سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ – ٩٤٤ م منصبه من قبل الخليفة الفاطمي في بلاد المغرب . كما اتفقت غارات القرامطة على أراضي الدولة العباسية مع حملات الفاطميين على مصر ليتيسر لهم فتحها(١٦٣). ولكن القرامطة ساءهم احتلال الفاطميين لبلاد الشام ، وانقطاع الجزية التي كانوا يأخذونها من الاخشيديين . ولما كان القرامطة يحرصون على هذه الجزية فانهم وقعوا في عداء وقتال مع الفاطميين .

أما الحمدانيون فانهم كانوا يطمحون إلى السيادة والاستقلال ولم يقنعوا بالتبعية للفاطميين وبالتالي فانهم كانوا يخشون احتلال الفاطميين لبلاد الشام ، لأنهم كانوا يرون في الخلافة الفاطمية دولة طموحاً ستبذل الجهد للاطاحة بعرشهم . ولهذا اصطدمت مطامع

الطرفين وبدأ بذلك العداء السافر بين الحمدانيين والفاطميين . فأخذ الحمدانيون يكيدون لجعفر بن فلاح ، ويساعدون القرامطة ضده . وخاصة بعد أن هدد أبا تغلب الحمداني بالمسير إليه إذا لم يتفق معه على إقامة الدعوة الفاطمية في بلاد الشام(١٦٤).

وهكذا نرى أن المصالح المتعارضة لكل من هذه القوى هي التي كانت تحدد موقفها واتجاهها السياسي. ويمكننا أن نقول أن حكم الفاطميين في بلاد الشام كان قلقاً ومضطرباً . فقد تنازعت النفوذ على بلاد الشام ـ خلال حكمهم له ـ قوى عديدة تمثلت في القرامطة والحمدانيين والترك والبيزنطيين . كما ان هذه الحالة شجعت القبائل العربية في جنوب ووسط الشام على أن تحاول تدعيم قوتها القبلية وبسط سيادتها على مناطق نفوذها . كما أن أهالي دمشق لم يرضخوا للنفوذ الفاطمي بل ثاروا عليه عدة مرات .

* * *

حواشي الباب الثالث

(١) يرد اسمه في المصادر والمراجع باختلاف فبعضهم يذكره ابراهيم بن الخليج أو الخليجي ، أو محمد بن علي الخليج أو ابن علي الخلنجي . انظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١١ — سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٧٧ — سيدة كاشف : مصر في عهد الاخشيديين ، ص ٢٠

(٢) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٤٧ — سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢٠

(٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢١

(٤) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٢٩ — سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ والنويرة ناحية بمصر : انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٨

(٥) الباز العريني : الشرق الأوسط ، طبعة ١٩٦٣ ، جزء ١ ، ص ١٤

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٣ — كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ص ٩٢ — ٩٣ وص ٢١١ — سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ٦٥

(٧) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٣٠

(٨) عليان : المرجع السابق ، ص ٩٩ . وتذكر بعض المصادر بأنه تسمى عبيد الله ابن سعيد . انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ — ١١٣ — العيون والحدائق ، جزء ٤ ، قسم ١ ، ص ١١٦

(٩) ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٨١ — عليان : المرجع السابق ، ص ٩٩

(١٠) المسعودي : التنبيه والأشراف ، ص ٣٧٣ — عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ١٠ — ١١

(١١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٧

(١٢) المسعودي : التنبيه والأشراف ، ص ٢٧٤ - عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ١١ - ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٨

(١٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٣-ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٨ - عليان : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(١٤) عليان : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(١٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦، ص ١١٣ - ثابت بن سنان وابن العديم: المصدر السابق ، ص ٢٨-٢٩ وص ٣١-٣٢- ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٨٤

(١٦) المسعودي: التنبيه والا شراف ، ص ٣٧٥- ٣٧٦- ابن الجوزي: المصدر السابق، جزء ٦ ، ص ٥٩ - ٦٠ والهبير رمل زرود في طريق مكة انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة ليبزغ ، جزء ٤ ، ص ٩٥١

(١٧) ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ وص ٢٥

(١٨) عليان : المرجع السابق ، ص ١٠٣

(١٩) عن نشوء قرامطة البحرين . انظر :

Bulletin de L'institut Francais D'archéologie Orientale 1960 . ، Tome LIx, pp. 29 — 47

(٢٠) المسعودي : التنبيه والأشراف ، ص ص ٣٣٣ - ٣٣٤ - الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٥٥ - ٥٦

(٢١) ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ص ص ٥١ - ٥٢

(٢٢) الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ - ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٢٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٠٨ - آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٩١ - ٩٢

(٢٤) انظر فيما بعد الباب الخامس

(٢٥) Lane Poole : the Mohammadan Dynasties . ، p 90

(٢٦) عن أصل الاخشيديين : انظر : ابن سعيد : المصدر السابق ، ١٤٩ - ابن

خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٧ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢١٢

(٢٧) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٩ – ابن ظافر : الدول المنقطعة ، ورقة ٣٤

(٢٨) انظر فيما سبق الباب الثاني

(٢٩) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ص ٥٨ – ٦٠

(٣٠) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥١ – ١٥٢ – ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٧ – ١٤٨– طه بدر : المرجع السابق ، ص ١٦٩ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٠

(٣١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٢ – حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ١٣٦ . ولي تكين مصر ثلاث مرات الأولى من سنة ٢٩٧ – ٣٠٢ ه والثانية من سنة ٣٠٧ – ٣٠٩ ه ، والثالثة من سنة ٣١١ – ٣٢١ ه .

(٣٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٢ – ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٨ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٦١ – ٦٢

(٣٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٣ – أبو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ٨٨ – حسن محمود وأحمد الشريف : المرجع السابق ، ص ٤٣٧

(٣٤) Canard : Une Lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid ., Aleger 1936 ., Tome II ., p. I و

ويذكر أبو الفداء في تاريخه ، جزء ٢ ، ص ٨٨ بأن ولايته على دمشق كانت سنة ٣١٨ه

(٣٥) انظر فيما بعد الباب الخامس

(٣٦) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٦ – ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨– الطولوني : النزهةالسنية ، ص ١٣٣ – سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٦١ – ٦٢

(٣٧) مسكويه : تجارب الأمم،مطبعة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ ، جزء ١ ، ص ٣٣٢ – ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٨ – أبو الفداء : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٨ – Canard : op. cit ., p. I

(٣٨) انظر مايكتبه ابن الجوزي (المنتظم ، جزء ٦ ، ص ٢٨٨)عن ضعف الخلافة في هذه الفترة .

(٣٩) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥١ — كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢١٣

(٤٠) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ إلى ٣٣٣ ﻫ من كتاب الأوراق مطبعة الصاوي مصر ١٩٣٥ ، ص ٤٤

(٤١) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٥٦ — حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ٤٣٨

(٤٢) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٧٥ ص ٣٦٠ — حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١١٩ — ١٢٠

(٤٣) انظر الهمذاني : المصدر السابق ، ص ١٣٦ — ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٣٨— النويري : المصدر السابق ، جزء ٢١ ، ورقة ٨٥

(٤٤) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٨٥

(٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٧

(٤٦) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩١ — أما ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٧ فيذكر ان الاخشيدعبر الفرات إلى الرقة في محرم سنة ٣٣٣ ﻫ ، ولم يذكر أن الخليفة هو الذي عبر إليه .

(٤٧) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٤٥

(٤٨) الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٨٣ — ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٧ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٩ — النويري : المصدر السابق ، جزء ٢١ ، ورقة ٨٦

(٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٧ — حسن محمود وأحمد الشريف : العالم الاسلامي ، ص ٤٣٩ — طه بدر : المرجع السابق ، ص ١٧١

(٥٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٨ وص ١١١

(٥١) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩— ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٧٦ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٩

(٥٢) الكر : مكيال لأهل العراق يساوي ستين قفيزاً ، والقفيز ثمانيةمكاكيك ، والمكوك صاع ونصف وهو ثلاث كيلجات . والكر بالمصري يساوي أربعين اردباً . انظر لسان العرب لابن منظور ، جزء ٦ ، ص ٤٥١ — ٤٥٢

(٥٣) النويري : المصدر السابق ، جزء ٢١ ، ورقة ٨٣

(٥٤) انظر فيما بعد

(٥٥) وصفي زكريا : عشائر الشام ، جزء ١ ، ص ٨١

(٥٦) يسمي العرب بلاد مابين النهرين العليا بالجزيرة لأن أعالي دجلة والفرات تكتنف سهولها . وكان هذا الاقليم ينقسم إلى ديار ثلاث وهي ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر نسبة إلى القبائل العربية ربيعة ومضر وبكر التي نزلت هذا الاقليم قبل الاسلام. فعرف كل من هذه الديار بقبيلته . وكانت الموصل على دجلة أجل مدن ديار ربيعة، والرقة على الفرات قاعدة ديار مضر ، وآمد في اعالي دجلة أكبر مدن ديار بكر . انظر : لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة بغداد ١٩٤٥ ، ص ١١٤

(٥٧) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، طبعة دار الكتب ١٩٥٥ ، جزء ٨ ، ص ٧٢

(٥٨) ابن خلدون : المصدر السابق، جزء ٤ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ — القلقشندي: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٦ — عمر رضا كحالة : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٢

(٥٩) عمر رضا كحالة : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٢ — ١٢٣

(٦٠) ابراهيم أحمد العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٤ — ١٠٥ — حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ٤٤٢

(٦١) weit: — Combridge Medieval History., vol.Iv., P 69
L'Egypt Arabe., p. 191

المقصود بذلك أنطاكية وبيروت وصيدا ، إلا أنهم فشلوا في احتلال طرابلس

(٦٢) Claude Cahen: Le Syrie du nord., Paris 1940., p.177

(٦٣) ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٧٧ — ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٦١

(٦٤) سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ٣٦

(٦٥) Encyc of Isl: article Hamdanides., vol II., P.I., p247

(٦٦) مصطفى الشكعة : رسالة دكتوراة : الشعر في ظل بني حمدان ، ص ٣٨

(٦٧) الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ — الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٥٩

(٦٨) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠٨ – ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٩٤ – وارزن هي احدى مدن ديار ربيعة تبعد ٧ فراسخ عن ميافارقين . انظر ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٩٥

(٦٩) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٤٩ – ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٠٣

(٧٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣– الصولي :المصدر السابق، ص ٢٢٦ – الهمذاني : المصدر السابق ، ص ١٢٨

(٧١) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٢٧ – ٧٢٨ – Lane Poole : op . cit. ، p. 84

(٧٢) ابن العديم: زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٢ – ١٠٣ – بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١٤٣

(٧٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٥ – ١٠٦

(٧٤) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠ – سامي الكيالي : المرجع السابق ، ص ٦٦ – Encyc of Isl : Halab . و vol II . و P. I. و p 230

(٧٥) الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ وص ٢٣٧ – وكان قد قرر قتالهم حتى يتم له الاستيلاء على عاصمتهم الموصل .

(٧٦) فقد اتفقا في سنة ٣٣٢ هـ على أن تكون الأعمال من مدينة الموصل الى آخر اعمال الشام لناصر الدولة وأعمال السن إلى البصرة لتوزون . وما يفتحه وراء ذلك مقابل أن يدفع خمسين ألف دينار إذا دخل حلب ، وأن لا يتعرض أحدهما لعمل الآخر . انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٤ وص ١١١

(٧٧) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩٣ – سامي الكيالي : المرجع السابق ، ص ٦٦ Canard : Sayf Al Dawla .,pp 28 — 29 — 62

(٧٨) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين ، ص ١٩٣

(٧٩) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١١٤

(٨٠) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٣٥١ Canard: Sayf Al Dawla . و p 29

(٨١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩٤ – ابن العديم : المصدر السابق، جزء١ ، ص ١١٤ – ١١٥

(٨٢) سرور : المرجع السابق ، ص ١١٤ ؛

Lane Poole : Egypt in The Middle Ages. و pp 84 - 85 -

(٨٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩٤

Canard : Sayf Al Dawla. ، p 30 -

(٨٤) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ١٢١–وانظر فيما بعد الباب الرابع .

(٨٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩٥ – سرور : المرجع السابق ، ص ١١٥

Canard : op. cit . و pp. 31 — 32

(٨٦) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩٦

Canard : op . cit . و p 30

(٨٧) الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٦٤

(٨٨) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣١٨ – ابن الوردي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٩– Canard : op . cit . و p 43

(٨٩) اكسال قرية في الأردن بجانب الرملة ونهر أبي فطرس . انظر :

Marmardji : Textes Jeographigues Arabes. ، p. 10

(٩٠) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٩٥ – ابن العديم : المصدر السابق، جزء ١ ، ص ١١٨

(٩١) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١٩ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٣٥٤

(٩٢) ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٨١

(٩٣) انظر فيما بعد الباب الرابع .

(٩٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٠ – كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ٢١٥

(٩٥) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ص ٩٣ – ٩٥ وص ١٢٢

(٩٦) الهمذاني : المصدر السابق ، ص ١٧٦ – طه بدر : المرجع السابق، جزء ١ ، ص ١٧٦

(٩٧) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٠ – طه بدر : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٦ – ١٧٧

(٩٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جزء ١ ، ص ٣٨٣ — ٣٨٤ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣١٣ — بينما يذكر ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٩ أن الراضي ولاه حلب وأعمالها .

(٩٩) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٩

(١٠٠) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٤ — ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ — بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقة ١٤٠

(١٠١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٦ — ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٨١ — ٨٢

(١٠٢) انظر نص هذه القصة كاملة في حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٢٠ — ١٢١

(١٠٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ص ٨٢ — ٨٣

(١٠٤) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ — ابن العديم : المصدر السابق، جزء ١ ، ص ١٠٠ — Encyc of Isl : «Halab» vol. II . P. I ., p 230 و

(١٠٥) الصولي : المصدر السابق ، ص ١٤٣ — ابن خلدون : المصدر السابق، جزء ٤ ، ص ٣١٣

(١٠٦) الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ — الأنطاكي : المصدر السابق، جزء ١ ، ص ٧٢٠ — النويري : المصدر السابق ، جزء ٢١ ، ورقه ٣٢

(١٠٧) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٢١ — بيبرس الداودار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقة ١٤٠

(١٠٨) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٨ — ١٧٩ — عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤٤

(١٠٩) زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠١

(١١٠) انظر فيما بعد الباب الخامس ، وانظر كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ص ٢١٤

(١١١) عن البريديين ، انظر هلال الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٧٤ — ٧٥

(١١٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٩ — مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠

(١١٣) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٣٣ — بيبرس الداوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقة ١٠٤ و ١٦٠—ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٣

(١١٤) يقصد أنه كان يتآمر على الخليفة ، انظر مسكويه : المصدر السابق، جزء ٢ ، ص ٢٧ — ٢٨

(١١٥) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٨٥

(١١٦) حسن ابراهيم حسن : المعزلدين الله ، طبعة الأزهر ١٩٤٧ ، ص ٧٣ — جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١١٦

(١١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٦٧ ، ص ١٨٦

(١١٨) Canard : Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazire et de Syrie ., p 534

(١١٩) انظر أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٨.

(١٢٠) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١٩٦ — بينما يذكر الهمذاني : ص ١٨٧ ، أن القرامطة استهدوا الحديد سنة ٣٥٣ ﻫ

(١٢١) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٣ — بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١٧٠ — ١٧١ وص ١٩٦ . بينما يذكر ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٧، ص ١٩—٢٠ بأنه في جمادى الأولى سنة ٣٥٣ ﻫ انفذ القرامطةفي طلب الحديد من سيف الدولة . ويبدو أن ذلك حدث في المرة الثانية .

(١٢٢) Canard : op . cit . و p 264

(١٢٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٢ — بينما يذكر الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١١ بأن كافوراً توفي في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٦ . وذكر ابن الشحنة في روضة المناظر ، جزء ٢ ، ص ٥٩ أنه توفي في سنة ٣٥٦ دون أن يحددالشهر .

(١٢٤) إغاثة الأمة في كشف الغمة ، ص ١٣

(١٢٥) الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١٢ — ٨١٣— المقريزي: إغاثة الأمة ، ص ١٢ — ١٣

(١٢٦) بيبرس الداوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١١٩

Canard : Sayf Al-Dawla. ، pp. 248 — 249

(١٢٧) ابن خلدون: المصدر السابق، جزء٤، ص ٢٤٠ ، Canard : op. cit . pp 257 — 258 — سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص . ١٢ — ١٢١

(١٢٨) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٦ ، ورقة ٨٧ – ٨٨ – ويورد ابن العديم : المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ورقة ٤ – ٥ حين يعرف لأبي أحمد الهاشمي ، رواية أخرى تذكر أن رشيقاً النسيمي ضمن لأهالي طرسوس عمارة الثغر انأقاموا الدعوة لا نوجور بن الاخشيد وكافور . ويبدو أن هذه الرواية غير صحيحة لأن انوجور كان قد توفي منذ سنة ٣٤٩ هـ ، بينما جرت أحداث ثورة النسيمي سنة ٣٥٤ هـ .

(١٢٩) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٣ – ٢١٤ – بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(١٣٠) انظر نص رسالة سيف الدولة إلى ابنه في Canard :op. cit ., pp 267–268

(١٣١) Canard : Histoire de le Dynastie de Jazira et de Syrie., p 674

(١٣٢) انظر مايكتبه الأنطاكي عن ذلك : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١٤– ٨١٥ – حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ١٢٣

(١٣٣) عن أبي فراس الحمداني ، انظر : التنوخي : جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، جزء ١ ، ص ١١٠ – ١١١ – ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢

(١٣٤) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ١١٩ – سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ١٢٠ – Canard : op . cit., p 248

(١٣٥) انظر فيما بعد الباب الخامس

(١٣٦) Canard :op. cit ., pp 212 — 214

(١٣٧) Canard : op. cit ., p 221

(١٣٨) انظر الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ – الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٣٦

(١٣٩) Canard : op. cit ., pp 225 — 226

(١٤٠) Canard : op. cit ., pp 228 — 233

(١٤١) عن الحروب بين الحمدانيين والبيزنطيين ، انظر الباب الرابع .

(١٤٢) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمي ، ص ٧٤ – ٧٦

(١٤٣) عن سيرة جوهر الصقلي ، انظر : صلاح الدين الصفدي : أمراء دمشق في الاسلام ، طبعة دمشق ١٩٥٥ تحقيق صلاح الدين المنجد ، ص ٢٤ – Encyc of Isl : Article., «Djawhar»., vol . 1 . P II., p. 1028

(١٤٤) حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٥١

(١٤٥) بيبرس الداوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ٢٠١– المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٣ – ١٠٤

(١٤٦) المقريزي : الخطط ، جزء ٢ ، ص ٢٠٦ – عن سيره جعفر بن فلاح ، انظر الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٢ تاريخ ، جزء ٢١ ، ص ٢٨٧

(١٤٧) ابراهيم جلال : المعز لدين الله ، طبعة ١٩٤٤ ، ص ٦١

(١٤٨) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٥٧ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣١ – ٣٢ – سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١١٨

(١٤٩) الداواداري : المصدر السابق ، ص ١٢٢ – ١٢٣ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٣

(١٥٠) ابن الوردي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٤ – العيني : عقد الجمان ، جزء ١٩ ، مجلد ٢ ، ورقة ٢٣٣ –يوسف الياس الدبس : تاريخ سورية، المطبعة العمومية بيروت ١٩٠٠ ، مجلد ٣ ، ص ٣٩٨

(١٥١) ابن كثير : البداية والنهاية ، مطبعة السعادة في مصر ، جزء ١١ ، ص ٢٦٧ – الدواداري : المصدر السابق ، ص ١٢٦ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٣

(١٥٢) البثنية : منطقة تقع قرب الصحراء في الشام ، يتبع لها جبل جرش ، أكبر مدنها اذرعات ، تبعد عن طبرية مسيرة يومين ، ومسير يوم إلى عمان . انظر اليعقوبي: البلدان ، ص ٣٢٦ – الدواداري : المصدر السابق ، ص ١٢٧ – Le Strange : op . cit . و p 383

(١٥٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(١٥٤) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١١٩

(١٥٥) Encyc of Isl: Article «Fatimids» . و vol.II. وP. I. وp 90

(١٥٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣١ – ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٢٢٦

(١٥٧) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣

(١٥٨) الدواداري : المصدر السابق ، ص ١٢٧ – ١٢٨ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥

(١٥٩) Lane Poole : op . cit . و p. 159

(١٦٠) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٢٢ – عن معاهده صفر انظر : الباب الرابع

(١٦١) يحيى بن سعيد الأنطاكي المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٠ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ – ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٢١٠ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ١٠٣ – ١٠٤

(١٦٢) ابراهيم العدوي : المرجع السابق ، ص ١٠٦ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ١٤١

(١٦٣) أحمد محمد عدوان : علاقات الدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة ، ورقة ٢٥٢ (رسالة ماجستير لم تطبع)

(١٦٤) انظر : أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ١٤٧

* * *

الباب الرابع

الثغور منذ قيام الخلافة العباسية
حتى بداية السيادة الفاطمية على الشام

الباب الرابع

الثغور منذ قيام الخلافة العباسية حتى بداية السيادة الفاطمية على الشام

ـ ١ تمهيد :

ماتمخضت عنه الحروب بين الأمويين والبيزنطيين .

ـ ثغور الشام والجزيرة عند قيام الخلافة العباسية .

٢ ـ الحروب مع البيزنطيين منذ قيام الخلافة العباسية ، حتى منتصف القرن الثالث الهجري .

٣ ـ الحروب مع البيزنطيين في عهد الامارة الطولونيه .

٤ ـ الحروب مع البيزنطيين أيام الاخشيديين والحمدانيين :

ـ أحوال الثغور بين الامارتين الطولونية والاخشيدية .

ـ الحروب مع البيزنطيين في عهد الامارة الاخشيدية .

ـ الحروب مع البيزنطيين في عهد الامارة الحمدانية .

١ — تمهيد :

ما تمخضت عنه الحروب بين الأمويين والبيزنطيين .

منذ أن قضى المسلمون على دولة الفرس ، وطردوا البيزنطيين من بلاد الشام ومصر ، كانت لهم أهداف واســعة وهي القضاء على الامبراطورية البيزنطية مهما كلفهم ذلك من مشقة . ولما قامت الخلافة الأموية كان على خلفائها تحقيق هذا الهدف الأسمى وجرت بين الطرفين حروب عديدة عبر اقاليم الثغور اتصفت بما يلي :

١ — كانت الغزوات والصوائف والشواتي سواء البرية أو البحرية منها مستمرة . وكثيراً ماتوغلت في داخل الأراضي البيزنطية وخاصة بعد إزاحة المردة عن الحدود بين الطرفين ، إلا ماكان في أيام الفتن الداخلية .

٢ — دعت ظروف منطقة الحدود بين الأمويين والبيزنطيين إلى أن تكون معظم الحملات الأموية في فترة من الزمن ضد الامبراطورية البيزنطية تتوجه عن طريق البحر ، بسبب ما لاقوه من المتاعب في حملاتهم البرية . ثم مالبثت الحملات البرية أن تزايدت بعد تغير الظروف وزوال العوائق . وكانت هذه العوائق تتمثل في جبال طوروس ، ووجود المردة على الحدود بين الطرفين . فبعد أن فتح المسلمون بلاد الشام وقفوا عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، على حين تحصن

البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية في آسية الصغرى . وخشي البيزنطيون على رعاياهم فنقلوا كثيراً منهم من مناطق الحدود إلى داخل البلاد ، وتركوا الحصون مقفرة ، فخرب معظمها ، وخاصة تلك التي بين الاسكندرونة وطرسوس . وكثيراً ماتخوف المسلمون من التقدم خشية وجود كمائن ، لأنهم لم يلمسوا مقاومة من البيزنطيين . ولذلك فانهم عملوا جاهدين على استطلاع أحوال البيزنطيين قبل التقدم في أراضيهم(١).

ومن المعروف أنه كان على المسلمين للوصول إلى آسية الصغرى اجتياز بعض الدروب الجبلية في جبال طوروس ، وأهمها دربان مشهوران يعرف الأول باسم الأبواب القيليقية التي تتحكم فيها مدينة طرسوس . ويمتد هذا الدرب من طوانة في الشمال حتى طرسوس في الجنوب . وفي شمال هذا الدرب قمة منعزلة شاهقة تتحكم في منحدرات طوروس الشمالية تقع عليها قلعة لؤلؤة مفتاح الأبواب القيليقية . أما الدرب الثاني فيسمى درب الحدث . ويقع إلى الشمال الشرقي من الدرب السابق ، ويصل بين مرعش والبستان(٢). وقد لاقى المسلمون كثيراً من المشاق في اجتياز هذه الدروب . إذ دأب البيزنطيون على مهاجمتهم من كمائن أعدوها لهم في هذه الجهات الخربة . فينقضون عليهم عند عودتهم وينزلون ضربات شديدة بمؤخرة جيوشهم التي تخطىء في طريق عودتها. ولذا كان الدرب الثاني من المناطق التي حاق بالمسلمين فيه كثير من الهزائم حتى سموه درب الحدث(٣).

وأدرك الأمويون أن جبال طوروس تشكل حاجزاً يمنعهم من القيام بغزو القسطنطينية براً . ويضاف إلى ذلك ما كان يقوم به المردة من خدمة لأغراض الدولة البيزنطية في منطقة الحدود ، حتى إنه يقال بأنهم كانوا

يشكلون ستاراً حديدياً فصل الشام عن أراضي البيزنطيين في أسية الصغرى ، وزاد في عرقلة تقدم الهجوم الاسلامي عليها(٤).

لقد أقنع وجود هذين العائقين معاوية بن أبي سفيان بأهمية البحر، فقرر ومن جاء بعده من الخلفاء مهاجمة القسطنطينية بحراً، وذلك دون اهمال الحملات البرية ، للاستيلاء على آسية الصغرى . وكثيراً ماكانت الحملات دعماً للأساطيل البحرية . وقد قام الاسطول العربي بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، ورودس ، وكوس ، ثم خيوس وجعلوها ركائز للسفن الحربية للعمل على الاستيلاء على القسطنطينية .

وشن الامويون حملات متتالية بحرية وبرية للاستيلاء على القسطنطينية وتمكنوا من القاء الحصار عليها في أربع محاولات ، ثلاث منها في عهد معاوية ورابعة في عهد سليمان . وقد قاد الحملة الأولى بسر بن أبي أرطأة ، الذي حاصر القسطنطينية سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣م(٥). وترأس قيادة الحملة الثانية يزيد بن معاوية في سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م(٦)، وقد تمكنت قواته من الوصول إلى أبواب القسطنطينية ، وأبلت بلاء حسناً ، حتى ان الكتاب أطلقوا عليه «فتى العرب» . وكان برفقة يزيد في هذا الحصار عدد كبير من الشخصيات الاسلامية الشهيرة(٧). أما الحملة الأخيرة في عهد معاوية فقد بدأت في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م ، واستمرت سبع سنوات تعرضت القسطنطينية خلالها للحصار من قبل الاسطول الاسلامي ، حتى أضحت في مركز شديد الخطورة . وقاد الرابعة مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٨هـ / ٧١٧ م .

وعلى الرغم من قسوة الظروف المحيطة بالحملات البرية في الفترة

الأولى للخلافة الأموية ، فقد قامت حملات متعددة . واشتهر القائد حبيب بن مسلمة بحملاته المظفرة في أرض الجزيرة وارمينية وقبادوقية. وكذلك اشتهرت بعض الحملات الأموية ضد البيزنطيين على أنها حملات برية وبحرية . ومن أشهر الأمثلة على ذلك ، حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية . واشتدت وطأة الحملات البرية على البيزنطيين ، منذ أن عقد عبد الملك بن مروان معاهدة مع الامبراطور البيزنطي كان أحد بنودها نقل المردة من الحدود بين الطرفين، فأخذوا في تحصين المدن التي تتحكم في الدروب (٨) ، وترك حاميات عند الثغرات الجبلية ، فأمن المقاتلة ، وازدادت عدد الحملات البرية التي تهاجم البيزنطيين دون اهمال الحملات البحرية .

٣ — ونتيجة لهذه الجهود تقدم المسلمون في العصر الأموي في منطقة الثغور ، وتمكنوا من دفع خط الحدود مع البيزنطيين باتجاه الشمال . فقد كانت معظم حروب الأمويين مع البيزنطيين حروب استقرار في المناطق الواقعة شرقي طوروس، إذ كانوا يعمرون مايحتلون ويقيمون فيها الجنود ، ويبنون فيها الحصون لتمنع الأعداء من استرجاعها. ومن الأمثلة التي توضح ذلك ان الامويين فتحوا في سنة ٥٩ هـ / ٦٧٩م حصن كمخ ، وفي سنة ٨١ هـ / ٧٠١ م فتحوا قاليقلا ، وفي سنة ٨٣هـ/ ٧٠٣ م فتحوا سبسطية والمرزبانيين وطرسوس، وفي سنه ٨٤ هـ / ٧٠٤م فتحوا المصيصة وبنوا حصنها وأقروا به ثلاثمائة من المقاتلين الأشداء. وقد تسلم العباسيون هذه الثغور التي فتحها الأمويون بعد قضائهم على الخلافة الأموية(٩).

٥ — وهناك ملاحظة أخرى هي أن الثغور كانت في العهد الأموي كما هو الحال في العهد العباسي بين أخذ ورد بين البيزنطيين والمسلمين.

فمن المعروف أن أنطاكية فتحت أبوابها للمسلمين منذ فتحوا بلاد الشام سنة ١٥ هـ / ٦٣٥ م وخرج منها هرقل بعد أن ودع الشام وداعاً لا لقاء بعده . ثم نقرأ في المصادر العربية أنه في سنة ٩٤ هـ / ٧١٤ م فتح العباس ابن الوليد انطاكية . وكذلك كان الحال بالنسبة لقنسرين . فقد فتحها خالد بن الوليد سنة ١٥ هـ / ٦٣٥ م ثم مالبث أن أعاد المسلمون فتحها سنة ٩٥ هـ / ٧١٥ م . والأمثلة على ذلك كثيرة . وهذا يوضح أن البيزنطيين كانوا يحاولون استعادة الثغور حين تسنح لهم الفرصة ، ثم يعمل الأمويون على استعادتها(١٠) .

— ثغور الشام والجزيرة عند قيام الخلافة العباسية :

انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، ومعظم الثغور الاسلامية محصنة. وكانت تتألف من عدد كبير من المدن الهامة والحصون . منها في الثغور الشامية مدينة طرسوس التي تميزت بأسوارها المزدوجة ووفرة مؤنها ، وكونها مقراً لحامية كبيرة من الرجالة والخيالة . وكانت هذه المدينة الحصينة من أهم الثغور التي وقفت في وجه تقدم غارات البيزنطيين في الشام ، وإلى الشرق من طرسوس تقع أذنة على نهر سيحان ، ثم يليها شرقاً المصيصة ، ثم عين زربة والكنيسة . وكانت عواصم هذه الثغور انطاكية والجومة وقورس ، ويقابل الثغور الشامية في الأراضي البيزنطية كل من بنود القبادق والناطليق من جهة البر ، وسلوقية من جهة البحر(١١).

أما الثغور الجزرية فتقع إلى الشمال الشرقي من الثغور الشامية ، وهي تدافع عن شمالي العراق. وأقربها إلى الثغور الشامية مرعش . وإلى

الشمال الشرقي منها تقع الحدث وكان يليها زبطرة إلا أنها خربت في أيام المعتصم وبني مكانها عدة حصون لتقوم بنفس الدور الذي كانت تقوم به . وكانت عواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج ويقابلها من عمل الروم خرشنة وعمل الخالدية (١٢).

وكان يلي هذه الثغور من الشمال الشرقي الثغور المسماة بالبكرية نسبة إلى ديار بكر وهي شمشاط وحاني وملكين . وفيها حصون منها جمح وحوران والكلس وغيرها . ثم يأتي ثغر قاليقلا ويقع إلى الشمال كثيراً حتى يبدو وكأنه حصن منفرد . ويقابل هذه الثغور من بنود البيزنطيين بند الأرمنياق ، وبعض بند الخالدية ، ويقرب منها بند أفلاغونية المتصل ببلاد الخزر(١٣) .

وكانت الصفة الحربية تسود هذه المدن الثغرية . فقد كانت أسوارها وأبراجها وقلاعها الرئيسية من الحجر . ويعتبر السور أهم أبنية المدينة ويتوقف شكله على وضع الأرض التي يبنى عليها . وكلما اتسع السور تزايدت نفقاته مما يستلزم الاقتصاد في الأبنية الأخرى . كما كانت المساكن بقدر عدد المرابطين الدائمين . ويتضح الطابع العسكري في هذه المدن من تماثل المنازل ، مما يشعر الناظر إليها أنه أمام ثكنات عسكرية . وعندما كان البيزنطيون يهاجمون مناطق الثغور كان معظم المقاتلين من المتطوعة المحليين . وقد يعزز هؤلاء بآخرين من مناطق مختلفة إذا اقتضى الحال(١٤).

هكذا كانت الثغور الاسلامية في الفترة موضع البحث ، وكان كل طرف في حالة تيقظ لرد عدوان الطرف الآخر . وكان النصر والغلبة في معظم الأحيان للفريق صاحب الجبهة الداخلية القوية الصامدة ، والذي يملك جيشاً قوياً وقائداً متزناً متفهماً لأساليب القتال التي تناسب المنطقة التي يقاتل فيها ، والجيش الذي يواجهه .

* * *

٢ ـ الحروب مع البيزنطيين منذ قيام الخلافة العباسية ، حتى منتصف القرن الثالث الهجري :

احتلت بلاد الشام مركزاً استراتيجاً هاماً في الدولة الاسلامية كان له أثره الكبير في توجيه النشاط الحربي الاسلامي ضد البيزنطيين. وعلى اثر سقوط الخلافة الأموية ، وقيام الخلافة العباسية ، وما نتج عن ذلك من اضطرابات داخلية . وجه الامبراطور قسطنطين هجومه على ملطية وكمخ من مناطق الثغور،وهدم حصن قلوذية . واسترد جزيرة قبرص في سنة ١٣٣هـ (١٥).

وعلى الرغم من هذا الهجوم البيزنطي المحدود في هذا التوقيت، فان البيزنطيين كانوا أعجز من أن يستغلوا هذا الظرف على نطاق واسع بسبب انشغالهم بحركة جدل ديني نشأت على اثر نجاحهم في الدفاع عن عاصمتهم ضد المسلمين ، وشن الامبراطور ايو الثالث حملة على عبادة الايقونات ، فحدث رد فعل على هذه السياسة تسبب في قيام ثورة داخلية (١٦).

أراد أبو العباس أن يقف موقفاً حازماً من البيزنطيين ، فكتب إلى عمه وواليه على الشام عبد الله بن علي ان ينفذ بالجيوش التي معه ويبثها في نواحي الثغور ، وأن يقوم بالصائفة في سنة ١٣٦ هـ . وزحف عبد

الله لينفذ المهمة ، وأخذ يعبيء الثغور بالقوات فجاءه خبر وفاة أبي العباس ، فانصرف(١٧).

استغل الخليفة المنصور ظروف البيزنطيين السيئة ايما استغلال — فقد كان الطاعون قد اشتد عليهم ، كما كانت الحرب الداخلية بينهم تذر قرنها بسبب الخلاف على الايقونات . كما واجه الامبراطور قسطنطين متاعب خارجية كبيرة من البلغار الذين ظهروا عليه في منطقة البلقان فأرسل إليهم جيشاً كبيراً قاتلهم وانتصر عليهم . وأجبر قسطنطين على عقد معاهدة صلح لمدة سبع سنوات ، استغلها المنصور لفداء أسرى قاليقلا وغيرها . كما أنه قام بتعمير المدن الخربة ورد أهلها إليها . ورمم الحصون المتهدمة وزار بنفسه جميع تلك المواقع(١٨).

وقام المنصور بتنظيم أموره في العواصم والثغور فولى عليها أقاربه ، واعاد بناء حصن ملطية وحصنه في سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ — ٧٥٧ م . إلا أن البيزنطيين مالبثوا أن عادوا إليه وخربوه فرد عليهم المنصور بارسال الصوائف المتتابعة لاشغالهم ، كما كلف الحسن بن قحطبة ببناء الحصن وجعله على رأس جيش كبير . فاستنفر الحسن البناة من من كل بلد وتمكن من انهاء العمل في ستة أشهر . وكان لسياسة الحسن مع البناة أكبر الأثر في نشاطهم في العمل وسرعة انجازه . فقد شاركهم العمل بنفسه وأحسن إليهم . ولما انتهى بناؤها أسكن المنصور فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة وزاد أعطيات كل منهم عشرة دنانير ومعونة مائة دينار . وأقطعهم المزارع وشحن المدينة بالسلاح . وبلغ مجموع الحشود في ملطية وحدها في عهده عشرة آلاف مقاتل . فخشيها البيزنطيون ولم يتجرأوا على الاعتداء عليها(١٩) .

وكذلك أمر المنصور بتعمير مدينة المصيصة في سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ ـ ٧٥٧ م ، وإعادة بناء سورها الذي هدمته الزلازل . وأضاف بأن حفر خندقاً حولها ، فأطمأن أهلها وعادوا إلى سكناها في السنة التالية . كما زاد المنصور في عدد مقاتليها ، وأعطاهم الاقطاعات وشحنها بالسلاح(٢٠) . وأضاف بأن أتم بناء مدينة الرافقة التي كان البدء في بنائها في عهد أبي العباس ، فبناها على هيئة بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها(٢١) .

كما يعتبر المنصور أول من جعل من منطقة الجزيرة كياناً إدارياً مستقلاً ، وحدد أسلوب القتال وتقاليده ، فحافظ عليها الخلفاء الذين تعاقبوا بعده . فنظم الصوائف والشواتي وأعادها إلى سابق عهدها في العهد الأموي من حيث الأوقات . فكانت الصائفة تبدأ من العاشر من تموز / يوليو وتستمر ما يقارب الستين يوماً . واما الشواتي فلايتوغل الغزاة فيها ولا يبتعدون عن مكان انطلاقهم . ولا تتجاوز فترة المسير عشرين يوماً ، يحمل فيها الرجل على فرسه مايكفيه ويكفيها ، وتبدأ في آخر فبراير / شباط . وأما الربيعية فتبدأ العاشرمن مايو /مايس بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم . فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية مايو وعشرة أيام من يونيو(٢٢).

وتابع المهدي نفس الطريق الذي سلكه والده . حيث أخذ في بناء الحصون وشحنها بالسلاح وحشد الجيوش بها . وبرزت مقدرته في قتال البيزنطيين واعطائهم درساً لاينسونه على اثر اعتدائهم على مدينة مرعش سنه ١٦٣ هـ (٢٣) . كما ندب الحسن بن قحطبه للاشراف على بناء طرسوس ، فحصنها وشحنها بالمقاتله . وأمر بالبدء ببناء ثغر الحدث (٢٤).

وقاد المهدي حملة عسكرية ، اصطحب معه فيها ابنه الرشيد . فتوجه في سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ – ٧٨٠ م إلى الثغور حتى وصل إلى نهر جيحان ، حيث ترك ابنه ليقوم بالمهمة التي اوكلها إليه وذهب هو إلى بيت المقدس . فحاصر الرشيد سمالو بالمجانيق لمدة ثمانيةوثلاثين يوماً ، ولما اشتد الحصار عليها ، وافق أهلها على التسليم بشرط الأمان . وقد أجرى المهدي في هذه الحملة بعض التنظيمات في الثغور ، فرمم مدينة المصيصة وزاد في سلاحها وجنودها (٢٥) .

وفي سنه ١٧٠ هـ / ٧٨٦ – ٧٨٧ م أصبح الرشيد خليفة فسار سيرة المنصور والمهدي من قبل ، واهتم باستكمال تحصينات منطقة الثغور . وأسس اقليماً مشابهاً لاقليم الأطراف البيزنطي على حدود البلاد الاسلامية الشمالية ، أطلق عليه اسم منطقة العواصم . وكان هذا الاقليم في الحقيقة جزءاً من أرض قنسرين والجزيرة . ففصله وجعل عاصمته انطاكية . وجعل عليه ابنه المعتصم . ورتب لهذه المنطقة جيشاً دائماً يرابط على طول الحدود . وأضاف بأن بنى مدن الثغور ، فعمر مدينة طرسوس . وكذلك حصن عين زربه ، وزاد في اعداد المرابطين فيها ، وأعطاهم المنازل والاقطاعات . وفي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م بنى مدينة الهارونية وشحنها بالمقاتلين . كما أمر ببناء الكنيسة السوداء وتحصينها وزيادة عدد الحماة فيها مع زيادة اعطياتهم . وكذلك فقد أتم بناء كفر بيا وحصنها بخندق ، وجعل لها سوراً مزدوجاً(٢٦) .

يضاف إلى هذا كله أن الجيش العباسي تكامل قدرة ونظاماً وتدريباً وكفاية في عهد الرشيد . يؤكد ذلك تجنيده للأعداد الكبيرة في منطقة العواصم . وتسخيره لعديد من الفرق في حملاته

المتكررة المظفرة ، مما يؤكد كفاية التدريب وحسن التسليح . فقد كان الجيش العباسي في عهد الرشيد من أكفأ الجيوش التي عرفها العالم في ذلك الوقت . فقد بلغ تعداد الجنود الذين اشتركوا معه في حملته على البوسفور خمسةً وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين جندياً . كما اشترك معه في حملة هرقلة مائة وخمسة وثلاثون ألفاً من المرتزقة . سوى الأتباع والمطوعة ومن لاعطاء له . كما قاد داود بن عيسى في بعض الحملات سبعين ألفاً . وقاد شراحيل بن معن زائدة ، وكذلك يزيد بن مخلد مثل هذا العدد (٢٧) .

وقد قام الرشيد بالحملة الأولى رداً على غارات البيزنطيين المتكررة على الحدود . فأسرع الرشيد إلى ردعهم ، وصد زحفهم ، وأنزل بهم خسائر فادحة . وتوغل الرشيد في آسيه الصغرى حتى اشرف على البوسفور ، وافتتح عدة حصون منها حصن ماجدة(٢٨) . وكانت حمله الرشيد هذه خاتمة الحملات العربية على البوسفور . وعلى الرغم من استمرار الغزوات بعد ذلك عبر آسية الصغرى ، إلا أنها لم تصل إلى البوسفور . حتى إن الرشيد نفسه في حملاته بعدها ، لم يتعد هرقله .

وتذكر المصادر والمراجع العربية التي تحدد تاريخ حملة الرشيد هذه على البوسفور أنها جرت في جمادى الاولى من سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١م(٢٩). ومن المؤكد أن هذا التاريخ ليس صحيحاً لعدة أسباب : ان الهدنة بين الرشيد وايرين استمرت اثنين وثلاثين شهراً ثم نقضها نقفور بعد أن تولى العرش . ولما كان نقفور اعتلى العرش سنه ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م ، فان ذلك يرجح أن هذه الحملة على البوسفور قامت بين سنتي ١٨٢ —

١٨٣ هـ / ٧٩٨ – ٧٩٩ م ، وأن ذلك حدث في عهد امبراطورية ايرين لافي عهد وصايتها على ابنها (٣٠) .

– إن الرشيد تولى الخلافة في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وأغفل المؤرخون دور المهدي في هذه الحملة مما يؤكد أنها جرت في خلافة الرشيد ، ولو قامت في سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م أي في عهد المهدي لأشادت المصادر باسمه مع اسم ابنه قائد الحملة .

أظهر الرشيد في هذه الحملة كثيراً من المهارة والحنكة العسكرية . وغنم غنائم لاتحصى . وكان من أثر ذلك النصر أن الامبراطورة ايرين اضطرت إلى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، تعهدت الامبراطورة بموجبها أن تدفع جزية سنوية قدرها تسعون ألف قطعة تؤديها على قسطين . وأن تمد الجيش العباسي بالادلاء ، وتيسر لهم المؤن في الطريق .

كان لاقدام الرشيد وشجاعته الفضل الأكبر في هذا النصر ، إلى جانب ظروف أخرى تعود إلى سوء الأوضاع الداخلية في الامبراطورية البيزنطية في ذلك الحين ، وضعف مركز الامبراطورة تيودورا الداخلي وكثرة منافسيها وأعدائها ، إلى جانب أنها كانت تواجه الثورات في صقلية واليونان .

وقام الرشيد بحملته الثانية كرد رادع للامبراطور نقفور الذي كان يظن أن لديه من القوة مايكفيه للوقوف في وجه المسلمين . فبدأ بنقض الهدنة ، ولم يكن قد مضى على عقدها اثنان وثلاثون شهراً ، وأغار على عين زربه والكنيسة السوداء ، وأسر كل من تمكن من أسره .

وتمادى نقفور في غيه وأراد أن يستعيد مادفعته ايرين من الجزية . فكتب في سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ – ٨٠٣ م إلى الخليفة الرشيد كتابه المشهور ، الذي يظهر فيه ضعف الامبراطورة التي كانت قبله، ويطلب من الرشيد إعادة الأموال التي أخذها من ايرين ويهدده بالحرب إن لم يفعل . ويبدو في لهجة كتابه اعتداده بقوته وشجاعته . ولا عجب فقد كان جواب الرشيد أشد ايجازاً ، وفيه دلالة قوية على استعداده للقتال وثقته بالنصر وتحقيره لعدوه(٣١) . واتبع ذلك بالهجوم على هرقلة ، فحاصرها ثلاثين يوماً حتى فتحها وسبى أهلها(٣٢) . وتمكن قادته من فتح عدة حصون منها حصن الصفصاف وملقونيه وحصن الصقالبه، ودبسة . عند ذلك وجد نقفور نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه جيوش المسلمين؛ فوافق على دفع جزية سنوية قدرت بثلاثمائة ألف دينار مقابل وقف القتال . وأضاف بدفع جزية عن نفسه وولده وبطارقته قدرها خمسون ألف دينار ، واشترط على الرشيد ألا يخرب ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان : كما اشترط الرشيد عليه أن لايعمر هرقلة ، أما الحملة البحرية التي رافقت هذه الحملة ، فقد قادها حميد بن معيوف وبلغت حتى قبرص(٣٣).

وحين عاد الرشيد ، اطمأن نقفور إلى أنه لن يعود بسبب البرد، فنقض العهد . وخاب ظنه حين فاجأه الرشيد بالعودة وهو أصلب وأشد من المرة السابقة . ولم يتركها حتى بلغ ماأراد . ورضخ نقفور لمطالبه(٣٤)

أما الصوائف فقد كانت مستمرة ، وكانت لشدتها أشبه بحملات عسكرية . وكمثال على ذلك قيام الرشيد بنفسه بصائفه فتح فيها حصن الصفصاف . وحدث في عهده أيضاً فداء استخدم فيه المال

لاسترجاع الأسرى . وكان يفادى النفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وفي الثغور . وكان الفداء الأول في سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٤ — ٨٠٥م على نهر اللامس . ولم يترك الرشيد في أيدي البيزنطيين مسلماً إلا افتداه . أما الفداء الثاني فكان في سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ — ٨٠٨ م(٣٥) .

وهناك أمر آخر ظهر بوضوح في عهد الرشيد وهو وضوح الاصطدامات البحرية مع البيزنطيين . وقيام السفن الحربية بحملات عسكرية لشد أزر الحملات البرية. علماً بأنه قبل عهد الرشيد جرت عدة حملات بحرية ، منها حملة جرت في سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ — ٧٧٤ م قادها ثمامة بن وقاص على اقليم ايسورة بآسية الصغرى . وكانت خطط الفريقين الاسلامي والبيزنطي البحرية تعتمد على مراقبة سواحلهما ، ومن ثم مهاجمة الأهداف بصورة مفاجئة . ففي سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩— ٧٩٠ م أسر الاسطول البيزنطي بضع سفن اسلامية وهي في طريقها من مصر إلى الشام : فأغار الاسطول الاسلامي على قبرص . وتمكن من انزال قواته في الجزيرة . وقد تكون هذه الغارة رداً على مافعله البيزنطيون من أسر بعض السفن الحربية الاسلامية . وربما كان الاسطول البيزنطي الذي أسر السفن المصرية السالفة الذكر يراقب حملة اسلامية بحرية كان مزمعاً قيامها على قبرص وأراد أن لايدع فرصة للسفن المصرية لمؤازرة السفن الشامية(٣٦).

على أن غارات المسلمين البحرية توقفت مثل غاراتهم البرية على الحدود بين دولتهم والبيزنطيين إبان انشغال الرشيد في أواخر أيامه بالفتن والقلاقل . وكذلك طوال فترة الخلاف التي نشبت بين الأمين والمأمون .

ثم إن البيزنطيين أرادوا استغلال انشغال المأمون بالقضاء على ثورة بابك الخرمي ، فقام تيوفيل ببعض الهجمات المضادة . ولكنه فوجيء بالخليفة المأمون يقابله ، ويرد له الصاع صاعين . وجرت بين الطرفين حروب متقطعة استمرت أكثر من ثلاثين سنة . وقد بدأ الخليفة المأمون بالتغلغل تدريجياً في الأراضي البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م ، في الوقت الذي أغارت فيه الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطيء الغربي لآسية الصغرى. ويبدو أن حماسة الخليفة المأمون لقتال البيزنطيين دفعته إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات في آسية الصغرى(٣٧).

وقد ساعد المأمون في حروبه التي كللت جميعها بالنصر قوة الجيوش الاسلامية في عهده وصمود الثغور بفضل التنظيمات والترتيبات التي اكتملت في عهد الرشيد ، ودعمها المأمون بكل مايستطيع ، وقد فكر جدياً في القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، ونظم أموره في حملته الثالثة تنظيماً دقيقاً ليقوم بهذه المهمة . إلا أن المنية عاجلته فمات قبل أن يحقق حلمه . وأهم ماتميزت به حروب المأمون مع البيزنطيين، اتخاذه موقف الهجوم ، وتغلغله في الأراضي البيزنطية . ولم يكن أمام أعدائه إلا الوقوف موقف المدافع ، مع القيام بين الحين والآخر ببعض الغارات الانتقامية السريعة التي لم تتعد منطقة الحدود (٣٨) .

كان مسرح عمليات الجيش في حملة المأمون الاولى اقليم قبادوقيه فيما يسميه المسلمون باقليم المطامير ، وفي اقليم ملطية الحدث . وعجزت الحصون البيزنطية عن مقاومة جيوش الخليفة فاستسلمت إليه . وأول

مااستسلم حصن ماجدة ، ثم حصن قره وسندس وسنان . ولم يتابع المأمون انتصاراته بسبب ثورة بابك الخرمي . وانتهز تيوفيل الفرصة فهاجم سكان طرسوس والمصيصة ، وقتل العديد منهم . وعاد بعد هذا النصر إلى عاصمته . كما هزم بعض قوات المسلمين بالقرب من حصن خرشنة وأسر من المسلمين خمسة وعشرين الفاً(٣٩) .

احتفل تيوفيل احتفالاً رائعاً بغارته الموفقة على طرسوس والمصيصه إلا أنه مالبث أن عانى من الحرب الثانية التي قادها المأمون رداً على غارته على الثغور الاسلامية وما قام به من تقديم معونات إلى الثائر بابك الخرمي . وأدرك تيوفيل أنه لن يستطيع الوقوف في وجه المأمون، فأرسل إليه سفيراً عرض عليه باسم الامبراطور اطلاق سراح خمسمائة أسير . إلا أن المأمون رفض هذا العرض ، وقرر قتال البيزنطيين . ووقعت معارك حملة المأمون الثانية في نفس الأقاليم التي وقعت فيها معارك الحملة السابقة . وانقسم جيش المأمون فرقاً متعددة ، وارتادت كل فرقة وجهة خاصة . وحققت جميعها النجاح . واستولت على عدة حصون ، وأسرت أعداداً كبيرة . ومن هذه الحصون حصن أنتيجو ، وحصين،والاخرب . ويقال إن المأمون فتح مع قواده في هذه الحملة مايزيد عن عشرين حصناً سوى المطامير . وقدرتيوفيل قوة المأمون واستحالة النصر عليه . فعاود طلب الهدنة . إلا أن المأمون رد الكتاب دون قراءته . فثنى بكتاب آخر عرض فيه مائة ألف دينار واطلاق سراح سبعة آلاف أسير مسلم كانوا بيده إذا أعاد له المأمون مأأخذه من الحصون ، وهادنه خمس سنوات . فلم يقبل المأمون ذلك ،

ولكنه اضطر إلى ترك القتال بسبب بعض المشاكل الداخلية . فقد نشبت ثورة في مصر ، بالإضافة إلى قدوم فصل الشتاء(٤٠).

أما الحملة الثالثه التي قام بها المأمون فكانت تتمة لحملته الثانية . وأراد في هذه الجولة أن يستولي على مركز متقدم في أراضي الأعداء يتخذه قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات . وغايته من ذلك أن يعمل جاهداً حتى القضاء على الامبراطورية البيزنطية . وارتأى أيضاً أن يستفيد من خبرة أهالي الشام في قتال البيزنطيين . ففرض على كافة أجنادها ارسال عدد محدد من الرجال للاشتراك معه . وركز المأمون على حصن لؤلؤه لسيطرته على مفارق الطرق . فحاصره حتى فتحه . وسيطر المأمون بذلك على درب الأبواب القيليقية.ومن ثم فانه أراد أن يجد لنفسه مركزاً متقدماً في قلب الامبراطورية البيزنطية يجعله مكاناً لامدادات جيوشه . فاختار لذلك طوانه . وأرسل المأمون ابنه العباس فاستولى عليها ، ثم أخذ في بنائها وتحصينها وتوسيعها . وبلغت مساحة الطوانة الجديدة ميلاً عربياً مربعاً . وجعل حولها سوراً امتداده ثلاثة فراسخ ، وجعل له أربعة أبواب، وعند كل باب حصن . واستغل المأمون الفترة التي أنفقها ابنه في تحصين طوانه في العمل الدؤوب على تنظيم الجيش وتجهيزه للمهمة الكبيرة التي كان ينوي القيام بها . ودخل المأمون الأراضي البيزنطية وعسكر في البذندون(٤١)،فراسله تيوفيل وعرض عليه أن يؤدي له نفقات حملته ، وان يطلق سراح مالديهمن أسرى المسلمين دون فداء ، وأن يصلح ماأفسده البيزنطيون من ثغور المسلمين ، على أن يضع المأمون الحرب ، ولكنه رفض ذلك رفضاً مبرماً ، وأعلن الحرب ، واستولى على عدة مواضع حصينة ، وعاد

لى البذندون . وشاءت الظروف أن يموت المأمون في تلك المرحلة دون أن يحقق هدفه(٤٢).

أما عن الحروب البحرية في عهد المأمون ، فيمكن القول أن البيزنطيين تمكنوا من الاحتفاظ بالسيادة البحرية في العصر العباسي حتى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ — ٨٢٢ م . ولم تزعزع هذه السيطرة إلا ثورة توماس الصقلبي الذي تحالف مع الخليفة المأمون ضد الامبراطور ميخائيل الثاني (٤٣) . وتعهد المأمون في هذا التحالف أن يمده بجيش قوي يساعده في مهاجمة القسطنطينية . وغايته من ذلك ارباك البيزنطيين واضعاف قوتهم ، ورداً على ماكان يقدمه البيزنطيون من دعم ومساعدة لبابك الخرمي واتخذ هذا الحلف صبغة شرعية حين توج بطريرك انطاكية — التابع للخلافة الاسلامية—توماس امبراطوراً.وتمكنت هذه الثورة من تشتيت أساطيل الولايات البيزنطية ، في الوقت الذي كانت فيه أساطيل بلاد الشام وشمال افريقية ، وسائر اساطيل المسلمين تجمع قوتها(٤٤) .

وساد الهدوء بين المسلمين والبيزنطيين في الفترة الأولى من حكم الخليفة المعتصم حتى سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ — ٨٣٨ م دون أن يكون هناك هدنة رسمية . فقد واجه المعتصم مشاكل داخلية متعددة منذ أول أيام خلافته ، وارتأى أن يقضي عليها ثم يتفرغ لقتال البيزنطيين . فعمل قبل أن يترك الأراضي البيزنطية على أخذ كل ماأودع في حصن طوانه من آلات وسلاح ، وتخريبه . وأمر الجنود الذين كان المأمون قد نقلهم إليها بالعودة إلى بلادهم . وعاد المعتصم بعد ذلك إلى بغداد(٤٥).

وعندما عاد القتال بين تيوفيل والمعتصم كان سببه المباشر ماقام به بابك من تحريض البيزنطيين على قتال المسلمين ، وخاصة بعد أن رأى أن قوته تتضاءل وأن جيوش الخلافة تحاصره وتكاد تطبق عليه . فاتصل بثيوفيل موضحاً له أن كل قوات الخلافة الاسلامية مشغولة بقتال الخرمية وأضاف بأن تظاهر بأنه مسيحي ليزيد في حماس الامبراطورلمساعدته(٤٦).

جهز تيوفيل حوالي مائة ألف مقاتل توجه بهم نحو الحدود الاسلامية، وقد اتجه الى أعالي الفرات آملاً الاتصال بثوار ارمينيه وأذربيجان. وتمخضت هذه الغارة عن اشعال النار في حصن زبطرة الحصين . وأحرقت هذه المدينة وقتل الذكور من أهلها ، وأسر النساء والأطفال . وكان يمثل بالرجال أشنع تمثيل، فتسمل عيونهم، وتشوه وجوههم بالحديد المحمي(٤٧). ثم اقتربت جيوش البيزنطيين من ملطية ، ففتحت أبوابها خوفاً من أن يجري عليها ماجرى على أهالي حصن زبطرة . وأطلق أهاليها سراح من بها من أسرى البيزنطيين ، وأحرق تيوفيل شمشاط حتى تحولت إلى رماد . وسبى من المسلمات أكثر من ألف امرأة . وعند عودته احتفل بنصره ببناء قصر وزرع حدائق في برياس على الشاطىء الآسيوي(٤٨).

وعلم المعتصم بالخبر فغضب وأمر بالتجهيز لحملة انتقامية . واضاف بأن أرسل قسماً من جيشه لنجدة أهل زبطرة ، وإعادتهم إلى مدنهم وقراهم . وأرسل بقية الجيش لقتال البيزنطيين . ووقع اختيار المعتصم على عمورية لتكون هدف هجومه . وكان غرضه من ذلك أن يصل إلى أحصن مدينة في الامبراطورية بالإضافة إلى أنها

كانت موطن الاسرة الحاكمة . وغادر المعتصم سامراء في جمادى الأولى سنة ٢٢٣ هـ / ابريل ٨٣٨ م على رأس قوات كبيرة لم تجتمع لخليفة من قبل عدداً وسلاحاً . وقدر هذا الجيش بمائتين وخمسين ألف مقاتل. ونقش المعتصم على الالوية والتروس عمورية . كما جعل في رفقته أقدر قواده اشناس والافشين (٤٩).

بلغت تيوفيل الأنباء بعظم الجيش الاسلامي فاضطرب . وارتأى عليه كثير من أعوانه اخلاء عمورية من سكانها إلى مكان آخر خوفاً على حياتهم . ولكنه رفض ذلك ، وقرر تحصين المدينة وأن يعهد بحمايتها إلى قائد مجرب وأرسل لها الامدادات . وسار الامبراطور لمقابلة الجيوش الاسلامية ، فاصطدم مع الفرقة التي يقودها الافشين ومني بهزيمة مخجلة ، بعد معركة قوية دارت بينهما في جند أرمنياق بقرب جبل اسمه انزن . كما تفرق الجيش البيزنطي الآخر المعسكر في منطقة الهليس ، بينما وصلت بقية القوات الاسلامية إلى أنقرة(٥٠) فأطبقت عليها ، وانهار الامبراطور وفقد شجاعته ، وأرسل إلى المعتصم يستعطفه . وادعى أن قواده تجاوزوا أوامره حين دخلوا زبطرة . ووعد ببنائها على نفقته ، وأضاف بأنه سيرسل إليه كل الذين انتهكوا حرمة زبطرة وغيرهم ليرى رأيه فيهم . ولكن المعتصم لم يصغ إلى ذلك . بل أخذ يعد العدة للتوجه إلى عمورية (٥١)، وعند أبوابها قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام ، وجعل المسافة بين كل قسم وآخر فرسخين . وقاد أشناس الميسرة والافشين الميمنة . واتخذ المعتصم قيادة القلب . وانقسم أيضاً كل قسم من هذه الأقسام إلى ميمنة وميسرة . ونصب المسلمون مجانيق كبيرة يبلغ ارتفاعها ارتفاع السور ، ويتسع

كل منجنيق منها لأربعة رجال ، وركزت هذه المجانيق على كراسي تحتها عجل لتتحرك بسهولة . وأصدر المعتصم أوامره بالانتقام لما فعله البيزنطيون في زبطرة ، وما ارتكبوه من حرق وتخريب للقرى . وبدأت المحاولات بتخطي الخندق ، فقام الجنود برمي أكياس مملوءة بالتراب فيه . وتحصن أهل عموريه بها ، وكافحوا كفاحاً مريراً على الرغم من علمهم بانهزام جيوشهم . واشتدت وطأة الحصار فقرر حماة الحصن الاستسلام ، شرط حصولهم على الأمان . واستسلمت المدينة فدخلها المسلمون يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢٢٣ هـ / ١٣ اغسطس ٨٣٨م. وأسر من جيوش المدينة وأهلها عدد كبير حتى امتلأ معسكر المسلمين بهم فوزعهم المعتصم على قواده وجنوده ، ثم ارتحل متوجهاً إلى طرسوس (٥٢) .

احتاط المعتصم أثناء عودته لنفسه وجنوده خوفاً من أن يؤخذوا غدراً على حين غرة أو يؤخذ عليهم الطريق . وتمكن من الوصول إلى طرسوس بسلام . ويقال ان المعتصم عاد من عمورية بهذه السرعة لوصول أنباء هجوم بيزنطي على الثغور الشامية . إذ نزلت بعض قواتهم البحرية ميناء سلوقية فاسروا قسماً من أهاليها . وكان نزولهم فيها في نفس الوقت الذي كانت فيه جيوش المسلمين تحاصر عمورية للتخفيف عنها(٥٣). وقد ترتب على محاولات البيزنطيين المتكررة للهجوم على الثغور عن طريق البحر ، وللحد من نشاط الاسطول الاسلامي في جزيرة كريت ، اهتمام السلطات العباسية في بغداد بتدعيم قواعدها البحرية في الشام ومصر ، فنشط الاسطول العربي في عهد المعتصم . وأخذ في مهاجمة البيزنطيين (٥٤) .

ولم يعقب هجوم المعتصم على عمورية مضاعفات خطيرة على الامبراطورية ؛ البيزنطية لأن المعتصم في زحفه على آسية الصغرى اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ، ثم قفل راجعاً . وبذلك استرد البيزنطيون أراضيهم في آسية الصغرى حتى جبل طوروس . وبعد ذلك ساعدت المشاكل الداخلية لكل من الطرفين على عقد هدنة بينهما ، استمرت حتى وفاة المعتصم(٥٥).

كذلك ساعدت الأزمات الداخلية في عهد الواثق إلى اتخاذه موقفاً سلمياً أمام البيزنطيين . وشاءت الظروف أن يكون البيزنطيون كذلك. وبدا للعيان فشلهم في صقلية . ولذلك كان الطرفان مستعدين لاقامة علاقات سلمية عن طريق فداء الأسرى . ووصل في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م رسول البيزنطيين ليفاوض في أمر الفداء لثلاثة آلاف من الرجال وخمسمائة من الأولاد والنساء . وتم الفداء على ضفاف نهر اللامس وحضر العرب على رأس قوة كبيرة بلغ تعدادها أربعة آلاف رجل إلى مكان الفداء . وكان البيزنطيون في مثل هذه القوة . وكادت مفاوضات الفداء تفشل لأن البيزنطيين لم يرتضوا فداء العجزة من النساء والرجال وفداء الأطفال بمن في أيديهم من الأسرى . واستمر الخلاف أياماً إلى أن اتفقوا على فداء رجل برجل (٥٦) . والراجح أن عدد الأسرى المسلمين عند البيزنطيين كان أكبر مما عند المسلمين . يؤكد ذلك أن الواثق أمر بشراء من يباع في بغداد والرقة من العبيد الروم فلم يكف. عند ذلك قام باخراج من كان في بلاطه من نساء الروم . واستمر الفداء أربعة أيام . واتضح في هذا الفداء أنه كان هنالك مراسيم حقيقية له (٥٧) .

لم تكن أحوال الخلافة العباسية الداخلية في عهد المتوكل بأحسن مما كانت عليه في أيام الواثق . فقد كانت مشاكل الخلافة الداخلية تشده؛ ولذلك فانه رحب بالفداء الذي عرضه عليه البيزنطيون انقاذاً للمسلمين الذين اجبروا على اعتناق المسيحية أو التعرض للقتل . ويبدو أن ذلك كان رداً على سياسة المتوكل المتشددة مع أهل الذمة . وقد جرى الفداء كالعادة على نهر اللامس الأحد ١٢ شوال سنة ٢٤١ هـ / ٢٤ فبراير ٨٥٦ م ، وفودي به مايقارب ٨٧٥ رجلاً و ١٢٥ امرأة (٥٨) .

واتخذ البيزنطيون دور المهاجم . فأخذوا في سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ — ٨٥٦ م في الاغارة على عين زربة فأسروا كل من وجدوه بها . وكان أكثرهم من الزط الذين نقلهم المعتصم إليها بعد ثورتهم التي قاموا بها . وبعد هذه الغزوة تأكد البيزنطيون أن المسلمين مشغولون بخلافاتهم الداخلية فنشطوا لمهاجمة الحدود . فخرج البيزنطيون في سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ — ٨٥٧ م من ناحية شمشاط حتى قاربوا آمد . وانتهبوا عدة قرى في الثغور الجزرية ، وأسروا نحواً من عشرة آلاف انسان ، وانصرفوا إلى بلادهم دون أن يجدوا من يردعهم الردع الكافي . وعاود البيزنطيون نشاطهم العسكري فأغاروا على سميساط سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ — ٨٦٠م وقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة رجل(٥٩) .

إلى جانب ذلك ، فقد أخذت الصوائف والشواتي تتعرض لخطر كبير . وأخذ قوادها في معظم الأحيان يتعرضون للقتل أو الأسر على أيدي البيزنطيين ، أثناء قيامهم بالغزوات . فقد قتل البيزنطيون في تلك الفترة قائدين من أشهر قواد المسلمين وهما عمر بن عبيد الله الأقطع ،

وعلي بن يحيى . فقد قتل الأول في ١٥ رجب سنة ٢٤٩ هـ / ٤ سبتمبر ٨٦٣ م مع ألف من المسلمين . أما القائد الثاني فقد نفر للانتقام من البيزنطيين بعد خروجهم إلى الثغور الجزرية . إلا أنه مالبث أن قتل مع أربعمائه من رجاله في رمضان من نفس السنة(٦٠) . وبعد فترة وجيزة أسر قائد ثالث من أشهر قواد المسلمين وهو عبد الله بن رشيد ابن كاووس الذي دخل بلاد البيزنطيين في أربعة آلاف فارس . فانتصر في أول الأمر ، ولكنه مالبث أن حوصر وأسر وقتل جميع رجاله ماعدا خمسمائة منهم(٦١).

أما في البحر فانه في سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ — ٨٦١ م قامت قوة بحرية مستقرة عند طرسوس—ويمكن أن يكون هذا الاسطول قد دعم بفرق مصرية — بالهجوم على القاعدة البحرية البيزنطية الأناضولية في أضاليه، ورافق هذا الهجوم هجوم اسلامي بري على آسية الصغرى(٦٢) .

ويبدو أن الضعف الذي أصاب المسلمين في هذه الفترة ، أشعر أهالي الثغور بضعف المسؤولين عن حمايتهم ، فأخذوا يترددون في اعلان ولائهم للبيزنطيين . كما بدأ سقوط بعض قلاع المسلمين نهائياً في أيدي البيزنطيين . ففي سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م سقط حصن لؤلؤة بيد البيزنطيين ثم تلاه بعد ذلك سقوط قلاع أخرى لاتقل عنها أهمية. وكانت هذه القلعة بيد المسلمين منذ أن سقطت بأيديهم في عهد المأمون. وبقيت طيلة هذه الفترة شجى في حلق العدو ، فلم يقم البيزنطيون بغزوة برية أو بحرية إلا رآهم حراس هذه القلعة ، وأنذروا المسلمين (٦٣) .

والخلاصة التي يمكن أن نتوصل إليها بعد استعراضنا للحروب

والصوائف والشواتي التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي الأول ، أن الغزوات كانت مستمرة تقريباً إلا في أيام الفتن.. وأن هذه الغزوات لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء للمسلمين أو البيزنطيين . فقد ظل خط الحدود بينهما في أخذ ورد دون أن يستطيع أحد الفريقين السيطرة التامة على معاقله ودروبه . كما أن نجاح احدى الغارات أو غيرها كان متوقفاً على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين .

* * *

٣ - الحروب مع البيزنطيين في عهد الامارة الطولونية

تسلم الطولونيون أمراء مصر والشام حماية الثغور ، حين بدا ضعف حماة الثغور وعجزهم عن الوقوف أمام البيزنطيين . فقد رأى الخليفة المعتمد أن جميع الممتلكات في قيليقيه أصبحت مهددة بالخطر البيزنطي بعد ضياع قلعة لؤلؤة وقلاع أخرى لاتقل عنها أهمية .

وجرت بين الطرفين البيزنطي والطولوني غزوات وغارات متبادلة ، رجحت في بعضها كفة البيزنطيين ، وفي البعض الآخر كفة الطولونيين وخاصة في نهاية عهدهم . وقد تسلم أحمد بن طولون كتاب توليته على الثغور من الخليفة المعتمد ، فأناب عنه فيها طخشي بن يلبرد وكلفه بالقيام باصلاح شؤونها . فقدم خدمات جليلة لأهالي الثغور ، ووقف وقفة مشرفة في وجه البيزنطيين ، كما وجه إليهم ضربات مركزة . فبعث الامبراطور البيزنطي يطلب الهدنة ، إلا أن ابن طولون رفض ذلك لأنه أدرك أن البيزنطيين انما طلبوا الهدنة لكثرة ماأصابهم من مهاجمي الثغور(٦٤) . وما نتج عن ذلك من تخريب القلاع والحصون. وأن الموافقة على الصلح فيه راحة للبيزنطيين . وأمره برم الثغور ودفع أرزاق الغزاة ، والاستمرار في غزو البيزنطيين(٦٥) . ولكن الخلاف بينه وبين الموفق دعاه فيما بعد إلى عقد الهدنة .

ولا يحدد المؤرخون مدة هذه الهدنة أو تاريخ عقدها ، ولكن يتضح مما حدث في اثر عقدها ، أنها لم تتمخض إلا عن فداء الأسرى فقط . إذ انها مالبثت أن نقضت، وعادت الغزوات والاعتداءات على الحدود ثانية . ففي سنة ٢٦٥ ﻫ / ٨٧٨ – ٨٧٩ م قام البيزنطيون بالاعتداء على أذنه ، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أهلها ، ثم عاودوا اعتداءاتهم على ديار ربيعة.وأرسل أحمد بن طولون في سنة ٢٦٦ ﻫ/٨٧٩–٨٨٠ م جيوش طرسوس لقتال البيزنطيين في حملة انتقامية ، فأنزلت بهم خسائر فادحة (٦٦) .

اهتم ابن طولون بتقوية الشام عسكرياً على الرغم من الظروف السيئة التي تلت دخوله إليها . فقد لمس حاجته إلى وجود اسطول قوي لحماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطي ، والمحافظة على طرق الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام ، ولذلك أنشأ قاعدة بحرية في عكا، وجدد حصونها وأسوارها ، كما أنه اهتم بتحصين بقية الموانيء الشامية (٦٧) .

وبدأ الاسطول الطولوني نشاطه من قواعده بالشام لمهاجمة أساطيل البيزنطيين في عقر دارها . عوضاً عن خطة الدفاع التي كانت تسير عليها بلاد الشام بحرياً منذ دخولها تحت حكم الخلافة العباسية . فقد أخذت اساطيل الطولونيين في الشام تهاجم تجمعات اساطيل البيزنطيين في بحر ايجه(٦٨).

وأضاف ابن طولون بأن نقل بعض وحدات الاسطول إلى طرسوس وجعلها قاعدة حربية تخرج منها السفن لشد أزر القوات البرية التي تهاجم معاقل البيزنطيين في آسية الصغرى . وقد أصبحت مدينةطرسوس

في هذه الفترة ذات أهمية كبيرة في الصراع البحري بين الطولونيين والبيزنطيين ، لقربها من شواطىء آسية الصغرى . وقد حاول أحد امراء البحر البيزنطي والمسمى هيمريوس قطع أسباب الاتصال بين اسطول طرسوس وكريت ليتمكن من السيطرة على اسطول طرسوس منفرداً ولتنكشف له سواحل الشام . إلا ان اسطولي طرسوس وكريت تمكنا من أن يحدا من شوكة البيزنطيين البحرية(٦٩) .

ويبدو أن البيزنطيين اتخذوا في الفترة الأولى من حكم الطولونيين دور المهاجم . وكان الطولونيون يردون عليهم بغزوات انتقامية . ولا يوجد مبرر لقصور ابن طولون أمام البيزنطيين إلا انشغاله في خلافه مع الموفق ، وفي الثورات التي أشعلها ولاته على الثغور وشمالي الشام . حتى إن باسيل الأول تمكن من دفع حدود المسلمين شرقاً على طول خط الحدود بين الدولتين . واستولى في الفترة مابين ٢٥٨ — ٢٦٨ هـ / ٨٧١ — ٨٨١ م على جميع المعابر التي تنفذ منها الجيوش الاسلامية إلى آسية الصغرى ، على الرغم من أن بعض ولاة الطولونيين أبدوا نشاطاً واضحاً في الدفاع عن الثغور والوقوف في وجه البيزنطيين (٧٠) .

وكان موقف الثغور في عهد خمارويه بن أحمد بن طولون مشرفاً بفضل سيطرة يازمان عليها . وقام يازمان — الذي اشتهر بالجهاد — بالغزو في سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ — ٨٨٨ م من جهة البر . ثم قام في السنة التالية بغزوة بحرية ، فاستولى على أربعة مراكب للبيزنطيين . واستمر يازمان في غزواته ضد البيزنطيين حتى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ — ٨٩٢ م حيث أصيب أمام حصن سلندو أثناء قيامه بالغزو فتوفى على اثر ذلك(٧١) .

واستمرت قبضة الطولونيين قوية على الثغور في عهد خمارويه حتى بعد وفاة يازمان ، بفضل جهود طغج بن جف في فتح بعض المناطق في الأراضي البيزنطية . كذلك فقد استمرت الثغور في صمودها في وجه البيزنطيين حتى بعد وفاة خمارويه ، ولم يكن ذلك بسبب قوة خلفائه ، ولكن بفضل وقوف بعض ولاة الثغور بحزم في وجه البيزنطيين.

وعلى الرغم من حدوث بعض المعارك البحرية . وانتصار الطولونيين وولاتهم على الثغور في هذه المعارك ، كما حدث في عهد كل من يازمان، وراغب الخادم ، إلا أن ذلك لايعني أن الطولونيين تفوقوا في مجال البحرية على البيزنطيين . كما أنه لايمكننا أن نأخذ بما ذكره ارشيبالد من أن النشاط البحري توقف في عهد الطولونيين ، بل يمكن أن نضيف إلى ماقاله — لتكون الصورة مكتملة — أن الطولونيين تمكنوا من الوقوف في وجه الاعتداءات البحرية البيزنطية ، وقاموا ببعض الغارات.وتمكنوا بفضل ماقاموا به أن يمنعوا سفن البيزنطيين من الاقتراب من شواطىء بلاد الشام .

وما لبث البيزنطيون في نهاية هذه الفترة ، أن اتخذوا دور المهاجم. عند ذلك اتخذ الخليفة المعتضد قراره بحماية الثغور والدفاع عنها من قبله مباشرة ، واستعادها من أيدي الطولونيين بناء على الحاح من جانب أهالي الثغور .

* * *

٤ — الحروب مع البيزنطيين أيام الاخشيديين والحمدانيين :

— أحوال الثغور بين الامارتين الطولونية والأخشيدية .

تولى العباسيون حماية الثغور ودفع خطر البيزنطيين عنها ، ولديهم متاعب داخلية كثيرة ،زادها اشتداد خطر القرامطة . ولذلك لم تسمح الظروف لهم أن يقفوا بحزم لصد الخطر البيزنطي . واستمر البيزنطيون في غيهم مستغلين ظروف العباسيين السيئة ايما استغلال . وما أن تخلص العباسيون من خطر القرامطة ، واستقرت الأوضاع في بلاد الشام لمصلحتهم حتى بدأ نشاطهم يظهر في قتال البيزنطيين ، وكذلك عاد نشاط البحرية في كل سواحل الشام وبشكل خاص في طرسوس إلى الظهور . ولم يكن العباسيون في الفترة الأولى مكتوفي الأيدي تجاه البيزنطيين إذ أنهم على الرغم من سوء الأوضاع قاموا ببعض الغزوات الناجحة ، منها ماقام به غلام زرافة الذي غزاالبيزنطيين **بحراً في سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣ — ٩٠٤** م وفتح مدينة انطاليه على الساحل ، واستنقذ من أسرى المسلمين أربعة آلاف شخص ، كما أنه استولى على ستين مركباً للبيزنطيين فحملها كل ماغنمه من الفضة والذهب والمتاع والرقيق ، حتى قدر نصيب الرجل الواحد من الغزاة بألف دينار(٧٢).

كما أن ليو الطرابلسي استطاع ان يبحر بأساطيل من طرابلس

وسائر مدن الشام الساحلية ليهدد سالونيك . وبقي مصدر رعب لسكان بحر ايجة جيلاً من الزمان . ووقعت حامية سالونيك البحرية أسيرة الأساطيل الاسلامية ، وفقدت عدداً كبيراً من رجالها . وظل بحارة تلك الأساطيل عشرة أيام في المدينة يدمرون استعداداتها الحربية ، ومابها من معدات بحرية حتى جعلوها عاجزة عن أن تمد اسطول البيزنطيين بما يحتاجه من عتاد . وعادت بعد ذلك الاساطيل مجتمعة إلى جزيرة كريت حيث اقتسمت الغنائم ، ثم رجعت أساطيل الشام المؤتلفة إلى قواعدها بطرسوس والاسكندرية(٧٣).

وأخذت غزوات المسلمين تتقدم في الأراضي البيزنطية . وعادت المصادر التاريخية إلى ذكر الصوائف التي كانت موفقة في معظمها ، وأسفرت عن نجاح القائمين بها ووصولهم إلى أماكن متقدمة في الأراضي البيزنطية. ومالبث الطرفان أن وافقا على اجراء فداء بينهما وهو الفداء الثامن الذي جرى في سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ — ٩٠٨ م، وفودي به مايقارب ثلاثة آلاف مسلم . وتلاه فداء آخر في سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ — ٩١٠ م . وتقدم المسلمون في سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ — ٩١٥ م بقيادة بشر الخادم ، وفتحوا عدداً كبيراً من حصون البيزنطيين ، وأسروا من البطارقة مائة وخمسين اسيراً (٧٤) .

ويبدو إلى جانب ماذكرنا أنه كان لقوة كل من الخليفتين العباسيين المعتضد ومن بعده المكتفي دور كبير في ظهور المسلمين على البيزنطيين. إلا أن الأمور مالبثت أن تدهورت في عهد الخليفة المقتدر ، وظهر بصورة جلية ضعف القائمين على الثغور وعدم مقدرتهم على الدفاع عنها في وجه تقدم البيزنطيين . وانتشر الذعر والهلع في جميع أنحاء البلاد

خوفاً من البيزنطيين . وتواردت شكاوى الناس على الخليفة المقتدر مما يقاسونه من البيزنطيين ، فأمدهم بقدر المستطاع بالمال والرجال ، وأرسل مونساً الخادم للغزو ، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لردع البيزنطيين مما جعلهم يتجرؤون في أعمالهم العدوانية(٧٥).

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ — ٩١٨ م تقدم البيزنطيون بطلب الهدنة والفداء ، فأجابهم الخليفة المقتدر إلى طلبهم . وتسهب كتب التاريخ في ذكر مدى ماأظهره الخليفة المقتدر بالله أمام الوفد البيزنطي لابراز ابهة الخلافة . إلا أن هذه الهدنة لم تطل ، وما لبثت الصوائف والشواتي أن عادت في نفس السنة في البر والبحر واستمرت سنوات متتالية . ومالبث البيزنطيون أن جنحوا للسلم في سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، وطلبوا عقد هدنة فأجيبوا إلى ذلك (٧٦) .

وما لبث القتال أن عاد ، فقد كان البيزنطيون يدركون مبلغ ضعف الخلافة العباسية في عهد الخليفة المقتدر ، وعدم تمكنها من الوقوف بحزم في وجههم ، حتى إن امبراطور البيزنطيين كتب في سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥—٩٢٦ م إلى أهالي الثغور يأمرهم بحمل الخراج ، وهددهم بالقتل والسبي إن لم يفعلوا(٧٧) . وبدأ البيزنطيون يشددون ضرباتهم للإفادة من ضعف الخلافة العباسية ، فخرجوا في سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ — ٩٢٧ م إلى مدينة ملطية ، فحاصروها حتى استسلمت وغادرها سكانها فارين إلى بغداد ، وأخذوا يناشدون الخليفة طالبين منه المعونة . إلا أنهم لم يتمكنوا من الحصول على شيء . وأعاد البيزنطيون الكرة في السنة التالية . وتمكنوا من دخول دبيل بعد حصارها والتضييق عليها ، وبقوا فترة فيها حتى تمكن المسلمون من اخراجهم. وتواردت الأخبار في سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م عن سقوط سميساط بيد

البيزنطيين . فأرسل المقتدر مؤنساً الخادم إلى هذا الثغر فصد البيزنطيين عنها(٧٨).

وهكذا بدأ سقوط الثغور الاسلامية بيد البيزنطيين الواحد تلو الآخر . فتملكوا بدليس وخلاط (٧٩) صلحاً في سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨م. وأرسل أهالي الثغور طالبين النجدة من العباسيين ، وهددوا بالخضوع للبيزنطيين ودفع إتاوة لهم إذا لم يحصلوا على معونة تمكنهم من الصمود ، إلا أن طلبهم هذا لم ينظر فيه . فقد كانت بغداد غارقة في فتنة عارمة خلع فيها الخليفة المقتدر ، ونصب مكانه القاهر . ثم مالبث أن أعيد المقتدر ثانية . وعلى اثر ذلك اضطر أهالي الثغور الجزرية ومنها ملطية وميافارقين وآمد وارزن إلى مصالحة البيزنطيين والخضوع لهم(٨٠). وعاود أهالي الثغور طلب النجدة إلا أنهم لم يحصلوا على مساعدة . وعلى الرغم من أن قائد الثغور تمكن من القيام بغارة ناجحة يقال أنه وصل فيها حتى عموريه ، إلا أن الثغور تتابع سقوطها واحداً تلو الآخر .

وتوالى على عرش الخلافة خلفاء ضعاف . وأخذ هؤلاء يتلقون كتب البيزنطيين التي يقدم فيها امبراطورهم اسمه على أسمائهم دون أن يثير ذلك فيهم أي نوع من الضيق مثل أوائلهم . وإذا كان ماذكره كل من سعيد بن البطريق ، ويحيى بن سعيد الأنطاكي(٨١) من أن كلاً من بطريرق الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ، أخذوا في ذكر اسم الامبراطور في صلواتهم وقداساتهم بناء على كتاب وجهه إليهم الامبراطور البيزنطي في سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧-٩٣٨ م مع رسوله، فان هذا يدل دلالة كبيرة على شدة ضعف المسلمين في تلك الفترة ، ووقوفهم

مكتوفي الأيدي أمام تدخل البيزنطيين في شؤون البلاد الاسلامية .
هكذا كان الوضع حين آل أمر الدفاع عن الثغور إلى الاخشيديين ومن بعدهم الحمدانيين .

- الحروب مع البيزنطيين في عهد الامارة الاخشيدية :

كان لدى أفراد الأسرتين الاخشيدية والحمدانية خبرة في قتال البيزنطيين . إذ تولى عدد من أمرائها قتال البيزنطيين قبل قيام الامارتين. ففي سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م قام طغج بن جف بغزو البيزنطيين من طرسوس حيث فتح وسبى(٨٢) . وتابع ابنه محمد الاهتمام بأمر الحدود مع البيزنطيين منذ أن عمل على انشاء الامارة الاخشيدية . فقد اشترك الاخشيديون مع الخلافة العباسية في دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين . وأول فداء اشترك فيه ابن طغج كان في سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧ - ٩٣٨ م(٨٣) . وقد كان هذا الفداء تعبيراً عن رغبة الاخشيديين في الحياة بسلام مع البيزنطيين ،إذ كانوا في حاجة إلى هذا السلام لتعرضهم للخطر المستمر من جانب الفاطميين في المغرب ، ولمواجهة القلاقل الداخلية التي تبثها الدعاية الفاطمية في البلاد(٨٤). وقد قوبلت رغبة الاخشيديين هذه برغبة مماثلة عند البيزنطيين . وتتأكد لنا هذه الرغبة من خطاب الامبراطور البيزنطي إلى الاخشيد في سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦- ٩٣٧ م ، وتظهر فقرات هذا الخطاب رغبة البيزنطيين في الصداقة مع الاخشيديين ، وفي تبادل الأسرى(٨٥) . إلا أن هذا لم يمنع من قيام بعض الغزوات(٨٦).

ويتضح اهتمام الاخشيد بما يجري في الثغور وعلى الحدود مع البيزنطيين من جهة ، وتقدير البيزنطيين له من جهة أخرى ، من اتفاق

الطرفين على القيام بفداء آخر للأسرى . وبدأ التفكير في هذا الفداء عندما أرسل الامبراطور رومانوس رسولاً إلى الاخشيد يحمل إليه إناء من الذهب كهدية ، وكتاباً يتودد إليه فيه ويطالب منه تبادل الأسرى وتنظيم الفداء . وقد أجابه الاخشيد مؤكداً ولاءه للخليفة ، وقبل منه ماعرضه من فداء الأسرى ومباداتهم(٨٧) . وبدأ تنظيم هذا الفداء في أيام الاخشيد، إلا أنه مالبث أن توفى ، فعمل كافور على اتمامه ، ودفع إلى القائمين به ثلاثين ألف دينار . وتوجه هؤلاء إلى طرسوس ، إلا أنهم وجدوا والي الثغور يدعو لسيف الدولة ، فأتم الفداء ونسب إليه (٨٨) .

وهكذا يبدو أن الاخشيديين اتبعوا سياسة المهادنة مع البيزنطيين، فمكنتهم هذه السياسة من توجيه اهتمامهم ــ بشكل خاص محمد بن طغج ــ إلى اقتصاديات المناطق التابعة له ، واصلاح أحوالها وتقوية قبضته عليها امام إمارة الحمدانيين . كما كان لهذه المهادنة أثرها في اتجاه البيزنطيين نحو الثغور الجزرية(٨٩).

ـ الحروب مع البيزنطيين أيام الحمدانيين :

تسلم الحمدانيون مهمة الدفاع عن الثغور الشامية ، وكان تسلمهم لهذه المهمة في أصعب الظروف بالنسبة للمسلمين وأفضلها بالنسبة للبيزنطيين . فقد وصلت الدولة العباسية إلى حالة شديدة من التفكك ، في الوقت الذي كانت فيه قوة بيزنطة آخذة في الازدياد والنمو . فقد تجزأت الخلافة الاسلامية إلى دويلات متعددة متنازعة متناحرة،وسيطر البويهيون على الخلافة العباسية ، واستأثروا بالسلطة الفعلية من دون

الخلفاء . وإلى جانب عدم اهتمامهم بصد زحف البيزنطيين ، فانهم كثيراً ماوقعوا في خلاف مع الحمدانيين بالموصل من أجل دفع ماعليهم من أموال . ولم تكن بلاد الشام تابعة لامارة واحدة ، بل كانت موزعة بين الاخشيديين والحمدانيين . وكم شغل الطرفان بخلافاتهما في أول الأمر عن الوقوف في وجه البيزنطيين . ويتضح من كل ذلك أن البيزنطيين الذين كانوا قد بدأوا منذ فترة يستولون على أجزاء هامة من الثغور الاسلامية ، لم يواجهوا جبهة اسلامية موحدة بل دولاً مفككة الأوصال أضعفتها الانقسامات السياسية والمذهبية . وكان نشاط البيزنطيين محدوداً أول الأمر لانشغالهم بقتال البلغار ، إلا أنهم وبعد أن أنهوا مشاكلهم هذه ، أخذوا يقفون موقفاً أكثر حزماً وصلابة مع جيرانهم المسلمين. وتحول موقف البيزنطيين في القرن العاشر الميلادي من الدفاع إلى الهجوم. وكان ذلك في الوقت الذي استولت على العرش البيزنطي أسرة من أقوى الأسر في التاريخ البيزنطي ، وهي الأسرة المقدونية التي نفخت في الدولة روحاً جديدة بفضل ما وفرته لها من استقرار داخلي وقيادة رشيدة . ويضاف إلى هذا أن نظام الثغور اكتمل عند البيزنطيين في القرن العاشر الميلادي في عهد الأسرة المقدونية . وحل مكان الجيش المأجور جيش جديد من الجند الفلاحين(٩٠) .

واندلعت الحرب الاسلامية البيزنطية في الثغور فترة حكم الحمدانيين دون توقف على طول الحدود بينهما من المتوسط حتى ارمينية ، وعبر مناطق الحدود في كل من الدولتين . وخاض هذه الحروب كثير من أفراد البيت الحمداني منذ قيام امارتهم في الموصل ، وخاصة في الجبهة التي تضم ارمينية واقليم الجزيرة . وحين تأسست امارتهم في

حلب ، تسلموا مهمة الدفاع عن الثغور الشامية . وكانت كفة الحرب طوال هذه المعارك متقلبة ، كما كان الطابع المميز لها عموماً الهجوم السريع من جانب كل من الطرفين ، وتخريب ونهب ما يمكن تخريبه ونهبه في اسرع ما يكون ، والعودة الى حيث بدأ الهجوم . وكان على كل طرف أن يتجسم مصاعب ومخاطر عبور جبال طوروس (٩١) . ويمكننا أن نقسم الحروب الحمدانية البيزنطية إلى ثلاث فترات تتميز كل منها بميزات متشابهة .

الفترة الأولى : وهي حروب الحمدانيين والبيزنطيين قبل تأسيس إمارة حلب . وتنتهي هذه الفترة سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م، وتشمل الحرب في الجبهة الارمينية واقليم الجزيرة . وفي هذه الفترة بدأ الحمدانيون حروبهم مع البيزنطيين منذ سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م . تمكن الحمدانيون فيها من تحقيق النصر على البيزنطيين في معظم غزواتهم . ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق أي توسع على حسابهم . واتسمت هذه الحروب بكونها غارات سريعة خاطفة ، كانت غايتها عدم تمكين البيزنطيين من تقوية دفاعاتهم ، وعدم السماح لهم بالتالي بالتقدم في الأراضي الاسلامية ، إلى جانب تحقيق فكرة الغزو والجهاد في سبيل الله . وقد وقف الحمدانيون في هذه الفترة موقفاً مشرفاً تجاه البيزنطيين . وكان أفضلهم في ذلك سيف الدولة . وكثيراً ماخلد الشعراء هذه الحروب بأشعارهم . ويقال ان الخليفة العباسي المقتدر حين ولى سعيد بن حمدان امارة الموصل ، اشترط عليه غزو البيزنطيين واستعادة ملطية منهم . فحقق ذلك ، ورد البيزنطيين عن سميساط (٩٢) . وتكررت هجمات الحمدانيين على البيزنطيين برئاسة سيف الدولة ، وكان نتاجها تحطيم مقاومة البيزنطيين بين حصن سلام وحصن زياد (٩٣) ، كما عمل على مساعدة الكرج في حروبهم ضد البيزنطيين ، وعمل بمساعدتهم على اجلاء البيزنطيين عن بلادهم ،

ووصل في بعض غزواته إلى أماكن لم يطأها أحد من المسلمين قبله(٩٤).

أثارت هذه الفتوحات حفيظة الامبراطور البيزنطي ، فكتب إلى سيف الدولة كتاباً شديد اللهجة . فكان جواب سيف الدولة أكثر حدة مما أثار الامبراطور البيزنطي الذي قال : (يكاتبني هذه المكاتبة كأنه قد نزل على قلونيه) . ذكرها الامبراطور لعظمتها وشدة تحصينها. فقرر سيف الدولة أن يتحدى الامبراطور وأن يدخل هذه المدينة ويكاتبه منها . فسار حتى نزل عليها فأحرق رساتيقها وسلب ضياعها . وكتب إلى الامبراطور كتاباً من قلونية أدى إلى خوف وهلع البيزنطيين منه . وأصبح سيف الدولة مهيب الجانب ، وزعيم الجهاد الأكبر في الأقطار الاسلامية (٩٥).

ومالبث الحمدانيون أن شغلوا في الفترة بين سنتي ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ — ٩٤٤ م بمشاغل في عاصمة الخلافة كان محورها السلطة العليا ، وتسلم مهمة الدفاع عن الثغور أمير طرسوس . عند ذلك استغل البيزنطيون الفرصة وأخذوا يغيرون على مناطق الحدود على الرغم من انشغالهم في مشاكلهم في أوربا . فوصلوا في سنة ٣٢٩ هـ إلى منطقة كفرتوثا . كما أنهم انطلقوا في سنة ٣٣٠ هـ في سهول قليقية حيث دخلوا بلاد الشام ووصلوا على مقربة من حلب . فنهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان(٩٦) . كما تقدموا في السنة التالية حتى وصلوا قرب نصيبين حيث سبوا الأهالي ، وأحرقوا القرى . وفتحوا في جولتهم هذه ارزن ودارا . كما استولوا على ميافارقين وغيرها . كما تقدم البيزنطيون في سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ — ٩٤٤ م إلى رأس عين فأخذوا جميع ماكان فيها ونهبوها ، وكان فيها قوافل كثيرة للتجار تحمل أمتعة لايقدر

ثمنها ، فأخذت جميعها . وسبى البيزنطيون من أهلها ثلاثة آلاف انسان ثم تركوها (٩٧).

وتجرأ البيزنطيون وطالبوا بمنديل المسيح الذي كان ببيعة الرها — والذي قيل ان عيسى بن مريم عليه السلام مسح به وجهه فترك عليه رسمه — وذلك مقابل اطلاق سراح أسرى المسلمين الذين بأيديهم . واستفتى الخليفة الفقهاء في الأمر ، فقرروا تسليم المنديل وتخليص الأسرى . وأضاف أهل الرها بأن اشترطوا على البيزنطيين مقابل ذلك أن لايعبروا فيما بعد على بلدهم . وعقدوا بينهم هدنة مؤبدة . وتسلم البيزنطيون المنديل وحملوه إلى القسطنطينية ، ودخلوا به إليها في ٢١ ذي الحجة سنة ٣٣٢ ﻫ / ١٥ اغسطس سنه ٩٤٣ م ، واحتفلوا بدخوله احتفالاً عظيماً ، ثم وضعوه في الكنيسة العظمى أيا صوفيا(٩٨) .

أما الفترة الثانية فهي فترة قوة الحمدانيين في حلب ، وتمتد من سنة ٣٣٣ — ٣٤٩ ﻫ / ٩٤٦ — ٩٦٠ م . وأهم مميزات هذه الفترة ظهور الحمدانيين على البيزنطيين ، كما كان سيف الدولة في أثنائها مسيطراً على الجبهة الداخلية في إمارته ، وكان الموجه والمسؤول عن الحرب ضد البيزنطيين . وامتدت حروبه على جبهة شملت كافة الثغور المسماة بثغور الشام والجزيرة . وتمكن سيف الدولة خلال هذه الفترة من الوقوف في وجه البيزنطيين الذين كانوا في دور الصحوة . ولولا صمود سيف الدولة ووقوفه في وجه البيزنطيين ، لتمكنوا من احتلال بلاد الشام بأسرها . وفي هذا الدور استقر الحمدانيون في حلب فانحسر القتال عن الجبهة الأرمينية ، وامتد على طول جبهة جديدة من قليقية حتى ديار بكر . وكان الدافع لقتال البيزنطيين في هذه الفترة الردع والأخذ بالثأر ، والوقوف في وجه

غزواتهم ، بالاضافة إلى الجهاد والرغبة في طلب الثواب واحراز الغنائم . ولم تسفر هذه الحروب عن استقرار دائم في المناطق المفتوحة .

ووقع بين سيف الدولة والبيزنطيين في هذه الفترة حروب سنوية مستمرة ، لايسمح لنا المجال باستعراضها كلها . وسنعمل على ذكر أهمها والتي كانت ذات نتائج كبيرة على أحد الطرفين . فبعد هجوم ناجح قام به سيف الدولة على حصن زياد في سنة ٣٣٥ ﻫ / ٩٤٧ م وهجمة بيزنطية مضادة انتقامية(٩٩) . عاود سيف الدولة هجومه في سنة ٣٣٦ ﻫ / ٩٤٧ – ٩٤٨ م على الأراضي البيزنطية ، وهاجم حصن برزويه وحاصره . وأدرك الامبراطور البيزنطي عجزه عن قتال سيف الدولة . فارتأى أن يعمل على الاستيلاء على ممر الحدث مرعش ليجبر سيف الدولة على فك الحصار عن برزويه . وبدأ يحاصر مدينة الحدث . وعلى الرغم من وصول نفير الحدث إلى سيف الدولة إلا أنه قرر أن يستمر في حصار حصن برزويه حتى يفتحه . وفي تلك الأثناء استسلم حصن الحدث للبيزنطيين ، فاستولوا عليه وأخربوا سوره . كما استسلم حصن برزويه لسيف الدولة ، ففعل به مافعله البيزنطيون بالحدث (١٠٠) .

وتجرأ البيزنطيون بعد معركة الحدث فدخلوا في السنة التالية مدينة مرعش فدمروها وهدموا قصورها ، ونهبوا أموالها ، ثم اتجهوا إلى طرسوس . فقاتلوا عند أسوارها إلا أنهم لم يفتحوها ، وحملوا على جزيرة كريت دون جدوى . ويبدو أن سيف الدولة أراد أن يتفقد

شؤون الجزيرة ، فذهب إليها في سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ ـــ ٩٥٠ م فاستغل البيزنطيون الفرصة وهاجموا شمالي بلاد الشام حتى أنهم بلغوا مداخل انطاكيه ، وحاصروا بوقا في سهل العمق(١٠١).

وفي سنة ٣٣٩ هـ استعد سيف الدولة لقتال البيزنطيين . فألزم أهل الرهافي الغزو معه . كماضم إليه أربعةآلاف مقاتل من طرسوس . ثم نهض بجموعه عن طريق ملطيه ـــ قيسارية فاحتل صارخة وقتل وسبي وأحرق. وأراد العودة إلى حلب نظراً لحلول فصل الشتاء ، فعبر نهر الهليس واتجه جنوباً ، إلا أنه علم أن قائد البيزنطيين حشد جيشه في منطقة خرشنة فأوقف السير وعاد فعبر نهر الهليس وأوغل في الأراضي البيزنطية حتى بلغ خرشنة ، فأنزل بالبيزنطيين خسائر كبيرة ، ثم تجاوز خرشنة وفتح عدة حصون للبيزنطيين وسبي أعداداً كبيرة من أمرائهم . وعاد غزاة طرسوس الذين رافقوا سيف الدولة في غزوته هذه إلى بلادهم في ٥ جمادى الثانية سنة ٣٣٩ هـ / ٢٠ نوفمبر سنة ٩٥٠ م . وتوجه سيف الدولة ببقية جنوده نحو الجنوب(١٠٢).

وفي سنة ٣٤٤ هـ استغل البيزنطيون انشغال سيف الدولة بقتال القبائل العربية التي خرجت عليه ، فنزلوا على ثغر الحدث . وكانت غايتهم تخريب التحصينات التي أقامها سيف الدولة . واهتموا بأن يتمموا عملهم دون أن يعلم سيف الدولة . ولذلك فانهم قطعوا كافة الطرق المؤدية إلى هذا الثغر إلا أن الأخبار تسربت إلى حلب . فجهز سيف الدولة جنوده وسار إليها حتى نزل بظاهرها . فوجد أن البيزنطيين قد فروا بعد أن علموا بمجيئه تاركين عدداً من آلات الحرب ، فغنمها أهالي الحدث وأدخلوها إلى الحصن(١٠٣).

وفي سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ — ٩٥٧ م أراد سيف الدولة أن يقوم بغزوة إلى بطن هنزيط ، وفي طريقه قصد مدينة تل بطريق(١٠٤). فأحرقها وقتل من البيزنطيين أربعة آلاف رجل . ولما خرج وجد أن البيزنطيين قد استولوا على الطريق الذي سيمر به . فنشب بينه وبينهم قتال تمكن من احراز النصر فيه . وقام بهجوم آخر على سمندو ،وحاصر حصن زياد وأراد أن يستمر في تقدمه ، إلا أنه مالبث أن اضطر للعودة بعد أن علم بأن الدمستق توجه إلى الشام . إذ أن البيزنطيين عندما رأوا نجاح غزوة سيف الدولة هذه قاموا بهجوم مضاد على الأراضي الشامية. وهاجموا مدينة طرسوس من البحر فقتلوا من أهلها الكثير (١٠٥) .

ويبدو أن سيف الدولة انشغل في الخلافات التي قامت بين الحمدانيين بالموصل والبويهيين وخاصة بعد أن استنجد به أخوه ناصر الدولة حين انهزم أمام معز الدولة البويهي . فلم يتمكن من الرد على البيزنطيين بنفسه فسير إليهم غلامه نجا في عشرة آلاف . ولم يتمكن نجا من تحقيق النصر ، واستولى البيزنطيون على كل مامعه من مال ومتاع (١٠٦) .

وتجرأ البيزنطيون على القيام بهجمات متتالية على الثغور ، وتمكنوا في بعضها من دخول بلاد الشام . فقد أغاروا على قورس ، وأسروا عدداً كبيراً من أهلها ، وتمكن سيف الدولة من انقاذهم . وما لبث البيزنطيون أن عادوا ثانية إلى نواحي ديار بكر في سنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٩— ٩٦٠ م ، ولما توجه سيف الدولة للقائهم ، غيروا خطتهم وساروا نحو بلاد الشام . وأخذوا يخربون الحصون ويقتلون الأهالي .

انتشرت موجة من الغضب على مافعله البيزنطيون في بلاد الشام في أرجاء العالم الاسلامي . وتجاوب الاخشيديون ، فارسلوا نجدات شعبية ونظامية لمساعدة الحمدانيين في قتال البيزنطيين بناء على اصرار

الشعب في مصر على مساعدة أهالي الشام في غزو البيزنطيين . وفشلت هذه المساعدة بسبب سوء تنظيمها(١٠٧).وتوجه سيف الدولة سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠ م وبرفقته ثلاثون ألف مقاتل إلى حصن خرشنة ، فأحرز نصراً كبيراً ، إلا أنه فوجيء بكمين بيزنطي في درب مغارة الكحل . تمكّن من استرجاع الأسرى واسترد جميع ماغنمه سيف الدولة وقتل عدداً كبيراً من رجاله ، وأسر ابن عمه أبا فراس الذي ترك بخرشنه مدة مع عدد كبير من المسلمين ، حيث أنشد أجمل أشعاره(١٠٨) .

وهكذا فعلى الرغم من بعض الهزائم التي لحقت بسيف الدولة وبشكل خاص في نهاية هذه الفترة إلا أنه يمكن القول إن الحمدانيين في شمال بلاد الشام كانوا على الأغلب منتصرين على البيزنطيين ، كما كان القتال يجري في الثغور الأمامية ، وفي كثير من الأحيان كانت القوات الحمدانية بقيادة سيف الدولة تتخطى الثغور لتهاجم البيزنطيين في بلادهم . وفي كثير من الغزوات دخل سيف الدولة مدناً لم يدخلها غيره . كما أبدى من ضروب البطولة ماأشاد به الشعراء . ولكن حدث في سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م ماغير هذه الصورة .

ففي هذه السنة بدأت الفترة الثالثة من حلقات الصراع بين الحمدانيين والبيزنطيين وهي التي تجلى فيها ضعفهم ورجحان كفة البيزنطيين عليهم وتغير ميزان القوى على هذا النحو لصالح البيزنطيين يرجع في جانب منه إلى تغير الأوضاع الداخلية في الامارة الحمدانية ، وفي الجانب الآخر إلى تغير الأوضاع في الامبراطورية البيزنطية .

فقد حدثت بعض الأمور في الامارة الحمدانية أدت إلى تمادي

البيزنطيين في اعتداءاتهم على شمال الشام وتقدمهم وامتلاكهم لكثير من المناطق . من ذلك تفرق أهالي البادية عن سيف الدولة بسبب ماجرى بينه وبينهم من خلافات دعته إلى شن عدة حروب ، فتقاعس هؤلاء عن المسير معه لقتال البيزنطيين . كما أن العلاقات ساءت بين سيف الدولة وبعض ولاته على الثغور ، من أمثال ابن الزيات ، ورشيق النسيمي . وكثيراً مااضطر سيف الدولة إلى توجيه جيوشه لتأديب هؤلاء بدلاً من تجميع قواته ومواجهة البيزنطيين . يضاف إلى ذلك مانشأ من خلافات بين الحمدانيين في الموصل والبويهيين ، وماترتب عليه من انشغال اخيه ناصر الدولة عنه بحرب معز الدولة البويهي . هذا إلى جانب مأصاب سيف الدولة من الضعف في أواخر أيامه . فقد أصيب بالفالج الذي أقعده ، وأطمع ذلك فيه بعض نوابه وأقاربه فثاروا ضده . مما سبب قصوراً كبيراً في دفاع الحمدانيين(١٠٩).

وعلى النقيض من ذلك أخذت أمور البيزنطيين في التحسن . فقد انتصروا في الجبهة الأوربية وغزوا جزيرة كريت ، وتمكنوا في محرم سنة ٣٥٠ هـ / مارس ٩٦١ م من فتحها . وعلى اثر ذلك نقل نقفور دمستق المغرب ، وأصبح دمستقاً للمشرق . وكان نقفور ويوحنا تزيمكس من أعظم قواد الامبراطورية البيزنطية والأسرة المقدونية التي تولت حكم الامبراطورية في هذه الفترة . وتمكن هذان القائدان من اكتساب مناطق كبيرة من المسلمين في سواحل الشام ومنطقة الفرات والجزيرة(١١٠).

وبلغ الأمر بنقفور أن أرسل انذاراً إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولي

على بلاد العراق والشام ومصر ، ومن الخير للخليفة العباسي أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين. وكان هذا الانذار يفيض بروح التعصب . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل المسلمون غارقين في خلافاتهم الداخلية التي أنهكتهم وأضعفت قواهم(١١١).

ورسم نقفور سياسته على أن يقوم بعمليات عسكرية في قيليقية حيث مدن الثغور الهامة في طريقه إلى الشام، وينازل المسلمين في البلاد الجزرية ليؤمن ظهره من أي هجوم اسلامي . وقد بدأ نقفور أعماله العسكرية في الشرق بالنزول على عين زربة حيث حاصرها ، وعلى الرغم من مساعدة أهالي طرسوس للمدينة ، تمكن نقفور من فتحها ودخلها في ذي القعدة سنه ٣٥٠ ه / ديسمبر ٩٦١ م ، بعد أن أعطى أهلها مدة يوم واحد للانتقال منها، ثم قتل كل من وجده بها وهدم سورها،وفتح حولها أربعة وخمسين حصناً . وتمكن سيف الدوله من استعادة المدينة، فرد أهلها إليها ، وفتح حصن دلوك ورعبان ومرعش ، كما وجه غلامه نجا إلى حصن زياد(١١٢).

ومالبث نقفور أن أعاد الكرة ، واستولى على عين زربة مفتاح الشام وتدفقت جيوشه إلى سهول الشام حتى منبج ، فأغاروا عليها وكانت تحت حكم أبي فراس ، فأسروه وحملوه إلى القسطنطينية حيث بقي في الأسر حتى سنة ٣٥٥ ه / ٩٦٥ - ٩٦٦ م(١١٣) . وفاجأ نقفور سيف الدولة بتوجهه نحو حلب إذ أنه لم يكن يظن أن جرأة نقفور تصل به إلى هذا الحد . واضطرب سيف الدولة لأنه كان قد ترك قسماً كبيراً من جيشه في قيساريه لمنازلتها . فأرسل ماتبقى من جيشه

مع غلامه نجا للوقوف في وجه نقفور، وأخذ هو في جمع الجنود . وجرت معركة بين نجا والبيزنطيين في ناحية اعزاز ، انهزم الأول على اثرها وفر عائداً في اتجاه حلب . كما غادرها سيف الدوله قاصداً طريق بالس ، فطارده البيزنطيون حتى قرية سبعين . وسنحت الفرصة لنقفور بدخول حلب في يوم السبت ١٨ ذي القعدة ، سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢م ، فخرب ظاهر دار سيف الدوله ، وأخذ كل مافيها من أمتعة وذهب ، ثم زحف إلى القلعه ليحاصرها ويستولي عليها ، ففقد قريبه من أجل ذلك ، الذي قتل على أيدي حماة القلعة . وانتقم البيزنطيون لمقتله بقتل اثني عشر ألفاً من أسرى المسلمين . وأقام نقفور في حلب ثمانية أيام عاد بعدها إلى القسطنطينية ، بعد أن غنم غنائم عظيمة مالاً ورجالاً . وفي أثناء عودته كان يطلب من الفلاحين في القرى أن يزرعوا أراضيهم ليستفيد من محاصيلها عند عودته إليهم(١١٤).

وعلى الرغم من أن احتلال نقفور لحلب كان قصير الأمد ، إلا أنه نتج عن ذلك من النتائج ماأضعف قوة الحمدانيين . فقد نهبت أكثر أموال سيف الدولة ، كما أنه فقد في قتاله لنقفور أعداداً كبيرة من رجاله . يضاف إلى ذلك ماأحدثه هذا الانتصار من رعب في قلوب الرعية(١١٥).

ودوى صدى دخول البيزنطيين إلى حلب في كافة أرجاء البلاد الاسلامية ، فقد أغلق أهالي الموصل الأسواق ، واجتمعوا في المسجد مطالبين ناصر الدولة بالغزو . كما أن أهالي بغداد أغلقوا الأسواق ، وضجوا أمام دار الخلافة ، حيث أخذوا يشرحون ماأصاب حلب(١٦). وقد استجاب لنداء الجهاد نحو خمسة آلاف رجل من الخراسانيين غير

أنهم وصلوا إلى حلب بعد فترة متأخرة ، حيث اجتمعوا مع سيف الدولة ونفروا برفقته الى المصيصة لدفع البيزنطيين عنها . كما أرسل الاخشيديون نخبة من أهل دمشق بقيادة ظالم بن سلال العقيلي لمساعدة سيف الدولة بعد ان استنجد بهم ، إلا أنهم وجدوا البيزنطيين قد انسحبوا من حلب . وعاد سيف الدولة إليها (١١٧) .

وهكذا تمكن نقفور في فترة وجيزة من أن ينتزع من أيدي المسلمين جملة من المدن والحصون والمعاقل ، فانتزع الهارونية وعين زربة ودلوك وأذنة وغير ذلك من الثغور . وفوق كل ذلك فقد أخذ البيزنطيون وأباطرتهم يدخلون مايحلو لهم من بلاد الاسلام دون أن يجدوا رادعاً كافياً يردعهم(١١٨).

غير أن البيزنطيين توقفوا عن الأعمال الحربية في قليقية وبلاد الشام فترة من الزمن بسبب ثورة القسطنطينية ، فاستغل سيف الدولة وأهالي الثغور هذه الفرصة وقاموا ببعض الغزرات الناجحة . فخرج أهالي طرسوس وانسابوا في الأراضي البيزنطية بأعداد وافرة ، وأوقعوا بالبيزنطيين وانتصروا عليهم ، وعادوا بغنائم وفيرة . وكذلك دخل سيف الدولة الأراضي البيزنطية وسبى مايزيد عن ألفي شخص . وتوجه بعدها إلى حران ، ثم عطف على ملطية فغنم ، ثم خرج إلى آمد . ويقال أنه استعاد عين زربة والمصيصة وغيرها.(١١٩)

وفي شوال سنة ٣٥٢ هـ / اغسطس ٩٦٣ م دخل أهالي طرسوس مرة أخرى البلاد البيزنطية للغزو . ودخل سيف الدولة ومعه غلامه نجا من درب آخر . غير أن سيف الدولة لم يستطع أن يتوغل معهم لمرضه بالفالج ، فأقام على رأس درب من تلك الدروب بينما أوغل أهالي

طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية ، ثم عادوا وعاد سيف الدولة إلى حلب(١٢٠).

وتمخضت أمور القسطنطينية بعد الثورة التي قامت بها عن تنصيب نقفور امبراطوراً . فعاد إلى الثغور أقوى مما كان من قبل . وبدأ نقفور في هذه الفترة بالاعتداء على الثغور ، ومحاربة أهاليها حرباً اقتصادية. ويتلخص ذلك في حرق المحاصيل كل سنة في موسم حصادها حتى يفتقر الأهالي وتحدث المجاعات ، ثم يعود بعد ذلك لاحتلالها . وأثمرت خطة نقفور ، فقلت الغلات في الثغور ، وعظم الغلاء ، فانتقل من الثغور في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م إلى الرملة ودمشق حوالي خمسين ألف شخص. وانتشر الوباء وخاصة في المصيصة وطرسوس حتى أكل الناس الميتة. ونظم نقفور أموره للقيام بالمهمة التي عزم عليها ، فأنشأ قاعدة للتموين في قيسارية ، لتكون الميرة قريبة من مناطق القتال المرتقب . وزحف بجيوشه على قيليقية ، فاقتحم عين زربة وأذنه وعشرين حصناً عربياً، واستولى على أسوس عند مدخل بلاد الشام . ولما حل فصل الشتاء عاد إلى قبادوقية(١٢١) . وقد تمكن نقفور من أن يجني ثمار جهوده السابقة ، فاستولى على المصيصة وأتبعها بطرسوس . ولما دخلها صعد على منبرها وقال لمن حوله « أين أنا » فأجابوه أنه على منبر طرسوس . فأجاب أنه على منبر بيت المقدس ، لأن طرسوس هي التي كانت تمنعه من الوصول إليها . وأخذ نقفور ينظم أمور الثغور التي يحتلها ، ويحصن المناطق ويعمرها ويمونها بالميرة ، لأنه كان يريد أن يتخذها مراكز للاندفاع منها إلى بقية بلاد الشام(١٢٢).

ويعود سبب استسلام أهالي طرسوس للبيزنطيين في هذه المحاولة لأسباب كثيرة ، منها أن البيزنطيين في هذه الجولة كانوا يهاجمون

المدينة بجموع غفيرة في نفس الوقت الذي كانت فيه عزيمة أهالي طرسوس قد ضعفت بسبب سقوط المصيصة وأسر أهلها . فضلاً عن الغلاء وقلة الأقوات ، وانقطاع المؤن عنهم ، وانتشار الوباء بينهم ، وعلمهم أن سيف الدولة عاجز عن نجدتهم لانشغاله عنهم بثورة غلامه نجا(١٢٣). ويمكن اعتبار الاستيلاء على مدينة المصيصة ومدينة طرسوس نهاية المرحلة الأولى من تدخل نقفور في الشرق ، وقد تبع ذلك المرحلة الثانية التي امتد فيها نشاطه بوجه خاص إلى البلاد الشامية ، كما ظهر في البلاد الجزرية . فأغار نقفور في سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م على دارا ولصيبين ، وحاصر آمد فامتنعت عليه ، ووصل إلى الحد الذي كان يفصل دولة البيزنطيين عن دولة الفرس . وقد قام نقفور بما قام به جرياً على سياسته في تخريب الأراضي الزراعية تمهيداً لغزو المدن الرئيسية(١٢٤).

وأخذ نقفور يجوب بلاد الشام ، فنزل في ١٨ شوال سنة ٣٥٥ هـ/١٨ اكتوبر ٩٦٦ م على مدينة منبج بعد أن نزل على بالس . ثم رحل إلى وادي بطنان فأسر من أهاليها عدداً كبيراً . وبعد ذلك سار نقفور الى قنسرين ونزل على تيزين وسبى أهلها ، وفتح كذلك حصن أرتاح ، وأصبح بذلك في موقف يهدد كلاً من حلب وانطاكية . وقد نزل نقفور على حلب وخرب أراضيها ، وأرسل سيف الدولة إلى نقفور يعرض الصلح في نظير دفع الجزية . لكن نقفور رفض واشترط أن يحصل على نصف الشام . وتوجه نقفور بعد ذلك إلى انطاكيه ، ونزل بجنوده بالقرب منها ، وألقى عليها حصاراً دام سبعة أيام ، وأرسل إلى أهاليها في أثناء الحصار يطلب منهم تسليم المدينة فأبوا عليه (١٢٥).

أوقعت هذه الحملة الفزع بين المسلمين في الشام ، وتوفي سيف الدولة في حلب في صفر سنة ٣٥٦ هـ / يناير ٩٦٧ م والأمور مع البيزنطيين على هذا الشكل . وبدأت بموته فترة جديدة من العلاقات بين البيزنطيين والحمدانيين . فقد أصبح الحمدانيون في وضع ضعيف للغاية أمام البيزنطيين الذين أخذوا يصولون ويجولون في بلاد الشام دون أن يردعهم رادع . وأصبح الموقف في شمال الشام مهيأ أكثر من أي وقت مضى للتقدم البيزنطي ، ولكن بالرغم من كل ذلك لم يعمل نقفور على استغلال هذه الأوضاع الملائمة إلا في أواخر سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م، وذلك بسبب مشاغله في الأمور الداخلية (١٢٦) .

ففي هذه السنة خرج نقفور في جولة في بلاد الشام ، استمرت حتى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ — ٩٦٩ م ، توجه خلالها إلى ديار مضر فدخل ميافارقين ، وارزن ، وبلد ، وبلغ كفرتوثا فقتل وسبي من أهل البلاد عدداً كبيراً . ويبدو أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الغزو سوى اضعاف قوة المسلمين هناك ، والتمهيد للاستيلاء على تلك المنطقة في فترة تالية ، إذ لم يلبث أن غير اتجاهه وتقدم إلى البلاد الشامية حيث أقام مدة شهرين ، فلم يجد منها قوةموحدةلدفع خطره. فخلاف في حلب بين سعد الدولة وقرعويه أدى إلى خروج سعد الدولة من حلب والالتجاء إلى حمص. وتوجه نقفور نحو معرة مصرين ففتحها ، وأتبعها بمعرة النعمان وحماه وحمص حيث أخذ رأس القديس ماريوحنا . ثم سار إلى طرابلس ، فأحرق ربضها وتركها . ثم حاصر عرقه تسعة أيام ففتح حصنها بالسيف ، وأسر كل من وجده بها . ثم توجه نحو مدن الساحل حيث حصل على الكثير من الأسرى والغنائم ، ففتح حصن

انطرسوس ، ومرقبة ، وحصن جبلة . وخافه أهالي اللاذقية فسلموا إليه المدينة . ثم عاد بعد أن صمم على فتح انطاكيه مهما كلفه الثمن . فبنى مقابلها حصناً في فم الدرب ، وأقام فيه رئيساً يقال له ميخائيل البرجي ، ودعمه برجال أقوياء،وكلفهم بمهمة الاغارة المستمرة على انطاكية وماپليها(١٢٧) . وفي تقدير نتائج هذه الحملة يذكر بعض المؤرخين أن نقفوراً استولى على ثمانية عشر منبراً ، وعدداً كبيراً من القرى ، وأنه أخذ من الأسرى نحو مائة ألف نفس(١٢٨).

ونتيجة لهذه الهجمات المتكررة تمكن البيزنطيون من دخول أنطاكيه سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ — ٩٧٠ م . وكان الاستيلاء عليها من أعظم نتائج التدخل البيزنطي في الشام في القرن العاشر الميلادي . فهذه المدينة الرئيسية التي بقيت في أيدي المسلمين منذ أن انتزعوها في صدر حركة الفتوحات الاسلامية في سنه ١٥ هـ / ٦٣٥ م عادت للحكم البيزنطي ، وأصبحت المعقل الأمامي لبيزنطة على حدود الشام الشمالية لمدة مائة وخمس عشرة سنة إلى أن تمكن المسلمون من استردادها(١٢٩).

وسرعان ماجاء دور حلب ، فقام البيزنطيون بعد ذلك بحصار المدينة ، ودام هذا الحصار سبعة وعشرين يوماً تمكنوا أثناءها من التقدم في الجانب الشمالي منها . وقد تحصن قرعويه وأهل المدينة بالقلعة . وقامت جماعة من أهل المدينة بالتوسط بين البيزنطيين والحمدانيين من أجل الصلح ، تم على اثره توقيع اتفاقية بين الطرفين في صفر سنة ٣٥٩ هـ / ديسمبر ٩٦٩ م . وبمقتضى نصوص تلك الاتفاقية ، وافق البيزنطيون على أن يحكم حلب أمير مسلم ، إلا أنهم فرضوا عليه من الشروط والقيود ماجعلوا به هذا الأمير مجرد

تابع للامبراطور البيزنطي . وقد ورد في الاتفاقية عدة فقرات توضح كيفية تعيين أمير حلب ، وتحدد البلاد التي يحكمها من قبل بيزنطة. كما وردت بها نصوص أخرى تعين التزاماته نحو الامبراطور البيزنطي وامتيازات البيزنطيين في امارة حلب ، وتنظم العلاقات المختلفة بين البيزنطيين والمسلمين في هذه المنطقة(١٣٠). وفي موضوع الالتزامات العسكرية التي فرضت على أمير حلب جاءت البنود التالية : (وإن ورد عسكر اسلامي يريد غزو الروم منعه قرعويه وقال له امض من غير بلادنا ولا تدخل بلد الهدنة ، فان لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه . وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازي لينفذ إليه من يدفعه . ومتى وقف المسلمون على عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر وأعلموهما به لينظروا في أمره) . وفيما يتعلق بعبور القوات البيزنطية أراضي حلب لغزو بلاد اسلامية أخرى فقد نص على مايأتي : (وان عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الاسلام تلقاه بكجور إلى المكان الذي يؤمر إليه ، وان يشيعه في أعمال الهدنة ، ولا يهرب من في الضياع ليبتاع العسكر الرومي مايحتاج إليه ،سوى التبن فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء . ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية إلى الحد . فاذا خرجت من الحد عاد الأمير إلى عمله). كما نصت الاتفاقية على أن يقوم أمير حلب بمساعدة البيزنطيين في حروبهم مع غير المسلمين . وقد احتاط البيزنطيون ضد قيام أية مقاومة ضدهم . واشترطوا على الحمدانيين عدم تخريب الحصون ، وأن لايحدثوا حصناً ، وان حدث وخرب حصن فعليهم إعادته.

وقد اهتم البيزنطيون بشؤون المسيحية والمسيحيين في هذه المنطقة وطالبوا بالسماح للمسيحيين بتعمير كنائسهم الخربة في أعمال الحمدانيين، كما فرضوا عليهم اكرام البطارقة والأساقفة الذين يزورون المنطقة، واستثنوا المسيحيين غيرالقادرين من دفع الجزية ، وعملوا على حماية تجارتهم والحصول على امتيازات تجارية(١٣١) . وعقد البيزنطيون اتفاقاً مشابهاً لهذا مع أفتكين حاكم دمشق بعد فترة من الزمن(١٣٢).

هكذا أصبحت أوضاع بلاد الشام في نهاية هذه الفترة . وقد رُسِمَتْ خطة البيزنطيين في بلاد الشام كما يبدو من هذا العرض على أن يعمل البيزنطيون على أن يكون على رأس الحكم في مدن الشام المختلفة أمير مسلم موال لهم ، وعلى استعداد للخدمة تحت أمرتهم ، وبذلك تمكنوا من أن يفرضوا نفوذهم على هذه المناطق التي خضعت لهم وأن يضمنوا ولاءها دون الحاجة إلى احتلال جنودهم لها . (١٣٣).

• • •

حواشي الباب الرابع

(١) ابراهيم أحمد العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٠٨ – فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، جزء ٢ ، ص ٢٤٠

(٢) ترد في ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ (البستان) ، بينما يذكرها القلقشندي في صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ٢٢٨ (الأبلستين) وسنعتمد على ماأورده ياقوت الحموي .

(٣) العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٠٨ – ١٠٩

(٤) العدوي : المرجع السابق ، ص ١١٨

(٥) Canard : les Expéditions des Arabs Contre Contantinople ., p68

(٦) Ibid : p. 68 – الذهبي : دول الاسلام ، جزء ١ ، ص ٣٦

(٧) Canard : op . cit ., pp. 68 — 71 – نبيه عاقل: تاريخ بني أمية، ص ٨٦ – ٨٧

(٨) ابراهيم أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص ١٠٩ – ١١٠

(٩) انظر ابن الاثير : المصدر السابق ،طبعة دار صادر ، جزء ٣ ، ص ٥٢٦ ، وجزء ٤ ، ص ٤٥٧ ، وص ٥٠٠ وص ٥٣١ ، وص ٥٥٦ وص ٥٧٨

(١٠) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، وجزء ٤ ، ص ٥٨٢ و ٥٩١

(١١) انظر : قدامة بن جعفر : المصدر السابق ، ص ٢٥٣ – ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٢ – كي لسترنج بلدان الخلافة الشرقيه ، خارطة ٤–فازيليف : المرجع السابق ، ص ٨٩ – : Canard : op. cit ., pp 61 — 62

(١٢) العدوي : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٧٦ – فتحي عثمان : المرجع السابق جزء ١ ، ص ٢١٤ ، Canard :SayfAl Dawla. , p 62 – 64.

(١٣) انظر البكري : معجم ماستعجم ، جزء ٣ ، ص ٧٥٧ – ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٧ – معجم البلدان لياقوت ، جزء ٣ ، ص ٢٠٢

Canard : op. cit., pp. 65 — 66

(١٤) فتحي عثمان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٥١ ، وص ٢٦٠

(١٥) انظر : البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٦ – ١٨٧ – كي لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٥١ – عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٢ – ٥٣

(١٦) العدوي : الامبراطوريه البيزنطية ، ص ٦٦ ، عن نشوء الايقونات انظر نفس المرجع من ص ٦٦ الى ٦٩

(١٧) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٩٩ – أحمد بن زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٢٣٦

(١٨) سيد أمير علي : المرجع السابق ، ص ١٨٨ – زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٧

(١٩) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١١٤ و ١٤٤ – البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٨

(٢٠) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٢٠ – ١٢١ – البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦ كانت المصيصه حصناً صغيراً بناه عبد الله بن عبد الملك . وكان البيزنطيون يهاجمونه كلما سنحت لهم الفرصة .

(٢١) اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٦ – العيون والحدائق : ص ١٦٥

(٢٢) حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٧

Canard . Sayf Al Dawla., p. 70 –

(٢٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٩ – ١٩٠ – سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٠٠

(٢٤) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٩ – اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٢٩

(٢٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ – البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٨ – ١٧١

(٢٦) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٩٦ وص ١٧١ – ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١١٣ ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٨٥

(٢٧) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨ وص ١٦٠

(٢٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٨ – حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨

(٢٩) منها : العيون والحدائق ، ص ٣٠١ – حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٨

(٣٠) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٦٧ – العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٩ – ٢٠٠

(٣١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨

(٣٢) أبو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ١٩ – ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٣٠٩

(٣٣) انظر : الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٢٠ – ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٣٠٩ – عاشور : قبرص والحرب الصليبيه ، ص ١٤

(٣٤) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ – السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٢ – ١١٣

(٣٥) المسعودي : التنبيه والأشراف ، ص ١٨٩ – الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٣٨ – ابن شداد : المصدر السابق ، ورقه ٧٢

(٣٦) العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٧

(٣٧) عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٤ .

(٣٨) فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٤ – ٩٥

(٣٩) ابن شداد : المصدر السابق ، ورقه ٧٤ وجه : ابن طيفور : المصدر السابق، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ الرفاعي : عصر المأمون ، مجلد ١ ، ص ٢٩٠ – فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٦

(٤٠) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٩٢ – ١٩٤ – ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٦٤ – فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٢ – ١٠٣

(٤١) انظر : فتحي عثمان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٧ – العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٣ – فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٠

(٤٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٢٩ - ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٨٤ - اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٦ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١

(٤٣) ارشيبالد : القوى البحرية والتجاريه في حوض المتوسط ، ص ١٦٨

(٤٤) العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٠-٨١ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٧ - أرشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩

(٤٥) فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٣ - ١١٥

(٤٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٦ - العيون والحدائق : المصدر السابق ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ - العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٣

(٤٧) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥ - ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ - سيد أمير علي : المرجع السابق ، ص ٢٤٤

(٤٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٧

(٤٩) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠١ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٧٠ = ابن قتيبه : المعارف ، ص ١٧١ - ابو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ٣٦ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٩ - ١٣٢

(٥٠) فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٣٢ وص ١٤١ - ١٤٢

(٥١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦١ - ٦٢ - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠١ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣

(٥٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٤ - ٧٠ - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠٢ - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ٣ ، ص ٣٤٤ - العيون والحدائق ، ص ٣٩٣

(٥٣) فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٥٧ وسلوقية من جند أنطاكية في الشام بعد طرسوس ، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٥ ، ص ١١٥

(٥٤) العدوي : الأساطيل العربية ، ص ١٠٥

(٥٥) عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٥

(٥٦) ابن شداد : المصدر السابق ، ورقه ٧٤ ظ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٤٢ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٨

(٥٧) انظر فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٧٧ – ١٧٨ وص ١٩٧ – ١٩٨ وعن مراسيم الفداء ، انظر العدوي : الامبراطورية البيزنطية ص ٩٦ – ٩٧ وكذلك ملحق ٥ ص ١٩٣ – ١٩٤

(٥٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٠٣ – ابن شداد : المصدر السابق، ورقه ٧٥ وجه ويخالفهما المسعودي في عدد الأسرى في التنبيه والأشراف ، ص ١٩١

(٥٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧١ – الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩، ص ٢٠٧ – ابن شداد : المصدر السابق، ورقه ٦٤ وجه – ابن العميد : المصدر السابق، ص ١٥٠ – ١٥١

(٦٠) اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ – الطبري : المصدر السابق، جزء ٩، ص ٢٦١

(٦١) ابن العبري: المصدرالسابق ،ص ٢٥٦–٢٥٧–زيني دحلان : المرجعالسابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٤

(٦٢) ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ٢٢٥

(٦٣) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢١٨ وص ٥٣٢ – زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٤ – Zaky Hassan : op. cit ., p. 157

(٦٤) انظر فيما سبق الباب الثاني

(٦٥) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٠٠

(٦٦) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٤٩ – زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٥

(٦٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٦٣

(٦٨) العدوي : الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، ص ١٠٩ – ١١٠

(٦٩) العدوي : المرجع السابق ، ص ١١٠ – ١١١

(٧٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٧ – العدوي : الامبراطورية البيزنطية، ص ١٠٣

(٧١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٤ و ٢٧ – ابن شداد : المصدر السابق ، ورقه ٧٦ وجه – ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٢ – ٩٤
Zaky Hassn — op. cit ., p. 158

(٧٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠، ص ١١٧ وص ١٢٩ – ابن الاثير :

المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٣٣ أما الذهبي : مخطوطة تاريخ الاسلام ، جزء ٢ ، ورقه ٢٥ ظهر فيذكر أنها تسعون مركباً — ويخطيء كل من ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٥٧ — والسيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥١ فيذكران المدينة التي هاجمها غلام زرافة على انها انطاكية . ومن المعروف أن أنطاكيه كانت في هذه الفترة بأيدي المسلمين

(٧٣) ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ — العدوي : الأساطيل العربية ، ص ١١٢

(٧٤) الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ وص ١٤٥ و ١٥٠ ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٦٦ ، وص ٨٢ و ٨٩ و ٩٧ وص ١٢١ و ١٢٧ — زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٩

(٧٥) عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٥٥ — زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٠

(٧٦) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ١ ، من ص ٥٣ حتى ٥٥ — الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ — ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤٣ — ١٤٤ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٨٥ .

(٧٧) زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨١

(٧٨) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠١ — ٢٠٥ — الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٥١ — الذهبي : دول الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٩٠ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٨٦

(٧٩) اخلاط أو خلاط تقع في طرف بحيرة وان الغربي . أما بدليس فتقع في جنوب غربي بحيرة وان . انظر كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٨

(٨٠) ابن الاثير : المصدر السابق ، دار صادر ١٩٦٦ ، جزء ٨ ، ص ٢١٣ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٨٦ — زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٢ .

(٨١) سعيد بن البطريق : المصدر السابق ، ص ٨٧ — ٨٨ — الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧١٠ — ٧١١

(٨٢) ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٤٢

(٨٣) سيده كاشف : مصر في عهد الاخشيديين ، ص ١٠٦

(٨٤) Canard : Histoire de la Daynastie de Hamdanides ., p. 589

(٨٥)
Canard : Une lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid ., . p.4

(٨٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤١٧ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٣٥٦

(٨٧) عن كتاب امبراطور البيزنطيين إلى الاخشيد والرد عليه . انظر : ابن سعيد : المصدر السابق ، من ص ١٦٧ حتى ١٧٢ – القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ١٠ – ١٨ – Canard : op . cit ., p. 3

(٨٨) انظر بيبرس الدوادار : مخطوطة زبدة الفكرة ، مجلد ٦ ، ص ١٧١ – سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٣٥٥ – ٣٥٦ –
Canard : Sayf Al Dawla , . pp. 83 — 85

(٨٩) Canard : Une lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid . , pp.2–3

(٩٠) الباز العريني: أجناد الروم ، ص ٥ – ١٤ – العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٤ – ٧٥

(٩١) Canard : Histoire de la Dynastie de Hamdanides .,

(٩٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٨٦

(٩٣) Canard : Sayf Al Dawla .,pp . 71 — 72 – اسدرستم : العرب والروم ، جزء ٢ ، ص ٣١ – سامي الكيالي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥

(٩٤) أسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١ – الكيالي : سيف الدولة ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦

(٩٥) الكيالي : المرجع السابق ص ٢٠٦ Canard: sayf Al Dawla., pp.27–37–38

(٩٦) Canard : op. cit ., p 78 – أما اسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١ فيذكر أنهم خمسة آلاف .

(٩٧) الهمذاني : المصدر السابق ، ص ١٣٠ – الصولي : اخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ – الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٣٠ – ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٢١٣ – ٢١٤ أسدرستم: المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢ – Canard : op. cit ., p. 79

(٩٨) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥٩ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤١٧ – Canard : op . cit., pp. 79—80 – عمر كمال توفيق: الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٩ ، ص ٢٥

(٩٩) ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٢٢٠

(١٠٠) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٦٧ – أسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢ – Canard : op. cit., pp. 85 — 86

(١٠١) الكيالي : المرجع السابق ، ص ٨٣ – أسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢

(١٠٢) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ – الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٣٣ – ابن ظافر الأزدي : الدول المنقطعة ، ورقه ٥ و ٦ – أسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٣

(١٠٣) Canard : op . cit ., pp. 112 — 113

(١٠٤) تل بطريق بلد من ثغور الروم ، انظر : البغدادي : مراصد الاطلاع ، ص ٢٦٩

(١٠٥) الانطاكي: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٧٢-٧٧٤ ابن ظافر : مخطوطة الدول المنقطعة ، ورقه ٨ – بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقه ١٨٨-١٨٩ – Canard : op. cit ., p. 115

(١٠٦) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٧٤ – ٧٧٥ – ابن العديم: زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٢٨ – Canard : op. cit ., p 126

(١٠٧) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٧٩ – Canard : op. cit ., pp. 113 — 134

(١٠٨) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨١ – ٧٨٢ – ابن العديم: زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص١٣٠–١٣١ اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥

(١٠٩) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩١ – ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقه ٩ – بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقه ١١٣ Canard : op. cit ., p. 140

(١١٠) Wiet : op. cit ., p. 191 رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٥ – ٤٦

(١١١) عمر كمال توفيق : نقفور فوكاس ، ص ١٨ – ١٩ – ٢٠ ويذكر أن نقفور هدد باقامة عرش للمسيح في مكة .

(١١٢) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨٢ – ٧٨٣ – ٧٨٤ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥ – النويري : مخطوطة نهاية الأرب ، جزء ٢١ ، ورقه ٩٤ – Canard : op cit . ، pp. 138 — 139

(١١٣) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨٤ – Canard : op. cit., pp . 314 — 315

(١١٤) الأنطاكي : المصدر السابق، جزء ١ ، ص ٧٨٥ – ٧٨٧ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣–بيبرس الدوادار : مخطوطة زبدة الفكرة ، مجلد ٦ ، ص ١١٣ – ١١٤ – ابن الشحنة : تاريخ مملكه حلب ، ص ٤٩

(١١٥) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقه ١٠ – Canard : op. cit . ، pp. 155 — 160

(١١٦) Canard : op. cit ., pp 165 — 166

(١١٧) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠١ – ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٤١ عمر كمال توفيق : نقفورفوكاس ، ص ٢٨ نقلا عن الأنطاكي .

(١١٨) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤١ – زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٩٦

(١١٩) Canard : op. cit ., p. 166 – أسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٠

(١٢٠) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٧

(١٢١) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠١ – ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٩–عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٢٧ – ٢٨ – أسدرستم: العرب والروم ، جزء ٢ ، ص ٤١

(١٢٢) مسكويه: المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٠ – ٢١١ – الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٩٧ ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ،ص ١٤٣ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٠

(١٢٣) مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، حاشيه ٢١٢

(١٢٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٤٢ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٢ – أسدرستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤١

(١٢٥) الأنطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٠٥ – ٨٠٦ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٣

(١٢٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٤ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٣ – ٣٤

(١٢٧) الأنطاكي: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١٤ – ٨١٥ – ٨١٧ – ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٧ – ١٥٨ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٦

(١٢٨) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٦ – ٣٧

(١٢٩) عمر كمال توفيق : نقفورفوكاس ، ص ٣٩ – ٤٠

(١٣٠) انظر نص الاتفاقية في : بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ورقه ١٢٠ – ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٦٣ – ١٦٨ – عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤١ – ٤٥

(١٣١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، من ص٣٨ –٤٥

(١٣٢) أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، نقلا عن ابن القلانسي والمقريزي

(١٣٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٩ – أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ٥٤

* * *

الباب الخامس

أهم مظاهر الحضارة
في بلاد الشام
منذ قيام الخلافة العباسية
حتى الفتح الفاطمي

أهم مظــاهر الحضارة في بــلاد الشام
منذ قيام الخلافة العباسية ، حتى الفتح الفاطمي

١ ـ النظم الإدارية والمالية .

٢ ـ الحياة الاقتصادية في بلاد الشام .

ـ الثرة الزراعية والحيوانية

ـ الصناعة

ـ النشاط التجاري :

آ ـ التجارة الداخلية .

ب ـ التجارة الخارجية .

ج ـ المعاملات التجارية والمالية .

٣ ـ الحياة الاجتماعية في بلاد الشام .

ـ عناصر السكان

ـ الملابس .

ـ الاحتفال بالاعياد .

ـ العادات الدارجة .

آ ـ في الطعام .

ب ـ في الأفراح والأتراح .

ج ـ الجواري والغناء :

٤ ـ الحالة العمرانية في بلاد الشام .

بناء المدن ـ القصور ـ المساجد = الحمامات ـ تحصين الموانىء

٥ — العلوم الدينية والمذاهب والفرق الاسلامية في الشام :

- علم الحديث والفقه .
- الفرق الدينية و المذاهب الإسلامية .

آ — القدرية والجبرية .

ب — السنة .

حـ — الشيعة .

- التصوف .
- القضاء .

٦ — الحياة الأدبية والعلمية في الشام :

- تدوين التاريخ .
- الأدباء والشعراء .
- العلوم والترجمة .

اتسمت الفترة الأولى من هذه الحقبة من تاريخ الشام بالفوضى والاضطراب ، وتأخرت فيها أحوال بلاد الشام عما كانت عليه بسبب انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد . أما في الفترات التالية واعني حين أصبحت بلاد الشام تابعة للطولونيين ثم للاخشيديين والحمدانيين ، فقد نالت حظاً قليلاً من العناية والاهتمام . وبالتالي فان ماسجلته عن مظاهر الحضارة في هذه الفترة لايعدو أن يكون محاولة للتعرف على أوضاع الشام بقدر ماتسمح به المصادر .

١ـ النظم الإدارية والمالية

اهتم الخلفاء العباسيون باختيار ولاة الأقاليم ، واختاروا لذلك من يثقون بهم . ولم يكن لولاة الأقاليم في العصر العباسي الأول السلطة المطلقة التي كانت للولاة في عهد الأمويين . فلم يسمح للوالي بالبقاء في ولايته مدة طويلة لئلا تسنح له الفرصة للاستقلال والاستبداد بالأمور. كما كان عليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته بعد عزله ، ويتعرض لمصادرة أمواله إذا احتاج الأمر إلى ذلك(١).

ولم تجمع بلاد الشام تحت حكم وال واحد إلا فيما ندر ، ففي أغلب الأحوال كان يعين وال لكل جند من أجنادها ، وفي أحيان كثيرة يجمع لوال واحد أكثر من جند . ومما يؤكد أن كل قصبة في الشام كانت

مستقلة في أموالها عن الأخرى ، ماتذكره كتب التاريخ عن ارتفاعات كل قصبة على حدة .

وكان على رأس كل ولاية أمير هو قائد الجيش وإمام المسلمين في الصلاة . ثم يليه العامل ويسمى صاحب الخراج ، لأنه يختص بحمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة والانفاق عليها مما يحصله من الأموال . وكان الأمير يخاطب في المراسلات بما يخاطب به العامل(٢) . وأخشى ماكان يخشى منه أن يتضافر الأمير والعامل في الولاية ليفعلا مايحقق مصلحتهما دون مصلحة الولاية ، أو ان يختلفا فيتسببا في قيام الفوضى في البلاد . أما إذا تقلد رجل واحد المنصبين معاً فيصبح كالحاكم المستقل بولايته ، وهذا مافعله كل من ابن طولون والاخشيد(٣) .

وقد اضطر العباسيون الى اتخاذ بعض التدابير الادارية في بلاد الشام نتيجة لتكرر نشوب الثورات فيها . ومن هذه التدابير اخراج قسم كبير من نصارى جبل لبنان — نتيجة قيامهم بثورات متكررة، وتفريقهم في البلاد ، ونقل قبيلة لخم العربية لتحل مكانهم . وقد انتقد الامام الأوزاعي بشدة هذا التدبير الاداري لأنه ارتأى أنه إذا كان من نصارى لبنان من تجرأ على الاعتداء على حقوق الخلافة ، فان منهم البريء . ولا يجوز أن يجلى الجميع عن أراضيهم ويعامل الطائع كالعاصي(٤). وكذلك نقل المعتصم الزط بعد ثورتهم إلى عين زربة(٥).

وقد أورد ابن المقفع في كتابه إلى الخليفة المنصور نصيحة يبدي فيها رأيه في إدارة الشام وأهله . فذكر أنهم أشد الناس مؤونة ، وأخوفهم

عداوة وبائقة . ونصح بأن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاء . وأكد بأن هؤلاء لايلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى . وأورد مثالاً عملياً عن نتائج سوء معاملة الأمويين لأهل العراق ، وما على العباسيين إلا أن يعتبروا بمن سبقهم ، وأن لايجعلوا في أهل الشام إلى غيرهم ، بل يصرف فيهم ؛ وأن لايبعدوا عن المنابر والمجالس والأعمال . كما نصحه بأن يستفيد ممن عنده قدرات خاصة منهم دون أن يفضل أحداً منهم على غيره إلا على خاصة معلومة . وقدم عذراً على نزوات أهل الشام ، فهم كغيرهم من الناس حين يخرج الملك من بينهم(٦).

وقد بدأ فساد الولاة منذ أن ظهر إلى الوجود نظام الضمان . ويعني هذا النظام أن يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد مقابل أن يتولى هو قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب ، وأن ينفق ما ينفقه كما يشاء . ويبدو أن نظام الضمان ساد في العصر العباسي الثاني عندما ساءت الأحوال المالية والاقتصادية . وبدأت فكرة التضمين للولايات قبل ذلك . فقد تولى ابراهيم بن الأغلب ولاية افريقيه على سبيل الضمان بأربعين ألف دينار سنوية(٧) . وفي الشام أخذت بعض مناطقه تضمن تضميناً إلى من يدفع أكثر . فقد عقدت فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق . وكثيراً ماكان كافور يطلب من عماله المال على سبيل القرض ، وقبل أن يحين موعد الدفع . وكان يدع عماله مقابل ذلك يجبون مايشاؤون من المال ارضاء لهم ، إذ كان يرى أن أولياءه يجب أن يتنعموا لئلا تنتقل النعمة إلى الأعداء(٨) . كما لجأ البعض إلى تعيين أرزاق لقوم

لايؤدون عملاً ، وأرزاق لآخرين ليس لهم وجود على قيد الحياة(٩).

وكثيراً ماكانت أموال بلاد الشام تحمل إلى خارجها مع الثائرين أو مع البيزنطيين في غزواتهم للبلاد ، مما أنهك البلاد اقتصادياً ، فقد حمل لؤلؤ مولى ابن طولون معه إلى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة . وكذلك استولى الامبراطور البيزنطي على (٣٩٠) بدرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ماأخذه من خزائن السلاح ومن البغال(١٠) .

كما كان في كل قصبة بيت مال يعلق على أعمدة في مسجدها الجامع . فبيت مال دمشق كان في صحن الجامع الأموي مرفوعاً على ثمانية أعمدة وكانت حيطانه مرصعة بالفسيفساء . وبعد أن كان ديوان الخراج الرئيسي في دمشق في العهد الأموي ، انتقل إلى بغداد . ولم يعد في دمشق إلا دواوينهاالخاصة . وكانتالأموال تجمع في بلاد الشام من الخراج والجزية والمكوس على التجارة ، وما كان يجبى من الفنادق وخاصة في بيت المقدس ، فيصرف منها على العمال وحاجات البلد ، ثم ينقل الباقي إلى دار الخلافة ليوضع في بيت المال(١١).

ولثقل الضرائب عمل صغار أرباب الضياع على الافلات من عبء الخراج العادي بالجاء ضياعهم إلى الكبراء الأقوياء . فكانت تجري بأسمائهم ليخفف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط . كما هو الحال في الاقطاعات ، ولكنها كانت تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها ، وهي بأسماء من ألجأوها إليهم . ويقال إن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الأمويين(١٢).

وتجلى في هذا العصر كثرة مصادرات أموال العمال والكتاب ، فقد صادر ابن طغج عماله مراراً ، وإذا أفلت أحد

من المصادرة حيـاً يصـادر ورثتـه . وكـان العامـل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه ، وجمعوا له الأموال للتخفيف عنه . وكذلك كـان يفعـل مـع التجـار الأغنياء . ومن القصص التي تذكر في هذا المجال أن الاخشيد كان في أحد الأيام خارجاً للصيد بظاهر دمشق فرأى حماماً ، فأرسل عليه الجـارح فأخذه . فاذا مع الحمام كتاب من الراشدي إلى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام ثمانين ألف دينار . وانصرف الاخشيد إلى داره وأحضر الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه (١٣) . وسار الحمدانيون على نفس الطريق. فصادر سيف الدولة الأموال،كما صادر التركات . وكان قاضيه أبو حسين الرقي يقول : التركة لسيف الدولة ، وليس لابي الحسين إلا أخذ الجعالة . وشاع بين الناس القول : من هلك فلسيف الدولة ماملك. وأدى ذلك إلى اخراجه من دمشق ، حين أدرك الأهالي مطامعه في غوطتها .

اهتم الخلفاء العباسيون بالبريد للاسراع في وصول الأنباء ، وأدى هذا بالتالي إلى الاهتمام بالمحطات البريدية . كما راج في هذه الفترة استعمال الحمام الزاجل في نقل الرسائل السريعة ابتداء من عهد الخليفة المنصور . وقد استعمله الخليفة المعتضد لسرعة وصول الأخبار إليه. فقد أرسل أحد رجاله إلى اليرموك ليعاقب أحد الأعراب الذين تطاولوا على رجال دولته ، وطلب من الرجل أن يرسل إليه الخبر مع الطير(١). وقد استخدم القرامطة وعامة دعاة الاسماعيلية الطير في مراسلاتهم . ومما يذكر في ذلك أن دعاة المهدي كتبوا له على أجنحة الطيور من بغداد يخبرونه بما فعله والي سلمية التركي ، وأنه أخبر الخليفة عن وضع

المهدي في سلمية مما اضطر المهدي معه إلى تركها والتوجه إلى الرملة(١٥).

وكان للبريد محطات تسمى السكك تتشعب من مركز الخلافة إلى أطرافها ، وينقسم كل طريق إلى محطات أو مواقف أفراس ، فيستبدل عمال البريد بأفراسهم أفراساً مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة. ومن أهم طرق البريد التي كانت تمر بالشام :

١ ــ الطريق من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ماراً بالأنبار وهيت ودمشق . وقد استخدم العباسيون هذا الطريق لنقل البريد إلى مصر بالجمازات حين عزم الفاطميون على غزو مصر سنه ٣٠١ ﻫ / ٩١٣ ــ ٩١٤ م ، ليقفوا على حقيقة الحال في كل يوم .

٢ ــ الطريق الممتد من بغداد إلى المغرب ، ويمر بالموصل ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماة حمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللجون ، ومن اللجون إلى الرملة ، ومنها إلى مصر فالمغرب(١٦).

ويبدو أن الضرائب بأنواعها كانت تختلف من وقت إلى آخر في الشام حسب الأزمان والأحوال ، وقد ترك لنا المؤرخون تقديرات لما كان يحمل منها إلى بيت المال في بغداد . وأول قائمة وصلتنا من قوائم العصر العباسي هي القائمة التي أوردها الجهشياري . وتنص في جملة ماتنص، على ماكان يحمل من الشام إلى بيت المال في بغداد في عهد الرشيد. وقد جاء فيها مايلي :

قنسرين والعواصم	أربعمائة وتسعون ألف دينار
حمص	ثلاثمائة وعشرون ألف دينار

الأردن	ستة وتسعون ألف دينار
فلسطين	ثلاثمائة وعشرون ألف دينار

وأضاف بأنه كان يحمل من جميع أجناد الشـام ثلاثمائة ألف رطل من الزبيب (١٧)

وبلغ بذلك مجموع مايحمل من الشام إلى بغداد في عهد الرشيد مليوناً وستمائة وسته أربعين ألف دينار ، وهو مبلغ كبير يدل على أن خراج الشام في عهد الرشيد كان قريباً جداً مما كان عليه في أيام الوليد بن عبد الملك، وكان مليوناً وثمانمائة ألف دينار(١٨) . وعلى الرغم من تقارب مقدار الخراج في عهدي الرشيد والوليد بن عبد الملك الذي يعتبر عهده من أزهى العهود في العصر الأموي ، فان ذلك لايدل على ازدهار أحوال الشام في عهد الرشيد . ذلك أن الرشيد – كما ذكرنا – عاقب واليه على الشام لأنه جعل من دمشق التي كانت جنة خضراء منطقة جرداء. وبالتالي فان ارتفاع جباية الخراج في عهد الرشيد يمكن أن يرد إلى ارهاق الأهالي بالجباية .

وهناك قائمة أخرى أوردها قدامة بن جعفر(١٩) ذكر فيها ارتفاع البلاد الاسلامية بعد سنة ٢٠٤ هـ ، وربما كان ذلك في السنوات التي تلت هذه السنة من خلافة المأمون . ومما جاء فيها عن الجباية في بلاد الشام مايلي :

ارتفاع أعمال حمص	مائة وثمانية عشر ألف دينار
ارتفاع جند دمشق	مائة وعشرة آلاف دينار
ارتفاع جند الأردن	مائة وتسعة آلاف دينار
ارتفاع جند فلسطين	مائة وخمسة وتسعون ألف دينار

ومما يلاحظ على هذه القائمة أنها أصغر بكثير من القائمة التي جاءت في عهد الرشيد . وقد يكون هذا الانخفاض ناتجاً عن الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام أثناء الحرب بين الأمين والمأمون وبعده . كما أن هذه القائمة تهمل خراج قنسرين والعواصم ، وقد يكون خراج هذه المنطقة قد انقطع في هذه الفترة بسبب ثورة نصر بن شبث العقيلي. وإذا حاولنا أن نجمع الأرقام التي وردت في هذه القائمة لوجدنا أن ارتفاع الشام بأجمعه بلغ خمسمائة واثنين وثلاثين ألف دينار ، وهو ثلث الجباية في عهد هارون الرشيد . وهذا يدل على سوء الأحوال الاقتصادية بالشام أو على خروج مناطق كثيرة من الشام عن طاعة العباسيين .

وهناك قائمة أخرى أوردها ابن خلدون عن الجباية في عهد المأمون (٢٠)، ويحتمل أن هذه القائمة سجلت جباية الشام بعد أن استقرت أمورها للمأمون . وقد جاء فيها :

ارتفاع قنسرين والعواصم	أربعمائة ألف دينار ، وألف حمل زيت
ارتفاع دمشق	أربعمائة وعشرون ألف دينار
ارتفاع الأردن	سبعة وتسعون ألف دينار
ارتفاع فلسطين	ثلاثمائة وعشرة آلاف دينار وثلاثمائة ألف رطل زيت

والملاحظ في هذه القائمة أنها أهملت خراج حمص ، كما أنها تعتبر عودة بخراج الشام لما كان عليه في أيام الرشيد . فقد بلغ ارتفاع

الشام بأجمعه مليوناً ومائتين وسبعة وعشرين ألف دينار ، أي أن الجباية زادت عن الضعف في الفترة بين سنة ٢٠٤ هـ والقائمة الثانية في عهد المأمون التي يجب أن تكون قبل سنة ٢١٨ هـ ، وهي سنة وفاته.

وتدل قائمة الجباية التي وردت في أيام الخليفة المعتصم عن انخفاض خراج الشام عما كان عليه في عهد المأمون ، وبشكل خاص في دمشق التي انخفضت من أربعمائة وعشرين ألف دينار إلى مائة وعشرة آلاف دينار أي إلى الربع ، وكذلك في فلسطين ، بينما ارتفعت الجباية في الأردن قليلاً . ويبلغ مجموع الجباية في الشام حسب هذه القائمة مليوناً ومائة واثنين وتسعين ألف دينار ، وإليك تفصيلها :

جباية قنسرين والعواصم	ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية جند حمص	مائتان وثمانية عشر ألف دينار
جباية جند دمشق	مائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند الأردن	مائة وتسعة آلاف دينار
جباية فلسطين	مائتان وتسعة وخمسون ألف دينار (٢١)

وهناك قائمة أخرى للجباية في أواسط القرن الثالث الهجري جاء فيها عن جباية الشام مايلي:

جباية قنسرين والعواصم	أربعمائة ألف دينار
جباية جند حمص	ثلاثمائة وأربعون ألف دينار
جباية جند دمشق	أربعمائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند الأردن	ثلاثمائة وخمسون ألف دينار
جباية جند فلسطين	خمسمائة ألف دينار (٢٢)

والملاحظ في هذه القائمة ارتفاع الجباية في دمشق وعودتها إلى ماكانت عليه في عهد المأمون . أما جباية فلسطين فقد بلغت شأواً بعيداً ، وقاربت جباية الشام بكامله في القائمة التي وردت بعد سنة ٢٠٤هـ وارتفعت جباية الأردن بشكل لم نره في أية قائمة أخرى ، فقد تجاوز ثلاثة أمثال ماجاء في الجباية في سائر القوائم الأخرى . وبلغ مجمل جباية الشام في هذه القائمة مليوناً وتسعمائة وتسعين ألف دينار ، وهي أكبر جباية عرفتها الشام في سائر العهود . وإذا كانت الأرقام التي وردت في هذه القائمة صحيحة فان ذلك يدل على غبن أهالي الشام وزيادة الضرائب عليهم في تلك الفترة ، وبخاصة إذا علمنا أنه لم تحدث أية اصلاحات اقتصادية في هذه الفترة .

وفي قائمة سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر، اختلف الأمر عن غيرها من القوائم التي سبقتها . فحين يذكر جباية المشرق يذكر لكل بلد رقمين يضع أمام أحدهما أنه للخراج والآخر للضياع . أما للدلالة على الأرقام التي ذكرها عن جباية المغرب بما فيها بلاد الشام . فكان يذكر أمام الرقم الأول كلمة (مال) ولا يذكر شيئاً أمام الرقم الثاني . وأظن أنه يعني بهذا التفصيل شيئاً واحداً ، كما ورد في جباية المشرق(٢٣) . وقد ورد فيها بالنسبة للجباية في الشام مقدرة بالدنانير مايلي :

— ٥ —

جند فلسطين ٨٠٧٥٠ مال و ٢٣٠٦٤٧ = ٣١١٣٩٧

جند الأردن ٤٠٤٦٠ مال و ١٠٢٠٦٢ = ١٤٢٥٢٢

جند دمشق ١١٣٠٥٧مال و ٣١٥٣٠٠ = ٤٢٨٣٥٧ .

جند حمص ٢٠٠٤٦٠مال و ١١٥١١٤ = ٣١٥٥٧٤

قنسرين والعواصم ١٣٣٠٩٧ مال و٣٥٢٥٧٠= ٤٨٥٦٦٧

داوك ورعبان ١٥٧٦٥ =١٥٧٦٥

الثغور الشامية سوى ماصولح عليه أحمد بن الحسين

الكاتب ٥٢٩٨٥ = ٥٢٩٨٥

شمشاط وحصني منصور وكيسوم بعد الموضوع أي بعد الذي اسقط(٢٤)

٥٣٩٧ مال و٦٥٣٣٢ = ٧٠٧٢٩

ارزن وميافارقين ٥٦٧٥٠ مال و٨٢٤٢٢ = ١٣٩١٧٢

وأهم ما يتضح في هذه القائمة هو أن جباية كل مدينة من مدن الثغور قد أصبح منفصلاً فكأن كل ثغر له شؤونه الخاصة منفرداً عن غيره . وبلغ مجموع هذه القائمة مليوناً وتسعمائة واثنين وستين ألفاً ومائة وثمانية وستين ديناراً أي ما يقارب مليوني دينار .

أما تقدير خراج الشام في القرن الرابع فلم يكن ثابتاً ، فقد احتل البيزنطيون سواحل الشام شمالي طرابلس إلى جانب ما استولوا عليه من الثغور ، ولذلك لم تعد جبايتها تعرف على وجه الدقة . يضاف إلى ذلك أن بلاد الشام في تلك الفترة كانت مضطربة سياسياً . وموزعة بين دويلات وحكام يتنازعون السيطرة عليها . ويقدر ابن حوقل(٢٥) خراج الشام بعد دفع أرزاق العمال بتسعة وثلاثين مليون درهم ، هذا وإذا اعتبرنا الدينار يساوي خمسة عشر درهماً كان خراج الشام يساوي مليونين

ومئتين ألف دينار ، وهو رقم قياسي .

وقد أمدنا المقدسي بقائمة أخرى عن خراج الشام ، ذكر فيها .

حباية قنسرين	ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية الأردن	مائة وسبعون ألف دينار
جباية فلسطين	مائتان وتسعة وخمسون ألف دينار
جباية دمشق	أربعمائة ألف دينار ونيف .

ومجموع هذه القائمة التي تهمل جباية حمص مليون ومائة وتسعة وثمانون ألف دينار .

ومن استقراء قوائم الجباية في فترة بحثنا(١٣٢ — ٣٥٩ ﻫ) يتضح مايلي :

١ — إن الجباية كانت تتدهور في فترة الاضطراب والثورات.

٢ — إن جباية الأردن وفلسطين زادت بشكل ملحوظ وكبير في أواسط القرن الثالث للهجرة . وقد يكون ذلك أحد أسباب ثورة المقنع في فلسطين ، والتي كانت تضم عدداً كبيراً من المزارعين .

٣ — إن خراج الشام في أواخر القرن الثالث الهجري ، وأوائل القرن الرابع أصبح أكثر من خراجها في أيام الدولة الأموية . كما أصبح لكل ثغر من الثغور جباية خاصة .

٤ — إن خراج دمشق تراوح بين أربعمائة وأربعمائة وعشرين ألف دينار ، وهو قريب لما كان عليه في عهد معاوية حيث بلغ أربعمائة

وخمسين ألف دينار(٢٦) . ولم ينخفض خراج دمشق عن هذا المستوى إلا في القائمة التي وردت عن الجباية في عهد المعتصم .

٥ – إن ثبات مقدار الخراج في الوقت الذي ساءت فيه أحوال بلاد الشام ، انما يدل على ارهاق ولاة العباسيين لأهل الشام دون مانظر إلى أحوالهم الاقتصادية .

• • •

٢ ـ الحياة الاقتصادية في بلاد الشام :

ـ الثروة الزراعية والحيوانية

لم يوجه خلفاء بني العباس أو ولاتهم في الشام اهتمامهم للقيام باصلاحات غايتها تنمية الثروة الزراعية في بلاد الشام . فقد استمر الري على ماكان عليه أيام الخلافة الأموية ، وعلى ماكان عليه أيام السيادة البيزنطية ، إلا ماكان من الخليفة المأمون الذي أمر بحفر قناة من نهر منين مارة بسفح جبل قاسيون إلى معسكره بدير مران . وما قام به سيف الدولة من حفر قناة في مدينة ميافارقين لسوق المياه اليها (٢٧).

ساءت الحالة الاقتصادية عموماً في الشام في الفترة موضوع البحث . ومن العوامل التي ساعدت على ذلك عدم استقرار الأوضاع السياسية ، وقيام الثورات المتكررة ، وانعدام الأمن ، ويضاف إلى ذلك مراقبة العباسيين لأصحاب الثروات الكبيرة والمصالح الاقتصادية في الشام خشيه من استغلال أموالهم لافساد الأهالي على العباسيين (٢٨) .

وقد قاسى بعض أهالي الشام من كثرة الخراج ، ومن مصادرة الأراضي . ومما يذكر في هذا الصدد أن بعض أهالي قرى فلسطين تركوا أراضيهم ، فوجه الخليفة الرشيد إليهم أحد كبار قواده الذي أخذ يدعوهم إلى الرجوع إلى أراضيهم على أن يخفف عنهم من خراجهم وأن يعاملوا أفضل مما مضى ، فرجعوا وهؤلاء هم أصحاب التخافيف .

ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت اليهم أراضيهم على مثل ماكانوا عليه وهم أصحاب الردود . ومن المرجح أن أهالي قرى فلسطين تركوا أراضيهم في هذه الفترة لتشدد عمال الرشيد في جباية الأموال ، وتعذيب من يمتنع عن أدائها بكافة صنوف العذاب (٢٩) .

وأبلغ دليل يوضح تأخر بلاد الشام اقتصادياً في عهد ولاة العباسيين عما كانت عليه في عهد أسلافهم الأمويين شهادة الخليفة الرشيد الذي استاء من ذلك الوضع ، وعزل واليه الحسين بن عمار وعاقبه جزاء ماكان يفعله ، لأن دمشق حين وليها كانت جنة خضراء ، فأصبحت أجرد من الصخر وأوحش من القفر (٣٠) . وكان العامل الاقتصادى أحد أسباب ثورة المبرقع اليماني في فلسطين في خلافة المعتصم . ويتضح ذلك جلياً حين نعلم أن أنصاره كانوا مائة ألف ، كان منهم مايزيد على ثمانية وتسعين ألفاً من أرباب الزراعة . ويتضح أيضاً أن هؤلاء الزراع لم يكونوا من جند فلسطين وحدها بل كان منهم جنود من كافة أجناد الشام . فيذكر ابن العديم أن رجاء حضر لقتل جماعة من زعار أهل الغوطة (٣١) .

ومما لاشك فيه أن خلفاء العباسيين حاولوا أن يتخذوا بعض الاجراءات الاقتصادية لانقاذ البلاد من التردي . فقد تصدى المأمون لتعديل الخراج على أراضي الشام . ففرق المساح في كافة أجنادها ، وأقام شتاء سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩ م كله في دمشق لهذه الغاية ، ثم وضع لها كشفاً جديداً على أمل زيادة الدخل الوارد منها (٣٢) .

استمر تأخر بلاد الشام اقتصادياً في عهد الطولونيين والاخشيديين ، لأن دمشق لم تكن عاصمة لأي من هاتين الامارتين ، وانما كانت ولاية تابعة لكل منها . يضاف إلى ذلك ماتعرضت له الشام من تخريب

بسبب الحروب التي اجتاحتها نتيجة للتنافس بين الامارات المختلفة التي حكمت في بلاد الشام في هذه الفترة مثل الحروب بين الطولونيين والعباسيين ، وبين الاخشيديين والحمدانيين ، وبين الاخشيديين وابن رائق ، ثم بين كل من الاخشيديين والحمدانيين والبيزنطيين .

ومما يذكر أن حلب كانت من أكثر المدائن شجراً ، حسبما يستدل من أشعار الشاعر الصنوبري ، إلا أن هذه الثروة الزراعية الضخمة تعرضت للقطع والاتلاف في حوادث متعددة . ففي المعارك التي نشبت بين سيف الدولة بن حمدان والاخشيد للاستيلاء على المدينة ، تطوع الاخشيد أثناء الحصار لقطع هذه الاشجار ، غير أنه اضطر بعد ذلك لترك المدينة إلى سيف الدولة . وجاء الأخير وفعل بها مثل مافعل سابقه ، وتكرر ذلك منهما حتى فني مابها من شجر . ثم أكمل هذه المهمة نقفور فوكاس امبراطور البيزنطيين حين نزل عليها سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢ م . ولم يحرص الحمدانيون على الأشجار والبساتين ، فكثيراً ما اقتلعوا الأشجار وزرعوا مكانها محاصيل موسمية . ففي سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤ — ٩٤٥ م ، وحين أغلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، اقتلع جنده كل الأشجار الجميلة المحيطة بهذه المدينة ، وأشجار الفاكهة والبساتين ، وزرعوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم (٣٣) .

وعلى الرغم من كل شيء ، فان بلاد الشام استمرت في هذه الفترة تزرع مزروعاتها التي عرفتها من قبل ، وأدخلت بعض المزروعات الجديدة ، كما ظلت تقوم بصناعة مصنوعاتها التي اشتهرت بها . واستمرت شبكة المياه التي تسقي عامة دور دمشق ، وكذلك سككها

وحماماتها . واستمرت مياه عين الفيجة مع مايأتي اليها من عين بردى تغذي المدينة (٣٤) .

اعتمدت مناطق متعددة في بلاد الشام في زراعتها على مياه الأمطار ، وقليل منها على السقاية . فجند فلسطين اعتمد على ماء المطر ماعدا نابلس ، فان بها مياهاً جارية ، ولم تكن عيون المياه في مدينة القدس تتسع لري مزروعاتها . وكذلك فان حمص ومعرة النعمان وما حولها ، وجند قنسرين اعتمدت في زراعتها على ماء المطر . أما دمشق وغوطتها ، فبعضها اعتمد على ماء المطر ، وبعضها الآخر على ماء بردى وفروعه . وقد كانت مساحة غوطة دمشق في أيام الاصطخري مرحلة في مرحلتين وتحيط بها المياه الكثيرة التي تسقي الأشجار والزروع المتصلة . وكانت أنطاكية كمدينة دمشق بها مياه تجري في دورها وسككها وتسقي القرى الخصبة المحيطة بها(٣٥) .

وأشهر مزروعات الشام الحبوب حيث كان يزرع فيها القمح والشعير والذرة والارز والباقلا ، والبسلة ، والجلبان واللوبيا والحلبة ، والسمسم والقرطم . وقد كانت الحبوب تزرع بشكل خاص في حوران والبثنية (٣٦) .

كما اشتهرت الشام بزراعة الزيتون ، وأشهر مناطق زراعته فلسطين ، ونخص بالذكر أكثر جبالها ونابلس ، والمنطقة الواقعة جنوبي بيت لحم ، وكذلك لاتخفى علينا شهرة منطقة حلب ، وبشكل خاص مدينة سرمين (٣٧) .

كذلك اشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون ، والذي كان من أهم خصائصه الصفاء والنظافة . وكان

الزيت يحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب . وكانت الشام تمد البلاد الاسلامية بما تحتاجه من الزيت الذي كان يعرف بالزيت الركابي لأنه كان يحمل على الابل من الشام (٣٨).

ولزراعة الكروم شهرة خاصة في الشام حتى تكاد لاتخلو منها منطقة من المناطق . وقد ذكر ابن حوقل أن أهالي مدينة زعر القريبة من البحر الميت ، وأهالي فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم كما يلقح النخيل بالطلع (٣٩) . والحقيقة أن أهالي فلسطين جميعها كانوا يلقحون كرومهم بالحمر الذي يستخرجونه من البحر الميت لتبقى عناقيده سليمة . ومن المناطق الأخرى التي اشتهرت بزراعة الكروم بعلبك ومعظم جبال فلسطين ، وبشكل خاص قرى جبل عامل ، وقرية الفراذية ، يضاف اليها جبل مؤاب ، ومنطقة غزة . أما في شمال الشام ، فتتصدر منبج وقنسرين زراعته (٤٠) .

وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة . وكان يحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة ، ويقال إنها كانت في العراق أعبق منها في الشام (٤١) . ومن الفواكه التي عرفت في ذلك الوقت النارنج والاترج . وقد زرع في دور الناس بطرسوس وانطاكية وغيرها من الثغور الشامية ، وكذلك في سواحل الشام بما فيها فلسطين . وقد حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة للهجرة . ويقال أن ثمار النارنج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد (٤٢) .

وكثرت زراعة قصب السكر في صور ، وبيروت وطبرية . ويقال إن كابل على الساحل كانت تزرع القصب أيضاً وتستخرج منه السكر الجيد(٤٣) . واشتهرت مناطق متعددة في الشام بزراعة

النخيل منها منطقة الغور ، وبشكل خاص المنطقة الممتدة من الشراة إلى الحولة ، وفي بيروت واسكندرونة وعين زربة وفي بياس وبيسان والرملة وغزة(٤٤) . وهنالك فواكه كثيرة أخرى اشتهرت بها بلاد الشام ، فقد كان التين يزرع في أكثر جبال فلسطين وفي قنسرين والرملة وغزة (٤٥) . وكان الموز يزرع في المنطقة الممتدة من الشراة إلى الحولة ، وفي منطقة أريحا والقدس(٤٦) . وكان الجميز يزرع في جبال فلسطين(٤٧) واشتهرت الجبال المحيطة بملطية ومنطقة القدس بزراعة الجوز واللوز وسائر الثمار الشتوية والصيفية . كما اشتهرت جبال مؤاب بزراعة اللوز . وقنسرين بزراعة الفستق ، وملطية وشيزر وحارم بزراعة الرمان ، وكان يصدر إلى بغداد بالفرات (٤٨) . أما التوت فكان يزرع في منبج . وهنالك فواكه أخرى اشتهرت بها الشام مثل البرقوق والمشمش والخوخ والكمثرى والسفرجل والليمون والكباد .

كما اشتهرت بلاد الشام بمزروعات اخرى منها البطيخ والقثاء والملوخيا والباذنجان واللفت والجزر والقنبيط والرجلة والبقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة(٤٩). وقد نقل الحمدانيون زراعة القطن إلى شمال بلاد الشام . ويبدو أن هذه الزراعة انتقلت في فترة بسيطة إلى جنوب البلاد . إذ يحدثنا المقدسي أنه رأى القطن يزرع في المناطق القريبة من الحولة(٥٠). واشتهرت بلاد الشام أيضاً بزراعة انواع متعددة من الزهور والرياحين خلدها الشاعران الصنوبري وكشاجم اللذان ذخرت أشعارهما بوصفها . ومن رياحين الشام الورود والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين والآس(٥١) . كما اشتهر حصن التينات على شاطىء البحر بالقرب من اسكندرونة بأنه

مجمع لخشب الصنوبر الذي ينقل منه إلى مصر وسائر مناطق الشام بما فيها الثغور(٥٢) .

يتضح من عرض المزروعات التي كانت في الشام في تلك الفترة، أن الجبال الساحلية في الشام كانت مشجرة على الأغلب ، وذات قرى وعيون ومزارع . وكانت الأغوار ذات قرى وانهار ونخيل وكان على سيف البادية قرى فيها عيون وتزرع بها الأشجار(٥٣) .

أما الثروة الحيوانية : فقد كانت متنوعة ، فالأغنام كانت تربى في منطقة عمان. كما انتشرت تربية الجاموس من شمال الشام إلى جنوبها . واعتمد أهالي فلسطين في غذائهم على لبنه ولحمه . واستخدم في مناطق كثيرة في الشام للأعمال الزراعية ، ونقل منها إلى ايطاليا والأندلس . أما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً ، وكان يربى للانتفاع بلبنه(٥٤) . وإلى جانب ذلك اهتم أهالي الشام بتربية الخيل والبغال والحمير ، ومن الطيور اهتموا بتربية الاوز والدجاج والحمام(٥٥).

وقد برع أهالي الشام في تربية النحل لاستخراج العسل ، وكان العسل عندهم أنواعاً متميزة ، وأحسنه مارعى السعتر في الأراضي المحيطة بالقدس وجبل عاملة . أما السمك فقد كان يستخرجه أهالي الشام من طبرية ، وأشهر أنواعه السمك البني الذي حمل اليها من واسط. كما كانوا يستخرجونه من خليج العقبة (٥٦) .

– الصناعة

حافظت بلاد الشام على الرغم من كافة التقلبات التي تعرضت لها

على شهرتها في صناعة الخزف وبشكل خاص المنقوش منه ، وفي صناعة الزجاج . وقد وصف زجاج الشام من قبل كثير من المؤرخين والرحالة ، وضرب به المثل في الرقة والصفاء حتى يقال أرق من زجاج الشام ، وأصفى من زجاج الشام . وقد مهر أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب وتلوينه بألوان أخرى ، وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الاتقان . وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم(٥٧). كما برع أهالي الشام في صناعة الفسيفساء . وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران أروقة المسجد الحرام وقد زينت بالفسيفساء التي حملها إليها صناع الشام ومصر(٥٨).

وكذلك امتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لاتزال تسمى الدمقس(دامسكو)(٥٩) . كما عرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره (٦٠). ويقال أن الأقمشة التي كانت تصنع في حمص كانت تقارب الأقمشة المصنعة في الاسكندرية من حيث الجودة والحسن(٦١). ومما يذكر أن طبرية كانت تنسج نسيجاً أبيض تصنعه ثياباً ، وكان ثمن الثوب منه أربعمائة درهم لجودته ، في نفس الوقت الذي كان غيره من الأثواب يساوي مائة درهم فقط(٦٢) . ويبدو أن أهالي الشام برعوا في صناعة الصباغ وغيره من الصناعات التي ماتزال لها بقية الآن (٦٣) . واشتهرت بالس وحلب كذلك بصناعة الصابون (٦٤).

واشتهرت أعناك بصناعة البسط ، وصناعة نوع جيد من الأكسية. كما اشتهرت بلاد الشام بصناعة الحصر(٦٥) ، وبشكل خاص سكان قدس بالقرب من طبرية ، الذين اشتهروا ايضاً بفتل الحبال . واشتهرت عسقلان بوجود حرير فائق فيها . وقد بلغت صناعة المنسوجات الحريرية في الشام والعراق وفارس درجة كبيرة من الرقي .

وكان بالقرب من بيروت وفي ضواحي دمشق مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية(٦٦) مثل صناعة السيوف والقسي . وقد أتقن أهالي دمشق هذه الصناعة حتى إن فولاذ دمشق اشتهر بغرابة سقايته وصلابته ورونقه . وقد اشتهرت أسرتان من الأسر المسيحية بهذه الصناعة فنسبت إليهما ، وهما بنو المسابكي وبنو بولاد . ولا تزال محلة المسبك في شرقي المدينة تدل على سبكه . ولشهرة سيوف دمشق فقد أمر خمارويه بصناعة سبعة عشر سيفاً دمشقياً لغلمانه مقابل سيوفهم التي تبرعوا بها للاعرابي الذي مدح خمارويه. وقد نقل الصليبيون سر هذه الصناعة . واستمر الصناع الدمشقيون محتفظين بتفوقهم في هذه الصناعة إلى أن سباهم تيمورلنك (٦٧) .

وكذلك اشتهرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس الشام. كما مهر أهل الشام في تجليد الكتب . وقد برع الرحالة المقدسي في التجليد على طريقة أهل الشام . وكان يطلب منه تجليد الكتب كلما حل بمنطقة ، وأخذ دينارين على تجليد المصحف حين زار اليمن(٦٨) .

وأبدع أهل دمشق في ترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة ، كما أبدعوا في النقش على الخشب . فقد اكتشف تابوت من خشب الجوز للسيدة سكينة ابنة الحسين بن علي ، وعليه نقوش عربية نفيسة ، وكتابة كوفية يرجع تاريخها إلى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ — ٩٥١ م . وعلى الرغم من الشك في التاريخ الذي ورد على هذا التابوت ، لأن السيدة توفيت قبل هذا التاريخ بكثير إلا أنه من الجائز أن يكون هذا التابوت قد صنع لها بعد فترة من وفاتها أو أنه كان لغيرها ، فان مايهمنا هو النقوش العربية الجميلة التي نقشت عليه(٦٩).

ـ النشاط التجاري

مما لاشك فيه أن التجارة تحتاج في نشاطها وازدهارها إلى توفر عناصر متعددة ، أهمها انتشار الأمن ، وسهولة الانتقال من مكان إلى آخر دون عوائق ، وتوفر الحماية لأموال التجارة من المصادرة وغيرها ، إلى جانب وجود أسواق مزدهرة تصرف فيها هذه البضائع . وإذا حاولنا أن نناقش هذه الأمور في بلاد الشام في فترة البحث لوجدنا مايلي :

إن بلاد الشام في معظم هذه الفترة ، لم تخضع في حكمها لوال واحد ، بل كانت توزع على ولاة متعددين، فلكل جند وال مستقل عن الآخر تمام الاستقلال . وهذا يشكل عائقاً للحركة التجارية . فبعد أن كان التجار الذين يمرون في الشام يدفعون على تجارتهم مكوساً معلومة محددة لخزينة الدولة . نراهم يضطرون إلى أن يدفعوا مكوساً عند انتقالهم من جند إلى آخر . ومما يؤيد ذلك ماذكره المقدسي عن مدينة بيت المقدس . فقد كان يفرض في هذه المدينة مكوس ثقيلة على البضائع ، فضلا عما كانت تتخذه من اجراءات أخرى تقيد حرية التجارة . فقد كان على أبوابها وعلى مايبتاع بها رجال كانت وظيفتهم ان لايدعوا أحداً يحمل بضاعة تنفع الناس إلا ويجبرونه على بيعها فيها (٧٠) . كما فرض في الشام ضرائب حماية على كل من يملك مركباً ، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض (٧١) . ثم إن بلاد الشام في هذه الفترة كانت مضطربة سياسياً ، وقد أدى ذلك إلى الفوضى ، وانتشار قطاع الطرق ، وسيطرة الأعراب على طريق القوافل ، وقيامهم بالنهب والسلب . فأخذ التجار طريقاً

آخر مأموناً من المخاطر . وهناك أمثلة أخرى متعددة تثبت ذلك (٧٢) ومجمل القول أنه كان يتعين على كل قافلة تعبر الطريق أن تكون مخفورة برجال القبيلة التي تمر بأراضيها وعليهم أن يدفعوا مقابل ذلك أتاوة لها ، والا هلك رجالها وسلبت أموالها (٧٣) . وقد أدت قلة الأمن إلى انقطاع بعض الطرق ، فيذكر ابن حوقل (٧٤) أن طريق الرقة أثناء رحلته كان مقطوعاً ، ولا يمكن للتجار اتخاذه . وهو يعلل هذا الانقطاع على التجار بسببين : أولهما الخوف من هجوم مفاجىء للبيزنطيين ، والثاني اعتراض السلطان عليهم ، وقد يكون قصد بذلك مصادرة أموالهم .

وكثيراً ماكانت أموال التجار تصادر . فقد عرف عن الاخشيد مصادرته للتجار الأغنياء . كما كان سيف الدولة وابنه من بعده يصادران أموال التجار وبضائعهم . فقد صادر سيف الدولة التجار الذين حوصروا في بالس ، حتى تنازلوا له عن أحمال من البز وأطواف من الزيت وغير ذلك . فعل ذلك مرتين متواليتين في فترة زمنية قصيرة ، وقدر ماصادره بمليون دينار . وكذلك فعل ابنه بعده . كما كان الحمدانيون يلجؤون إلى احتكار التجارة طلباً للمال إذا عزفوا عن مصادرتها،فكانوا يشترون البضائع من التجار ثم يعرضونها للبيع ، هذا إلى جانب ان بعض الصناعات المحلية كانت تصنع لمصلحتهم،وتباع لحسابهم مثل الصابون والخل (٧٥) .

وعلى الرغم من كل شيء فان التجارة ظلت مستمرة بسبب موقع بلاد الشام التجاري ، وكونها مصدراً من مصادر الثروة الزراعية والصناعية . يضاف إلى ذلك أن الخلفاء وجهوا جزءاً من عنايتهم للتجارة ، فأقاموا

الآبار والمحطات في طريق القوافل ، وأنشأوا المنارات في الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من اغارات لصوص البحار . ومما لاشك فيه أن هذه الاجراءات كانت تشجع على القيام بالأعمال التجارية في الفترات التي كان يسود فيها الأمن وتهدأ الثورات .

ا ـ التجارة الداخلية : كان النشاط التجاري الداخلي يتركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة . فقد كان لكل طائفة من التجار سوق يختص بها حيث يمكثون إلى مابعد الظهر ، ثم يعودون إلى منازلهم في المساء . وكانت الحوانيت في بلاد الشام تمتد على طول الشارع من الجانبين (٧٦) . واتخذت الاسواق أسماء السلع التي تبيعها . فهناك دار البطيخ لبيع الفاكهة والخضار ، وسوق الصاغة ، وسوق السراجين . وسوق الزجاجين . وكان في دمشق سوق كبير يصل من باب الجابية إلى باب شرقي . وكانت اسواق دمشق من أحفل الأسواق وأحسنها انتظاماً (٧٧) .

وكان سوق دمشق من أشهر الأسواق ، لتدفق السلع اليه . ولو قوع المدينة على طريق الحجاج الرئيسي ،الذي كان يجتاز بلاد الشام محاذياً لباديتها . وكانت العادة أن يرافق قافلة الحجاج جماعة كبيرة من التجار ، ليستظلوا بأمان القوة العسكرية المرافقة للقافلة . ففي سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م ، رافق قافلة الحجاج جماعة كبيرة من التجار ، وتفرقوا للاتجار في مصر والشام ، فارين بأموالهم وتجارتهم على اثر اتصال الفتن ببغداد . وكذلك فقد كان يحصل العكس ، فقد التحق كثير من أهالي الشام بقافلة الحجاج سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦ ــ ٩٤٧م ، وقطعوا الطريق من الشام إلى العراق مارين بمكة ، وكان فيهم قاضي

طرسوس ، وكان يحمل مائة وعشرين ألف دينار . وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق . ومن المرجح أن المدن البحرية التي لم تكن تبعد كثيراً عن سوق دمشق مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا كانت تحصل على ماتحتاج اليه من السلع من سوق دمشق (٧٨) . إلى جانب ماكانت تحصل عليه من البضائع نتيجة تجارتها البحرية . وإضافة إلى ذلك . فان دمشق أصبحت مركزاً هاماً للقوافل التجارية الآتية من آسية الصغرى أو من العراق إلى الجزيرة العربية ومصر (٧٩) .

كما استمدت أسواق بيت المقدس شهرتها في هذه الفترة كسوق ناقلة للتجارة بين الشرق والغرب . فقد كان معظم حجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد انتهاء فريضة الحج ، وهناك يتقابلون في القدس مع الحجاج المسيحيين ، وتتاح الفرصة للطرفين لتبادل السلع . ويقال أنه في ١٥ سبتمبر من كل عام كان يقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد اليها تجار الأمم المختلفة حيث يتبادلون السلع والبضائع (٨٠) .

وكذلك كانت انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مراكز بلاد الشام التجارية ، ومن أهم مراكز الاتصال التجاري بين الشرق والغرب . ولم يكن يعوق الحركة التجارية في هذا الميناء إلا وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى السفالة ، كانت تتحطم عليها معظم السفن (٨١) . وهناك موانيء أخرى في الشام كانت تستخدم لرسو المراكب الحربية بجانب ماكان يرسو بها من مراكب تجارية .

فميناء طرابلس الشام كان في أواخر القرن الثالث يحتمل ألف مركب .
وأما صور فقد كانت مدينة محكمة التحصين وبها دار صناعة للسفن ،
ومنها كانت تخرج المراكب لغزو البيزنطيين . ويقال بأن أسطول
الشام في القرن الثالث وبداية القرن الرابع كان من أعظم أساطيل البلاد
الاسلامية ، وكان أكثر كفاية من اسطول الفاطميين في شمالي افريقية .
وكانت مراكب المسلمين تقطع البحر الأبيض في ستة وثلاثين يوماً
من مبدئه في الغرب حتى انطاكية في الشرق (٨٢) .

وكانت القرى المحيطة بحبرون تصدر إلى مصر العنب والتفاح ،
كما كانت الرملة مركزاً تجارياً هاماً ، وبها فنادق جيدة .
وكذلك كانت حلب من أكبر الأسواق التجارية . وكانت تضم بين
أرجائها فنادق كثيرة ، وأسواقاً خاصة بكل تجارة . وأما بيروت
فقد كانت سوقاً تجارية هامة يرد اليها التجار بالبضائع ، وينقلون
أيضاً أخرى عن طريقها ، إلى جانب ماكان فيها من غلات متوافرة .
وكذلك كانت إيلة من أهم الموانيء على البحر الأحمر ، وعن طريقها
كانت تنقل السلع من البحر الأحمر إلى الشام والعكس (٨٣) .

ب — التجارة الخارجية : لم تكن التجارة الخارجية تتناسب
مع موقع بلاد الشام المهم بين الشرق والغرب، ولا مع مايتوافر . في
البلاد من مواد أولية تحتاج اليها الدول الاسلامية الأخرى والدول
الأوربية . واسباب ذلك كما اتضح من قبل سوء الأحوال السياسية .
فقد تاجر أهالي الشام بمنتجاتهم الزراعية والصناعية ، وكانوا يحملون
بعضها إلى عاصمة الخلافة العباسية ، ومنها الفاكهة والسلاح والحديد .
كما أنهم قاموا بدور الوسطاء في نقل السلع الشرقية.وكانوا يسيرون

بها في موسم الحج ليكونوا في حماية قافلة الحجاج ، ثم يبيعونها في دمشق إلى تجار الغرب .

كما أن بلاد الشام كانت معبراً وطريقاً للتجارة الأوربية إلى عاصمة الخلافة وإلى بلاد المشرق الأقصى . وظهر في هذا المجال في بلاد الشام منذ القرن الثالث التجار الرازانية ، وهم تجار يهود كانوا يبحرون بتجارتهم من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويحملون الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور حتى انطاكية ، حيث كانت هذه المدينة محطة لتجارتهم ، ومنها كانوا يسيرون ببضائعهم براً إلى الفرات ، حتى بغداد ، ومنها إلى عمان والهند والصين (٨٤) . وكذلك كان لمدينة أمالفي الايطالية علاقات تجارية مع انطاكية (٨٥)

وكان للشام علاقات تجارية مع البلاد الاسلامية الأخرى فكانت الشام تصدر إلى الفسطاط الحديد لصناعة الأسلحة (٨٦) . كما تستورد منها الجلود . وكذلك استوردت الشام الطين ، وكان من الأطعمة المحبوبة ويؤكل في آخر الطعام . وكان يجلب طين من نيسابور يسمى بالنقل ، وكان الرطل منه يباع في مصر وبلاد المغرب بدينار واحد ، وأكثر ماكانت الشام تستورده من طليطلة (٨٧) .

وكانت المنتجات الزراعية والحيوانية التي تصدرها بلاد الشام إلى البلاد الاسلامية الأخرى كثيرة وأشهرها الزيتون والتين المجفف والخرنوب والزبيب والتفاح والقطن والتمور والحبوب والعسل وقلب اللوز والارز والاشنان والنيل والجبن والأغنام . وكان الرمان يحمل إلى بغداد في الفرات في مراكب كبيرة تسمى القراقير . وأما المواد

المصنعة فاشهرها الزيت والسبح والصابون والفوط والمرايا وقدور القناديل والخرز والزجاج المخروط والابر وشقاق المطارح والكاغد والبز ، وثياب المنيرة والبلعيسية والديباج والحبال والسكر ودهن البنفسج. وكان زيت الزيتون يحمل في الفرات إلى بغداد (٨٨) .

وهكذا فانه يمكننا القول أنه على الرغم من الصراعات السياسيه التي كانت تجري أحداثها في الأراضي الشامية في تلك الفترة ، وعلى الرغم من قلة الأمن وغيرها ، فقد انتعشت المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصور بسبب النشاط التجاري عبر البحر المتوسط ، ولكنه على الرغم من اشتغال أهالي الشام بتجارة البحار إلا أن مجال تجارتهم ظل أكثر محلية من تجارة البلاد الاسلامية الأخرى (٨٩) .

جـ ـ المعاملات التجارية والمالية : كان التعامل المالي في بلاد الشام في أوائل القرن السابع الميلادي بالدنانير الذهبية التي كانت سائدة في الدولة البيزنطية ، وكانت تسمى بالقيصرية ، وكذلك بالدراهم الفضية الفارسية . وحين فتح العرب الشام لم يغيروا النظام المالي البيزنطي الذي كان قائماً بها ، واستمر التعامل المالي على أساسه . ومنذ سنة ٧٦هـ / ٦٩٥م أخذت الشام تتعامل بعملة اسلامية سكها الخليفة عبد الملك بن مروان ، وحلت هذه العملة الاسلامية مكان سابقتها البيزنطية . ووزن هذا الدينار الذهبي الثابت ٤,٢٥ غرام .

وفي العصر العباسي يبدو أن كل مدينة كبيرة في الشام أخذت في ضرب النقود ، فظهرت نقود من ضرب الرافقة ، وأخرى من قنسرين أوحلب أودمشق أو الرملة . وكانت هذه النقود تستعمل إلى جانب

الدنانير العباسية التي سكها خلفاء بني العباس في العراق (٩٠) . وفي العهد الطولوني والاخشيدي ضربت النقود الذهبية في مناطق متعددة في الشام ، وكانت نقوشها متشابهة ، واختلفت من فترة إلى أخرى بذكر اسم الخليفة واسم الأمير الذي أمر بضربها وسنة الضرب . ومن الدنانير الذهبية التي شاع استعمالها في الشام ، الدنانير التي ضربها أحمد بن طولون في مصر سنة ٢٦٦هـ . وكذلك فقد ضرب لؤلؤ مولى ابن طولون نقوداً في الرافقة مشابهة للنقود التي ضربها سيده وكتب عليها اسمه تحت اسم أحمد بن طولون . وضرب خمارويه نقوداً ذهبية في الرافقة سنة ٢٧٣هـ ، وفي حران سنة ٢٧٦هـ وهي مشابهة لما ضرب في عهد أحمد بن طولون (٩١) .

وقد ضرب محمد بن صفوان العقيلي في قرقيسيا سنة ٢٧٥ هـ نقوداً . وفي العهد الاخشيدي ضربت نقود ذهبية منها ماضرب في فلسطين سنة ٣٣٢هـ عليها اسم المتقي لله والاخشيد . وما ضرب في سنة ٣٤٦هـ في فلسطين أيضاً عليها اسم المطيع واسم أبي القاسم بن الاخشيد.وفي فلسطين أيضاً في سنة ٣٥٠هـ عليها اسم المطيع وعلي بن الاخشيد ، كما ضربت بها نقود أيضاً في سنة ٣٥٥هـ في عهد كافور (٩٢) .

كما ضربت فلوس (٩٣) نحاسية في مناطق متعددة من بلاد الشام منها فلوس ضربت في مدينة حلب سنة ١٤٦هـ ، ضربها الأمير صالح بن علي . وأخرى في قنسرين ضربت سنة ١٥٧هـ،وثالثة في الرافقة سنة ١٨٩هـ ، ورابعة في دمشق سنة ١٩٢هـ (٩٤) .

ويبدو أن استعمال الدراهم الفضية في الشام أخذ في الانتشار مع

بداية القرن الرابع الهجري ، حتى إن معاملات كثيرة أخذت تجري به ، ومثال على ذلك السفتجة التي أنفذها سيف الدولة إلى أحد رجال دولته المسمى بالناظري بقيمة ثلاثة آلاف درهم (٩٥) .

وكثيراً ماكانت بعض المعاملات البسيطة تجري عن طريق المقايضة التي كانت كثيرة الانتشار في بادية الشام.وفي أثناء المساومة بين الطرفين يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر ، فاذا قال البائع « بعت » وقال الشاري « اشتريت » ترك كل منهما يد صاحبه وتم البيع والشراء(٩٦).

وكانت المعاملات المالية الضخمة تتطلب وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل ، وبعيدة عن متناول اللصوص . ومن هذه الوسائل السفاتج أو الحوالات . وقد كانت السفاتج محدودة الاستعمال خلال القرنين الأول والثاني ، ثم عم استخدامها في الدولة الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين . وذلك تبعاً لنشاط التجارة ، وازدياد المعاملات المالية ، وصعوبة حمل المبالغ الكبيرة من بلد إلى آخر . وقد كثر استعمال الحكام والتجار للسفاتج على السواء ، وهذه السفاتج تكون قابلة للصرف في أي بلد ، ولأي من عملائهم ، وكانوا في هذا يقومون بدور البنوك . فكان التجار يأخذون رقاعاً منهم بما لديهم من الأموال ، ثم يشترون مايلزمهم ويحولون ثمنه عليهم . كما كان الولاة يرسلون مازاد من دخل ولايتهم إلى مقر الخلافة في بغداد على شكل سفاتج (٩٧) .

وتذكر قصص متعددة حول استعمال السفاتج . فيحكى أن سيف الدولة ورد إلى بغداد متخفياً أثناء آمرة توزون ، فاجتاز شارع دار

الرقيق ، ودخل دار بعض الفتيان فسمع وشرب معهم ، وعند خروجه استدعى دواة فكتب رقعة وتركها فيها ثم انصرف . ففتحوا الدواة فاذا في الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ، فتعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفي الدنانير توآ ، فسألوه عن الرجل ، فاذا هو سيف الدولة بن حمدان (٩٨) .

* * *

٣ — الحياة الاجتماعية في بلاد الشام

— عناصر السكان

كان يقطن بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي قبائل عربية معظمها يمنية مثل غسان وتنوخ وجذام وعاملة وسليم وبهراء ، مع وجود بعض القبائل القيسية في شمالها . ولما قامت الفتوحات العربية ، وفد إلى الشام كثير من العرب برفقة الجيوش الفاتحة ، وكان معظم هؤلاء من أهل اليمن الذين فضلوا بلاد الشام لأنها أرض أسلافهم . وهذا مما ساعد على استمرار نفوذ عرب اليمن وسيطرتهم على الشام قبل الفتح الاسلامي وبعده . وكانت القبائل اليمنية في الشام تملك رصيداً كبيراً من الحضارة ، وكان مستواها الاقتصادي أعلى من العرب الذين جاؤوا مع الفتوحات أو بعدها واستقروا حديثاً ، يضاف إلى ذلك كثرة أعدادها في الشام(٩٩) . واستمرت الهجرة العربية إلى بلاد الشام بعد الفتح الاسلامي ، وفي هذه الآونة كان معظم المهاجرين من العرب القيسية . واستقر بعض هؤلاء في منطقة دمشق (١٠٠) .

ويمكن أن نحدد مناطق استقرار القبائل المختلفة في الشام كما يلي : في فلسطين كانت لخم وعاملة وجذام وكلب . وفي الأردن كانت غسان ومذحج وقضاعة وهمذان وكلب وعك . أما حوران

والجولان فقد استقر بها خليط من لخم وجهينة وذبيان . وفي دمشق كانت قضاعة وغسان وحمير مع عدد قليل من قيس وقريش . وكانت حمص إلى درجة كبيرة يمنية في سكانها حيث كانت هناك كندة وطيء وحمير وكلب وهمذان وقلة من إياد وقيس . وكان يقطن حماه يمنيون أيضاً وخاصة تنوخ وبهراء ، كما نجد في الشمال سليم وزبيد وهمذان وكندة وطيء وجميعهم من أهل اليمن مع أقلية من قيس وإياد . وكانت قيس هي الغالبة على قنسرين وضواحيها ومنطقة الجزيرة . كما كانت تقطن هناك ربيعة ، وكانت قبيلة كلب تقطن بادية السماوة حتى إنها سميت باسمها . أما تغلب فكانت على الخابور في منطقة الجزيرة (١٠١) .

وإلى جانب القبائل العربية في الشام ،كان هناك نصارى ويهود كثيرون تصالحوا على الجزية ، وكان منهم مثقفون باحدى الثقافتين السريانية واليونانية ، وعن أهل الذمة في الشام يقول المقدسي إن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم من اليهود ، وإن أكثر الأطباء والكتبة نصارى . كما يذكر أنه غلب على بيت المقدس النصارى واليهود (١٠٢) . وكان في دمشق عدد لابأس به من اليهود ، إذ كان بها ثلاثة آلاف يهودي (١٠٣) . وبالشام فئة أخرى هم السامرة وكانوا يسكنون بيت ماما من قرى نابلس بفلسطين . وكانت الجزية على الرجل منهم عشرة دنانير فشكوا ذلك إلى المتوكل فجعلها ثلاثة دنانير (١٠٤) . وعلى الرغم مما تمتع به أهالي الذمة من ضروب التسامح الديني الذي يثبته لنا كثرة الكنائس والأديرة في الشام ، فقد كان يحدث بينهم وبين المسلمين كثير من المشاغبات والمشاحنات .

وفي كثير من الأحيان كانوا يثورون على الخلفاء وولاتهم ، كما حدث في المنيطرة في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وما حدث في حمص حين ثاروا على الاجراءات التي فرضها عليهم المتوكل ، وما جرى من مشاحنات بينهم وبين المسلمين سنة ٣١٢هـ (١٠٥) .

كما ازداد عدد الموالي في بلاد الشام في العصر العباسي بشكل ملحوظ نتيجة ادخال هؤلاء في الجيوش العباسية ، ومرابطة قسم من هذه الجيوش في بلاد الشام ، وكذلك بسبب ارسال حكام من الموالي لحكم البلاد (١٠٦) .

وفضلا عن هذه الطوائف العديدة التي كانت تسكن الشام فان المجتمع كان ينقسم إلى طبقتين : طبقة العامة ، وطبقة الخاصة ، وكانت الفوارق بينهما كبيرة . وأكبر دليل على هذه الفوارق ماجاء في شعر ابن المعتز من مقارنة بين حياة الولاة وحياة عامة الشعب إذ يقول :

أفما ترى بلداً أقمت به ... أعلى مساكن أهله خصص

وولاته نبط زنادقة ... ملأى البطون وأهله خمص

فقد كان الترف بالغاً أقصاه في بلاط الأمراء ، فنفقات بلاط الحمدانيين وغيرهم من الأمراء بلغت حداً بعيداً ، كما امتلكوا الأموال والضياع والقصور . أما الشعب فأكثره بائس فقير (١٠٧) . ولهذا كانت أنظار كل صاحب موهبة تتوجه إلى الأمراء . فالشعراء والعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم ومديحهم . وقد صور لنا الشعراء الحياة الاجتماعية خير تصوير . فالشاعر المنعم المرفه

الذي حظي بنعمة كبيرة وعيش رغيد مثل الصنوبري كان شعره ينطق بحياة الرفاهية التي عاشها . وكان الفقير منهم يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار (١٠٨) .

ومما لاشك فيه أن أسباب فقر الناس يعود إلى سوء الاحوال الاقتصادية ، وفساد الادارة . فقد أصبح تولي المناصب الهامة لايتم إلا عن طريق الرشوة ، كما تفشى البرطيل — الرشوة بالاكراه — . وكان أول من أظهر البرطيل في الشام محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح الذي تولى قنسرين وحلب والعواصم في عهد الواثق . وكثرت أيضاً مصادرات الأموال والتركات (١٠٩) .

وكما كان الأمراء يحصلون على الأموال من غير حق، فقد كانوا ينفقونها في غير طريقها المشروع، فيغدقون الأموال على بعض الخاصة في الوقت الذي يحرمون منها بقية الناس . وكان سيف الدولة يهب الضياع لمادحيه ، كما ضرب دنانير خاصة للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل . ومن أمثلة ذلك أنه وهب المتنبي ضيعة من ضياع معرة النعمان القبلية ، فوق الأموال الطائلة . ودخل على سيف الدولة شاعر أنشده شعراً طلب فيه منه ألف درهم ، فأمر له سيف الدولة بألف دينار (١١٠) . كما أن خماريه وبيده ثروة الشام ومصر ، أنفقها كلها على زواج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد العباسي . فصنع لها الهواوين من الذهب الخالص ، وغير ذلك من مظاهر البذخ ، وبني لها داراً في كل مرحلة من مصر إلى بغداد . وكان كافور ينفق في السنة خمسين ألف دينار كهبات، دون مايصرفه على الجيش والحاشية (١١١) .

ونشأ عن هذه الحالة الاجتماعية عدة مظاهر ، ترف لا حد له في بيوت الأمراء وذوي المناصب ، وفقر لاحد له في بيوت عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأمراء أو بالأغنياء . وأدى ذلك إلى نتائج أخرى ، فقد تفشى بين الطبقات المترفة التفنن في اللذات والاستهتار ، وتفشى في الطبقات الفقيرة الحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة ، كما غلبت على بعض أفرادها نزعة التصوف . وخاف البعض على أموالهم من المصادرة فأخذوا يدفنونها في الصحراء (١١٢) . ونشأ عن ذلك أيضاً قلة الأمن ، وانتشار قطاع الطرق . فكم من مرة قام الأعراب بالنهب والسلب ، حتى إن بعض الطرق تعطلت لسنين عديدة (١١٣) .

ـــ الملابس : كان للاعراب في الشام لباس خاص . ويمكننا وصف هذا اللباس مما جاء عن المتنبي إذ أنه كان يحب أحياناً أن يتشبه بالأعراب ، ويرتدي لباسهم ، وقد وصف لباسه بأنه يتألف من طرطور طويل ، وقباء يعمل له عذبة طويلة (١١٤) . وقد انتشر لبس القلانس في الشام ، كما انتشر في غيرها من بلاد العالم الاسلامي منذ أن أمر المنصور سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م بلبسها . ويبدو أن هذا اللباس لم يدم طويلا لأنه لقي نقداً لاذعاً من فئة كبيرة من الناس ، ومنهم من صارح الخليفة بهذا النقد ، واعترض على هذا اللباس كأبي دلامة (١١٥) ، وقد اتخذ بعض أصحاب المراكز الكبيرة العمائم ، إلا أن هذه كانت تختلف من شخص لآخر بحسب مركزه الاجتماعي . فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة ، وللأبناء عمة ، وللروم والنصارى عمة .

كما انتشر عند بعض كبار رجال الدولة لبس القناع . وقد اتخذه بعض رجال العباسيين لأنهم اعتقدوا أن المقنع أهيب من الحاسر في الصدور ، وأجل في العيون . فقد تقنع عبد الملك بن صالح الذي تولى ثغور الشام لفترة طويلة ، كما فعل غيره ذلك (١١٦) .

وكان من جملة ملابس أدباء الشام الخفاف . وقد اتخذ بعض المخنثين لبس الخفاف الحمر . أما الجوارب فقد كان يلبسها الرجال والنساء على السواء (١١٧) ، وكذلك لبس أهالي الشام الممطر . وهو عبارة عن رداء يصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر . فقد سأل البحتري المتوفى سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م في قصيدة من قصائده ممدوحه أن يهب له ممطراً يتقي به المطر (١١٨) .

وكان لباس فلاحي معظم مناطق فلسطين كساء واحداً بلا سراويل (١١٩) . أما الوالي فقد كان يلبس دراعة وقميصاً ومبطنة وخفاً (١٢٠) . وكان القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين ، ويعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة . وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثالث الهجري خاصة هي التي تميز القضاة ، وتلبس مع الطيلسان .

والدينا وصف للباس المرأة الاسلامية بشكل عام ، ولابد أن تكون المرأة في بلاد الشام قد ارتدته . وكان يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير يلبس عادة في البرد . وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فانها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة . وقد اتخذت سيدات الطبقة الارستوقراطية غطاء للرأس مرصعاً

بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . أما النساء الأقل منهن مرتبة فكن يزين رؤوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن ، والأساور في معاصمهن وأزنادهن . وقد أخذن فن التجميل عن الفارسيات (١٢١) .

وأما أهل الذمة فقد كان لهم زي خاص يختلف عن زي المسلمين ، وذلك على الرغم من التسامح الكبير الذي حظوا به . فقد اتخذ الخليفة الرشيد قراراً في سنة ١٩١هـ / ٨٠٧م بأن يؤخذ أهل الذمة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، بناء على نصيحة أبي يوسف ، وكان قراره هذا بسبب تجسس أهالي الذمة في الثغور لحساب البيزنطيين أثناء القتال معهم (١٢٢) . وقضى هذا القرار بأن يجعلوا الزنانير في أوساطهم مثل الخيط الغليظ ، وأن يلبسوا قلانس طويلة مضربة . وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية . وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، وأن لايظهروا صلبانهم في الأمصار ، وأن لايبيعوا خمراً أو خنزيراً ، وأن يتخذوا على سروجهم موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب . وكانت قرارات المتوكل بشأنهم مشابهة لذلك (١٢٣) .

- الاحتفال بالاعياد : كانت مظاهر الاسلام تتجلى في الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى وعلى الأخص في دمشق وبيت المقدس وطرسوس. وفي هذه المدينة الأخيرة كان الاحتفال بهذين العيدين يبلغ ذروة الروعة والابهة ، حيث كان يتوافد اليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الاسلامية وترد اليها صلات أهل البر من المسلمين الذين لايستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . وكان في طرسوس دار لكل بلدة اسلامية

ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها . وكانت ترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة . ومما لاشك فيه أنه كان لذلك أكبر الأثر في ظهور الأبهة الاسلامية بأجلى معانيها في الاحتفال بالأعياد في طرسوس، حتى أصبح عيد الفطر وعيد الأضحى في هذه المدينة من محاسن الاسلام (١٢٤) . كما كان يحتفل بليلة الختمة (ختم القرآن الكريم) في المسجد الأقصى احتفالا عظيماً ، وبليلة النصف من شعبان بإيليا(١٢٥).

وأما الأعياد المسيحية فكان أهمها عيد يوم أحد الشعانين . وكان النصارى في القرن الرابع الهجري يحتفلون بهذا العيد في القدس ، ويحملون شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية إلى كنيسة القيامة وبينهما مسافة بعيدة . وكثيراً ماكانت ترافق هذه الاحتفالات شعوذة من القساوسة بقصد التأثير على المسيحيين واذكاء ايمانهم (١٢٦)

– العادات الدارجة :

م – الاطعمة :

سادت في بلاد الشام أنواع معينة من الخبز والأطعمة والمأكولات. فقد كانوا يخبزون الخبز في تنور صغير وهو عبارة عن حفرة في الأرض تفرش بالحصى ، ويوقد الزبل حولها حتى تحمر ، فتطرح الأرغفة على الحصى حتى تنضج فترفع . وكان لهم بعض الأطعمة الخاصة منها طبخ العدس والبيسار ، كما كانوا يقلون الفول النابت بالزيت بعد أن يسلقوه ويباع هذا مع الزيتون ، وكانوا يملحون الترمس ، ويكثرون من أكله . إلى جانب ذلك فانهم كانوا يصنعون نوعين من الناطف أحدهما من الخرنوب يسمونه القبيط ، والآخر من السكر .

وكانت مدينة منبج تعمل ناطفاً من الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم . ولم يكن يعادله شيء من نوعه إلا ماكان يصنع في بخارى فانه يزيد عليه في الحلاوة ، ويضيفون له الطيب . وكذلك كانوا يهتمون بعمل الزلابية في الشتاء (١٢٧) .

أما القلقاس فقد كان من المأكولات الشائعة في فلسطين . وكان يقشر ويطبخ ، ثم يرمى الماء الذي يطبخ فيه . وبعد ذلك يقلى بالزيت . وهو من مأكولات فصل الشتاء ، وهو ألذ مايؤكل في هذا الفصل إذا أكل باللحم الضأن (١٢٨) .

وفي بعض ترى الشام كان يوجد ضيافة دائمة توقف عليها الأوقاف . ففي قرية حبرون في فلسطين ، كان هناك وقف لتميم الداري كان يقدم منه في كل يوم العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء ، كما يأكل منه الاغنياء ان أرادوا ذلك ، وكان يشرف عليه طباخ وخباز وخدام مرتبون يقدمون الطعام ؛ كما أن السيدة زبيدة بنت داراً للضيافة في بغراس (١٢٩) .

ب – الأفراح والأتراح :

إن الأفراح والأتراح من العادات المتأصلة لدى الشعوب ، ولاتختلف مظاهر الاحتفال بها من عصر إلى عصر . وقد أمدنا ابن جبير الذي زار الشام في القرن السادس بوصف دقيق لأعراس النصارى في مدينة صور ، كما أورد لنا أيضاً وصفاً لتشييع جنائز المسلمين في دمشق .

ومن هذين الوصفين نستطيع أن نأخذ صورة تقريبية عن الأفراح والأتراح في الشام في هذه الفترة .

يجتمع جميع النصارى الموجودين في البلدة ومعارفهم في البلاد الأخرى للاحتفال بزفاف العروس إلى زوجها . ويصطف الجميع يوم الزفاف على طرفي منزل العروس وتتقدم الجميع فرقة موسيقية تعزف الموسيقى باستخدام جميع الآلات المعروفة في تلك الفترة، ثم تخرج العروس من منزل والدها تتهادى وهي في أبهى زي بين رجلين من أقاربها ، يمسكانها من يمين وشمال ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً . وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة . وهي تمشي بخطوات قصيرة وبطيئة . ويسير خلفها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أفخر الملابس وأنفسها . ويستمر سير هذا الموكب حتى تصل العروس إلى دار زوجها ، ثم يقيمون الولائم طيلة اليوم .

أما العادات التي كانت سائدة في الجنائز فهي أن يسير قراء القرآن أمام الجنازة ، يرتلون بعض آياته ترتيلا ينم عن الحزن . وخلف الجنازة أقارب الميت وأصحابه حتى يصلوا إلى المسجد ، فيقطعون القراءة ويصلون عليه هناك بالقرب من المقصورة ، وإذا كان الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فانهم يستمرون في تلاوة القرآن حتى موضع الصلاة عليه .

وعلى الغالب يكون العزاء بالبلاط الغربي من صحن الجامع الأموي بازاء باب البريد . فيصلون أفراداً ، ويجلسون وأمامهم ربعات من

القرآن يقرؤونها . وفي تلك الأثناء يقوم نقباء الجنائز بتعريف الحاضرين بكل من يأتي العزاء من كبار المدينة ، ويذكرون أعمال كل منهم الدينية والدنيوية .

ويستمر الحال على هذا الشكل حتى الانتهاء من قراءة القرآن . ويأتي بعدها دور الوعاظ ، فينهضون واحداً بعد واحد بحسب رتبهم في المعرفة . فيعظون ويذكرون وينبهون من خدع الدنيا ، ويحذرون منها . وقد ينشدون الشعر المناسب للموقف، ثم يختم كل منهم بتعزية المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ويترك الجميع مكانهم (١٣٠) .

ﻫ ــ الجواري والغناء :

تزايد عدد الجواري وخاصة الروميات في بلاد الشام نتيجة للحروب مع البيزنطيين ، ولما كان يجري أحياناً من بيع الرقيق في أسواق دمشق ، كما حدث في القرن الثالث الهجري حين قبض على بعض الثائرين من النصارى في مصر ، وبيعوا في أسواق دمشق .

وقد اقتنى الأمراء وعدد كبير من حاشيتهم وبعض أفراد الشعب من الطبقة الارستقراطية عدداً من الجواري . وكان يبالغ في ثمن بعض الجواري ، وخاصة من تجيد الغناء منهن ، وفي كثير من الأحيان بلغ ثمن الجارية التي تجيد الغناء ثلاثة آلاف دينار (١٣١) . وكانت قصور سيف الدولة ملأى بالجواري ، وبشكل خاص من أسرى البيزنطيين . وكان من بين هؤلاء جارية من بنات ملوك البيزنطيين . وكان سيف الدولة يحبها حباً شديداً ، حتى إنها كانت تلقى الحسد من سائر حظاياه على حسن محلها منه . وكثيراً ماكانت الجواري تهدى

من الأمراء إلى شعرائهم . ومن يقوم بمدحهم . فقد أهدى سيف الدولة إلى شاعريه – الخالديين – في أحد الأيام وصيفاً ووصيفة ومع كل واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر (١٣٢) . وكان عند الشاعر ديك الجن – شاعر الغزل والطرب – جارية اسمها دنيا ، وكان يحبها حباً جماً ، ويغار عليها من كل من حوله . وقد قتلها لمجرد أنه شاك في علاقتهامع غيره،ثم ندم على ذلك وأخذ ينشد الشعر في رثائها(١٣٣).

وقد رافق انتشار الجواري انتشار مجالس الغناء والطرب . وأسفر ذلك عن تقدم في الموسيقى ، وتطور في آلات العزف. وأشهر من برع في هذا العلم الفارابي ، فقد اخترع آلة القانون ، وركبها التركيب الذي تعرف به الآن . ومما ذكر عن الفارابي أنه حضر مجلس غناء لسيف الدولة قبل أن يشتهر . وكان يعيب المغنين وينتقدهم . عند ذلك طلب منه سيف الدولة ، أن يسمعه ماعنده؛ فما كان منه إلا أن فتح خريطة واستخرج منها تلك العيدان وركب الآلة ، وبدأ بالعزف عليها ، فبدا السرور على وجه الجميع ، وضحك كل من كان بالمجلس . ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها ، فبكى كل من كان بالمجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج . ويبدو أن الفارابي بعد تنقله بين بغداد ومصر والشام عاد إلى دمشق وأقام بها . وقد برع إلى جانب الموسيقى بالفلسفة والمنطق . وكان قنوعاً أجرى عليه سيف الدولة أربعة دراهم كل يوم من بيت المال ، فاقتصر عليها . ولم يزل كذلك إلى أن توفي سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠ – ٩٥١ م بدمشق ، ودفن بظاهرها خارج الباب الصغير (١٣٤) .

ولا يسعني بعد هذا العرض للحياة الاجتماعية في بلاد الشام في هذه الفترة ، إلا أن أقدم هذا الوصف الجامع لحياة الناس في بيت المقدس الذي ورد على لسان المقدسي . فهو يصور أيضاً حياة الناس عامة في الشام . فقد قال يصف أهل بيت المقدس (ليس للمظلوم أنصار ، والمستور مهموم ، والغني محسود ، والفقيه مهجور ، والأديب غير مشهور ، لامجلس نظر ولا تدريس) (١٣٥) .

* * *

٤ ـ الحالة العمرانية في بلاد الشام :

اهتم الخلفاء العباسيون اهتماماً بالغاً بعمران الثغور وتحصينها لكي يجعلوا منها جبهة قوية في وجه الاعداء ، وعملوا في نفس الوقت على هدم الحصون التي كان يعتصم بها الثوار في البلاد . فقد عمل عبد الله بن طاهر بعد انتهائه من حرب نصر بن شبث على هدم الحصون وأسوار المدن ، فخرب كيسوم وهدم سور معرة النعمان ، كما هدم معظم الحصون الصغار مثل حصن الكفر وحصن حناك ، وقد سبقه عبد الله بن علي بهدم سور مدينة دمشق ونقضها حجراً حجراً (١٣٦).

وما فعله الرشيد في منطقة الثغور يوضح اهتمام العباسيين بتحصين هذه المنطقة لتصبح منطقة دفاعية قوية في وجه الأعداء . فقد أفرد المنطقة جنوب الثغور وسماها العواصم لتكون خط دفاع ثانياً في وجه البيزنطيين ترابط به الجيوش الاسلامية ، وتكون على أهبة الاستعداد لنجدة اخوانهم في الثغور ، كما اهتم الرشيد ببناء كثير من الثغور ، وعمل على تحصين ثغر طرسوس واعمار مدينة الرافقة . وقد سار الخلفاء بعده على نفس الخطة (١٣٧) . كما اهتم سيف الدولة بتقوية مدينة ميافارقين فعمر في سورها مواضع كثيرة (١٣٨) .

ومن أهم ماحدث في هذه الفترة من الناحية العمرانية تحصين الخلفاء العباسيين والولاة لموانىء الشام . فقد ابتدأ المعتصم بتحصين

أنطاكية ، ثم أتم الطولونيون ذلك بتحصين بقية الموانىء وبشكل خاص ميناء عكا . ويقال أن ابن طولون حين اطلع على حصانة مدينة صور ومناعتها ، وشاهد استدارة حائط مينائها . أراد أن يجعل ميناء عكا معادلا لميناء صور . ولتنفيذ قراره هذا أرسل لاحضار الصناع من بلاد الشام ، فأشير عليه باستدعاء أبي بكر البناء ، جد الرحالة المقدسي الذي وصف بأنه الرجل الوحيد الذي يمتلك المقدرة على البناء في الماء في تلك الفترة ، فأنفذ ابن طولون في طلبه من القدس . ولما تسلم أبو بكر المهمة ، أحضر فلق الجميز الغليظة وقام برصفها على وجه الماء بالمساحة التي قررها . ثم ربط هذه الفلق بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الجهة الغربية . ثم أخذ يبني فوقها بالحجارة والشيد . وكان كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليجعل العمل متيناً . وأخذت الفلق هذه تنزل في الماء كلما ثقلت . حتى إذا وصلت إلى قاع البحر وغاصت بالرمل تركها حولا كاملا لتستقر . ثم عاد وبنى الميناء وربطه بالحائط القديم . وأخذت المراكب تدخل الميناء في كل ليلة ، وتجر بالسلسلة وتربط بحائط البناء . وقد كافأه ابن طولون على هذا العمل ودفع له ألف دينار سوى الخلع والمواشي . وقد أصبح ميناء عكا منذ ذلك الوقت من أشهر موانيء الشام ، وغدا يشبه في عظمته القسطنطينية . وأصبحت عكا ملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، حتى أصبحت أسواقها تضيق بواردها (١٣٩) . واهتم أحمد بن طولون ببقية الموانيء الشامية ، فبنى حصن يافا أيضاً(١٤٠).

ونهض بعض ولاة العباسيين وقوادهم ببناء بعض المدن في الشام فقد بنى عبد الله بن صالح مدينة على طرفي بادية الشام وأسماها سلمية ،

وأسكن بها أولاده . وقد اختار لبنائها منطقة وفيرة المياه خصبة زراعياً ، ولا تبعد عن حمص إلا مرحلة واحدة . كما أن أحد قواد الرشيد وهو مالك بن طوق بنى مدينة الرحبة فنسبت اليه وسميت رحبة مالك (١٤١) .

وقد استمرت بعض المدن الشامية على حالتها العمرانية القديمة ، فدمشق ظلت على ماكانت عليه . فهي مائلة للطول وطرقاتها ضيقة ومظلمة ، وبناؤها من طين وقصب أو من طين وخشب. وكانت دورها تبنى على أكثر من طابق ، وكانت على الغالب ثلاث طبقات (١٤٢) . أما حلب فقد بنيت بالحجر، ووصفت أسواقها بأنها مغطاة . أما السوق الذي كان على طول البلد فانه كان مكشوفاً . وكانت بعض الطرقات تفرش بالحجارة ، ومن أمثلة ذلك طريق حمص فقد كان مفروشاً بالحجارة (١٤٣) .

وكانت بعض هذه المدن تشرب المياه من قنوات خاصة موزعة باحكام على دورها كما هو الحال في مدينة دمشق . وكان بعضها الآخر يشرب من الصهاريج . وكان في كل بيت صهريج أو أكثر للاستعمال المنزلي كما هو الحال في مدينة القدس (١٤٤) .

واهتم ولاة الشام بأن يجعل كل منهم لنفسه داراً يشتهر بها . وهذه الدور وإن لم ترق إلى مصاف الدور التي بنيت بسامراء أو بغداد ، إلا أنها تدل على حركة عمرانية في الشام . ولم تذكر لنا المصادر التاريخية شيئاً عن مساحة هذه الدور أو عدد غرفها أو طريقة بنائها ، وانما اكتفت بابراز عظمتها واتساعها وجمالها . فقد بنى صالح بن علي حين تولى حلب وقنسرين وحمص سنة ١٣٧هـ داراً مشهورة بقرية بطياس

بالقرب من النيرب . كما أن الحسن بن علي المعروف بكورة الخراساني بنى لنفسه داراً كبيرة داخل باب الجنان بحلب وتعرف بدار كورة . كما بنى عبد الملك بن صالح داراً بمنبج كبيرة وحسنة البناء . واهتم سيما الطويل ببناء دار حسنة في حلب . جعل لها بستاناً عرف فيما بعد ببستان الدار . وقد عرف الحي الذي بنى به سيما الطويل داره — نفس الحي الذي كان به دار محمد بن عبد الملك — بالدارين . وكذلك اهتم سيما الطويل بالطريق المؤدي إلى منزله ، فجدد الجسر الذي على نهر القويق القريب من داره ، وركب عليها باباً أخذه من قصور بعض الهاشميين بحلب يقال له قصر البنات (١٤٥) . وكانت زبيدة زوجة الرشيد قد بنت ببغراس داراً كبيرة خصصتها للضيافة (١٤٦) .

أما مساور بن محمد الرومي حاكم حلب في عهد الاخشيد ، فقد بنى لنفسه داراً عرفت بدار ابن الرومي ، وكانت في حي الزجاجين ، وعرفت هذه الدار بدار ابن مستفاد . وقام ذكا بن عبد الله الأعور ببناء دار في حلب في سوق الصاغة ، عرفت بدار ذكا . وقد استعملت فيما بعد كدار للزكاة . وإلى جانبها دار حاجبه فيروز ، وحين نسفت هذه الدار فيما بعد ظهر فيها زئبق ، مما لايدع مجالا للشك في أن هذه الدار كانت تستخدم كمكان لحفظ بعض الذخائر والنفائس .

أما سيف الدولة فقد بنى لنفسه داراً بالحلبة في ضواحي حلب من جهة الغرب ، اختار موقعها في مكان حسن التربة طيب الهواء ويمر به نهر قويق . وألحق بهذا القصر حديقة واسعة تزرع فيها الكروم ، ويقال أنه كان فيها ميدانان تقام فيهما حلبة السباق ، وكان له أسوار

تحيط به . كما كان حوله اصطبل ومساكن للحاشية (١٤٧) . كما اهتم سيف الدولة ببناء قصر فخم داخل مدينة ميافارقين سمي بالقصر العتيق (١٤٨) .

أما بناء المساجد واصلاحها فكثير . فقد بنى المهدي أفخم جامع في عسقلان (١٤٩) ، كما اهتم سيف الدولة بجامع حلب حتى جعله يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء ، وكان سليمان بن عبد الملك قد بنى هذا الجامع واهتم به ، كما اهتم الوليد بجامع دمشق (١٥٠). وأصلح المأمون المسجد الأقصى بعد أن تخرب نتيجة حصول زلزلة أطاحت بقسم كبير منه (١٥١) . وكانت الشام عموماً في تلك الفترة ، كثيرة المساجد .فقد كان في فلسطين وحدها نحو من عشرين منبراً (١٥٢) . ومن المشاهد التي بنيت في الشام مشهد الدكة ، بناه سيف الدولة على قبر المحسن بن الحسين بن علي وكتب عليه (عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربة إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان) (١٥٣) .

كما زخرت مدن الشام بالحمامات ، وصفها المقدسي بأنها حمامات حسنة وفواراتها عجيبة . وقد قدرها ابن جبير بمائة حمام . ومما يذكر أنه كان في كل حمام ديوان وبه خدام مشرفون على الدواليب (١٥٤) . أما حلب فقد كان بها حمامات كثيرة ، منها الحمام المجاور للدار كورة . وكذلك كان بها حمام النفري (١٥٥) . ومن الغرائب التي تذكر عن حمامات الشام أنها كانت تزين بصور الحيوانات مثل العنقاء ، وهو حيوان خيالي يمثل بطائر وجهه وجه انسان ، وله منقار نسر ، وأربعة أجنحة من كل جانب ، ويدان ذواتا مخالب . وهذه عادة قديمة ترجع إلى العصر البيزنطي ، واستمرت في العصر الاسلامي(١٥٦).

٥ ـ العلوم الدينية والمذاهب الاسلامية في الشام

كان الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه هو السائد في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث وأوائل القرن الرابع . وكان يفد إلى هذه البلاد كثير من علماء العراق والحجاز وفارس ومصر والمغرب حيث ينشرون علمهم . كما رحل فريق من أهل الشام إلى البلاد الاسلامية للافادة من علمائها ونشر ما عندهم من علوم .

ـ علم الحديث والفقه : لم ينهض علماء الحديث في الشام بكتابة الأحاديث . ويبدو أنه كان للنواحي السياسية أثر في عدم وجود من يكتب في هذا العلم . وقد تعرض الاوزاعي إمام الحديث فيها للقتل بعد استيلاء العباسيين على دمشق . والأوزاعي أشهر محدثي وفقهاء الشام في القرن الثاني على الاطلاق ، ينسب إلى أوزاع بطن من همدان من العرب اليمنية . ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ / ٧٠٦ ـ ٧٠٧م ، وسكن بيروت وتنقل في طلب العلم ، فذهب إلى اليمامة ، وسمع من بعض شيوخها ورحل إلى مكة ، وأخذ العلم عن عطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري ، ورحل إلى البصرة وسمع من شيوخها . وقد تنقل بين بيروت ودمشق ، توفي في سنة ١٥٧هـ / ٧٧٤م (١٥٧) .

لم يكن الأوزاعي ينتمي لأية مدرسة من مدرستي الحديث اللتين اشتهرتا في تلك الفترة ، بل كان وحده مدرسة ، وإن كان في رأيه

أقرب إلى مدرسة المدينة . فقد كان يفضل الحديث إذا وجد عن الرأي . كما أنه كان يعتد بأقوال الصحابة ، ويرى أن العلم ماجاء عن أصحاب الرسول ، وأما غير ذلك فليس بعلم . ومن فتاوى الأوزاعي التي أخذها عن القرآن أنه سئل عن مصير أهل الذمة إذا أخبر العدو بعورة من عورات المسلمين ودلهم عليها ، أو آوى عيونهم ، فقال : (قد نقض عهده وخرج من ذمته إن شاء الوالي قتله وان شاء صلبه) . واستشهد بالآية (فانبذ اليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين) . وقد كان رأي أبي حنيفة في نفس الفتوى أن يقتل أو يسلم (١٥٨) .

وكان الأوزاعي إذا سئل عن مسألة فيها حكم بآية أو حديث أو قول صحابي أو تابعي أخذ به ، يبين ذلك قوله (اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فانه يسعك ماوسعهم) (١٥٩) . وعلى الرغم من ذلك فلم يتشدد في أخذه بالحديث النبوي كتشدد الامام مالك بن أنس . فهو يأخذ الحديث ويطبقه بالصورة التي يراها مناسبة ، فيجمع بين الرأي والحديث . وكان يحكم عقله حين يرجع إلى الحديث ، مما يكسب حكمه منطقية عقلية . وكان إذا افتى برأيه لايتورع من أن يغيره إذا ما اتضح له أنه غير صحيح ، أما إذا افتى عن نص فلا يتراجع عنه .

وكان يستعمل في فتاويه بعض العبارات مثل قوله«أحياناً» «وبهذا قضت السنة» و«لا أرى بأساً»،و«هذا حلال» و«هذا حرام». وقدانتقده البعض على قوله الأخير ، لأن القول بأن هذا حلال وهذا حرام لايجوز إلا لما يكون في كتاب الله واضحاً بلا تفسير (١٦٠) .

واشتهر الأوزاعي بصلاحه وتقواه وقوة شخصيته وتمسكه بالحق أمام الخلفاء والامراء ، وجهره بالنصيحة لهم . وقد رويت له أخبار كثيرة في وعظ أبي جعفر المنصور وغيره . ومما يروى عن مواقفه ازاء العباسيين أنه لما دخل عبد الله بن علي دمشق طلب الأوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ، ثم حضر بين يديه . فقال له : يا أوزاعي ماترى فيما صنعنا من ازالة أولئك الظلمة عن البلاد والعباد ، أجهاد هو ؟ قال الأوزاعي : سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله (ص) يقول ، « إنما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء مانوى » . فضرب عبد الله بالخيزرانة ثم قال : يا أوزاعي ماتقول في دماء بني أمية ؟ فقال : قال رسول الله (ص) لايحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) . فضرب بالخيزرانة أشد من المرة الأولى ، ثم قال : ماتقول في أموالهم ؟ فقال الأوزاعي : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وان كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي .

أما مواقفه مع الخليفة المنصور فمشهورة . فقد اجتمع به في الشام ووعظه ، فلما أراد الاوزاعي الانصراف ، استأذن المنصور ألا يلبس السواد ، فلما استفسر منه عن السبب الذي يجعله يكره السواد أجابه (لأني لم أر محرماً أحرم فيه ، ولا ميتاً كفن فيه ، ولا عروساً جليت فيه ، فلهذا أكرهه) (١٦١) .

وظهر تأثير الأوزاعي على الفقه وعلى سياسة الأمة وعلى الخلفاء العباسيين في سن الأحكام لزيادة أرزاق الساحل ، وفداء الأسرى من

المسلمين ، والتوسط لاسقاط الخراج عن أهل الذمة في بعض السنين القاسية التي يحتاجون فيها إلى ذلك ، وكان الأوزاعي يوصي بأهل الذمة خيراً ، وينصح خلفاء العباسيين بذلك . وقد وقف موقفاً صلباً أمامهم حين ثار بعض أهالي الذمة في جبل لبنان لتضايقهم من عامل الخراج ، فقاتلهم صالح بن علي ، ثم أسفر القتال عن اجلاء العباسيين لنصارى لبنان . فاحتج الأوزاعي على ذلك ، وكتب إلى صالح بن علي كتاباً شديداً جاء فيه (. . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم (. ثم قال في كتابه (وأحق الوصايا أن تحفظ وصية رسول الله(ص) من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ((١٦٢) . ومما يقال عنه أنه استفتي وعمره ١٣ سنة ، وأنه أجاب في سبعين ألف مسألة في حياته . وقد مدحه كثيرون حتى قيل ماكان أحد بالشام أعلم بالسنة من الأوزاعي (١٦٣) .

وعلى الرغم من أن مذهب الأوزاعي انتشر من الشام إلى المغرب والأندلس ، فقد كان انتشاره محدوداً ، ولم يعمل من جاء بعد الاوزاعي على نشره . ويعود السبب في الغالب إلى عدم وجود مؤلف فقهي كبير للاوزاعي يساعد على بقاء المذهب ، ويبدو أن أهالي الشام استمروا يعملون بمذهبه حوالي مائتي عام . ويقال إن قاضي دمشق أبو الحسن أحمد بن سليمان بن حزام ، والذي توفى سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م كان على مذهب الأوزاعي وكان له حلقة كبيرة بالجامع الأموي (١٦٤) . ويؤكد عدم انقراض ذلك المذهب بسرعة ماذكره المقدسي أنه كان للأوزاعية مجلس بدمشق ، إلا أنه قال بأن العمل فيه كان على مذهب أصحاب الحديث (١٦٥) . ويتضح من هذا القول

أن مذهب الأوزاعية كان أقرب إلى أصحاب الحديث ، وأن الفاصل بينهما كان يضيق مع مرور الأيام ، حتى أصبح المذهب الأوزاعي في عصر المقدسي وكأنه مذهب من مذاهب أصحاب الحديث . وقد ألف الأوزاعي كتابين في الفقه ، هما السنن في الفقه ، والمسائل في الفقه (١٦٦) .

وظهر في الشام بعد الأوزاعي بعض علماء الحديث إلا أنهم لم يدونوا ما تناقلوه في مؤلف . ومن هؤلاء اسماعيل بن عياش الذي توفى سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م ، وكان يعتمد على حفظه ولا يكتب ، ولذلك فان الأحاديث التي كان يرويها كثيراً ماوقع فيها خلل (١٦٧) .

وكذلك كان سعيد بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦ — ٧٧٧م ، ولكنه كان كسابقه لايعتمد على التدوين ، وكان يصرح بأنه ماكتب حديثاً قط . وكان اسمه يقرن باسم الأوزاعي في كثير من الأحيان ، حتى يقال إن الفتيا ثبتت في الشام على مذهب الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز .

وقد اشتهر من الفقهاء الشاميين في القرن الثاني عدد لابأس به ، ومن هؤلاء يحيى بن حمزة القاضي ، واسماعيل بن أبي المهاجر ، وسليمان بن موسى الأمري ، ومخلد بن الحسن ، والعباس بن يزيد صاحب الأوزاعي ، وشعيب بن اسحق صاحب أبي حنيفة ، ويزيد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن جابر ، ومحمد بن الوليد الزبيدي المتوفى سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م ، ويحيى بن يحيى الغساني المتوفى سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م ، والوليد بن يزيد العذري البيروتي المتوفى سنة ٢٠٣هـ / ٨١٨ — ٨١٩م والذي شهد له الكثيرون بأنه ثقة (١٦٨) .

أما في القرن الثالث الهجري فقد ظهر في بلاد الشام طائفة من المحدثين والفقهاء ، نخص بالذكر منهم محمد بن عوف الطائي الحمصي المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨ — ٩٠٩م ، وزكريا بن يحيى السجزي(١٦٩). وكذلك العباس بن الوليد بن يزيد البيروتي المتوفى سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣ — ٨٨٤م ، ومحمد بن عبد الله بن عبد السلام أبو عبد الرحمن البيروتي المعروف بمكحول الحافظ ، وقد روى عنه كثيرون وتوفى سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م (١٧٠) .

ومن المشهورين في هذه الفترة بعلم الحديث والفقه محمد بن يعقوب المعروف بابن الفرخي الذي كان يعظ في جامع الرملة . وقد انفق ماله الكثير في طلب العلم والاحسان إلى الفقراء ، توفى سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤ — ٨٨٥م . وكذلك أبو عبد الله الأخفش المتوفى سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣ — ٩٠٤م ، وكان هذا متفهماً للقراءات السبع عارفاً بالتفسير والنحو والمعاني والغريب والشعر ، حسن الصوت والاداء . وعنه أخذت وضبطت قراءة أهل الشام . أما محمد بن يحيى أبو سعيد المعروف بحامل كفنه ، فقد كان محدثاً مشهوراً في دمشق ، توفى سنة ٢٩٩هـ/٩١١—٩١٢م(١٧١). وكان منهج دراسة الحديث في هذا القرن مماثلا لما هو الحال عليه في مصر ، ويعود الفضل في ذلك إلى تبادل رجال العلم فيهما الزيارة والرحلة (١٧٢) .

واشتهر كذلك في النصف الأول من القرن الرابع الهجري عدد كبير من رجال الحديث ، منهم ابراهيم بن محمد العطار المتوفى سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩ — ٩٥٠م . وأحمد القرشي الوراق المسمى بابن فطيس ،

توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م . وأما محمد بن أحمد الحلبي فله كتاب الشبان والشيب . وقد أحسن فيه توفى بعد سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م (١٧٣) .

وقد زخرت كل مدينة من المدن الشامية برجال عملوا في حقل العلوم الدينية . فقد نبغ في طرابلس الشام جماعة من علماء الحديث ، وكذلك في مدينة انطرسوس وبالس . ولم تخل حوران من عدد من علماء الدين من محدثين وفقهاء في هذه الفترة . أما الثغور وبشكل خاص طرسوس فشهرتها كبيرة ، فكانت مقصد لكثير من العلماء والزهاد الذين كانوا يفدون اليها ، إلى جانب علماء المنطقة ذاتها (١٧٤) .

ولم تكن بلاد الشام منغلقة على نفسها ، بل رحل كثير من علماء الشام في طلب العلم إلى دول العالم الاسلامي ، كما كانت بلاد الشام مقصداً لكثير منهم . فمن علماء الشام الذين رحلوا في طلب العلم أبو القاسم بن أحمد الطبراني . تنقل في البلاد الاسلامية ثلاثاً وثلاثين سنة ، وسمع فيها من ألف شيخ (١٧٥) . وكذلك أبو داوود القاضي الذي ينتمي إلى قرية من قرى قنسرين ، طلب العلم منذ طفولته ، ونبغ في الفقه والكلام ، واستقر في بغداد ، وتوفى بهاسنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤ — ٨٥٥ م (١٧٦) . أما أبو محمد البزاز الدمشقي المعروف بالرواس فقد قدم بغداد وحدث بها ، وعاد في آخر حياته إلى دمشق ، حيث توفي سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩ — ٩٢٠م . والمحدث أبو عبد الله السوابيطي ، قدم إلى بغداد ، وحدث بها توفى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١ — ٩٢٢م . والمحدث أحمد بن سعيد الدمشقي الذي أصبح مؤدب ولد المعتز ، والذي توفى سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨ — ٩١٩م . وكذلك رحل

إلى مصر ، مسلمة بن علي البلاطي وتوفى فيها قبل سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥ — ٨٠٦م (١٧٧) .

كما ورد إلى الشام كثير من علماء الدين لينشروا علمهم بها ، وليأخذوا من علمائها ماليس عندهم . ومن هؤلاء اسحق بن أبي عبد الرحمن الأنطاكي الأطروش العطار وهو من البصرة . واستقر في أنطاكية ، وتوفى بها بعد سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١ — ٨٥٢م . كما رحل إلى الشام أبو محمد الترقفي الباكساني ، وكان كثير الحديث واسع الرواية ، توفى سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠ — ٨٨١م . وارتحل إليها أيضاً طلباً للحديث ، الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني الذي صنف كتاب السنن ، والذي توفى سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦ — ٨٨٧م . وممن قصد بلاد الشام طلباً للعلوم الدينية وبشكل خاص الحديث محمد بن ابراهيم مولى ثقيف . وسكن بيت المقدس وحدث بها (١٧٨) .

وقد زار الشام أيضاً طلباً للعلم من علماء الأندلس القاضي عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن الناصر الأندلسي ، وأبو القاسم ابن الدباغ الذي نشأ بقرطبة ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل إلى بلاد الشرق وتنقل بين مصر والشام يأخذ العلم على كبار علمائها زهاء خمس عشرة سنة (١٧٩) .

وفي النصف الأول من القرن الرابع وفد من بغداد إلى الشام أبو نعيم الحافظ ، ونزل الرملة وحدث بها عن كثيرين ، ثم توفى سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠ — ٩٤١م . وكذلك أبو بكر الخرائطي من أهالي سامراء ، وفد إلى الشام وسكن بها ، وحدث . توفى سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠ — ٩٤١م . وقد رحل إلى الشام الخرقي الحنبلي وهو من أعيان فقهاء الحنابلة ، ومن

أصحاب المصنفات المشهورة ، سكن دمشق وتوفى بها سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ – ٩٤٦م (١٨٠) .

كما وفد بعض علماء الحديث على سيف الدولة بن حمدان في حلب ، ومنهم الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافي القاضي النحوي . وقد عمل سيف الدولة على الجمع بينه وبين أبي علي الفارسي ،حيث جرت بينهما مباحثات في النحو في حلب ، وقيل أن ذلك كان سبب وضع أبي علي المسائل الحلبية . وكان أبو سعيد ماهراً في سائر العلوم : القرآن ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، والكلام ، وعلوم الشعر ، والمنطق ، والنجوم ، والحساب . وكذلك الحسن بن أحمد بن علي بن مهران القهستاني أبو القاسم وهو محدث مشهور ، وفد على سيف الدولة وتوفى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢ – ١٠٠٣م (١٨١) .

نستخلص من هذا العرض للعلوم الدينية في الشام من أن التفسير فيها طبع بطابع عدم التشدد ، كما كان اجمالياً لايتطرق إلى دقائق المعنى وتفصيلاته . وكان العالم الواحد من العلماء يوزع جهده على كافة مجالات العلم من تفسير وحديث وقراءة ولغة ، دون أن نرى من يصرف اهتمامه لعمل كامل . واذا استثنينا الأوزاعي فاننا لانجد في الشام عالماً بالحديث والتفسير ذا شأن . إلا أن الشام اشتهرت بوجود نقاد للحديث يميزون الحديث الصحيح من الحديث الموضوع . وقد اشتهر في الشام من العلماء النقدة بعض من ورد اسمهم فيما سبق ، ومن هؤلاء محمد بن الوليد الزبيدي الذي كانأعلم أهل الشام بالحديث. وممن اشتهر بالنقد أيضاً الأوزاعي ، وأبو اسحق الفزاري . فقد قال الأوزاعي : كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يعرض الدرهم

الزيف على الصيارفة ، فما عرفوا أخذنا ، وما تركوا تركنا . ويصور المؤرخون قيمة أبي اسحق الفزاري في النقد فيقولون : إن الرشيد أخذ زنديقاً ليقتله ، فقال الزنديق : أين أنت من ألف حديث وضعتها . فأجابه الرشيد : فأين أنت ياعدو الله من أبي اسحق الفزاري ، وابن المبارك يتخللانها فيخرجانها حرفاً حرفاً (١٨٢) .

ويقال إن أهالي الشام بدؤوا متأخرين في وضع الأسانيد للأحاديث ، وكانت أكثر أحاديثهم مرسلة ، ولذلك فضل بعض العلماء المتأخرين حديث أهل المدينة والبصرة عن أحاديثهم . وأول من أبرز ضرورة وضع الأسانيد للاحاديث الزهري الذي خاطب محدثي الشام قائلا : ياأهل الشام مالي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم ، فتمسكوا منذئذ بالأسانيد .

ومن أهم الميزات التي امتاز بها علماء الشام في تلك الفترة ، اهتمامهم الكبير بفتوح الشام وتاريخه وأحداثه ، حتى اشتهر الشاميون بمعرفتهم بالسير . وقد روى الشافعي في كتاب الأم سير الأوزاعي وهو يتضمن شرح النظام الحربي للمسلمين . وكانت هذه الأحاديث في الفتوح وما إليها نواة كتب تاريخ الشام (١٨٣) .

بلاد الشام ونشأة المذاهب الاسلامية

١ ـ القدرية والجبرية :

فتح المسلمون بلاد الشام وهي تعج بالنصارى وكان بين هؤلاء ما بينهم من خلاف وجدل حول طبيعة المسيح . ولما هدأت حركة الفتوح الاسلامية بدأت خصومة النصارى للمسلمين تتجلى في المناقشات الدينية فيما بينهم حول الاسلام والنصرانية ، فنشأ

من ذلك جدل كثير . وكان في قصور خلفاء الأمويين في دمشق عدد من النصارى تولى بعضهم مناصب كبيرة مثل يحيى الدمشقي الذي كان في قصر عبد الملك بن مروان . وقد ألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين ، ومما جاء فيه (إذا قال لك العربي ماتقول في المسيح) ؟ فقل له : إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم ، بم سمي المسيح في القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، لأنه سيضطر إلى أن يقول كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فان أجاب ذلك فاسأله ، هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ، ولم تكن له كلمة ولا روح) . ورأى يحيى أن ذلك سيفحم العربي ، لأن من رأى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين . ورد المسلمون على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة . وعلى هذا الشكل نشأ الجدل بين الطرفين ، واضطر كل منهما لقراءة كتب الآخر ليستعين بها على تأليف حججه .

وهكذا نشأ علم الكلام من الحاجة إلى الدفاع عن الاسلام دفاعاً مسلحاً بالفلسفة ، لأن المهاجمين مسلحون . ثم إن المسائل كلها حتى الدين تحولت إلى علوم بعد أن كانت تسير على الفطرة . فقد كانت تثار بعض المسائل التي تحتاج إلى الاجابة عليها ، مثل: هل صفات الله غير ذاته ؟ أو هي هي ؟ وهل الانسان مجبر أم مخير ؟ وهل مرتكب الذنوب فاسق ؟ أو مؤمن أو كافر ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة (١٨٤) .

أدت هذه الأفكار إلى شك البعض في القدر الأزلي المطلق . واعتقد هؤلاء أن الانسان لايمكن أن يكون عبداً لقدر لايتغير ، بل الأولى به

أن يخلق بنفسه أفعاله ليكون هو نفسه علة خلاصه وسلامه أو شقائه وهلاكه (١٨٥) . وقد عرف هذا الفريق بالقدرية لأنهم يضيقون القدر ، بينما وصف خصومهم أنصار الاكراه الأعمى ، أي الجبر بالجبرية .

ومع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ظهرت في الشام هاتان الفرقتان القدرية أتباع غيلان الدمشقي ، والجبرية أتباع الجعد بن درهم الذين ردوا على القدرية . وكان غيلان أول من قال بخلق القرآن ، وهذا من مبادىء المعتزلة . وقد ذكر ذلك ابن نباتة إذ قال : وغيلان أول من تكلم في القدر وخلق القرآن في الاسلام . وكان الأوزاعي من العلماء الذين وقفوا بعنف ضد غيلان فناظره وأفتى بقتله . وقد استمر القول بالقدر في الشام على رأي غيلان بعد موته ، ولكن القدرية لم يكونوا فرقة قوية ، بل كانوا أفراداً متفرقين . ومن تلاميذ غيلان مسلم بن خالد الزنجي ، والنعمان بن المنذر المتوفى سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ — ٧٥٠م . وممن رمي أيضاً بالقدرية حسان بن عطية ، إلا أن الأوزاعي أنكر عنه ذلك .

ومن الذين قالوا بالقدر في العصر العباسي الأول ثور بن يزيد الكلاعي المتوفى سنة ١٥٣هـ . وعلى الرغم من قوله بالقدر فقد وثقه جماعة ومنهم الأوزاعي ، الذي قال عنه أنه ثقة ، إلا أنه حذر من قوله بالقدر . وهنا نلمح التحول الكبير في النظرة إلى القدرية ، فبعد أن أفتى الأوزاعي بقتل غيلان نراه يوثق ثوراً ، ولكنه يحذر من القدر عنده . وقد اعتبره بعض العلماء من أمثال يحيى القطان أوثق من في الشام . ولم تكن الدولة العباسية تتدخل مع القائلين بالقدر . أما الطرد

الذي ناله ثور من مدينة حمص ، فقد كان من جانب سكان المدينة أنفسهم الذين أخرجوه ، وأحرقوا داره سنة ١٥٠هـ (١٨٦) .

وكان يحيى بن حمزة الحضرمي قدرياً وقاضياً بدمشق سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م . وهذا يدل على أن القدريين كانوا يتقلدون مراكز هامة في الدولة — كالقضاء — في هذه الفترة . ومنهم كذلك صدقة بن عبد الله السمين الذي توفى سنة ١٦٦هـ / ٧٨٢ — ٧٨٣م وكان قدرياً ليناً .

وكان القدرية يقسمون اليمين عند دخول أحدهم في فرقتهم . ومن جملة ما يقولونه (آمنت بالقدر خيره وشره ، وقلت ما أصابني لم يكن ليخطئني ، وما أخطأني لم يكن ليصيبني) (١٨٧) .

وكما قالت القدرية بحرية الارادة عند الانسان ، قالت الجبرية بأن الانسان لا ارادة له معتمدة أيضاً على آيات وأحاديث نبوية . وأول من قال بالجبر في الشام الجعد بن درهم ، وجاء بعده الجهم بن صفوان تلميذه . وقد عرف أتباعه بالجهمية (١٨٨) .

ب — السنة : وعلى الرغم من وجود مثل هذه الفرق الدينية في الشام ، إلا أنها لم تنتشر وبقيت على نطاق محدود . وإذا استعرضنا أسماء الذين ابتدعوا هذه الفرق الدينية ، لوجدنا أنهم كانوا من الموالي الذين تأثروا بأصحاب الديانات الأخرى في الشام . وكان تأثير هؤلاء الموالي محصوراً في نطاق محدود في الشام ، بل يكاد يكون فردياً . بينما بقي غالبية أهل الشام على مذهب أهل السنة يأخذون ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله دون تساؤل . وكان إمامهم الأوزاعي يكره الأسئلة المتعلقة بالصفات ويعتبر سائلها ضالا وسؤاله بدعة ، ويعتبر ذلك من الجدل الذي حذر منه الرسول والصحابة والتابعون .

وغالبية أهل الشام سنة . ولذلك فان ولاة الشام كانوا إذا أرادوا التقرب من قلوب العامة يعملون على إحياء السنة . ويكرمون من مات على هذا المذهب .فقد قام ابن طولون – ارضاءلأهل الشام ولأحداث سياسية أخرى – ببناء أربعة أروقة على قبر معاوية بن أبي سفيان . وأجلس قوماً معهم المصاحف يقرؤون القرآن . وحادثتهم مع النسائي حين أخذ يقرأ على أهالي بيت المقدس شيئاً من كتابه الخصائص في فضل علي بن أبي طالب معروفة (١٨٩) .

جـ – الشيعة : وعلى الرغم من أن غالبية أهل الشام سنة ، إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار التشيع بين فئة منهم . فمدينة سلمية كانت مركزاً للشيعة الاسماعيلية ، والحمدانيون في حلب كانوا يرون رأي الشيعة . وممن تشيع في الشام الشاعر ديك الجن الذي توفى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م (١٩٠) . وفي القرن الرابع غلب التشيع على سكان بعض المدن الشامية . فقد كان نصف سكان نابلس وأكثر عمان شيعة . ويزيد آدم ميتز على ذلك فيذكر أن أهل طبرية والقدس كانوا من الشيعة .

وقد ارتفع شأن كثير من الشيعة في الشام شأنهم في ذلك شأن أبي الطيب العلوي، حتى أن بعضهم اختاره الاخشيد للسفارة لدى سيف الدولة للمفاوضة في عقد المعاهدة وتحديد الحدود بينهما . ومن هؤلاء السفراء الحسين بن طاهر الذي وقع عليه الاختيار أيضاً في السفارة لعقد الصلح بين الاخشيد وابن رائق ، وكثيراً ماقام العلويون بالوساطة فيما يقوم من خصومات بين بني حمدان وبني بويه (١٦١) .

– التصوف : هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الناس

من لذة ومال وجاه ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف الصالح ، فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، كثر عدد هؤلاء وتسموا بالصوفية . وكان التصوف يقوم على أربعة أصول: التوكل ، والصبر ، والرضا ، والرجاء (١٩٢) .

كون المتصوفة في القرن الثاني جماعات متفرقة تنسب كل منها إلى شيخها . وقد انتشرت عادة لبس الصوف بينهم ، ويمكن ارجاع ذلك إلى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان حيث بدىء باستعمال كلمة صوفي . ثم أخذ لبس الصوف في الانتشار بين المتصوفة في القرن الثاني . وقد اتهم الأوزاعي كل من يلبس الصوف في الحضر بأنه أحدث بدعة ، لأن التصوف اتصال بين المرء وخالقه ، ويجب أن لايتخذ المتصوف لبس الصوف وسيلة للرياء والشهرة (١٩٣) . كما انتشرت بين الصوفية عادة أخرى وهي البكاء في المسجد خوفاً من الله . وكان الأوزاعي يعتبر البكاء في المسجد رياء ، ويمنع من حدوثه . ومع ذلك فقد كان يبكي في بيته عند الصلاة والتهجد .

وقد قام الصوفية في هذه الفترة باتخاذ صوامع خاصة منعزلة ليعيشوا فيها بعيداً عن جلبة الدنيا وضجيجها (١٩٤) . ولذلك فانهم يختارون العيش في الجبال إما منفردين أو مع أمثالهم من الزهاد ، وكثر هؤلاء في جبال لبنان ، والجولان ، وأحياناً كثيرة في الثغور الشامية طلباً للجهاد ، ومن هؤلاء على سبيل المثال العباس الموسوس الذي كان يعيش في جبل لبنان منقطعاً للعبادة . وقد وصفه لنا أحد معاصريه وهو محمد بن المبارك الصوري وصفاً دقيقاً ووصف حياته وعمله ولباسه وطعامه وتهجده بعد أن صعد إليه الجبل فقال : صعدت

جبل لبنان ، فاذا أنا برجل عليه جبة صوف مكتوب عليها لاتباع ولاتشترى ولا توهب ، قد اتزر بمئزر الخشوع ، وارتدى برداء الورع ، وتعمم بعمامة التوكل . فلما رآني استخفى وراء شجرة بلوط ، فناشدته الله أن يظهر فظهر وأنشد شعراً صوفياً . وقيل إن له أكلتين في كل شهر من ثمر الشجر ، ونبات الأرض منذ ستين سنة) . ولم يعرف متى توفى ، إلا أن راوي الخبر محمد بن المبارك توفى سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م ، مما يدل أن العباس كان على قيد الحياة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ويذكر المقدسي أنه رأى في جبال الجولان أبا اسحق البلوطي في أربعين رجلا . يلبسون الصوف ، ولهم مسجد يجتمعون فيه . وكان هذا فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوري . وكانوا يقتاتون البلوط بعد أن يخلطوه بشعير بري . وكان بعض الصوفية يلزمون المساجد ويقيمون فيها للعبادة ، كما يلزم الرهبان أديرتهم . وقد ورد ذكر عدد كبير من العباد والعابدات الذين لزموا مساجد بيت المقدس ودمشق وغيرها للعبادة (١٩٥) .

وكثر الصوفية في ثغور الشام ، إذ وفدوا اليها جهاداً في سبيل الله. ومن هؤلاء بطرسوس أبو القاسم القحطبي الصوفي ، وأبو القاسم الأبار ، وأبو القاسم الملطي الصوفي الذي صحب أبا القاسم الجنيد (١٩٦). وازداد انتشار التصوف في الشام بعد أن تأثر البعض بصوفية ذي النون المصري وأصحابه .

وعرفت جماعة من الصوفية في بيت المقدس بالكرامية (١٩٧) ، وهم أصحاب محمد بن كرام . وأنشأ هؤلاء خوانق كثيرة في دول متعددة ، مثل ايران وماوراء النهر ، والفسطاط . وكان لهم في

خوانقهم مجلس ذكر يقرؤون فيه من القرآن . ودعا هؤلاء إلى الزهد وترك الكسب الدنيوي ، وكان الكرامية يلبسون رداء من الصوف وفوطة مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ، ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق .

وقد تحدث البعض عن كرامات بعض المتصوفة الزهاد من أمثال الشيخ أبي الخير العابد الأقطع الشامي المتوفى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢ — ٩٥٣م، ويقال إن من كراماته أن الوحوش كانت تستأنس به ، فلقب بالبناني نسبة إلى بنان الصوفي المعروف بالحمال ، والمتوفى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م والذي طرحه ابن طولون بين يدي سبع ، فبقي ليلته معه . فكان السبع يشمه ولا يضره . فلما جاء الصباح وجدوه جالساً مستقبلاً القبلة ، والسبع بين يديه ، فأطلقه ابن طولون واعتذر اليه (١٩٨) .

— القضاء : إذا تصفحنا كتاب قضاة الشام لابن طولون فاننا نخرج بنتيجة وهي أن القضاة فيها كانوا على المذهب الشافعي ، وهذا يدل على سيادة هذا المذهب بين أهالي الشام . وعلى الرغم من ذلك فانه يبدو أن قسماً من السكان كان على المذهب الحنفي .

وممن اشتهر من قضاة الشام عبد الأعلى بن مسهر الغساني . وكان قاضياً لدمشق منذ سنة ١٩٥هـ / ٨١٠ — ٨١١م . وكان كثير العلم والأخبار ، ويقال أنه كان من أعلم الناس بالمغازي والأيام . وكان متشدداً في مبادئه ، قوي الشخصية ، رفض أن يقول بخلق القرآن في حضرة الخليفة المأمون ، ولذلك فانه اشخص إلى بغداد وحبس بها حتى مات سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م . وأبو بكر المروزي قاضي دمشق ، وقد ذكر النسائي عنه أنه ثقة ، وأنه شافعي المذهب ، وكان إلى جانب

ذلك عالماً بالحديث توفى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤ — ٩٠٥م (١٩٩) . وله تصانيف كثيرة منها : كتاب العلم وكتاب الجمعة ومسند أبي بكر وعثمان وعائشة وغير ذلك .

وكانت القاعدة أن يكون لكل جند من أجناد الشام قاض ، غير أنه في بعض الأحيان كان يجمع لقاض واحد أكثر من جند . فقد تولى ابراهيم بن جعفر بن جابر أبو اسحق الفقيه قضاء حلب وحمص معاً في سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨ — ٩١٩م .

* * *

٦ – الحياة الأدبية والعلمية في الشام :

– تدوين التاريخ :

بدأ اهتمام بعض الكتاب من أهل الشام بتدوين التاريخ منذ القرن الثاني الهجري . وممن أثر عنهم ذلك عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي ، وقد نقلت عنه بعض الرسائل السياسية وكذلك الوليد بن مسلم الأموي (ت ١٩٤هـ / ٨٠٩م) . وكان عالم دمشق ، صنف التصانيف والتواريخ. قال عنه الذهبي أنه عني بهذا الشأن أتم عناية ، وانه كان بارعاً في حفظ المغازي . ومنهم محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح والصوائف الذي توفى سنة ٢٣٣هـ أو ٢٣٤هـ / ٨٤٨ – ٨٤٩م .وكان والي خراج الغوطة في أيام المأمون ، ويرجح أن كتاب الملوك وأخبار الأمم والمغازي من تأليفه . وكذلك محمود بن سميع صاحب الطبقات الذي توفى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢ – ٨٧٣م ، وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني المتوفى سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م والذي اشتهر بمعرفة أيام الناس ، وأنساب الشاميين . ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد الذي ولد في الرقة ونشأ في مصر . ومن كتبه التاريخ على السنين وتاريخ الصحابة . وعلي بن سعيد القشيري الحراني المتوفى سنة ٢٧٧هـ / ٨٩٠ – ٨٩١م وله تاريخ الرقة . وهناك كثيرون غير هؤلاء لم تصلنا أسماؤهم .

ومن مؤرخي القرن الرابع الهجري الحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف الدمشقي (ت ٣٥٤) . وكذلك المطهر بن طاهر المقدسي صاحب كتاب البدءوالتاريخ ، ومحبوب بن قسطنطين المنبجي الذي كتب كتاباً في التاريخ ، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المؤرخ الجغرافي الرحالة ، صاحب كتاب أحسن التقاسيم. ومعظم ماكتبه مؤرخو القرون الأربعة الأولىقد نقله المؤرخون في القرون التالية إلى كتبهم . وظهر ذلك جلياً في تاريخ دمشق لابن عساكر وغيره من الكتب التاريخية التي كتبت مؤخراً (٢٠١) .

— الأدباء والشعراء :

أما عن الحركة الأدبية في الشـام فقد كانت قوية في هذه الفترة ، وتفوقت على غيرها من البـلاد الاسـلامية الأخرى في القرن الثالث الهجري . أما في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وفي بلاط سيف الدولة بالذات ، فقد ظهرت حركة أدبية وعلمية كبيرة فاقت ماكانت عليه في بغداد وقتذاك . وقد شهد الثعالبي اشعراء عرب الشام بأنهم أشعر من شعراء العراق وما يجاورها. وكان بعض العراقيين يعجبون بطريقة الشاميين المثلى في الشعر ، ويعملون دائماً على تحصيل الجديد من أشعارهم ينقلونها من الوافدين عليهم ويجمعونها (٢٠٢) .

وقد نبغ عدد كبير من شعراء الشام منذ القرن الثاني الهجري . وأشهر أولئك أبو الوليد عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، كان من فحول شعراء الشام في صدر الدولة العباسية . ولم يبق من شعره إلا نذر يسير . ولعل السبب في ضياع أخباره أن الشامي في تلك الفترة أصبح محلاً للريبة والتهمة ،في وقت لمع فيه نجم الشعراء الموالي كبشار

ابن برد وأبي العتاهية ، وصريع الغواني ، والعباس بن الأحنف وأبي نواس (٢٠٣) .

واشتهر أيضاً من شعراء الشام منصور النمري . وكان منصرفاً للبرامكة ، وتمكن عن طريقهم من الدخول على الرشيد فأنشده ومدحه . أما الشاعر أبو خالد التنوخي القنسريني فكان من أهالي قنسرين ، وعاش في خلافة المأمون (٢٠٤) .

أما شعراء القرن الثالث الهجري ، فقد امتازوا بتوفرهم على دراسة الأدب العربي ، واشتغالهم بفنونه درساً وتأليفاً ، وعنايتهم باختيار اللفظ ، وابراز المعاني بأروع صورة من صور الجمال اللفظي في المفردات والتراكيب . فمذهب الشاميين الذين تولوا زعامة الشعر في القرن الثالث ، التثقيف والعلم ، والاستقصاء ، والجزالة من غير اغراب ، والعذوبة . وقلدهم الشعراء في كثير من الأقطار . وقد أعجب الكثيرون بطريقة الشاميين في الشعر ، ومن هؤلاء الصاحب بن عباد الذي كان يرى أن شعر الشاميين يتميز بالجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة . وكذلك أبو بكر الخوارزمي الذي كان يقول : (مافتق قلبي ، وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حد لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي ، إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي ، وامتزجت باجزاء نفسي) (٢٠٥) .

وأشهر أولئك الشعراء كلثوم العتابي ، أصله من أرض قنسرين ، وقد أدرك بشار بن برد ، وأنشد شعره . وعلى الرغم من أنه كان يعيش بعيداً عن دور الخلفاء ويميل إلى العزلة ، فانه قابل الخليفة الرشيد بعد أن استدعاه اليه لاعجابه باحدى قصائده ، كما اجتمع بالبرامكة .

ودخل مجلس الخليفة المأمون ، وأنشده شعراً أعجب به . توفي العتابي سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م ، وله من الكتب كتاب المنطق ، وكتاب الآداب في المواعظ ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الألفاظ ، وله ديوان شعر يقرب من مائة ورقة . عاش فقيراً ، وكان راضياً عن فقره ، وقانعاً بالذي ناله من ثروة الأدب (٢٠٦) .

أما أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فقد ولد بقرية جاسم سنة ١٨٨هـ / ٨٠٣ — ٨٠٤م ، وجالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم . كان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق ، وكرم النفس ، عطوفاً على الأدباء، كان يحفظ كثيراً من الأشعار ، فيقال أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة لشعراء العرب . وألف من الكتب مايثبت علمه . ومن هذه المؤلفات كتاب الحماسة ، وكتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيار من أشعار القبائل . وقد اتصل بالخلفاء ومدحهم وأخذ جوائزهم.

وكان البحتري من فحول شعراء العصر ، ولد بمنبج سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١ — ٨٢٢م ، وبها نشأ وتخرج وتأدب . اتصل بأبي تمام وأنشده شعره فقال له : أحسنت أنت أمير الشعراء بعدي . وكذلك خرج إلى العراق ومدح من الخلفاء المتوكل والمنتصر والمستعين والمهتدي والمعتز ، وكثيراً من الوزراء والرؤساء ، فعلا ذكره . وكان في تنقله شديد الحنين إلى وطنه . وقد أكثر من ذكر ربوع صباه وصبوته والتشوق اليها . وعاد البحتري إلى الشام في آخر أيامه . وتوفي بمنبج سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م . قيل للبحتري : أيكما أشعر أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه . وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب . ألف كتاب

الحماسة وكتاب معاني الشعر . وقد اغتنى من شعره حتى كان يركب في موكب من عبيده ، وترك ثروة طائلة ظلت في أولاده مدة طويلة . وربما كانت هذه الثروة من الأسباب التي جعلتهم من الرؤساء . فمن أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبيد الله ، وكانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتنبي (٢٠٧) .

أما ديك الجن فهو أبو محمد عبد السلام بن رعبان بن حبيب ، وقد غلب عليه لقب ديك الجن . ولد في حمص سنة ١٦١هـ / ٧٧٧ — ٧٧٨م توفى سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩ — ٨٥٠م . لم يتكسب من شعره ، ولم يبرح نواحي الشام . وله مراثٍ في الحسين رضي الله عنه حفظها العامة وأثرت فيهم تأثيراً كبيراً (٢٠٨) . كما نبغ من شعراء هذه الفترة روح بن معمر من شعراء ملطية ، وأحمد بن مروان أبو مسهر من أهالي الرملة .

أما في القرن الرابع ، فقد بدا ظاهراً للعيان تفوق شعراء الشام . وكان بلاط الحمدانيين في حلب وخاصة في أيام سيف الدولة من أكبر مراكز العلم والأدب . وقد شهد الثعالبي لشعراء الشام بهذا التفوق وذكر أسبابه فقال : (وقد جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكاً من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم . وما منهم إلا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل)(٢٠٩).

وكان سيف الدولة يميل إلى أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره ، وكان يغدق عليهم الأموال الوفيرة ، وكان يرى الزهد

بالمال في سبيل المجد . ومن أجل ذلك صاغ دنانير خاصة للصلات وزن كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وجعل عليها اسمه وصورته . كما أنشأ مكتبة في حلب ضمت كتباً قيمة ، وتولى الاشراف عليها شاعران مشهوران هما الخالديان (٢١٠) .

وعرف الشعراء والأدباء والعلماء طبائع سيف الدولة فقصدوه من كل ناحية ، وبذلوا جهدهم في تحسين انتاجهم الأدبي ، فأجزل لهم العطاء . وكان ذلك حافزاً على تقدم الشعر والأدب ، كما اغتنى كثير من العلماء والشعراء والأدباء . واشعر كثيرون لنيل هذه الصلات ، كما نبغ كثيرون من أبناء الأعراب في هذا الجو ومن هؤلاء ابنا ورقاء الشيباني . وكان بينهما وبين أبي فراس مايشبه المساجلات الشعرية (٢١١) .

ونتيجة لهذا التقدم الأدبي خلف لنا القرن الرابع الهجري شعراً حماسياً قوياً تجلى في شعر كل من المتنبي وأبي فراس . وقد سبقهما إلى ذلك أبو تمام في قصيدته المشهورة في فتح عمورية . وقد امتلأت كتب الأدب بقصائد المتنبي في حروب سيف الدولة مع البيزنطيين ، كقصيدته التي يذكر فيها نكبة المسلمين في الحدث ، وقصيدته حينما سار سيف الدولة يريد الدمستق . ومنها القصائد الروميات لأبي فراس ، وهي قصائد من غرر شعره قالها في أسره عند البيزنطيين في الحنين إلى أهله وأصحابه ، والتذمر من الأسر والغربة .

كما كثر الشعر في وصف الطبيعة على يد الشاعر الصنوبري الذي تغنى بذكر حلب والرقة ، وكان يعتبر النرجس ملكاً للأزهار ،

وله قصائد في وصف معارك بين الأزهار . وبالإضافة إلى كل هذا فقد عني شعراء هذا العصر بالتشبيهات والاستعارات .

ضاهت المجالس الأدبية التي كان يعقدها سيف الدولة في قصره بحلب مثيلتها في أيام الرشيد والمأمون ، إذ كان يحضر مجلسه كل ليلة عدد من العلماء لايدخلون تحت حصر . وممن شملهم مجلسه أبو بكر الخوارزمي ، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني مؤلف الوساطة بين المتنبي وخصومه (٢١٢) ، وأبو ابراهيم (٢١٣) ، وأبو طالب البغدادي ، وكذلك أبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار نديم سيف الدولة الذي ألف كتاباً سماه تهذيب البلاغة ، توفى بحلب سنة ٣٥١هـ / ٩٦٣م . كما ضم مجلسه علي بن محمد الوزان النحوي الحلبي الذي ألف كتاباً في العروض ، والشاعر أبا القاسم التنوخي ، ورد على سيف الدولة فمدحه وأكرمه ، توفى سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٣م (٢١٤) . . ومنهم أبو الفرج الأصفهاني ، صاحب كتاب الأغاني . وهو كتاب حافل لم يؤلف مثله قبله ولا بعده ، جمع فيه من الكلام على تراجم الشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين مالم يجمع من قبل . ولذلك استغنى به بعضهم في رحلاته وتنقلاته عن كثير من الكتب . وقد رتبه حسب الأصوات ، فاذا جاء صوت ترجم لصاحبه . وقد ورد في هذا الكتاب نقد لكثير من الروايات ، مما يدل على علم صاحبه بالنقد . وكان الكتاب مصدراً تاريخياً يستدل منه على الأحوال الاجتماعية في الجاهلية والاسلام . وقد حمله إلى سيف الدولة بن حمدان ، فأعطاه ألف دينار واعتذر اليه (٢١٥) .

أما ابن خالويه فكان من أئمة اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن ،

وله مع المتنبي مناظرات ، وكانا يتنافسان على التقرب من سيف الدولة . وكان الأخير يجلسه ويكرمه ، وجعله مؤدب ولديه . وعلى الرغم من علمه الواسع في النحو واللغة ، وذيوع صيته . فقد كان متواضعاً ويشعر أنه لم يصل بعد إلى النهاية ، وأنه في حاجة إلى الاستزادة من العلم . ومن أشهر كتبه البديع في القراءات ، وكتاب اشتقاق خالويه ، وكتاب ليس ، وكتب أخرى كثيرة . وبالاضافة إلى كل ذلك فقد كان ينشد الشعر . توفي في حلب سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠ – ٩٨١م.
كما اشترك في مجالس سيف الدولة أبو علي الفارسي الذي رحل إلى حلب سنة ٣٤١هـ . وكان من أشهر اللغويين والنحويين ، ومن تلامذته أبو الفتح بن جنّى الموصلي الذي وصفه الثعالبي بقوله ، (هو القطب في لسان العرب ، واليه انتهت الرياسة والأدب) . وقد توثقت الصلة بينه وبين المتنبي في بلاط سيف الدولة ، فكان يناظره فيما يرد في شعره مما يرى أنه خروج على النحو أو اللغة . وقد شهد له المتنبي بأنه رجل لايعرف قدره كثير من الناس . أشهر كتبه على الاطلاق « الخصائص » وله كتاب الايضاح والتكملة، توفي ببغداد سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧ – ٩٨٨م (٢١٦) .

ومن رواد سيف الدولة الفيلسوف الكبير « الفارابي » نشأ في بلاد ماوراء النهر ، واستقر في الشام ، أقام في رعاية سيف الدولة بمرتب ضئيل أجراه عليه . وعاش الفارابي في بلاد الشام عيشة التصوف يعلم طلابه في الحدائق المحيطة بحلب . كان الفارابي من أسبق المفكرين المسلمين إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم الاسلام ، ولذلك أطلق عليه المعلم الثاني بعد أرسطو . وقد ألم الفارابي فضلا

عن ذلك بالطب والرياضة والفلك والموسيقى ، وله عدة رسائل في علم النفس والمنطق والأخلاق والسياسة المدنية ، إلى جانب مؤلفه الموسيقي (٢١٧).

وضم مجلس سيف الدولة أيضاً أبا الطيب اللغوي الحلبي (ت٣٥١هـ/ ٩٦٢ م) . قدم حلب حيث نضج علمه وظهر فضله على غيره . كان متقناً لقواعد اللغة ، ومنافساً كبيراً لابن خالويه . تشهد له مؤلفاته بسعة العلم وصحة الطبع وفن التمحيص (٢١٨) .

أما ملوك الشعراء الذين ضمهم مجالس سيف الدولة ، فهم أكثر من أن يوضعوا تحت الحصر . فقد كان منهم الخالديان ، اللذان ينهجان في أشعارهما منهج كشاجم . وكانا من خواص شعراء سيف الدولة وفي مقدمة ندمائه ، وتوليا الاشراف على خزانة كتبه ، وحظيا منه بالهدايا والأموال . ويقال أنهما انصرفا من عنده على غضب بعد مشاجرة مع الشاعر السري الذي أخذ يدعي عليهما سرقة أشعاره . وقد نما امر هذه المشاجرة إلى حد أن صار أفاضل الشام والعراق فرقتين احداهما تتعصب على السري لهما وهي الغالبة ، والأخرى تتعصب له عليهما . ويبدو أن منشأ المشاجرة بين الطرفين المنافسة على الحظوة عند سيف الدولة . وكان للخالديين مؤلفات كثيرة (٢١٩) .أما منافسهما أبو الحسن السّري المعروف بالرفاء الموصلي ، فقد قصد سيف الدولة حيث اغتنى بعد فقر . واستمر عنده حتى وفاته ، ثم انتقل بعدها إلى بغداد . نسخ ديوان أبي الفتح كشاجم ، وكثيراً ماكان يضيف إلى هذا الديوان من شعر الخالديين ليثبت سرقتهما للشعر . توفي سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢ — ٩٧٣م (٢٢٠) .

وحفل مجلس سيف الدولة بشعراء آخرين من أمثال الناشيء الأصغر ، والنامي الذي كان من فحول شعراء عصره وخواص مداح سيف الدولة ، ويلي المتنبي في المنزلة والمرتبة لديه (٢٢١) .والمتنبي أكبر من آن يوصف ، وفد على سيف الدولة مادحاً له سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨ – ٩٤٩م ، فأكرمه حتى صار خصيصاً به ملازماً له حضراً وسفراً إلى أن غضب بسبب كلام وقع بينه وبين ابن خالويه الذي ضربه بمفتاح كان في يده ، فخرج من حلب تاركاً سيف الدولة سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م وقصد مصر،فمدح كافوراً بأحسن المدائح ، ولما لم يحصل عنده على ماكان يأمل استعد للرحيل . وقبل مغادرة مصر أنشأ قصيدته الدالية التي هجا بها كافوراً .

كان المتنبي من المكثرين لنقل اللغة والمطلعين عليها وعلى غريبها ، لايسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب ، حتى قيل أن أبا علي الفارسي قال له يوماً (كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟) فأجابه المتنبي في الحال (حجلى وظربى) . فقال أبو علي ، فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهما ثالثاً فلم أجد (٢٢٢) .

وكان الأديب محمد بن أحمد المغربي أبو الحسن راوية المتنبي ، وممن خدم سيف الدولة . وله تصانيف كثيرة (٢٢٣) . أما أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري ، فقد كان من أوائل الشعراء . ولد في أنطاكية ، والتحق بمجلس سيف الدولة فجعله أميناً على خزانة كتبه . وكان أبو الفرج الببغاء أحد أفراد الدهر في النظم والنثر . كان في دمشق قبل أن يبلغ العشرين يخدم الاخشيديين . ثم التحق بسيف

الدولة ، وأمضى فترة شبابه في مجلسه . وكان من شعرائه أيضاً الوأواء الدمشقي ، وأبو القاسم الزاهي الذي اشتهر بالشعر الوصفي ، إلا أن أشعاره لم تجمع (٢٢٤) .

ولا يفوتنا ذكر الشاعر المعروف بالوحيد والمكنى بأبي طالب . جمع بين النحو واللغة والقوافي والعروض ، حضر مجلس سيف الدولة ، ويقال بأنه أصلح بعض المواضع في شعر المتنبي . وكذلك الشاعر أبو عبد الله الخليع الشامي ، الذي أدرك البحتري ، وعاش حتى أيام سيف الدولة ، فانخرط في سلك شعرائه . وهناك الشاعر المنوي — أحمد بن محمد أبو الحسن — الذي التحق بمجلس سيف الدولة في أواخر عهده . ومنهم أيضاً أبو محمد الموصلي ، وله أبيات يعزي فيها سيف الدولة بوفاة والدته . أما الشاعر نباته السعدي فقد أنشد الشعر في ذم البيزنطيين وفداء الأسرى ، ومدح سيف الدولة (٢٢٥) .

وفوق كل ذلك كان الحمدانيون أنفسهم شعراء . فتذكر كتب الأدب كثيراً من شعر سيف الدولة . وكان أبو فراس شاعراً نابغاً متفوقاً ، ينسج على منوال القدماء . وكان المتنبي يتحاشى جانبه فلا ينبري لمباراته ، ولا يجترىء على مجاراته . وكان سيف الدولة يعجب لمحاسن أبي فراس ، ويميزه بالاكرام على سائر قومه ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله . وكانت منبج اقطاعاً له (٢٢٦) .

وكم كان يحدث في مجلس سيف الدولة من الطرائف ، فكل من وجد في نفسه المقدرة على قول بعض أبيات من الشعر كان يعمل على أن ينشدها لسيف الدولة لينال صلاته . فمما يحكى في ذلك أنه

في أحد مجالس سيف الدولة وبعد عودته من احدى غزواته ، دخل عليه الشعراء ليهنئوه ، ودخل رجل فأنشد :

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط   وكنت كسنور عليهم تسلقا

فأمر سيف الدولة باخراجه . فوقف على الباب يبكي ، فأمر سيف الدولة برده إليه . ولما سأله عن سبب بكائه ، قال له : قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه ، فلما خاب أملي وقابلني بالهوان ، ذلت نفسي فبكيت . فقال له سيف الدولة : ويلك من يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم ، فكم أملت ؟ فأجاب : خمسمائة درهم ، فأمر له بألف (٢٢٧) .

وإلى جانب ذلك كان هناك عدد كبير من الشعراء لم يصلوا إلى مرتبة من ذكرنا من كبار الشعراء ، ومن هؤلاء الشاعر الوصاف . وكذلك الشاعر الطرسوسي والشاعر شداد بن ابراهيم الذي يعرف بالظاهر . وأبو الطالب الرقي . ومنهم أيضاً أبو عبد الله البغدادي منجم سيف الدولة . وأبو عساف العقيلي الذي وفد عليه من البادية ثم عاد اليها بعد فترة . والشاعران أبو عبد الله الشبلي ، وأبو عبد الله الدنف ، وأبو الفرج بن بحر أحد قضاته الذي كان ينشد الشعر الرقيق الخفيف . وكاتبه ونديمه أبو محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض الذي كان سيف الدولة لايؤثر عليه أحداً في أسفاره (٢٢٨) .

وممن نبغ في هذا العصر الخطيب ابن نباته الفارقي (ت٣٧٤هـ) . كان خطيب سيف الدولة ، وديوان خطبه أعظم مظهر تجلى فيه فن الخطابة في ذلك العهد . وكانت خطب ابن نباته فائقة في الجودة ،

تناول فيها الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وأخذ من خلالها يثير البواعث الكامنة عند الناس لحرب البيزنطيين ، ودفع غاراتهم عن شمالي الشام (٢٢٩) .

وهناك شعراء وأدباء آخرون اشتهروا في الشام في نفس هذه الفترة ، ولكنهم لم يحضروا مجلس سيف الدولة . ومن هؤلاء أحمد ابن شرام الغساني ، نبغ في النحو ، وكتب أمالي الزجاجي وفرغ من كتابتها سنة ٣٤٦هـ . وكذلك الحسن بن علي الأسدي الذي وفد على الاخشيد وكان بينهما مودة ، وكان يتردد عليه كثيراً . وله كتاب معروف بالأنيس .

وحسبنا أن نقول أن هذا الجو الذي أوجده سيف الدولة ، حث كل من كان عنده الملكة الشعرية على قول الشعر والاجادة فيه ، فبائع البطيخ الوأواء الدمشقي صار شاعراً كبيراً ، وكشاجم الذي كان طباخ سيف الدولة شاعر له ديوان ، وله كتاب أدب النديم ، وخصائص الطرب والمصايد والمطارد (٢٣٠) .

ــ العلوم والترجمة :

كان أكثر المترجمين في العصر العباسي الأول من أهالي بلاد الشام ، ويعود ذلك إلى تأثرهم أكثر من غيرهم بالحضارة الهيللنستيه ، وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب ، ومعرفتهم لعدد من اللغات ، إلى جانب استيعابهم للعلوم التي يترجمون لها . وقد انجبت بلاد الشام عدداً كبيراً من المترجمين والأطباء ، ونقل هؤلاء العلوم من لغة إلى

أخرى . وكان أكثرهم من أهل العلم الواسع في النواحي التي اشتغلوا بنقلها ، وفيهم من كتب وترجم في أكثر من فرع من فروع العلم كالفلسفة والمنطق والطب وغيرها . فقسطا بن لوقا البعلبكي كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً ، رحل إلى الأراضي البيزنطية في طلب العلم ، ولمعرفته باليونانية والسريانية ، نقل كثيراً من الكتب إلى العربية ، كما ألف رسائل عديدة في الطب والتاريخ والفلسفة ، ذكر له ابن أبي أصيبعة نحواً من واحد وستين كتاباً ورسالة . وكان أبو عثمان الدمشقي من المترجمين المجيدين ، ومن الأطباء المشهورين . تقلد مارستان الوزير علي بن عيسى الذي أنشأه في بغداد سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤ — ٩١٥م ، ومثله ابن ناعمة الحمصي (٢٣١) .

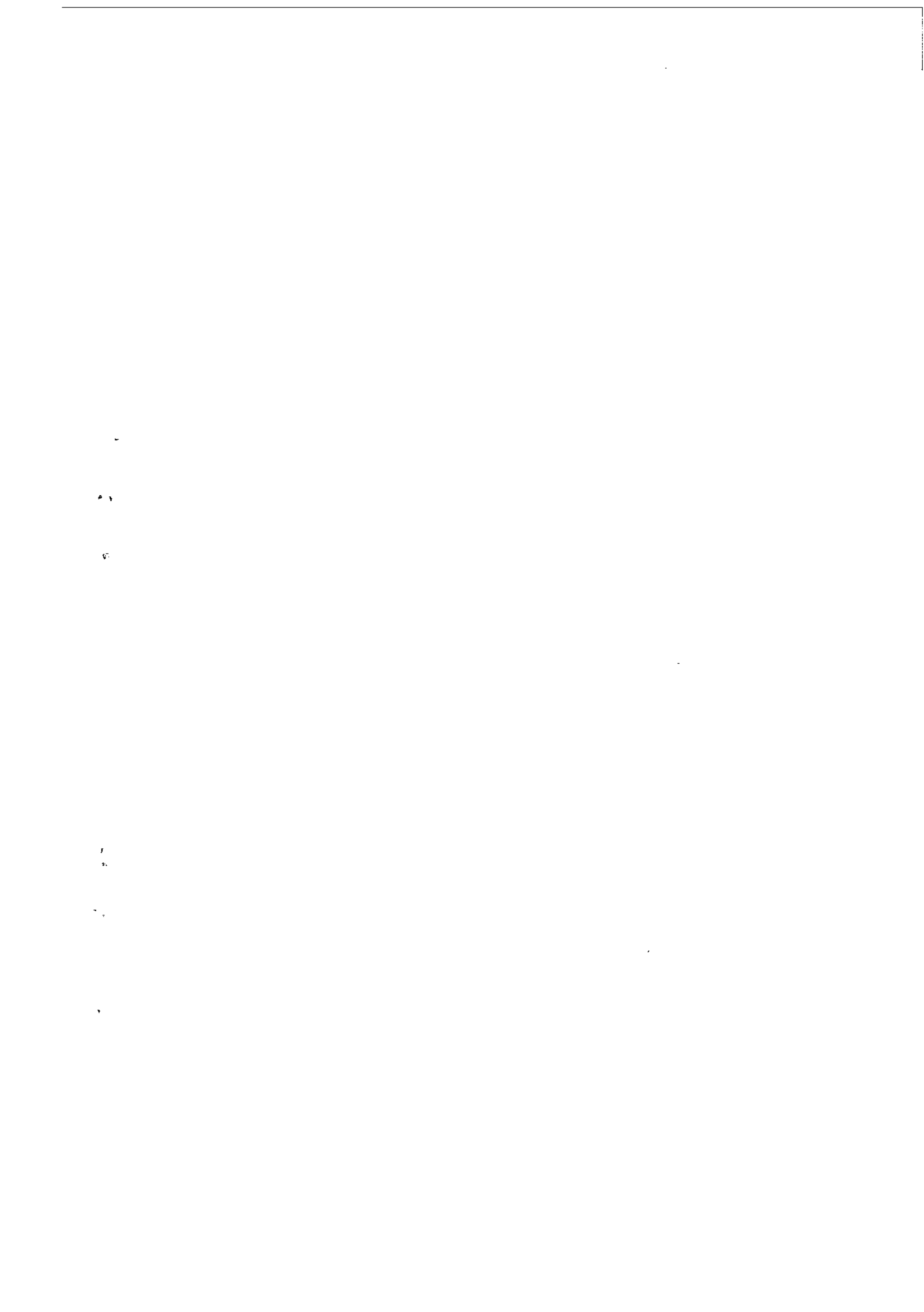
وكان في بلاط سيف الدولة عدد من الأطباء والفلاسفة . ويذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيباً ، منهم عيسى الرقي الذي ترجم أيضاً من السريانية إلى العربية . وكان سيف الدولة يعطي عطاء لكل عمل . ويأخذ الرقي هذا أربعة أرزاق (٢٣٢) .

وكان لعلم الكيمياء مكان لابأس به في بلاد الشام ، ونبغ بعضهم فيه . فجابر بن حيان من أهالي طرسوس نبغ في الكيمياء ، وألف كتباً كثيرة في المعادن والأحجار والكيمياء . استفاد منه الأوربيون .توفي في عهد الخليفة المهدي .

أما رصد النجوم فقد بلغ الاهتمام به شأوا بعيداً في عهد المأمون ، حتى إنه أقام مرصداً في قاسيون بدىء بالرصد به سنة ٢١٤هـ . وقد

سمي ماسجلوه به من رصد بالرصد المأموني . وكان هناك مرصد آخر في بغداد في تلك الفترة . وممن تولى الرصد في هذين المرصدين يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين ، وخالد المروزي ، وسند بن علي ، والعباس بن سعيد الجوهري . وكانت أرصاد هؤلاء أول الأرصاد في الاسلام، إلا أن العمل توقف بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م (٢٣٣).

* * *



حواشي الباب الخامس

(١) جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ٩٥

(٢) سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

(٣) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧، جزء ١ ، ص ١٣٩

(٤) انظر فيما سبق ، وانظر : كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٠ والإدارة الاسلامية ، ص ١٢٦

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ، منشورات الأعلمي للمطبوعات سنة ١٩٧١م ، جزء ٣ ، ص ٢٥٧

(٦) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ — الإدارة الاسلامية ، ص ١٣٢ — ١٣٣

(٧) زيدان : التمدن الاسلامي ، جزء ٢ ، ص ٤٦

(٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٣

(٩) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(١٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٠ وص ١٣٨ — ١٣٩

(١١) المقدسي : المصدر السابق ،ص ١٥٧ وص ١٨٢ و ١٨٩ — آدم ميتز : المرجع السابق، جزء ١ ، ص ٢١٣

(١٢) كان نظام التلجئه هذا بداية لنشأة نظام الحمايات الذي شاع في الدولة الاسلامية في الفترة المتأخرة . آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٧ .

(١٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٥ — محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٠— أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٢٢ ، وجزء ٢،ص ١٠

(١٤) كرد علي : الاسلام والحضارة الاسلامية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٠ – الإدارة الاسلامية ، ص ١٢٦ وص ١٧٨ – ١٧٩

(١٥) محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر ، ص ١١٠

(١٦) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٤ – حسن أبراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ص ٢٧٥ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٠٦

(١٧) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ – ٢٨٦ – ٢٨٧

(١٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٥ – زيدان : التمدن الاسلامي ، جزء ١ ص ١٧٦

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧

(٢٠) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون منشورات الأعلمي بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١

(٢١) قدامة بن جعفر : المصدر السابق ، ص ٢٥١ – جرجي زيدان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٥٤ و ٥٩ – حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، جزء ٣ ، ص ٢٩٤ وجزء ٢ ، ص ٢٨٩

(٢٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩ – ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٧٥ – ٧٦ – ٧٧ – ٧٨ – ٧٩

(٢٣) زيدان : التمدن الاسلامي ، جزء ٢ ، من ص ١٠٧ – ١١١

(٢٤) أي بعد الذي اسقط

(٢٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٨٨ – ١٨٩

(٢٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٢ لسنة ١٩٢٢ ، ص ٢٧

(٢٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية ، قسم أول ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ص ١٦٦ Canard : Sayf Al Dawla . و pp . 28 — 29

(٢٨) انظر : التنوخي ، المستجاد من فعلات الأجواد ، تحقيق ونشر محمد كرد علي ، طبعة المجمع العلمي العربي دمشق ١٩٤٦ ، ص١٨٤-١٨٦ – الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، من ص ٩٣ – ٩٨

(٢٩) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٣ – ٢١٥

(٣٠) انظر النص في الباب الأول ، ثورات دمشق .

(٣١) بغية الطلب ، مجلد ٦ ، ورقه ٥٢ .

(٣٢) ابن العديم : بغية الطلب ، مجلد ٤ ، ورقة ٩٧ – ٩٨ – حتي : تاريخ سورية ولبنان ، جزء ٢ ، ص ١٦٥

(٣٣) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٣٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٤

(٣٥) الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٤٣ – ٤٦

(٣٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٦٠

(٣٧) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢ – المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ ،وص١٧٤ – الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤ – القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨ وص ١٢٦

(٣٨) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧ – سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢ - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٤

(٣٩) وقد نقل إلينا ذلك نقلا عن ابن حوقل كل من : آدم ميتز : المرجع السابق، جزء ٢ ، ص ٢٩٩ –حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧

(٤٠) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧ – ابن حوقل : المصـــدر السابق ، ص١٨١ ، وص١٧٨–المقدسي:المصدر السابق ، ص ١٦٠ وص ١٦٢ ، وص ١٧٨ – القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨ .

(٤١) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٦ – سرور : المرجع السابق ، ص ١٣١ – حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢١

(٤٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦ – حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ٣٠٣ ، وجزء ٣ ، ص ٣٢١ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٠

(٤٣) عن موقع كابل في فلسطين انظر المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢

(٤٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٣ وص ١٧٦ و ١٨٢ – الاصطخري: المصدر السابق ، ص ٤٧–المقدسي : المصدر السابق ، ص١٧٩ وص ١٦١ – ١٦٢ ، – القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٤٥) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢ وص ١٧٨ – المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ – القلقشندي :المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٤٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦ ، وص ١٧٩ وص ١٧٥

(٤٧) الاصطخري : المصدر السابق : ص ٤٤

(٤٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٨ وص ١٨١ – المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦ وص ١٧٨ –الاصطخري :المصدر السابق ، ص ٤٦ –القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(٤٩) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٧ وص ٨٦ – ٨٧

(٥٠) المقدسي : المصدر السابق ،ص١٦٠– آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء٢ ، ص ٣٥٠ – ٣٥١

(٥١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧ – عن الصنوبري وكشاجم انظر فيما بعد

(٥٢) الاصطخري : المسالك والممالك : ص ٤٧ – ابن حوقل : المصدر السابق، ص ١٨٢

(٥٣) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٦

(٥٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٦ – آدم ميتز :المرجع السابق ،جزء٢ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ ، ويذكر أن لحم البقر كان يؤكل في القرن الثاني الهجري ، ثم ذاع بين الناس أن لحمه ضار بالصحة ، حتى إن بعض الأطباء اعتبروه ساماً . وكان الرازي لا يوصي إلا بلبن الغنم ولحم الضأن .

(٥٥) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٨

(٥٦) المقدسي : المصدر السابق ص ١٧٨ وص ١٨٤ – آدم ميتز : المرجع السابق، جزء ٢ ، ص ٣٤٣

(٥٧) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧ – حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٤ ، ص ٣٩٦ – ٣٩٧

(٥٨) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١١٨

(٥٩) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٧ – حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق : جزء ٢ ، ص ٣٠٩

(٦٠) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢٢

(٦١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١٣

(٦٢) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، المقدمه ص ي

(٦٣) مجلة المجمع العلمي ، جزء ٢ ، ص ٢٢

(٦٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ وص ١٨٠

(٦٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٢٩٢ وهي في نواحي حوران – أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٥

(٦٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ وص ١٧٤ وص ١٨٤

(٦٧) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢٠ – ٢٢ وانظر القصة كاملة في التنوخي : المستجاد من فعلات الأجواد ، ص ١٣٤ – ١٣٥

(٦٨) سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٥ – مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢٢ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٧

(٦٩) مجلة المجمع العربي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢٢

(٧٠) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧

(٧١) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٠

(٧٢) انظر : الجاحظ : المحاسن والأضداد ، ص ١٠٢ – التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، ص ١٦٣والمستجاد من فعلات الأجواد ، ص٣٥– ٤٠ – ابن الجوزي: المنتظم ، جزء ٥ قسم ثاني ، ص ٦٥ ،وجزء ٦ ، ص ١٢٨

(٧٣) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢

(٧٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٩

(٧٥) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ – ١٧٨ – ١٨٠ ، وعن مصادرات الاخشيد انظر فيما سبق .

(٧٦) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٤٢ – حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٠

(٧٧) من اجل أسواق دمشق : انظر : تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق المنجد ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، على التوالي ص ٥٧ – ٥٩ – ٦٠ – ٦١

(٧٨) آدم ميتز : المرجع السابق،جزء ٢ ، ص ٤١٢ – حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣

(٧٩) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ٤٠٠

(٨٠) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣ – وجزء ٣ ، ص ٣٢٩

(٨١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٠ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦

(٨٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٤ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦

(٨٣) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦ – المقدسي : المصدر السابق ، ص١٧٢ – وص ١٦٤ – حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩

(٨٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٧ – ٣١٨ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٥ – ٣٦٦

(٨٥) سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٥

(٨٦) حورية عبده سلام : رسالة ماجستير لم تطبع ، موضوعها الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي حتّى قيام الدولة الفاطمية ، ص ١٠٧

(٨٧) هو أخضر كالسلق ، وطعمه يشبه طعم البنجر ، انظر آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧

(٨٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ – ١٨٠ – ١٨١ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٩

(٨٩) ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩

(٩٠) عطية القوصي : تجاره مصر في البحر الأحمر ، منذ فجر الاسلام حتّى سقوط الخلافة العباسية، رسالة لم تطبع ، ص ٢٢٩ وص ٢٣٣

(٩١)
Lane Poole:Cataloque of the Collection of Arabic Coins.و pp. 135 — 136 — 139

(٩٢)
Ibid . و pp 135 — 138 — 143— 144 — 145 — 146 — 338

(٩٣) الفلس = ١ / ٢٤ من الدرهم : انظر عطية القوصي : المرجع السابق ،ص٢٣٠

(٩٤) انظر : ابن العديم : المرجع السابق ، ص ٦٠
Lane Poole : op. cit . , pp. 121 — 122

(٩٥) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ص ١٤٣

(٩٦) سرور : المرجع السابق ، ص ١٦٢ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٣

(٩٧) حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٣٢ – ١٣٣

(٩٨) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ص ١٠٧

(٩٩) عبد الامير عبد حسين دكسن : الخلافة الأموية ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، دار النهضة بيروت ، ص ١٤٠

(١٠٠) صلاح الدين المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين ، ص١٩

(١٠١) دكسن : المرجع السابق ، ص ١٤٠ — ١٤١

(١٠٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧ و ١٨٣

(١٠٣) سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٨

(١٠٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٣٢٥

(١٠٥) زيدان : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٣١ — آدم ميتز : المرجع السابق، جزء ١ ، ص ٩١ — ٩٢

(١٠٦) عن حكام بلاد الشام في هذه الفترة انظر زامباور : المرجع السابق ، جزء١ ، ص ٤٣ — ٥٠

(١٠٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤ — أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١١٤ ، وجزء ٢ ، ص ١٤

(١٠٨) أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١١٥ وص ١٤٧ — ١٤٨

(١٠٩) انظر فيما سبق ، وانظر : ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، جزء ١، ص ٧٠

(١١٠) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ١٥ — التنوخي : الفرج بعد الشدة، جزء ٢ ، ص ١٤٤ — ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ١ ، ص ٣٩ — أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٢١ — ١٢٢

(١١١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ٢ ، ص ١٤٢ — أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٤

(١١٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢١ ، وجزء ٢ ، ص ١٠

(١١٣) انظر : الجاحظ : المحاسن والأضداد ، ص ١٠٢ — التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، ص ١٦٣ —والمستجاد، ص ٣٥ — ٤٠ — ابن الجوزي : المنتظم جزء ٦ ، ص ١٢٨

(١١٤) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ١ ، ورقة ٤١

(١١٥) شاكر مصطفى : في التاريخ العباسي ، جزء ١ ، ص ٧٤ — آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٩ — حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٨٩

ويبدو أن لبس القلنسوة التي عمت في العصر العباسي كانت معروفة ويلبسها الناس هي والثياب الفارسية منذ العصر الأموي .

(١١٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، ص ٦٠ — ٦١

(١١٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٤

(١١٨) ديوان البحتري : الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية جزء ١ ، ص ١٨٥ ، قال يمدح الحسين بن الحسن بن سهل ويسأله مطراً :

اشكـــو نداه إلى نـــداك فاشكني   من صـــوب عـــارضة المطير بممطر

(١١٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٣

(١٢٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥١

(١٢١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٠٩ ، وجزء ٢ ، ص ٤٢٩

(١٢٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٢ — ٧٣

(١٢٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٢ — ٧٣ — أبو هلال العسكري : مخطوطة أوائل الأشياء ، ورقة ١٤٣ وجه - ترتون : المرجع السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٦

(١٢٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٣٥ ، وجزء ٣ ص ٤٥٢

(١٢٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ والمقصود بليلة الختمة ، ختم القرآن الكريم في ليلة الـ ١٧ من رمضان

(١٢٦) آدم ميتز ، المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص٢٧٨ ــحوريه عبده سلام : المرجع السابق ، حاشية ٢ ، ص ٢٠٦

(١٢٧) المقدسي : المصدر السابق، ص ١٨٣ — ١٨٤ — ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨١

(١٢٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(١٢٩) المقدسي : المصدر السابق، ص ١٧٣ — ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٤

(١٣٠) ابن جبير : رحلته ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ وص ٢٨٤ — ٢٨٥

(١٣١) انظر فيما سبق ، وانظر التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ٢ ، ص ١٧٣

(١٣٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ١٧ — أحمد أمين : ظهر الاسلام، جزء ١ ، ص ١٠٨

(١٣٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩

(١٣٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص٢٤٠ — ٢٤٢ — زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠

(١٣٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧

(١٣٦) انظر الباب الأول وكذلك كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢٨٨

(١٣٧) انظر فيما سبق ، الباب الرابع ، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ١٣٣

(١٣٨) Canard : Sauf al Dawla . و pp 28 — 29

(١٣٩) انظر المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ — ١٦٣ — ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٩٣

(١٤٠) العبودي : الأساطيل العربية ، ص ١٠٩

(١٤١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١٤

(١٤٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٧١ — أما المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٥٦ فيذكر أن بناءها كان من طين وخشب .

(١٤٣) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦

(١٤٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧

(١٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٥٩ و ٦٢ و ٧٥ — ٧٦ و ٨٦ — ٨٧

(١٤٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ١٢٢

(١٤٧) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٢ وص ١٠١ وص ١١٩ و ١٣٨

(١٤٨) Canard : Sayf al Dawla . و pp 28 — 29

(١٤٩) المجلة التاريخية العراقية ، ص ٢٥٣

(١٥٠) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٠

(١٥١) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٨ — ١٦٩

(١٥٢) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤

(١٥٣)

Canard :Histore de la Dynastie de Hamdanides. و pp 656 — 657-Canard : Sayf Al Dawla . و p 206 — Sauvaget : les Perles Choisies D'Ebn Achihna. و Tome I. وBeyrouth 1933. pp. 85 — 88

(١٥٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - ١٦٤ - ١٦٥ - ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٧٧

(١٥٥) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٣ وص ١٨٧

(١٥٦) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٨ . ويذكر أيضاً أن حمامات سامراء كانت تزين بالصور

(١٥٧) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء٢، ص ٣١٠ - أبو الفداء : تاريخه، جزء ٢ ، ص ٧

(١٥٨) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، ص ١٠٣ - ١٠٥

(١٥٩) ابن الجوزي : نقد العلم والعلماء أو تلبيس ابليس،تصحيح ونشر محمد منير الدمشقي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٠ هـ ، ص ٩

(١٦٠) الزرو : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٨

(١٦١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٩٩

(١٦٢) الزرو : المرجع السابق ، ص ١١١ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٢ ص ٩٩ - ١٠٠

(١٦٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٠ - أبو الفداء : تاريخه، جزء ٢ ، ص ٧

(١٦٤) آدم ميتز : المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ٣٧١- الزرو : المرجع السابق ، ص ١١٢

(١٦٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠

(١٦٦) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣١٨

(١٦٧) ابن العديم : مخطوطة بغية الطلب ، جزء ٣ ، ورقة ٩٤ - ٩٥

(١٦٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٣٢٩ - الزرو : المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢

(١٦٩) سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٣

(١٧٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٣٢٩

(١٧١) ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ، قسم ثاني ، ص ٨٣ ، وجزء ٦ ص ١١٤ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ١٩ ، ص ٢٦٣

(١٧٢) سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٣

(١٧٣) ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٦ ، ص ٣٦٤ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ٤ ، ص ٢٣٨ وجزء ١٧ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(١٧٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ وص ١٦٦ وص ٣٥٩ - ٣٦٠ وجزء ٢ ص ٤٧ وص ٦٣

(١٧٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ،جزء ٣ ، ص ٣٣٩

(١٧٦) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٣ حتى ٦٦

(١٧٧) ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٦ ، ص ١٥٤ وص ١٦٤ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ٣ ، ص ٤٦ - ٤٧ ومعجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٥٩

(١٧٨) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٧٤ - ابن العديم : بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ١٩ - ٢٠ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٣٧٨

(١٧٩) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ٣٣٩

(١٨٠) ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١١٥

(١٨١) ابن العديم : بغية الطلب ، مجلد ٤ ، ورقه ٢٦٥ - القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ١٥١ - ١٥٢

(١٨٢) الزرو : المرجع السابق ، ص ٦٨

(١٨٣) أحمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٠١ - الزرو : المرجع السابق ، ص ٦٥

(١٨٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ - ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٥٠

(١٨٥) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ، طبعة ثانية ، دار الكتاب العربي ، ص ٩٤ - ٩٥

(١٨٦) الزرو : المرجع السابق ، ص ١٣١ وص ٣٨ - وص ١٤٤ - ١٤٥

(١٨٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ١٣ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣

(١٨٨) الزرو : المرجع السابق ، ص ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٠

(١٨٩) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ١ ، ورقة ١٧١ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٩

(١٩٠) عن تشيع الحمدانيين انظر أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ص ١٤٢-١٤٦ ، وانظر ابن الشحنة : روضة المناظر ، جزء ١ ، ص ٢٨٧

(١٩١) أحمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٧٨ - آدم‌ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ص ١٠٣ و ٢٧١ - ٢٧٢

(١٩٢) احمد امين : المرجع السابق، جزء ٤ ، ص ١٥١ - آدم ميتز : المرجع السابق، جزء ٢ ، ص ٣٧

(١٩٣) أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٦٠ - جولد تسيهر : المرجع السابق ، ص ١٥٣ - الزرو : المرجع السابق ، ص ١٧٠

(١٩٤) الزرو : المرجع السابق ، ص ١٧٢ - جولد تسيهر : المرجع السابق ، ص ١٦٣

(١٩٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٨ - الزرو : المرجع السابق ، ص ١٧٣

(١٩٦) ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٨ ، ص ١٧٤ - ١٧٥

(١٩٧) عن الكرامية انظر : البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ص ٢٠٢ - ٢١٤ والشهر ستاني : الملل والنحل ، ص ١٤٤

(١٩٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٤ - ٢٥ - ٢٧ - ٢٨

(١٩٩) انظر ابن طولون : قضاة دمشق ، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م ، ص ١٥ - ١٦ - ١٧ - ٢١

(٢٠٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٤

(٢٠١) مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ١٧ سنة ١٩٤٢ ، مقال الشاميون والتاريخ لمحمد كرد علي ، ص ٩٨ - ٩٩

(٢٠٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٨ - ٩

(٢٠٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٣٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢

(٢٠٤) الأصفهاني : الأغاني ، جزء ١٢ ، ص ١٧ - ابن العديم : بغية الطلب، جزء ٨ ، ورقة ٧٦

(٢٠٥) مجلة المجمع العربي بدمشق ، مجلد ٥ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٩

(٢٠٦) المسعودي : مروج الذهب ، الطبعة الأزهرية سنه ١٣٠٣ ، جزء ٢ ، ص ٢٣٩ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ١٧ ، ص ٢٧ - ٢٨ مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٥ ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٤ .

(٢٠٧) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ - وجزء ٥ ، ص ٧٤ - مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٥ ، ص٢٩٦ وص ٣٥٤ وص ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٧ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٥٩

(٢٠٨) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٦ - مجلة المجمع ، مجلد ٥ ، ص ٤٠٥

(٢٠٩) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٩٨

(٢١٠) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ١٥ - أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٧٩ ، وجزء ٢ ، ص ٢٢٠ - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٥

(٢١١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٧٧ - سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٦

(٢١٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٦٥ ، وص ١٧٨ ، وجزء ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢١٣) هكذا ورد الاسم في مخطوطة بغية الطلب ، لابن العديم ، جزء ١ ، ورقة ٥٢

(٢١٤) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٢ ، وجزء ٢ ، ورقة ٨٩ ، - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ٥ ، ص ٧٩ ، وجزء ١٤ من ص ٦٢ حتى ص ١٦٥ ، وجزء ١٥ ، ص ٥٦

(٢١٥) أبو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ١١٤ - أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢١٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٨٨ - ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ١ ، ورقة ٢٦ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ٧ ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٨ وجزء ٩ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٥ - سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢١٧) سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ - أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٣٢

(٢١٨) مجلة المجمع ، مجلد ٢٩ ، ص ص ١٧٥ - ١٨٠

(٢١٩) ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ورقه ، ٢٦٤ - ٢٦٥ - ابن الجوزي : الأذكياء ، ص ١١٨ - ١١٩ ، وأخبار الظراف والمتماجنين ، ص ٥٥ وص ٨٦ - مجلة المجمع ، مجلد ٢٥ ، ص ص ٤٩ - ٦٠

(٢٢٠) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ – ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ١١ ، ص ١٨٤ – ١٨٥

(٢٢١) الثعالبي : يتيمه الدهر ، جزء ١ ، ص ص ١٩٠ – ١٩٧ – و Canard : Sayf Al Dawla . و p.309

(٢٢٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء١ ، ص ص ١٠٢– ١٠٤ – أبو الفداء :تاريخه ، جزء ٢ ، ص ١١١

(٢٢٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ١٧ ، ص ١٢٧ – ١٢٨

(٢٢٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ – ٢١٣ – ٢٣٥ – ابن العديم : زبدة الحلب، جزء ١ ، ص ٩٨ ، وبغية الطلب ، جزء ٨ ، ص ١٦٠ – أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٨٤

(٢٢٥) الثعالبي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٤ – ابن العديم : بغية الطلب، جزء ٢ ، ص ٣٨ – ٤٠ ، وجزء ٧ ، ص ٢٧٨ – وجزء ٨ ، ص ١٢٩ – ١٧١ – ١٧٣ – ١٩٠ – ١٩١ و p .309 و Canard : Sayf Al Dawla .

(٢٢٦) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٩ – ٨٠ وص ٣٤٩ – ٣٥٠ –أبو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ١١٤

(٢٢٧) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص ٩٨ – ٩٩

(٢٢٨) الثعالبي: المصدر السابق، جزء ١ ، ص ٨٣ و. ص ٢٤٤ – ابن العديم: المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ص ١٢٩ – ١٣٠ – ١٣٦ – و ٢٢١ – ٢٥٨ – ٢٦٧

(٢٢٩) انظر نماذج من خطب ابن نباتة التي يحمس بها الناس على جهاد البيزنطيين سنه ٣٤٨ ﻫ ، في : ديوان خطب ابن نباتة طبعة بيروت ١٣١١ ﻫ ، ص ١٨٨ – ١٩٠ – آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٩٤– ٩٥ – أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٨٥ – وجزء ٢ ، ص ١١٢

(٢٣٠) الثعالبي : المصدر السابق ، ص ٣٦٨ – ياقوت الحموي : معجم الأدباء، جزء ٤ ،ص ٢٦٣ – ٢٦٤ – أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٨٤ – ١٨٥

(٢٣١) زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص‌ص ١٤٦ - ١٤٨ وص ١٨٨ -المجلة التاريخية العراقية : العدد الثالث ١٩٧٤ ، ص٣٩ مقال لتحسين حميد ، عنوانه عصر المعتضد الثقافي

(٢٣٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، جزء ٢ ،ص ١٤٠ - أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧

(٢٣٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، جزء ٢ ، ص ٣٥٢ - زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٣

* * *

خاتمة

لقد تناولت في هذا البحث الأوضاع العامة في بلاد الشام خلال القرن الثاني والثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري ، تلك الفترة التي تشكل حكم ولاة العباسيين وحكم الدولة الطولونية والاخشيدية . ولقد اتضح من خلال هذه المعالجة ، أن بلاد الشام كانت مسرحاً خصباً للمنازعات والمطامع الشخصية ، مما أدى الى سوء الاحوال السياسية ، فحرمت البلاد الأمن ، وتسبب ذلك في تأخر الأحوال الاقتصادية .

أما من الزاوية العمرانية ، فلم تحرز بلاد الشام تقدماً يذكر ، بل كانت تسير عمرانياً نحو الأسوأ اذا ماقورنت بما تم انجازه في الفترة السابقة ، اللهم إلا ما كان من تقوية موانيء الشام وانشاء ميناء عكا الذي تم انجازه على يد أحمد بن طولون .

وقد أدى سوء الأحوال الاقتصادية الى فساد الأوضاع الاجتماعية ، فازداد الفقراء والمعوزين عدداً . ولما يئس قسم كبير من هؤلاء ولم يتمكنوا من تحقيق مايصبون اليه ، اتجهوا الى التصوف ، واتخذ هؤلاء من جبال الشام وثغورها مراكز لهم كأفراد أو كجماعات .

وفوق كل هذا وذاك فان بلاد الشام باعتبارها منطقة فاصلة مشرفة على الثغور ، فانها تعرضت بشكل مباشر لهجمات البيزنطيين الذين كانوا يستغلون فترات الضعف ، وتمكنوا من سلخ أجزاء من سواحل الشام وشماله . وبذلك فانهم زادوا أحوال الشام سوءاً ، وأعطوا لنتائج هذه الفترة صفة الضعف . إلا أن العلاقات العربية البيزنطية ، على الرغم من كونها علاقات عداء في مجملها ، فانها مرت بفترة سلم ، وجرت مفاوضات لفداء الأسرى بين الطرفين ، وكانت هذه المفاوضات تجري على أسس خاصة ، ويحاول كل من الطرفين أن يرسم صورة قوية لنفسه عند الطرف الآخر .

إلا أنه وعلى الرغم من كل شيء يمكن القول بأنه ليس من الضروري أن يواكب الانحطاط السياسي انحطاطاً أدبياً وعلمياً. فعلى حين كانت بلاد الشام في تأخر سياسي واجتماعي واقتصادي في هذه الفترة ، فان الحياة الأدبية والعلمية فيها كانت نشطة ، وفي غاية النشاط ، وان نظرة متفحصة لما ذكر عن العلم والأدب في الشام في تلك الفترة ليؤكد ويثبت هذه الحقيقة .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في توضيح هذه الفترة التاريخية في بلاد الشام ، التي بذلت في ايضاحها جهداً كبيراً ، ولكنني لم أستطع أن أفيها حقها في البحث الحضاري .

وأرجو أن تتاح لي الظروف للغوص في بحث الحياة الحضارية في بلاد الشام في هذه الفترة ، والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

أ – المصادر الخطية .
ب – المصادر المطبوعة
حـ – المراجع العربية .
د – المراجع الأوربية :
هـ – الدوريات

ا ـ المصادر الخطية

(١) ابن ظافر الأزدي (ت ٦٢٣هـ) : الدول المنقطعة أو أخبار الزمان في تاريخ بني العباس ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ

(٢) بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٦ و ٢٤٠٢٧.

(٣) الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : تاريخ الاسلام ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٢ تاريخ

(٤) ابن شداد (ت ٦٨٤هـ) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، مخطوطة مصورة بجامعة الدول العربية عن مخطوطة المتحف البريطاني ، رقم ٤٣ تاريخ.

(٥) ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) : تاريخ دمشق أو التاريخ الكبير ، مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، تسعة عشر جزءاً تبدأ من رقم ٣٣٦٦– حتى ٣٣٨٤ .

(٦) أبو هلال العسكري: أوائل الأشياء . مخطوطة مصورة عن مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، دار الكتب ، ميكروفيلم رقم ٢٢٥

(٧) ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) : بغية الطلب في تاريخ حلب ، مخطوطة مصورة عن نسخة أحمد الثالث ، جامعة الدول العربية ، معهد المخطوطات رقم ٩٠ تاريخ

(٨) ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ و ٥٥٩ معارف عامة .

(٩) العيني (ت ٨٥٥ ﻫ) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ .

(١٠) المقريزي (ت ٨٤٥ ﻫ) : المقفى ، مخطوطة مصورة بجامعة الدول العربية عن مخطوطة ليدن ، رقم ١٢٤٦ تاريخ .

(١١) النويري (ت ٧٣٢ ﻫ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

* * *

ب ـ المصادر المطبوعة

(١) ابن الاثير (ت ٦٣٠ ﻫ) : الكامل في التاريخ ، تحقيق النجار ، دار الطباعة المنيرية ١٣٥٧ ﻫ ، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٥٧

(٢) ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٧٣ﻫ) : المغرب في حلى المغرب ، نشر زكي محمد حسن ، وشوقي ضيف ، وسيدة كاشف . الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م .

(٣) ابن أبي أصبعة (ت ٦٦٧ ﻫ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥

(٤) ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ﻫ) : جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف ١٩٦٢ م

(٥) أبو زكريا الأزدي (ت ٣٣٤ ﻫ) : تاريخ الموصل،تحقيق د . علي حبيب، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة أحياء التراث الاسلامي ١٩٦٧ م

(٦) الاصطخري (ت ٣٤٠ ﻫ) : صور الأقاليم ، طبعة ايدن ١٩٦٧

(٧) ابن إياس (ت ٩٣٠ ﻫ) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزءان ، طبعة بولاق ١٣١٢

(٨) الأنصاري الجزيري (ت في القرن العاشر) : درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية في القاهرة ١٣٨٤

(٩) الأنطاكي (ت ٤٥٨ ﻫ) : صلة كتاب اوتيخا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، من سلسلة Patrologia orientlis ، طبعة باريس ١٩٣٢

(١٠) الأصفهاني (ت ٣٥٦ ﻫ) : الأغاني ، عشرون جزءاً ، طبعة بولاق

(١١) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٣٥٣ ﻫ

(١٢) البحتري (ت ٢٨٤ ﻫ) : ديوان البحتري ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٣٠٠ ﻫ

(١٣) البلوي : (ت في القرن الرابع الهجري) : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي ١٣٥٨ ﻫ

(١٤) ابن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ ﻫ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الطبعة الأولى ، دار الكتب سنة ١٣٥١ ﻫ

(١٥) عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، دمشق ١٣٣١

(١٦) البلاذري (ت ٢٧٩ ﻫ) : أنساب الأشراف ، طبعة بيت المقدس ١٩٣٦

(١٧) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة بريل ١٨٦٦

(١٨) الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ ﻫ) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٩ ﻫ

(١٩) ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٨ ﻫ) : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، البابي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٩٥٤ م

(٢٠) البغدادي (ت ٤٢٩ ﻫ) : الفرق بين الفرق ، مطبعة مصر ١٣٢٨ ﻫ

(٢١) البكري (ت ٤٨٧ ﻫ): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٤ أجزاء، تحقيق السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢٢) ابن الساعي البغدادي (ت ٦٧٤ ﻫ) : أخبار الخلفاء أو مختصر أخبار الخلفاء ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٩ ﻫ

(٢٣) سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ ﻫ) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ويليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ، طبعة بيروت ، الآباء اليسوعيين ١٩٠٩ ﻫ

(٢٤) ابن بطوطة (ت ٧٧٩ ﻫ): تحفة النظار وعجائب الأسفار ، الطبعة الأولى ، المطبعة الخيرية ١٣٢٢ ﻫ

(٢٥) التنوخي (ت ٣٨٤ ﻫ) : جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تصحيح مرجليوث ، مطبعة أمين هندية مصر ١٩٢١ م

(٢٦) التنوخي: المستجاد من فعلات الأجواد ، تحقيق ونشر كرد علي ، مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٦ م

(٢٧) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ان ، مطبعة الهلال بالفجالة مصر ١٩٠٤

(٢٨) الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) : يتيمة الدهر ، مطبعة الصاوي ، الطبعة الأولى ١٣٥٢

(٢٩) الثعالبي : لطائف المعارف ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، وحسن كامل الصيرفي ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه ، سنة ١٩٦٠

(٣٠) ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : أخبار الحمقى والمغفلين ، طبعة دمشق ١٣٤٥

(٣١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ١٠ أجزاء ، الأجزاء الأربعة الأولى مفقودة ، طبعة حيدر أباد ١٣٥٩ هـ .

(٣٢) ابن الجوزي: الأذكياء ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٠٤

(٣٣) ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين ، نشر القدسي ، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧

(٣٤) ابن الجوزي: نقد العلم والعلماء أو تلبيس ابليس ، نشره محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ

(٣٥) قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ) : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة ليدن ١٨٨٩ .

(٣٦) الجهشياري (ت ٣٣١ هـ) : كتاب الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، وابراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥٧ هـ

(٣٧) الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : البيان والتبيين وأهم الرسائل ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ م .

(٣٨) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي ، الطبعة الأولى ، المطبعة الاميرية القاهرة ١٣٣٢

(٣٩) الجاحظ : فضائل الاتراك وما اختصوا به من الشجاعة وعاو الهمة وحسن البلاء في في خدمة الاسلام ، المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨

(٤٠) الجاحظ : المحاسن والأضداد ، الطبعة الأولى ، طبعة الفتوح الأدبية بمصر ١٣٢٢ هـ

(٤١) ابن الجيعان (ت ٨٨٥ ه) التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، طبعة القاهرة سنة ١٨٦٨

(٤٢) ابن جبير (ت ٦١٤ ه) : رحلته ، تحقيق د . حسين نصار ، دار مصر للطباعة ١٩٥٥ م

(٤٣) ابن حوقل (ت ٣٨٠ ه) : صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨

(٤٤) ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ ه) : معجم الأدباء،نشر مرغليوت ، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦

(٤٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٤ه ، وطبعة لايبزغ ١٨٦٧ م

(٤٦) مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧ أو ٩٢٨ ه) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جزءان ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٨٨

(٤٧) ابن حزم (ت ٤٥٦ ه) : الفصل في الملل والنحل ، المطبعة الأدبية بالقاهرة، ١٣١٧ ه

(٤٨) ابن خلدون (ت ٨٠٨ ه) : مقدمة ابن خلدون ، منشورات الأعلمي بيروت ١٩٧١

(٤٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ ه

(٥٠) ابن خلكان (ت ٦٨١ ه) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، النهضة العربية مصر ١٩٤٨ م .

(٥١) ابن خرداذبة (ت سنة ٣٠٠ تقريباً) : المسالك والممالك ، ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ١٨٨٩ م .

(٥٢) ناصر خسرو (ت ٤٧٦ ه) : سفر نامة ، ترجمة الخشاب ، الطبعة الأولى، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ .

(٥٣) ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ ه) : المعارف ، المطبعة الاسلامية الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٣٤ ه

(٥٤) ابن قتيبة الدينوري : عيون الأخبار ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، طبعة ١٩٦٣ .

(٥٥) ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة ، مطبعة النيل ١٩٠٤ م

(٥٦) أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ) : الأخبار الطوال ، ليدن ١٨٨٨

(٥٧) الدواداري (ت في القرن الثامن بعد سنه ٧٣٦ هـ) : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق المنجد وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ، طبعة القاهرة ١٩٦١

(٥٨) الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) : دول الاسلام ، طبعة حيدر آباد ١٣٦٥ هـ .

(٥٩) ظهير الدين الروزراوري (ت ٤٨٨ هـ) : ذيل تجارب الأمم ، القاهرة ١٩١٤ م

(٦٠) ابن رستة (ت بعد ٢٩٠ هـ) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١

(٦١) الربعي (ت ٤٤٤ هـ) : فضائل الشام ودمشق ، تحقيق المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٠

(٦٢) ابن الراهب (ت ٦٨١ هـ) : تاريخ ابن الراهب : نشر لويس شيخو ، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٠٣ م .

(٦٣) المرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) : تاج العروس ، المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ

(٦٤) السيوطي (ت ٩١١ هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ

(٦٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين المطبعة اليمنية بمصر ١٣٠٥ هـ

(٦٦) عريب بن سعد (ت ٣٦٦ هـ) : صلة تاريخ الطبري ، ليدن ١٨٩٧

(٦٧) ثابت بن سنان وابن العديم : تاريخ أخبار القرامطة ، وترجمة الحسن الأعصم القرمطي ، تحقيق سهيل زكار ، طبعة دار الأمانة بيروت ١٩٧١

(٦٨) ابن الشحنة أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة زين الدين الحلبي الحنفي (ت ٨١٥ هـ) : روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر على هامش تاريخ المسعودي مروج الذهب الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٣ هـ

(٦٩) ابن الشحنة : محب الدين أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي (ت ٨٩٠هـ): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩

(٧٠) الشابشتي (ت ٣٨٨ هـ) : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١ م .

(٧١) الشهرستاني (ت ٥٤٨ ﻫ) : الملل والنحل ، على هامش ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣١٧ ﻫ

(٧٢) الصفدي (ت ٧٦٤ ﻫ) : أمراء دمشق في الاسلام ، تحقيق المنجد ، طبعة دمشق ١٩٥٥ م

(٧٣) الصولي (ت ٣٣٥ ﻫ) : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، من كتاب الاوراق ، طبعة الصاوي ١٩٣٥

(٧٤) الطبري (ت ٣١٠ ﻫ) : تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ م .

(٧٥) ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ ﻫ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، مطبعة الموسوعات بباب الشعرية ١٣١٧ ﻫ .

(٧٦) ابن طيفور (ت ٢٨٠ ﻫ) : كتاب بغداد ، طبعة ليبزغ ١٩٠٨

(٧٧) ابن طولون (ت ٩٥٣ ﻫ) : قضاة دمشق ، تحقيق المنجد ، دمشق ١٩٥٦

(٧٨) ابن العديم : (ت٦٦٠ ﻫ) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق الدهان، طبعة المعهد الفرنسي ١٩٥١

(٧٩) ابن عساكر (ت ٥٧١ ﻫ) : خطط دمشق ، المجلدة الأولى والثانية ، تحقيق المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١ ، ١٩٥٤

(٨٠) ابن العبري (ت ٦٨٤ أو ٦٨٥ ﻫ) : تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٠ م .

(٨١) العمري (ت ٧٤٩ ﻫ) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الجزء الأول ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

(٨٢) ابن عبد ربه (ت ٣٤٩ ﻫ) : العقد الفريد ، طبعة الوقائع المصرية ، سنة ١٢٩٣ م

(٨٣) أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ ﻫ) : كتاب أوائل الأشياء ، المكتبه المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير في صنعاء.

(٨٤) ابن العميد (ت ٦٧٢ ﻫ) : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٠٣٤ ﻫ

(٨٥) أبو الفداء (ت ٧٣٢ ﻫ) : تاريخ أبي الفداء أو تاريخ الملك المؤيد ٤ أجزاء في مجلدين ، مطبعة القسطنطينية ١٢٨٦ ﻫ .

(٨٦) أبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧ هـ) : ديوان أبي فراس الحمداني ، نشر وتحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٤ م

(٨٧) ابن الفقيه (ت ٢٩٠ هـ) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٩٦٧ م

(٨٨) الفاسي (ت ٨٣٢ هـ) : المقنع في أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء، طبعة قازان روسيا سنة ١٨٢٢ .

(٨٩) القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق الأبياري ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ م

(٩٠) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة١٣٣٥هـ

(٩١) القرماني (ت ١٠١٩ هـ) : أخبار الدول وآثار الأول ، طبعة بغداد

(٩٢) ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ): كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تصحيح عباس العزاوي ، مطبعة المعارف بغداد ١٣٦٥ هـ

(٩٣) الكندي (ت ٣٥٠ هـ) : الولاة والقضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨

(٩٤) ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة في مصر .

(٩٥) المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ

(٩٦) المسعودي : التنبيه والاشراف ، دار الصاوي للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٣٨

(٩٧) مسكويه (ت ٤٢١ هـ) : تجارب الأمم ، مطبعة التمدن الصناعية ، مصر ١٩١٤

(٩٨) أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) : ديوان شعره ، مطبعة مصطفى محمد ١٩٣٠ م

(٩٩) المقدسي ، مطهر بن طاهر (من علماء القرن الرابع الهجري) : البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى بغداد ، طبعة مدينة شالون ، مطبعة برطوند سنة ١٩١٩ .

(١٠٠) المقدسي : شمس الدين البشاري (ت ٣٨٧ هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٠٦

(١٠١) المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، المطبعة الابراهيمية بالقاهرة ، طبعة ١٩٣٧ م .

(١٠٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشر الشيال ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٤٨ ، وطبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٦٧

(١٠٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، طبعة الدكتور زيادة، الجزء الأول ، القسم الأول ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤

(١٠٤) المقريزي : النقود الاسلامية ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٢٩٨

(١٠٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة النيل، مصر ١٣٢٤ .

(١٠٦) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة ، والشيال ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م

(١٠٧) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم ، ويليه مجلد من تجارب الأمم لمسكويه ، الجزء الثالث ، مطبعة بريل ١٨٧١ ، والجزء الرابع ، القسم الأول ، طبعة دمشق ١٩٧٢ ، والقسم الثاني ، طبعة دمشق ١٩٧٣ .

(١٠٨) الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) : الاحكام السلطانية ، طبعة مصر ١٢٩٨

(١٠٩) أبو مخنف : مقتل الحسين عليه السلام ، نشر الشيرازي ، طبعة ١٣٦١

(١١٠) ابن نباتة الخطيب (ت ٣٧٤ هـ) : ديوان خطب ابن نباتة ، بيروت ١٣١١

(١١١) النويري (ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الأرب في فنون العرب ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م

(١١٢) ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي الفاطمي (نقلا عن النيسابوري: استتار الإمام وعن اليماني سيرة جعفر) مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية المجلد الرابع، الجزء الثاني ، مايو ١٩٣٦

(١١٣) ابن النديم (ت ٣٧٧ هـ): الفهرست : المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨

(١١٤) هلال الصابيء (ت ٤٤٨ هـ) : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، مطبعة بغداد ١٩٤٨

(١١٥) الهمذاني (ت ٥٢١ هـ) : تكملة تاريخ الطبري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦١

(١١٦) ابن الوردي (ت ٧٥٠ ﻫ) : تاريخ ابن الوردي ، جزءان ، طبعة المطبعة الوهبية ١٢٨٥ ﻫ .

(١١٧) اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢ﻫ): تاريخ اليعقوبي ، مطبعة الغري ، النجف سنة ١٣٥٨

(١١٨) اليعقوبي: البلدان، مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة ، طبعة ليدن ١٨٩١

(١١٩) أبو يوسف (ت ١٩٢ ﻫ) : كتاب الخراج ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٢

* * *

المراجع العربيـــة

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، طبعة القاهرة ١٩٤٥ م .

(٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٦

(٤) أحمد أمين : فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة ١٩٦٥

(٥) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة . ١٩٦٠

(٦) مصطفى طه بدر : مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٤

(٧) الباز العريني : الشرق الأوسط والحرب الصليبية ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣

(٨) الباز العريني : الدولة البيزنطية : طبعة دار النهضة ١٩٦٠

(٩) الباز العريني : أجناد الروم ، طبعة القاهرة ١٩٥٦

(١٠) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ، تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالاسلام ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٠

(١١) ميخائيل موسى ألوف البعلبكي : تاريخ بعلبك ، المطبعة الأدبية بيروت ١٩٢٦

(١٢) أمينة بيطار : موقف القبائل العربية في الشام من الدولة الفاطمية حتى أواخر القرن الخامس الهجري ، رسالة ماجستير لم تطبع

(١٣) عارف تامر : القرامطة ، أصلهم،نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ، طبعة دار الكاتب العربي بيروت

(١٤) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، الامبراطور يوحنا تزيمكس وسياسته الشرقية طبعة ١٩٦٦ .

(١٥) عمر كمال توفيق :تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، طبعة دار المعارف ١٩٦٧ .

(١٦) عمر كمال توفيق :الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٩ م .

(١٧) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشي ، طبع ونشر دار الفكر العربي ١٩٤٩ .

(١٨) بيتشوف الجرماني :تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ، طبعة بيروت ١٨٨٠ .

(١٩) ابراهيم جلال : المعز لدين الله ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤ .

(٢٠) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ، تاريخ التطور العقائدي والتشريعي في الدين الإسلامي ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ، وعلي حسن عبد القادر ، وعبد العزيز عبد الحق ، الطبعة الثانية ، مطابع دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٩ م .

(٢١) فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ م.

(٢٢) فيليب حتّي : لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور حتّى أيامنا ، ترجمة أنيس فريحة ، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، نيويورك – بيروت ١٩٥٩ .

(٢٣) فيليب حتي:تاريخ العرب ، ٣ أجزاء ، طبعة دار الكشاف للنشر ، القاهرة طبعة أولى ١٩٤٨ .

(٢٤) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، طبعة أولى ١٩٤٨

(٢٥) حسن أبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ .

(٢٦) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الاسماعيلية ، ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، طبعة الشبشكي بالأزهر ١٩٤٧ .

(٢٧) حسن ابراهيم حسن:تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .

(٢٨) حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله الفاطمي ، طبعة الأزهر ١٩٤٧ .

(٢٩) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ١٩٤٧ .

(٣٠) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار ، الجزء الثامن عنوانه،« العروبة الصريحة في الاسلام تحت راية الخلفاء الأمويين»، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٣

(٣١) يوسف الياس الدبس : تاريخ سورية ، مطبعة بيروت العمومية ١٩٠٠

(٣٢) ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمه أحمد محمد عيسى ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤

(٣٣) عبد الأمير عبد حسين دكسن : الخلافة الأموية (٦٥ — ٨٦ ﻫ / ٦٨٤ — ٧٠٥ م) دراسة سياسية ،الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٣ .

(٣٤) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، طبعة مطبعة السعادة ١٣٣٠ ﻫ

(٣٥) أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، مطبعة دار الكتب المصرية ، طبعة ١٣٤٦ .

(٣٦) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩

(٣٧) ثابت اسماعيل الراوي : العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، دار الارشاد ، بغداد ١٩٦٥

(٣٨) أسدرستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٥٦

(٣٩) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م

(٤٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، مطبعة الهلال ، طبعة رابعة ١٩٢٦

(٤١) وصفي زكريا : عشائر الشام ، جزءان ، طبعة دمشق ١٩٤٥

(٤٢) الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (١٤ جزءاً) مطبعة كوستاتسوماس وشركاه ١٩٥٥ م

(٤٣) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرن الأول والثاني الهجري، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧١ .

(٤٤) عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، مطابع رمسيس الاسكندرية طبعة ١٩٦٧ .

(٤٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

(٤٦) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٦٠

(٤٧) محمدجمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر وسياستها الداخلية ،ومظاهر الحضارة في عهدها ، طبعة دار الفكر ١٩٦٥ – ١٩٦٦

(٤٨) محمد جمال الدين سرور سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكرالعربي١٩٦٧

(٤٩) فيصل جريء السامر : الدولة الحمدانية ، رسالة دكتوراة

(٥٠) عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٥

(٥١) مصطفى الشكعة : الشعر في ظل بني حمدان ، رسالة دكتوراه .

(٥٢) أحمد زكي صفوت : عمر بن عبد العزيز ، من سلسلة اقرأ ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٣ .

(٥٣) محمد راغب الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ، الطبعة الاولى حلب ١٣٤٣ ه

(٥٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحرب الصليبية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ م

(٥٥)سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية١٩٦٣ .

(٥٦) نبيه عاقل : محاضرات عن تاريخ بني أمية دمشق ١٩٦٦ – ١٩٦٧

(٥٧) نبيه عاقل : خلافةبني أمية ، سلسلة تاريخ العرب والاسلام ، طبعة دمشق١٩٧٢ .

(٥٨) فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الأولى ، طبعة دار الارشاد بيروت ١٩٧٠

(٥٩) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ، دار الأيتام الاسلامية الصناعية بالقدس ١٩٤٧

(٦٠) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ٣ أجزاء ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ .

(٦١) ابراهيم أحمد العدوي : الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، نهضة مصر ١٩٥٧

(٦٢)ابراهيم أحمد العدوي الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥١

(٦٣) ابراهيم أحمد العدوي الامويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٩٦٣

(٦٤) محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠

(٦٥) أحمد محمد عدوان : علاقات الدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة، رسالة ماجستير لم تطبع

(٦٦) عصام عبد الرؤوف الفقي : الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مدينة دمشق من الفتح العربي إلى نهاية العهد الأموي ، رسالة ماجستير

(٦٧) حورية عبده سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي ، حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة ماجستير لم تطبع .

(٦٨) فان فلوتن: السيادة العربية في عهد بني أمية والشيعة والاسرائيليات ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ١٩٣٤

(٦٩) فازيليف : العرب والروم ، ترجمة شعيرة وفؤاد حسنين علي ، طبع ونشر دار الفكر العربي ، القاهرة

(٧٠) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦ ه رسالة دكتوراه لم تطبع .

(٧١) محمد كرد علي : خطط الشام ، طبعة دمشق ١٩٢٥

(٧٢) محمد كرد علي : الإدارة الاسلامية في عز العرب ، مطبعة مصر ١٩٣٤

(٧٣) محمد كردعلي : الاسلام والحضارة العربية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، طبعة ١٩٣٦

(٧٤) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء ، طبعة دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨

(٧٥) سيدة اسماعيل كاشف : أحمد بن طولون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنه ١٩٦٥

(٧٦)سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عهد الاخشيديين ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٥٠

(٧٧) سامي الكيالي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩

(٧٨) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة بغداد ١٩٤٥ م .

(٧٩) شاكر مصطفى : في التاريخ العباسي ، الجزء الأول ، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٧ م

(٨٠) عواد مجيد الأعظمي : تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي، المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد الثالث سنة ١٩٧٤ م

(٨١) مجله المجمع العربي بدمشق من العدد ١ حتى ٢٠

(٨٢) صلاح الدين المنجد : قطعة من كتاب مفقود المسالك والممالك للمهلبي المتوفى سنه ٣٨٠ هـ (مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٤ ، سنة ١٩٥٨) .

(٨٣) محمد جواد مغنية : الشيعة والحاكمون ، منشورات المكتبة الأهلية بيروت.

(٨٤) صلاح الدين المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين ، طبعة دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٧

(٨٥)صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، طبعةدار الحياةسنة ١٩٥٧ م.

(٨٦) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧م

(٨٧) خاشع المعاضيدي : دولة بني عقيل في الموصل من سنة ٣٨٠ — ٤٨٩ هـ مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٦٨ م

(٨٨) حسن محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ١٩٦٦

(٨٩) حسن محمود: حضارة مصر الاسلامية، العصر الطولوني ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠

(٩٠) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الأمويين، طبعة الانجلو المصرية ١٩٥٧

(٩١)عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف بمصر

(٩٢) عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، مطابع دار الصحافة بيروت .

(٩٣) هيوارث : مادة الاسماعيلية ، دائرة المعارف الاسلامية .

(٩٤) حسن خطاب الوكيل : عبرة من التاريخ في أيام الرشيد ، طبعة المطبعة. الجمالية بمصر ، الطبعة الأولى ١٩١٤

(٩٥) جورج يني : تاريخ سورية طبعة بيروت ، المطبعة الأدبية ١٨٨١

د ـ المراجع الاجنبية

1 - Canard : Histoire de la Daynastie des Hamda-nides de Jazira et de Syrie ., Aleger 1951

2 - Les expédetions des Arabes Contre Constantinople dans I'Histoire et dans la légende ., 1926 .

3 - Sayf Al Dawla . Recueil de textes relatifs à I'émir Sayf Al Dawla le Hamdanide ., Alger 1934 .

4 - Une Lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid ., Aleger 1936 .

5 - Claude Cahen : Ies Syrie du nord ., à I'epoqu de Croisades . et la principauté Franque D'Antioche ., Paris 1940 .

6 - Combridge Mediaeval History ., vol. IV .

7 - Juwayni : Ta'rikh — i — Jahn — Gushay. , Being a facsmile of a Manuscript dated A. H. 690 with an introduction by Sir Denison Ross . , vol III ., Iondon 1931 .

8 - Le Strange : Palestine Under The Moslems. , London . 1890 .

9 - Bagdad during the Abbassid Calip – hate ., London 1924 .

10 - Lane Poole : Catalogue of the Callection of Arabic– Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo ., London 1897 .

11 - The History of Egypt in The Middle Ages . , London . 1901 .

12 - The Story of Cairo ., London 1924 .

13 - Marmardji : Textes Geographique sur Palestine., Paris 1951 .

14 - Muir : The Caliphate ., Its Rise Decline and Fall ., Beirut 1963 .

15 - Sauvaget : Les Perles choisies D'Ebn Ach-chihna., Tome. I., Beyrouth. 1933 .

16 - Scanlon (G) : Leadership in Qarmatian sect (in Bulletin De I'institut Francais D'A– rchéologie Orientale ., Tome Lix., 1960) .

17 - Wiet : L'Egypte Arabe., Paris .

18 - Zaky. M. Hassan : Les Tulunides. Etude de L'Egypte Musulmane à la fin du Ix^{e} Sie'cle., Paris 1933 .

هـ ــ الدوريات العربية والاوربية

١ ــ دائرة المعارف الاسلامية .

٢ ــ المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار .

٣ ــ مجلة المجمع العربي بدمشق .

٤ ــ مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية .

٥ ــ مجلة معهد المخطوطات العربية .

6 - Bulletin De L'institut Francais D'Archéologie Orientale., Tome Lix ., 1960 .

7 - Combridge Mediaeval History .

8 - Encyclopedia of Islam .

الفهرس

١٩٨٠ — ٧ — ٢٥٠٠

الدكتورة أمينة بيطار

الحياة السياسية ★ وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ١٣٢-٣٥٨ هـ / ٧٥٠-٩٦٨ م ★

هذا الكتاب لوحة كاملة تعطيك بأسلوب علمي موجز وفي الوقت ذاته هي صورة كاملة عن الحياة السياسية وعن مظاهر الحضارة في بلاد الشام منذ قيام الدولة العباسية وحتى الفتح الفاطمي ، أي خلال مرحلة ممتدة على قرنين ونيف كانت فيه بلاد الشام قد ردت بعد زوال دولة بني أمية الى المرتبة الثانية،فكثرت فيها الاضطرابات والثورات والحروب لاسباب عديدة في طليعتها الصراعات بين الفرق السياسية، وكثرة الطامعين بالسلطة وما تجره من مغانم ، وتوافد اللاجئين السياسيين وتدهور الحياة الاقتصادية الخ ..

الا أن بلاد الشام كانت من وجهة اخرى فسحة نشاط ديني وثقافي وعمراني ، فمن المعروف أن القرن الرابع للهجرة (والفتح الفاطمي تم في أواسطه) هو قمة من قمم الثقافة والعلم لا في التاريخ العربي وحسب بل في تاريخ الحضارة العالمية أيضا .

ولا شك أن الدكتورة أمينة البيطار، مدرسة تاريخ الاسلام في جامعة دمشق قد بذلت جهدا كبيرا في الكشف العلمي عن فترة مجهولة نسبيا من تاريخنا فالكتاب سيكون مرجعا من مراجع التاريخ العربي لا للطلاب والاساتذة وحسب بل لكل عربي يرغب في معرفة تاريخ بلاده اذ انه غني بتوثيقه دقيق في معلوماته ، متماسك في منطقه وفي الوقت ذاته بسيط في أسلوبه .

مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨٠

سعر النسخة

٢٢٠٠ ق.س.ل